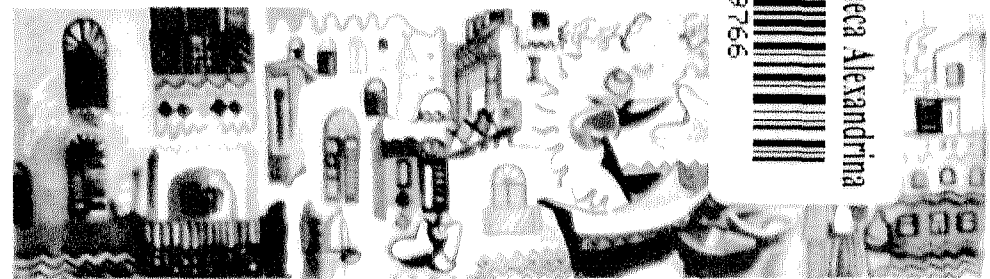
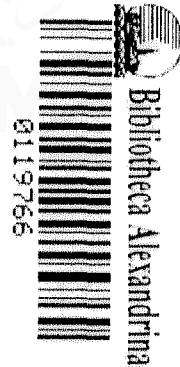


عبد القادر عياش

حضارة وادي الفرات

مدن فراتية
القسم السوري



اعداد وليد مشوح





حضارة وادي الفرات

* حضارة وادي الفرات (القسم السوري)

«مدن فراتية»

* عبد القادر عياش

* اعداد : وليد مشوح

* الطبعة الأولى - ١٠ / ١٩٨٩

* جميع الحقوق محفوظة للناسر

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - هاتف ٤٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تليكس ٤١٢٤١٦

DZODZ.COM

عبد القادر عياش

حضارة وادي الفرات

القسم السوري

«مدن فراتية»

DZODZ.COM

اعداد: وليد مشوح

تصدير

لقد وضع الاستاذان فاروق وغازي ، ولدا المرحوم عبد القادر عيَّاش بين يدي مؤلفات والدهما . كان التساؤل يدور بخلدي : هو جهد يوضع على عاتق مجموعة من أبناء الفرات ، بعضهم يختص بالأدب ، والبعض بالتاريخ ، وثالث بالجغرافيا ، ورابع بالآثار ، وخامس بالاجتماع وهكذا حيث يمثلون توجهات الموروث الذي تركه المرحوم المحامي عبد القادر عيَّاش عن وادي الفرات . . . ولم يوضع على عاتق فرد واحد!!!! . . . انها البداية

لذا ترددت توجساً لا نكوصاً فللرجل الراحل أفضال على المنطقة لذا ترم نعرضها ، يكفيه حفظ ديناميتها الاجتماعية ، والتأريخ لها وذا يكفي فخراً ، لأن العمل فردي اعتمد على مقدرته الذاتية والمعنوية والمادية ، حتى أن البعض نعى عليه ذلك ، وقذفه بها ليس به .

وقبل أن أتحدث عن خطوات عملي في إعداد الكتاب وتقديمه الى القارئ ، لابد من التنويه الى أن كل الأوراق والمقاطع التي قمت بتنسيقها ، لأجعل الكتاب مقتصراً على الموضوعة التي بين يديكم الآن : تلك الأوراق

ستكون أمانة تقدمها كما جاءت الى المكتبة الوطنية لحفظها وثيقة سيكون لها شأنها ربما في زمن غير زمننا هذا، واضطررنا الاقتصار على المدن الفراتية بانتظار- استكمال الموضوعات الأخرى من عادات وتقاليد وأمثال ووصف للعبادات، وتفاصيل أخرى هي في صلب كينونة المجتمع الفراتي عبر تاريخه الطويل العريق . أما منهجي في اعداد الكتاب فقد اتفقت مع ولدي على أن نتعجل بإصدار أثر من آثار، على أن تلي الآثار الأخرى في فسحة أفضل من الطرف الآن، ووافقاً واعين كل ما يحيط بموضوعة الطباعة فشرعت انتقي المدن مدينة مدينة واطرك ما كتبه الراحل الكبير بأمانة، والغني من النص كل ما تأخر عن الزمن من معلومة احصائية، زراعية أورعوية، أو عمرانية، فبعضها يستند على احصاءات عام ١٩٥٢ وبنصها (وهذا الأحدث) على احصاءات عام ١٩٧٢ . لذا ودفعاً لكل لبس، رفعت هذه المعلومات، وسأتركها في حوزة الورثة أولدى مكتبة الأسد للامانة والتاريخ .

اننا نضع بعضاً يسيراً من تراث المرحوم عبد القادر عياش بين يدي القارئ، وهي معلومات قيمة تحتاجها مكتبتنا العربية وبحاجة القارئ العادي اكثر من الباحث المختص، لأن خصوصيتها تكمن اصلاً في عفويتها، وأسأل الله الرحمة للراحل الكبير عبد القادر عياش . . والله ولي التوفيق .

وليد مشوح

تقديم

ولد الأستاذ عبد القادر عياش في دير الزور عام ١٩١١ وتوفي فيها في عام ١٩٧٤ وقد تنقل في دراسته بين دير الزور وبيروت وحمص ودمشق، مبعداً مع أهله عن دير الزور لأن السلطة الفرنسية كانت قد نفت أسرته عن هذه المدينة لنشاط والده وأخوته في مناهضة تلك السلطة ووجودها الاستعماري وفي عام ١٩٣٥ تخرج من جامعة دمشق حاملاً اجازة الحقوق، وتولى عدداً من المناصب القضائية والادارية قبل أن يستقيل من الوظيفة ليعمل محامياً، ولينصرف الى جانب عمله القانوني الى الكتابة والتأليف في كل ما يهم دير الزور، مدينته، ووادي الفرات الذي ينتسب إليه، ناشراً كتاباته في الصحف السيارة وبصورة خاصة في مجلة انشأها وراح يحررها بنفسه وينفق عليها من حر ماله ويوزعها على المهتمين بمواضيعها دون مقابل ومجلته هذه هي : «صوت الفرات» .

وقد ترك لنا الاستاذ عياش رحمه الله من هذه الكتابات ذخيرة كبيرة يمكن اعتبارها موسوعة تبحث في تاريخ وادي الفرات وجغرافيته وحضارته من مختلف

جوانبها وفي مختلف أسوارها . وعدا عن الصفة الموسوعية لهذه الكتابات فإنها تتميز بكونها عملاً منفرداً سد ثغرة في معارفنا عن وادي الفرات لم يتعرض أحد قبله الى سدها ، كما أن أحداً لم يتقدم الى اكمال سدها بعده مع الأسف . ويزيد من قيمة هذا العمل كونه ثمرة جهد فرد واحد لم يسنده فيه معين لا في البحث العلمي ولا في التكاليف المادية . بل ان صاحب هذا العمل كثيراً ما افتقد التقدير لجهده ممن كان يرجى منهم العون فيه والمعاونة له .

وقد اعترف الاستاذ عياش فيما كتبه في حياته بأن ابحاثه ، التي كانت معدة للنشر في مجلة دورية تصطبغ في بعضها بصيغة الاستعجال واعتذر لذلك بعذر مفهوم ومقبول . فهو يذكر مثلاً في مقدمة بحثه عن منطقة البوكمال «اعد دراساتي هذه متسرعاً ، لأغطي في أقل وقت ، أكبر فراغ ممكن عن أحوال وادي الفرات ، كما لو كنت المسؤول الوحيد عن هذا الفراغ واختصرها ما أمكنني ، وأقلل عدد نسخ الدراسة الواحدة لأضغط نفقات طبعتها ، لأنها على عاتقي الذي ينوء بها ، حيث لا رواج لها . وبرغم ذلك اتابع اخراجها لأقدم الى الفرات خدمة ترضيني» .

على أن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الابحاث ولا يبرر تجاهلنا قيمتها . لا سيما حين نرى أن السنين تمر متتابعة . والتسهيلات للدراسة العلمية تتزايد ، والمؤهلين للابحاث كثيرون ونظّل نفتقد من يقوم بجزء ضئيل مما قام به عبد القادر عياش في التعريف بمنطقة مهمة ، تزداد اهميتها يوماً بعد يوم بالنسبة لقطرنا وللمحيط العربي بصورة عامة ، ونعني بها منطقة وادي الفرات .

د . عبد السلام المجيلي

كلمة

لكل ميدان من ميادين النشاط الانساني رواده الأوائل . واستاذنا الكبير المرحوم عبد القادر عياش كان وسيبقى الرائد الأول في ميدان التأريخ والكتابة عن وادينا العظيم ، وادي الفرات في القطر العربي السوري . فهو لم يترك ، طيلة حياته المعطاء ، جانباً من الجوانب التي تخص هذه الوادي وسكانه ومدنه وآثاره وحضارته ، إلا وخصص له جزءاً هاماً من كتاباته وأبحاثه الكثيرة التي انجزها بدافع حبه للبحث العلمي ولبلده ، ونشر كل ما من شأنه التعريف بهذا البلد وبسكانه وحضارته ، والرفع من شأنه وشأنهم . معينه في ذلك ثقافة واسعة ، وهمة عالية ، وروح متابعة لم ينلها في يوم من الأيام ملل أو كلال . لقد تجول في أطراف الوادي وقام بأبحاث ميدانية ، وعاش الأحداث ، وتحسس روح العادات والتقاليد والأمثال فيه ، مكرساً لذلك الكثير من جهده ووقته وماله . لذلك فانه عندما كتب ووصف فقد أحسن الكتابة والوصف . وعندما فسر واستنتج فقد أصاب وأفلح في التفسير

والاستنتاج، وتمكن من الاحاطة بالأسباب والدوافع ومن الكشف عما صعب على غيره الكشف عنه من بواطن الأمور.

لقد أصبحت كتابات وابحاث الاستاذ عبد القادر عياش عن وادي الفرات، تراثاً علمياً ومرجعاً أساسياً لكل دارس عربي أم أجنبي، تراثاً تجب المحافظة عليه، ومن ثم نشره بالكامل. وإذا كانت المديرية العامة للآثار في القطر قد أخذت على عاتقها إنجاز الخطوات الأولى التي من شأنها الحفاظ على هذا التراث. وإذا كانت بعض دور النشر الأجنبية قد بدأت بنشر وترجمة لقسم منه. فان عمل الأخ وليد مشوح، وهو أحد باحثينا الشباب من أصحاب الاختصاص في اللغة والأدب والصحافة والنشر، والذي قام فيه بمراجعة وتحقيق بعض ما كتبه الاستاذ عبد القادر عياش عن حضارة وادي الفرات والمدن فيه، يأتي اليوم مبشراً ببداية العمل على تحقيق ونشر هذا التراث بالشكل الذي يستحقه، ويسهل وصول الدارسين والباحثين إليه. ولا يسعني في نهاية هذه الصفحة التي أكرمني بها الأخ وليد مشوح من كتابه، لأسطر فيها هذه المقدمة القصيرة، معبراً عن بعض ما اكنه من احترام لاستاذنا المرحوم عبد القادر عياش، إلا أن أبدي خالص امتناني، وعظيم تقديري للعمل العلمي القيم الذي أقدم على انجازه بكل جرأة وثقة وموضوعية. راجياً أن لا يقف عنده. وأن يتبعه وبالتعاون مع رفاقه الشباب المختصين بأعمال جادة وناجحة أخرى، تؤدي في النهاية إلى تحقيق ونشر كامل التراث. والله ولي التوفيق.

دمشق ١٩٨٨/٩/١

● الدكتور محمود رمزي

مدخل حضارة وادي الفرات السوري

قلما تضاهي منطقة سورية أو عربية وادي الفرات السوري بكثرة آثاره وتعدد أصولها وتنوعها وأهميتها وشهرة بعضها شهرة عالمية، مغاور وكهوف من صنع انسان وادي الفرات قبل التاريخ، وتلال اصطناعية مجللة بحطام أوانٍ فخارية ملونة، وطرق قديمة مرصوفة بالحجارة، وآثار جذبت من نهر الفرات ونهر الخابور وسدود نهريه، وبقايا ركائز نواعير ومطاحن مائية وحمامات تقع على نهر الفرات مباشرة، وآبار قديمة في البادية الفراتية، ومدافن أرضية، وأبراج جنائزية، وزوايا، وصوامع منفردة على التلال، وأديرة، واطلال قلاع وحصون، وآثار مدن متعددة لها شهرة في التاريخ.

وفي بطون الكتب والمصورات القديمة أسماء مدن وقرى وقصور كانت على ضفاف الفرات وعلى ضفاف رافديه الخابور والبليخ، وفي سهول هذه الأنهر. وتراث أدبي ضخم هو نتاج أدباء وعلماء ولدوا ونشأوا في

مدن وادي الفرات السوري القديمة ، وفي قراه ، فنون من الأدب الشعبي موفورة بما فيها من الأساطير والمعتقدات ذات الصلة بحضارات وادي الفرات القديمة .

كانت لوادي الفرات حضارات قديمة مزدهرة ، ولا عجب ، فلقد بدأ التاريخ على ضفاف الانهار الكبيرة ومنها الفرات . وكانت لهذا السبب أهميته الكبرى . وما زال له أهمية كبرى لغزارة مياهه واتساع سهوله وخصوبة أرضه ، ولطول مجراه (٢٤٠٠ كم) من منبعه الى مصبه في الخليج العربي . (طول الفرات السوري ٦٨٠ كم) وتشكل مياهه ٩٠٪ من مجموع مياه سورية ، وله امكانية كبيرة للري والزراعة وإقامة السدود لتوليد الكهرباء وإنارة المدن والقرى وتشغيل المصانع .

يمر الفرات حالياً بأراضي سبع مناطق هي : منطقة جرابلس ، ومنطقة عين العرب ، ومنطقة منبج ومحافظة الرقة ومركز دير الزور ، ومنطقة الميادين ، ومنطقة أبو كمال ، وعليه مئات القرى والمزارع . كان لوادي الفرات شهرة مستفيضة في العصور القديمة . وتعود أهمية الفرات الى أنه كان طريقاً «مائية» سلكتها سفن شعوب كثيرة . وكانت ضفافه طريقاً برية هامة . وكانت الضفة الغربية بين مدينة الأنبار في العراق وبين حلب تعرف في العصر العباسي بطريق الفرات .

وعن طريق الفرات المائي والبري نشأت كثير من العلاقات بين شعوب الشرق الأدنى القديمة . وتأسست على ضفافه الموانئ النهرية التي كانت مراكز تجارية وقواعد عسكرية . وشيدت عليها القلاع منذ القديم لحماية طرقه ومدنه وقراه . وعرفت سهولة نظاماً محكماً للري في عهود السومريين والبابليين والفرس والرومان والعرب خربه التتر في القرن الثالث عشر الميلادي .

كانت أعمال الري المنظمة وخصوبة الارض التجارية، والوحدات السياسية الكبرى أساس ازدهار حضارات وادي الفرات القديمة.

ليس بين كل الوديان التي تضاهي وادي الفرات مساحة وغزارة مياه وخصوبة أرض، أو بين كل الشعوب التي تناهز شعب الفرات في الامة التاريخية والقومية، بلد أو شعب ناله من افعال الباحثين والكتاب والصحفيين في العصور الحديثة ما نال وادي الفرات وسكانه.

فهنا بوادي الفرات السوري مدن قديمة، ومدن قديمة حديثة أخذت دوراً عظيماً في التاريخ العربي ولكن ما نعرفه عنها ضئيل جداً، اذا قيس بما نجهله . . .

لقد ازدادت معرفتنا نسبياً بمجاهل المنطقة المتجمدة الشمالية أو الجنوبية، بينما لا تزال معلوماتنا عن المدن الفراتية ضئيلة جداً. ويرحل أساتذة تدريس مادة الجغرافية بجامعة دمشق وحلب الى أقطار أوروبا وآسيا وأميركا وافريقية ولكنهم يهملون زيارة وادي الفرات والتعرف على مدنه وسكانه وجغرافيته.

لقد أخرجت المدن الفراتية السورية في كل العصور أدباء وعلماء كباراً شاركوا في الحركة الفكرية والادبية في العصور العربية. وبالرغم من ذلك لم يهتم الكتاب العرب القدامى ولا المحدثون بتاريخ هذه المدن: الرحبة وقرقيسيا والرصافة والرقعة وجعبر وبالس وحران ومنبج وغيرها . . .

تطالعنا كتب التراجم والسير والطبقات والادب بالحراني والرقبي والبالي والرصافي والجعبري والمنبجي بثبت طويل من هذه الأسماء، لا يكاد ينقطع، قل أن اخرجت مدن أخرى مثل المدن الفراتية مقدار هذا العدد من الادباء والعلماء. وبسبب تميزهم، حفظ التاريخ الادبي نسبتهم

الى مواطنهم الفراتية . وليس بين الادباء والعلماء من هو أكثر لمعاناً «من هؤلاء الحمرانيين الذين تتابع ظهورهم في مختلف العصور الاسلامية نسبة» الى موطنهم حران ، احدى مدن بلاد مضر التي كانت الرقة حاضرتها . وحسبنا أن نعلم أن من بين من أخرجتهم حران العالم الفلكي الشهير البتاني وشيخ الاسلام العالم العامل ابن تيمية تقي الدين .

لم يكن بد لكثير من الشعراء العرب والادباء والفلاسفة والكتاب من أن يأتوا الى وادي الفرات السوري لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، فيلبثوا قليلاً «أو كثيراً» ويتنقلوا في أماكنه لتوسطه بين الشام والجزيرة والعراق ، لوجود امارات عربية في أطرافه ، ولوجود قبائل عربية في سيف الفرات وبواديه قبل الاسلام وبعده . كقبيلة تغلب وطي ونمير وسليم وكلاب وقي وايد وخزاعة ، نزحت اليه من موطنها في الجزيرة العربية . ولم تنقطع الصلة بين هذه القبائل في موطنها الاصلي وموطنها الجديد (وادي الفرات) والجزيرة الفراتية .

وقل من بين الشعراء العرب الاقدمين : حجازيين وعراقيين وشاميين جاهليين واسلاميين من لم يذكر أماكن وادي الفرات في شعره .

ومع ذلك لم ينل وادي الفرات ولم تحظ مدنه باهتمام الكتاب العرب . فلا يوجد فيه ولا في أي مدينة من مدنه كتاب أو بحث أو رسالة .

ان بحوث الكتاب العرب التاريخية الحديثة المطبوعة تكاد تدور كلها حول العواصم العربية القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب والقدس وبغداد .

وللقدامى العرب عذرهم ، اذا هم لم يتركوا لنا كتباً في تاريخ المدن الفراتية السورية ، لعدم توفر المصادر التاريخية لهم ، ولصعوبة المواصلات ولأن علم الآثار والحفريات لم تكن قد وجدت ، ولأسباب أخرى . على أن

بعضهم لم تفتحه فكرة وضع مصنف في تاريخ احدى المدن الفراتية ، فكتب في ناحية محدودة بايجاز ، وخاصة الجزريين وهم المنتسبون الى الجزيرة الفراتية بوادي الفرات السوري .

ولكننا لا نعلم ما هو عذر المحدثين العرب وقد توافرت لهم المصادر بوجود المخطوطات القديمة وكثرة المطبوعات بشتى اللغات وظهور الحفريات وانتشار البحوث الاثرية ، وتبني الأسباب من مواصلات ومكاتب ، إلا أن يكون هؤلاء الكتاب المؤرخون للمساسة والأدب وهم من غير أبناء الفرات لايعنيهم أمر تاريخ مدنه . في حين أن هذا التاريخ جزء من التاريخ العربي لم ينفصل عنه في عهد من العهود . ولا يفهم التاريخ العام فهماً صحيحاً الا يفهم جزئياته وتمثل دورها وطبيعتها .

ولم يتهياً لمدن وادي الفرات السوري في العصر الحالي انجاب مؤرخين يكتبون تاريخ مدنها لتأخر المنطقة ، وغلبة الامية عليها في العصور الأخيرة وحداثة عهدها بالتعليم الذي أخذ ينتشر مؤخراً . ان وضع بحوث في تاريخ المدن الفراتية لأول مرة - ضرورة قومية تتطلبها نهضتنا في بعثها الحالي ، لتجديد معرفة أبناء الاقطار العربية ببلادهم .

لقد كانت القاهرة تعرف جيداً قلعة الرحبة على الفرات في الشرق وقلعة جعبر على الفرات في الشمال - كانتا حصني وحدة الشام ومصر على الفرات لا لصدة التتر في القرن الثامن للهجرة . وكانت القاهرة تكلاهما بالعناية والاهتمام الشديد . ولقد جاء البطل والرجل العظيم الظاهر بيبرس الى الفرات مجاهدا التتر وانتصر عليهم ، فكبر الفرات وكبرت معه دمشق والقاهرة وجميع مدن الشام ومصر والحجاز .

إن تاريخ المدن الفراتية لما يبعث في النفس العربية نشوء الفخر

والاعتزاز. وأنه ليزكرنا بجهود شعب الفرات العربي في سبيل ابداع حضارات زاهية سجلها التاريخ. وبامكانياته وقابليته العظيمة. اننا أهل لابداع حضارة جديدة. حضارة نقيمها على أساس العلم والصناعة على ضفاف الفرات الذي شهد فيها مضي حضارتنا الزاهية. والتي ضاهت أرقى حضارات العالم القديم. الفرات لايفتأ يتطلع إلينا لاعادة الأعمال الحضارية الحديثة على ضفاف متمثلة في مدن عصرية وقرى حديثة وسدود عظيمة وطرق جديدة وخطوط حديدية ومصانع ومطارات. باشرنا بإرساء أساساتها وشرعت تخطو وتحقق.

عبد القادر عياش

دير الزور - سورية

DZODZ.COM

البوكمال

التاريخ القديم للمنطقة ماري (تل الحريري) عاصمة الفرات الأوسط

لم نعد نرجع أصول الفنون الى بلاد الاغريق، صرنا نعرف أن أصول الحضارة، تمتد الى أبعد من ذلك بكثير، الى سومر- أقدم كل هذه الأمم - لقد قامت الحضارة السومرية على دلتا شط العرب منذ خمسة آلاف سنة، من أهم الحضارات التي عرفها التاريخ. وكان الكشف عنها من أروع الأمور في علم الآثار سكن بلاد النهرين منذ فجر التاريخ، قبائل من أصول مختلفة، هاجرت الى الأقليم الخصيب الذي تكون من الأرساب الفيضي لنهري دجلة والفرات في الخليج العربي. كانت سومر أول القبائل المهاجرة الى المنطقة في أواخر الألف الرابع ق. م.

اختلف العلماء في الاصل الذي انحدر منه الشعب السومري ، الذي عرف بأنه شعب ذكي مبدع قيل أتوا من آسيا واستقروا في دلتا شط العرب ، ثم الساميون الاكاديون الذين وحدوا سومر وآكاد ، وعرفت باسم بابل ، حين تمكن العموريون من تدعيم وحدة البلاد تحت سلطة بابل في الالف الثاني ق. م . وهم ساميون قبائل ، هاجرت من شبه الجزيرة الى الجزء الشمالي الغربي لبلاد سومر وآكاد .

أخذ الشعب السومري يؤسس على شط العرب مدناً هي : أور ، واريديو ، وكيش ، ولارسا ، ولجش حوالي (٣٠٠٠) ق. م . واخذ يتقدم الى الشمال ، وانتقلت الحضارة السومرية على طول مجرى الفرات ودجلة . فكانت الاساس لحضارة (مايين النهرين) .

ولكي يأمن السومريون شرفيضان الفرات ودجلة . أجروا مياههما في قنوات ، تخترق البلاد طولاً وعرضاً ، فكان لهم نظام ري محكم يرجع عهده الى أربعة آلاف سنة ، وكان الأساس الذي قامت عليه حضارتهم .

أخرجت الحقول بفضل الري محاصيل وفيرة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضروات . ظهر عندهم المحراث تجره الثيران ، واستخدموا النحاس والقصدير ، وصنعوا منها البرونز . وعرفوا الحديد ، وصنعوا منه آلات . وكانت صناعة النسيج منتشرة . وكانت البيوت من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش . وكان لها أبواب من الخشب . وكانت البضائع تنقل بطريق الماء بمراكب . وكانت توجد صلات بين سومر ومصر والهند .

وقد وجدت ألواح طينية عليها كتابات سومرية هي وثائق تجارية ، دلت على حياة تجارية ناشطة .

كانت كل مدينة تحرص على استقلالها ولها ملك كاهن ، سمي العلماء هذه المدن : «حكومات المدن» كانت ماري احداها .

استطاعت شخصيات قوية ان تخضع المدن لسلطانها . وتنشئ

امبراطورية. كان الملك الأعظم، يعيش في قصر منيع، يحتوي على العديد من الغرف والردهات والفسحات، فيه هيكله ومكتبه ومكاتب كبار موظفيه ومكتبة.

كانت النزعة الانفصالية التي تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن. وباعثاً على النزاع من أجل السيطرة على طرق التجارة وتوسع حدود الدولة.

كان لكل مدينة مجموعة آلهة تمثل النشاط البشري. وكان السكان يقدمون اليها القرابين من مال وطعام في المعابد. وقد أثرى الكهنة من القرابين.

وكانت تلحق بالمعابد مدارس يعلم فيها الكهنة والذكور والانات.

كانت نساء الطبقات العليا يحيين حياة مرفهة، يستعملن الأصباغ والجواهر. وكان عندهم نظام للمجاري وتصريف الفضلات في الأحياء المأهولة. ولم يكن الأثاث يخلو من الفن. كانت بعض الأسرة تطعم بالعاج والمعادن. وكانت التماثيل تزين الهياكل. وبلغت صناعة الذهب مستوى رفيعاً.

ابتدع السومريون الخط المساري في الكتابة، وكتبوا على ألواح الطين حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م فكانت من أروع ما خلفوه، وأعظم ما لهم من فضل على الحضارة العالمية.

بدأ المؤرخون السومريون من عام الفين ق.م يكتبون تاريخهم وأساطيرهم ولم يحل عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ في المدن السومرية.

أخرجت سومر وأكاد حتى بعد انقراضها صناعات وفنانين وشعراء وحكماء وإداريين ومؤرخين.

إن عناصر معينة من الثقافة المصرية القديمة مستمدة من بلاد سومر وبابل. لقد استمدت ماري المستقلة حضارتها الراقية من الحضارة السومرية في عهد ملوك الفترة السومرية الأولى.

لقد دمرت الحروب المدن السومرية ومنها ماري ، واختفت آثارها في بطون التلال التي تقوم على شاطئ الفرات .

في تل الحريري المرتفع ١٤ م والذي يبعد عن البوكمال (١٦) كم الى الغرب الشمال بقرب قريتي السيل والغبرة في محافظة دير الزور، وعلى شمال الطريق المزدقة بين دير الزور والبوكمال ، تختفي ماري احدى العواصم القديمة الكبرى ، وعاشرة المدن العظمى ، التي قامت فيما بين النهرين . وعروسة الفرات الاوسط (السوري) في ذلك الحين وحاضرتة .

كانت ماري من المدن الضائعة . وبقي تل الحريري ينتظر في صبر منذ آلاف السنين من يكتشف كنزه ، الى ان جاء عام ١٩٣٣ ، حيث كان بعض السكان يحفرون في التل لاستخراج حجر يضعونه شاهداً على قبر . عثروا على تمثال ضخيم بدون رأس ، مع رأس مكسور . صور ضابط الاستعلامات الفرنسي التمثال والرأس . وأرسل الصورة الى متحف اللوفر بباريس ، الذي طلب من مديرية الآثار السورية منحه الامتياز للتنقيب في تل الحريري ، أجب طلبه ، فأوفدت بعد ١٥ يوماً العالم الآثاري الدكتور اندريه بارو على رأس بعثة . وابتدأ العمل في ١٥ كانون الأول عام ١٩٣٣ . وبعد ثلاثة أيام من العمل ، وجد تماثلاً بخالة سيئة ، يمثل إنساناً يحمل بين ذراعيه حملاً ، دون أن توجد عليه كتابة . اشعر باريس بذلك ، فأجابته بأن عليه أن يجد بأي ثمن أثراً عليه كتابة . وبعد شهراً اختار مكاناً آخر للحفر مستعيناً بعمال من المنطقة . وعند أول ضربة معول ، وجد العمال تماثيل صغيرة مهشمة . وبفضلها رأى وثائق تنتمي الى عام ٣٠٠٠ ق.م . وبعد أيام وجد على بعض هذه التماثيل كتابة معناها (ملك ماري) . وكتابة معناها الآلهة عشتار ، مع تسجيل صغير جداً قرأه ، فصار متأكداً من أن تل الحريري هو (ماري) . وانه يقف على معبد يخص الآلهة عشتار . ولديه تماثيل تنتمي الى ٣٠٠٠ ق.م .

ومنذ عام ١٩٣٣ قام بارو وبعثته بـ(٢٠) حملة حفريات . وهذه الحملة هي

العشرون . واصلت البعثة عملها حتى شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩ ، واضطرت للتوقف بسبب الحرب . قامت خلالها بخمسة مواسم اسفرت عن نتائج عظيمة . استأنفت البعثة عملها ابتداء من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢ ، واستمرت الى اليوم . سمحت الحفريات بأن نجد البعثة ليس فقط مدينة فوق العادة ولكن حضارة فوق العادة .

بنيت ماري باللبن ، لعدم وجود الأحجار . وبرغم ذلك يعتبر بناؤها أجمل الأبنية في التاريخ القديم ، نظراً لاحتفاظها بشكلها ولعظمتها وأهميتها . لقد وجدت البعثة قصراً ملكياً (بلاطاً) يعود الى (٢٠٠٠) سنة ق.م يحتوي على ٣٠٠ غرفة وردهة وساحة ، تغطي هكتاراً ونصف . وهو بناء واحد وكان يعد من أفخم القصور التي شيدت في بلاد ما بين النهرين ، لدرجة أن ملك أوغاريت أرسل خطاباً الى الملك الحوري «يارلمم» يطلب تعريفه بملك ماري الذي يملك قصراً فخماً ، زينت جدرانها بالمناظر الملونة ، وذلك لرغبته في تشييد قصر على نمطه .

ومن أحسن الآثار التي بقيت من قصر ماري مجموعة من التصاوير الجدارية الملونة على سطح أبيض ، وتصور مواضيع دينية وأساطير ومواضيع من الحياة اليومية ، يرى الملك ماثلاً أمام عشتاراله الحرب . وأشخاصاً يحملون أواني الماء المقدس وغيرها ، ووحدات من الحيوانات الخرافية ، وبعض الأشجار .

كما وجدت عدة معابد مملوءة بالتماثيل الموهوبة الى الآلهة . وتحت هذا القصر وجد قصر آخر أبعد تاريخاً ، يعود الى ٣٠٠٠ سنة ق.م مبني باللبن ومحتفظ بشكله .

إن أهمية ماري ليست بتماثيلها وبنائها فقط ، ولكن بوثائقها الملكية ، التي وجدت . وتتألف من (٢٥٠٠٠) لوحاً من الطين مليئة بالكتابة . وعرف العلماء أنها مراسلات ملكية بين آخر ملوك ماري الذي يسمى «زمرليم» مع جميع الملوك المجاورين والدول المجاورة . مثلاً مع ملك العشارة التي كانت تسمى «تركة»

واسم حاكمها «بارويني» الذي يكتب الى ملك ماري . وقد عثر على جميع المراسلات بين هذين الملكين . وعثر على أساء كثيرة للمدن الاخرى مثل ملك بابلين حمورابي ، واسم ملك جرابلس «كركميش» الذي ارسل الى ملك ماري نبذاً جيداً . ووجدت أساء مئات القرى والانهار ، عرفت بعد اكتشاف ماري . هذه المراسلات تعتبر فريدة من نوعها في تاريخ الشرق ، حيث استطاع من خلالها اعادة كل التاريخ السياسي منذ (٢٠٠٠) سنة ق.م .

لقد نشرت البعثة حتى الآن ١٤ مجلداً تحتوي نصوصاً لبعض اللوحات الطينية المكتوبة مع ترجمتها والتعليق عليها . وعندما تنتهي قراءة جميع اللوحات تعاد الى سورية .

عرف من هذه اللوحات أن مملكة ماري ، كانت في وقتها أقوى الممالك في الشرق ، فقد استطاعت عبر قرون أن تصمد ضد السومريين ، ثم ضد البابليين الذين أزعجهم أن تحول ماري بينهم وبين الوصول الى البحر الأبيض المتوسط . فقد كانت ماري قوية . فقد نصت الوثائق المكتشفة على أن الممالك المجاورة لماري ، كانت تشكل أحلافاً عسكرية ضد مملكة ماري . ولذلك قد هدمت وحرقت في البدء حوالي (٣٠٠٠) ق.م من قبل السومريين ، واخيراً من قبل البابليين في مطلع (٢٠٠٠ ق.م) .

ومن الوجهة الفنية ، فإن اكتشاف ماري كشف عن حضارة لم تكن معروفة ، وغير مشكوك فيها حتى الآن . تمثلت في القصر الملكي (البلاط) على النمط السومري . يرتقي الى ما قبل عهد حمورابي ، وما يزيد في قيمته بقاء جدرانها سالمة بارتفاع يبلغ في بعضها أكثر من خمسة أمتار . مما لا نظير له في أية بقعة من بقاع آسيا الغربية ، يرجع تاريخها الى مثل هذا العهد ، أي الى الألف الثالث ق.م . ولهذا فإن لقصر ماري أهمية كبرى ، بما يقدم من معلومات عن فن البناء والنحت والتصوير في الشرق القديم . فتعرف طريقة تنوير الغرف نهراً ، وقضية فقدان النوافذ ، وارتفاع الابواب ، وطريقة صنع السقف ، وعلو البناء وشكل

المخطط . وتصريف مياه الاستعمال ، ودفن الموتى وتزيين وزخرفة القصور والتعليم والحلي .

شيد القصر على مراحل . باللبن ، ثم تطلّى الجدران بالطين المخلوط بالتبن . وكان الحجر والأجر يستعملان في الأساس . وكانت جميع وسائل الرفاهية متوفرة في القصر : حمامات ومغاطس ومطيخ وأفران ووجدت غرفة منقوشة بأفاريز وأشكال هندسية ، وقاعة واسعة فيها عدة صفوف من مقاعد اللبن ، لعلها كانت مدرسة لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب ، فتكون أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون ، وكانت أدوات القصر المنزلية من المعادن والفخار .

أما من جهة النحت فقد عثر في البلاط وفي المعابد على تماثيل كثيرة ، وأكبر تمثال استخرج من البلاط ينتمي الى (٢٠٠٠ ق.م) ويوجد تمثالان هامان في متحف حلب . أولا التمثال الذي يحمل الوعاء الذي يندفع منه الماء ، وهو آلهة الخصب ، أجمل تمثال في العالم اكتشف من عصر (٢٠٠٠ ق.م) ، ثانياً : تمثال ملك ماري ، وهو مرسل من مدينة أور على الخليج العربي . وهما أكبر تماثيل اكتشفت حتى الآن ومع التماثيل وجد التصوير التشكيلي محفوراً على الجدران ، وعلى قوالب الحلوى من الفخار ، حفر عليها مشاهد جميلة لحيوانات وطيور وأشكال هندسية . وقد وجد في المعابد تماثيل صغيرة ، ترجع الى عدة آلاف سنة قبل المسيح ، قدمها المتدينون ، بعضها ذو أهمية عالية ، مثل تمثال (أورنينا) على ظهرها كتابة تشير الى أنها امرأة كانت راقصة أو مغنية في بلاط الملك (ابلونيل) . واكتشفت في ماري جرة مليئة بأشياء ثمينة بينها دبائيس ثمينة تستعملها المرأة لتشبيك ثيابها . وتمثال من البرونز والذهب وطوق من الذهب تتدلى منه حجرة كبيرة ثمينة ، ونسر كبير يفرش جناحية ، وأساور من الذهب وأشياء ثمينة ، كان أرسلها ملك أور ، الجار القوي الى ملك ماري في عصر (٣٠٠٠ ق.م) مما يظهر أهمية ملكة ماري السياسية .

آثار ماري لا تكشف فقط مدينة مع معالمها الأثرية ، ولكنها تكشف عن

حضارة بمنتهى الاهمية والعجب تدل على المستوى السراقى الذى وصلت الىه مارى ، ليس فقط فى عصر (٣٠٠٠ ق.م) ولكن أيضاً قبل ذلك بكثير .

واذا كانت البعثة الأثرية الفرنسية ، قد قامت بعشرين حملة حفريات فى مارى ، فهذا يؤكد تأكيداً كبيراً الأهمية البالغة لمارى ، ومما يدل على أن سكان وادى الفرات القدماء كانوا متمدينين وطلائعين .

وضعت البعثة الأثرية لمارى قائمة بأسماء ملوكها الذين عرفوا حتى الآن ، بها قرىء من الألواح . ولقد وجدت لهم فى قصر مارى تماثيل ضخمة ، كانت لهم عناية بالعلوم والآداب والمكتبات والفنون والبناء ، شجعوا أربابها . فلا عجب أن جاء قصر مارى أضخم قصر اكتشف من آثار ذلك العهد . ولا يوجد ما يضاهيه سوى قصر الامبراطور سرجون فى خورسباد احدى عواصم الآشوريين شرق الموصل . وقصر مارى اقدم من قصر سرجون بألف سنة . وكان قصر مارى يحتفظ بأرشيف منظم (سجلات ووثائق) .

احدث اكتشاف مارى دويلاً لدى علماء التاريخ والآثار ، فقد كانت من أشهر عواصم العالم القديم تضارع بالشهرة بابل ونيوى . وبظهور مارى تبلج التاريخ السورى ، حيث ظهرت أقدم مملكة سورية .

ان معلوماتنا عن مارى لا تزال ضئيلة . فما زال معظم المدينة لم يكشف بعد .

لقد اشتبكت مملكة مارى مع مملكة بابل بحروب طويلة ، واقتحم جيش همورابى مارى مرتين وأحرقوها ودمروا قصرها الملكى . ثم زالت فى عام ١٨٥٠ ق.م .

توجد الآثار المكتشفة فى مارى فى متحفى دمشق وحلب ومتحف اللوفر بباريس . وللدكتور اندريه بارو مؤلفات مصورة عن مارى .

ان من دواعى سعادتي واقتخارى زيارتي لمارى ولرئيس بعثتها الأثرية الدكتور بارو . اكرر له الشكر الجزيل عن أبناء وادى الفرات فى محافظة دير الزور ،

على ما أسدى اليهم من الفضل العظيم باكتشافه مدينة ماري، الذي اقتضاه عشرين حملة (١٩٣٣ - ١٩٧٢) حتى اليوم.

آثار الباغوز

عند قرية الباغوز الواقعة في أسفل هضبة عالية، تسمى تل الهري ويسمى الموقع العرسي. وفي الامثال الفراتية مثل، يضرب في بعد المسافة هو: «من الدبسي الى العرسي». والدبسي. قرية من قرى مخفر أبي هريرة بمحافظة الرقة على الطريق العام بين حلب ودير الزور على ضفة الفرات الغربية وعندها كذلك آثار مدينة من مدن الفرات القديمة، وعلى قمة هضبة الباغوز، كان يقوم حصن يعود تاريخه الى عهد مدينة ماري القريبة من الباغوز يفصل بينها نهر الفرات. ولعله كان من خطوط دفاع ماري على ضفة الفرات الشرقية يحميها. وقد درست آثار الحصن، ولم يبق منها غير ثلاثة أبراج متباعدة عن بعضها البعض، اثنان مخربة عبارة عن انقاض. والثالث الى جنوبها ما زال قائماً مرتفعاً عدة أمتار مبنياً بالحجارة ومطلياً بالحصص الابيض وهو برج جنازري، حيث توجد في قاعدته مقابر، وما تزال أدراجه سليمة وقد صعدت فيها. ربما كان في نفس الوقت مرقباً أو زقورة لبلدة صغيرة. والى جنوب البرج المذكور، توجد مقبرة في بطن الأرض تشبه المغارة، حفرت قبورها في جوانبها، وقد اكتشفت في عام ١٩٤٤ نزلت اليها في سنة ١٩٥٧.

والمقبرة تشبه المقابر الرومانية. وقد يكون الرومان استولوا على هذا الموقع المرتفع. ولعله كان من بعض حصونهم تجاه الفرس، وهو قريب من موقع دورا اورويوس جنوبها على بعد أربعين كيلومتراً ويفصل بينهما الفرات وربما كان حصناً للفرس. وربما أتى لفظ الباغوز من باخوس إله الخمر. وربما كانت السهول المتصلة بالموقع تزرع كرمًا ومنها يعتصر الخمر. والباغوز لفظ تركية تعني المضيق. باعتبار الهضبة المطلة على النهر تتحكم

بالطريق المائية . وكانت السفن منذ العهد السومري وبعده الحثي تمخر في نهر الفرات وتقطن في قرية الباغوز فرقة المراسمة أصلها من عشيرة الجبور . والمراسمة من لواحق عشيرة العقيدات في منطقة البوكال .

دورا أوروبوس (صالحية الفرات) الميناء التدمري على الفرات

دخلت الحضارة الاغريقية الى سورية مع الاسكندر المقدوني سنة (٣٣٢) ق.م وحاول خلفاؤه صبغ الشرق الادنى بالصبغة الاغريقية . وفي جملة ما اعتمدوا من الوسائل انشاء شبكة من المراكز والمدن في سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين وفارس ، فأنشأوا انطاكية ، وسلوقية القريبة من مصب العاصي ، ومدينة اللاذقية ، ومدينة أفامية ، واسسوا على الفرات «دورا أوروبوس» أو «دورا نيكاتوريس» أي مدينة نيكاتور ، قائد من كبار الشخصيات المقدونية (٣١٢ - ٣٨٠) ق.م قيل هو الذي أنشأها في عام (٣٠٠) ق.م . كان من أعوان الملك اليوناني سلوقس الأول . وربما كان حاكم بلاد ما بين النهرين .

ان لفظة دورا سامية آشورية تعني حصن أو محلة . وفي العصر السلوقي أضيفت إليها لفظة (أوروبوس) وتعني مدينة ، وقيل أنها اسم المدينة التي ولد فيها سلوقس الأول في مقدونيا .

ان بداية تاريخ دورا مجهولة . وقد كانت جزءاً من المملكة السلوقية واحدى حواضرها ، وقلعة من قلاع الدفاع عنها ، ومحطة هامة للقوافل التي تخترق آسيا الصغرى في طريقها الى ايران والهند على الطريق التجارية - طريق الفرات ، بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي . وكانت مستعمرة هلينية ، ومركزاً للتجارة في عهد السلوقيين . ويقال ان نيكاتور هو الذي أحاط المدينة بسورها الأول القديم ليحميها من الاخطار .

وهي في حد ذاتها تتمتع بموقع عسكري وموقع جغرافي واقتصادي ممتاز

واقعة على مضبة على ضفة الفرات الغربية، تطل على النهر والصحراء. كان الفرات يجري من تحتها من الشرق، وهي معزولة من جهاتها الثلاث. الأخرى بوديان، ولا يمكن بلوغها إلا من الجهة الغربية ولذا فقد حصنها أهلها تحصيناً قوياً. وتقع شمالي مدينة ماري.

تبعد ٨٥ كم عن دير الزور إلى الجنوب الشرقي، و١٤٠ ميلاً عن تدمر إلى الشرق. و٣٥ كم من الخابور، ومنطقتها تفصل بين الحدود السورية العراقية. ولذا ازدهرت تجارتها، وازداد عمرانها، بلغت مساحتها ١٣ هكتاراً وكانت مقسمة بواسطة شوارع متقاطعة بزوايا قائمة كرقعة الشطرنج. وبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً خليطاً من مقدونيين واغريق وساميين، والتقت فيها ديانات شتى. حملت إليها هذه العناصر لغاتها وآدابها وفنونها وعباداتها وعاداتها. ولما ضعفت المملكة السلوقية، استولى الفرس (الفرثيون الأركاشيون) على المدينة منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وظلت في أيديهم ٢٠٠ سنة. ترك الفرثيون للمقدونيين والاغريق قدراً كبيراً من حرية التصرف بشؤونهم.

ولما احتل الرومان سورية في سنة ٦٤ ق.م لم يمتد إليها نفوذهم احتلالاً الرومان في عهد الامبراطور الروماني (تراجان) الذي زحف لاحتلال مدينة (قسطنطين) على دجلة في العراق سنة (١١٦) ب.م واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات.

أوكل الامبراطور (هادريان) (١١٧ - ١٣٨ م) إدارة المدينة إلى مملكة تدمر. ومنذ ذلك العهد، ارتبط مصيرها بتدمر، التي أخذت تزدهر بفضل التجارة. وازدهرت بازدهارها. وكانت ميناء لتدمر على الفرات. وبينها طريق معبد عبر الصحراء. وكانت فيها جالية تدمرية كبيرة. وقد أثرت الحضارة التدمرية تأثيراً بالغاً في دورا اوروبوس، ظهر في معابدها وتصاويرها. وما عدا التحصينات التي

كانت يونانية، فإن جميع الآثار التي وجدت فيها هي من طراز تدمري وفرتي وروماني.

أما الكتابات فجميعها يوناني، وبعضها تدمري ولاتيني. والتاريخ يؤرخ به هو من عهد سلوقس الأول الذي يبدأ تشرين الأول سنة ٣١٢ ق. م). زادت مساحتها حتى أصبحت ٧٢ هكتاراً. وكان للمدينة ثلاثة أبواب. الأول في طرفها الغربي، وإلى الآن يسمى باب تدمر، كانت تخرج منه القوافل إلى تدمر. والثاني في جهة النهر، والثالث في الجهة الجنوبية.

في أيلول ١٦١ ب. م، خربت هزة أرضية المدينة وتحصيناتها، ثم أعيد بناء الدور. ولم يعد بناء القلعة إلا بعد أن استولى القائد الروماني (لوسيوس فيروس) على المدينة، وهو الذي هزم الفرتيين تحت أسوار دورا سنة ١٦٥ وصارت قلعة رومانية، حصنها (سبتيموس سويرس) وكركلا، وعادت إلى التدمريين مرة ثانية بموافقة الرومان الذين كانوا يفيدون من قيام التدمريين بالتجارة، وكان هؤلاء تحت نفوذ روما.

ولما خلع الجند الروماني الامبراطور (غودريان) عن العرش الروماني، نادوا فيليب العربي امبراطوراً مكانه عام ٢٤٤ م، وبينما كان الامبراطور السابق سجيناً بجانب دورا اغتاله جنده.

ظلت (دورا) مرتبطة بتدمر إلى أن سقطت تدمر بيد الامبراطور (اورليانوس) عام ٢٧٣ م وبعد أن مضى عليها حقبة بيد الرومان، وكان فيها حامية رومانية، هاجمها الفرس الساسانيون سنة ٢٥٦ م وحاصروها، فدافعت حاميتها، واقامت سوراً يلي السور الخارجي. ولكن الفرس شددوا الحصار عليها فسقطت بيدهم ودمروها.

وفي عهد الامبراطور قسطنطين في بدء القرن الرابع الميلادي، كانت دورا مغربة، يسكنها بعض الفقراء. ولما سار الامبراطور جوليان إلى (قسطنطين) سنة ٣٦٣ لم يجد دورا إلا خرائب.

لم يرد ذكرها في الفتوحات الاسلامية ، مما يدل على أنها مازالت مخربة . جاء ذكر منطقة (الفراض) ومرور خالد بن الوليد بها بطريق عودته من العراق الى الشام . قال المؤرخ العراقي الفريق طه الهاشمي : ان موقع الفراض هو منطقة صالحية الفرات ، دورا القديمة .

سميت صالحية الفرات ، لوجود قرية جنوبها على ضفة الفرات الغربية ، من قرى منطقة البوكمال تسمى الصالحية . او صالحية البوكمال . في وسط الطريق بين الميادين والبوكمال . وقرية الصالحية قديمة وفي المصادر السريانية أن مار دانيال الصالحي مولود في مدينة على الفرات . وقد ذاع صيته في النصف الأول من القرن السادس . وكان أول أمره رئيس دير الصالحيين واليه ينسب ، وربما كان على أنقاض دورا أوريس سمي دير الصالحيين أما نسبة الى الصالحية أو الى صلاح رهبانه وتقواهم .

لم يرد ذكر الصالحية ولا ذكر ديرها في المصادر العربية الاسلامية : وفي شرق قرية الصالحية آثار ناعور على الفرات مبنية بالأجر ، كانت لسقاية السهل الممتد في أسفل الهضبة من جهة الجنوب والشمال . ويسقي اليوم بمحركات ديزل ويزرع حبوباً وقطناً . كان الطريق بين دير الزور والبوكمال يمر من وسطها .

يعود الاهتمام بحفريات الصالحية الى سنة ١٩٢٠ . يرجع الفضل بذلك الى الآنسة جوتروديل - المستشرقة الانكليزية . ومديرة مصلحة الآثار في العراق في العشرينات من قرنها ، وفي سنة ١٩٢٨ ، تضافرت جهود جامعة بيل الامريكية وأكاديمية الخطوط والآداب الجميلة الفرنسية على الحفر في دورا تحت ادارة السيدين فرانز كومان العالم البلجيكي ، ورستوفتريف أستاذ التاريخ القديم في جامعة بيل ، بمساعدة من مؤسسة روكلفر . وعهدت ادارة الأشغال الى علماء فرنسيين وأميركان . استمرت الحفريات الى سنة ١٩٣٧ .

كشفت الحفريات عن مدينة ازدهرت في عهد الفرس الساسانيين على

الخصوص . وعن قصر أمير المدينة داخلها . وكشفت الحفريات عن ١٢ معبدًا وعن القلعة والساحة وعدة حمامات ، تغطي ارضيات بعض غرفها الفسيفساء . يعود تاريخ انشاء السور الى العهد اليوناني . وكشفت الحفريات عن السوق والمنازل وعدة كنائس وقوس نصر . ومنازل عديدة للطبقة الخاصة ، زينت افاريز بعضها بتصاوير مأخوذة من الفن اليوناني . وكشف التنقيب عن هياكل التدمريين . وجد فيها قطع تصويرية وقد امتزجت المعبودات الاغريقية بمعبودات بقية العناصر .

وكان معبد أرتميس نانايا في وسط المدينة من معابدها المشهورة ، يرجع تاريخه الى تأسيس المدينة . ومعبد اتاركاتيس . ومعبد أدونيس ومعبد زوت تيوس . ومعبد الالهة افروديت .

وفي القرن الثالث ظهرت فيها عبادات جديدة منها عبادة الالهة فير ، يمثلها هيكل مزدان بنقوش وتصاوير وقد زينت الكنيسة المسيحية (٢٣٢) م بقطع تصويرية ، يمثل بعضها الراعي الصالح .

وأهم ما عثر عليه في دورا كنيس يهودي يرجع تاريخه الى سنة ٢٥٠ م هدم سنة ٢٥٦ م بمحاصرة الفرس للمدينة لوجوده قرب أسوارها في الجهة الشرقية ، طليت جدرانها . وصورتمثل مشاهد من التوراة . فنرى في احداها قصة النبي موسى عندما وضع في سلة في النهر وهورضيع . ورأته ابنة فرعون ، فأمرت خادمتها باحضار السلة . وتظهر الأميرة مرة أخرى تستعطف فرعون مصر في عدم قتل الطفل . ويظهر من رسمها تأثيرات الفنون الشرقية والاغريقية . كان فنانون المدينة يتوخون الوضوح في رسمهم والاتزان الفني .

نشوء قصبة البوكمال ومدرء منطقتهما :

في السبعينات من القرن الماضي ، كانت عشائر العكيدات الحالية تقطن في الأماكن التي تشغلها على ضفة الفرات الغربية ، وكانت هذه الأماكن جزءاً من

القائم الأقصى المعروف في العصر العباسي . وتشكل السهول التي تمتد على ضفاف الفرات الغربية غربي بلدة عانة . وعلى ثلاث كيلومترات من بلدة البوكمال الحالية ، كان موقع معبر على الفرات يسمى النحامة . جرفه الفرات فيما بعد ، وعند النحامة كان مجتمع كثير من سكان العشائر . وعلى بعد مائة وخمسة كيلومترات من البوكمال وإلى الجنوب الشرقي منها تقع بدلة عانة العراقية على ضفة الفرات الغربية ، أخذ مهاجرون من أبنائها يقدون إلى موقع النحامة هذه ، ويتخذونها مقاماً لهم . ولم تمض غير سنوات على استيطان العانيين في النحامة وانضمام آخرين اليهم ، حتى نشأت قرية كبيرة هي أول قرية في الوسط العشائري ، تصلح بأن تكون مركزاً للعشائر في هذه المنطقة ، ومحطة للقوافل بين حلب وبغداد عبر طريق الفرات القديم . وكان في النحامة قشلة قديمة تدعى قشلة المشاهدة . والمشاهدة عشيرة .

ولفت الموقع أنظار المسؤولين العثمانيين ، وعندما اصدروا التشكيلات الادارية في السبعينات ، جعلوا المنطقة قضاء . واختاروا موقع النحامة ليكون مركز القضاء وقصبته . وكان المكان يسمى ايضاً القطعة لقطع النهر ، كما يسمى الشريعة أي المورد .

١ - كان أول قائمقام (مدير منطقة) عين للقضاء الجديد فيها يروي الاهلون شخص يدعى : درويش افندي وقد لاحظ أن مجرى الفرات يحدد موقع النحامة بالانحراف ، فأختار موقع تل أبي سباط شرقي النحامة . وقد اتصل في السنوات الأخيرة ببلدة البوكمال . ورحل السكان اليه .

وفياً كان يشرف بنفسه على تخطيط القصبه المزمع انشائها ، سقط عن ظهر جواده وتوفي من ساعته .

٢ - عينت الحكومة خلفاً له محمد رفعت - ابو حسين - لاحظ عدم ملائمة الموقع الذي اختاره سلفه بسبب كثرة التلال فيه . وتشاءم من الموقع الذي شهد مصرع سلفه فقرر اقامة البلدة على مكان يقع الى الشرق بمسافة قليلة . وبنيت

ثكنة للجند والموظفين على مساحة دونم، سميت القشلة، اعطت اسمها للمكان وللقرية التي احدثت مؤخراً واشتهر المكان باسم القشلة، وهي ابرز ما في هذا المكان انيط بحمايتها حماية الطريق والمحافظة على الأمن في المنطقة ومعالجة مشاكل السكان.

ولما كانت عشيرة البوجمال وهي احدى فروع عشيرة العقيدات، تقيم حول هذا الموقع، سميت القشلة بـ«قشلة البوجمال» وما زال اسم القشلة شائعاً، يعنون به قسبة البوكمال. واسقطوا لفظة القشلة، واطلقوا على المكان وعلى القضاء لفظ البوكمال.

ومكان هذه الثكنة على الشارع العام على يمين القادم من الغرب الى البلدة بجوار دار الحكومة الى الجنوب، اتخذت في الأعوام السابقة مخفراً للشرطة وسجناً، هدمتها الحكومة عام ١٩٧٢، وشرعت ببناء حديث في مكانها من طابق واحد ليكون مخفراً للشرطة وسجناً على مساحة الف متر مربع.

وأمام هذا المخفرودار الحكومة على شمال الداخل من الغرب الى البلدة بناء من الطين ذو بروج وغرف وباحة يشغل مساحة ٤٠٠٠ متر مربع يشغله حرس البادية، كان خائناً في أواخر العهد العثماني وهو ملك لأسرة النقيب، استأجره الفرنسيون منهم في أول عهد الانتداب وفي سنة ١٩٣٢ تملكوه بمبلغ مائتي ليرة ذهبية دفعوها ورقاً، جعلوه مقراً للحرس السيار. آل الى الحكومة السورية بعد انسحاب الفرنسيين. باعتها الحكومة عام ١٩٧٢ بالمزاد العلني بمبلغ (٦٠٠، ٢٠٠) ليرة سورية الى السيد جاسم العلاكة من البوكمال، وهذا سيهدمه ويبني مكانه مخازن وأبنية.

وقد أنشأ القائم مقام محمد رفعت أبو حسين الجامع الكبير في موقع متوسط وهو أول بناء يبنى في البوكمال وانتقل السكان الى هذا المكان واخذوا يبنون مساكنهم على الطريق العامة بين دير الزور وبغداد وبالقرب من الجامع والثكنة (القشلة).

ولما توفي القائممقام أبو حسين دفنه السكان في باحة الجامع اعترافاً بفضل مؤسسه ومؤسس البوكمال . وما زال قبره في الجامع وقد أدخلوا على الجامع تغييرات .

وبالنظر لأهمية الموقع الجغرافية على الطريق القديمة . طريق الفرات ، وأهميته الاقتصادية ووقوعه على ضفة الفرات وبالقرب من معبر ، أخذ يجتذب السكان وينمو عددهم . وقد ازداد الموقع أهمية عندما تقرر تعيين الحدود بين سورية والعراق الى شرقي قصبة البوكمال . وعلى بعد ستة كيلومترات من الحدود العراقية حيث موقع القرية العراقية حصيبة وهي مركز ناحية القائم ، تتبعها عدة قرى ، هي أماكن تجمع عشائر ومناطق زراعية ورعي ، ومنطقة ترانزيت بين العراق وسورية يخترقها كذلك طريق مائي - هو الفرات ، تنحدر فيه السفن موسوقة ، بمختلف الأصناف من الاناضول وسورية الى العراق وبلدان الخليج العربي وفارس .

أصبحت قصبة البوكمال (القشلة) محطة للبضائع المستوردة من العراق وقد بنيت فيها الخانات لايواء التجار وخزن البضائع وخاصة التمور ، والحبوب ، وعلى الأخص القمح والشعير لتموين العشائر العراقية والسورية والقرى المجاورة . فهي نقطة تلاقي طرق المواصلات بين العراق وسورية ، وصلة وصل بين البادية السورية والجزيرة الفراتية السورية والعراقية . وتتوسط القرى التابعة لها . وهي منطقة حدود ينشط فيها بيع البضائع المستوردة من العراق ومن سورية أما بالطرق الرسمية واما عن طريق التهريب . كما هو شأن مدن الحدود في سائر الأقطار .

٣ - عينت الحكومة العربية . عبد الرزاق منير قائممقاماً لمنطقة البوكمال وهو من العراق ، وعينت توفيق شلاش أمراً لموقعها العسكري ، من عشيرة البوسرايا القاطنة غرب دير الزور ، شقيق الضابط رمضان شلاش عام ١٩٢٠ .

٤ - مصطفى الوقاع من المياذين ١٩٢١ كان مدير ناحية العشارة .

٥ - فرحان السليمان ١٩٢٢ ، من دير الزور كان مدير ناحية الكسرة .

٦ - تركي المحمود الحاج عويد من دير الزور ، ١٩٢٣ كان موظفاً في عانة .

- ٧ - شكري البقجه جي من أبناء دير الزور ١٩٢٥، كان مدير ناحية البصرة.
- ٨ - محمود بك نديم بن الحاج اسماعيل من تركيا ١٩٢٧، عاش في دير الزور.
- ٩ - علي صائب الفرخان الشيخ موسى من دير الزور ١٩٢٨ - ١٩٢٩، نقل من قضاء القامشلي.
- ١٠ - عزة المفتي من حلب ١٩٣٠ - ١٩٣١.
- ١١ - ذهني الدهني من طرابلس الشام ١٩٣٢.
- ١٢ - محمود بك نديم حاج اسماعيل، مرة ثانية ١٩٣٣ - ١٩٣٥.
- ١٣ - خليل الاسعد من ازرع في حوران ١٩٣٧ - ١٩٣٨.
- ١٤ - مسلم الحافظ من دمشق ١٩٣٨ - ١٩٣٩.
- ١٥ - حسن صبري سلطان من حلب ١٩٣٩ - ١٩٤٠.
- ١٦ - ابراهيم بكر من حلب ١٩٤١، وكيل قائمقام نقل من الحسكة كان ترجماناً.
- ١٧ - امين عليوي من دير الزور ١٩٤٣.
- ١٨ - مصطفى الحوراني من حماه ١٩٤٣ - ١٩٤٤.
- ١٩ - فليب فرح من حماه ١٩٤٥.
- ٢٠ - زكي البرهاني من دمشق ١٩٤٥ - ١٩٤٧.
- ٢١ - سعيد السيد من دير الزور ١٩٤٩.
- ٢٢ - محمد رضا الخطيب من دمشق ١٩٥٠، كان مدرساً بمدرسة البوكمال درس الحقوق.
- ٢٣ - سليمان الحسيني من دمشق ١٩٥٠.
- ٢٤ - توفيق اسماعيل من اللاذقية ١٩٥١ ومرة ثانية ١٩٥٣.
- ٢٥ - عدنان عقدة من اللاذقية ١٩٥١ - ١٩٥٢.

- ٢٦ - كامل عقيبلي من حلب ١٩٥٢ .
- ٢٧ - سليمان اسماعيل من لواء الاسكندرون ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- ٢٨ - فوزي بيسار من دمشق ١٩٥٦ - ١٩٥٧ .
- ٢٩ - عبد المناف غلاونجي من جبلة ١٩٥٧ .
- ٣٠ - وجيه العطار من دمشق ١٩٥٨ .
- ٣١ - حسن عباس من منطقة اللاذقية ١٩٥٩ .
- ٣٢ - عادل صعيدي من دمشق ١٩٦١ .
- ٣٣ - نجدة ملا حيدر من حلب ١٩٦٣ .
- ٣٤ - احمد الجندي ١٩٦٣ .
- ٣٥ - زين العابدين دالاتي من الزبداني ١٩٦٤ .
- ٣٦ - حسن حروفش من اللاذقية ١٩٦٥ .
- ٣٧ - النقيب محي الدين العمر من حماه ١٩٦٦ .
- ٣٨ - النقيب منهل صعوب من محافظة درعا ١٩٦٧ .
- ٣٩ - النقيب محمد جابر نصاري من شيخ مسكين - درعا ١٩٦٨ .
- ٤٠ - الرائد محمد صالح السمان من حلب ١٩٧١ - ١٩٧٢ .
- ٤١ - الرائد احمد السعدي من حمص انتقل الى البوكمال بتاريخ ١٩٧٢/٤/١ .

عناصر سكان بلدة البوكمال

أولاً: عانيون، جاءوا من بلدة عانة في العراق من نحو قرن، في أوقات مختلفة، يشكلون ٨٠٪ من سكان البلدة، يتألفون من الأسر التالية حسب قدمها:

١ - حاج عجيل الدبس (بوخريص) يتمثل في اولاده واحفاده، يطلق

عليهم اسم الدبوس . ٢ - برغش . ٣ - عبد الهادي وعبد الباقي الزرزور ، ٤ - حاج برغوث (كرابلة) ، ٥ - عبيد الاشعب ، ٦ - محمد المردود ، ٧ - حاج حامد السلطان ، ٨ - محمود علاو ، ٩ - حاج حميداي الطه ، ١٠ - سيد صالح وسيد عبد الجبار قدوري ، ١١ - السادة ملا محمد الخضر ، ١٢ - علي وشامان الحسين ، ١٣ - حوهان ، ١٤ - سيد توفيق المعروف ، ١٥ - بيت النقيب (عبد اللطيف المظهور) ، ١٦ - حاج عثمان وحاج عمر الحبيب ، ١٧ - بيت خليف (حاج طالب الجاسم ورديف) ، ١٨ - جابر الزعين ، ١٩ - ذياب العطو ، ٢٠ - حاج عبد الحميد دله علي ، ٢١ - ياسين زعيتر ، ٢٢ - شاكر المحمود ، ٢٣ - حسن الصباغ (الصبايغة) ، ٢٤ - جبير الحاج مهدي .

ثانيا - راويون : جاءوا من بلدة راوة في الحدود العراقية ، مقابل بلدة عانة على ضفة الفرات الشرقية يتألفون من الأسر التالي :

١ - شريف وعلي الاصيل ، ٢ - جبير الأحمد الراوي ، حسين الراوي ، اسماعيل عبد الرزاق الراوي .

ثالثا - مشاهدة من المنطقة ومن العراق متأخرون .

رابعا - ديريون ، جاءوا من دير الزور ، هم :

١ - أحمد الخنيش ، كان مديراً ناحية البحرة في العهد العثماني ، ثم مديراً لناحية الصالحية ، ثم عين مديراً للسجل المدني في البوكمال ، استقال وسكن البوكمال ، ولد له فيها اولاد توفي عام ١٩٧٠ . ٢ - مرعي الحسن (أولاده عثمان المرعي وجمعه المرعي) ، ٣ - رسلي الفرخان كان موظفاً في البوكمال في الحرب العالمية الأولى ، تزوج بامرأة من البوكمال ، وتملك بستاناً مساحته ستين دونماً ، توفي ، ٤ - حسون الهندي ، ٥ - خليفة الديري .

خامسا - مواصلة ، جاءوا من الموصل في العراق هم : بيت حاج محمود الموصل .

سادسا - مسيحيون ، هم : ١ - نعم نعم (أولاده أمين ونوري وكامل) ،

٢ - بيت سعيد آرو ، جاء من المياذين ، ٣ - فرج حنا من المياذين ، ٤ - اسحاق ككلوف من روسيا .

سابعاً - عكيدات ، مصدرهم عشيرة العقيدات في منطقة البوكمال ، جاء اشخاص قلائل مؤخراً وسكنوا في البلدة .

ثامناً - مشاهدة جاءوا مؤخراً من الريف .

تاسعاً - دمشقيون من دمشق جاءوا حديثاً : هم علي الحافظ وآخرون نزحوا .

إذا كانت دير الزور ما تزال وسطاً بين القرية والمدينة ، فإن قصبة البوكمال اشبه بالقرية . ما زال السكان متطبعين بالطابع العشائري .

التشكيلات الادارية للمنطقة

المركز:

لم يكن لواء دير الزور حتى سنة ١٨٦٤ ملحقاً لولاية سنجق . وكان في دير الزور بضعة موظفين ، وكانت سلطة الدولة فيه لا تذكر .

وفي السنة المذكورة جاءه ثريا باشا والي حلب بحملة عسكرية وجعله قضاء مربوطاً بولاية حلب . وركز فيه قائمقاماً ومأمورين قلائل وقفل راجعاً الى حلب . وقدّرت السلطة أهميته فجعلته بعد سنة متصرفية .

وفي أواخر عام ١٨٧٠ وبزمن متصرف لواء دير الزور ارسلان باشا جرت تشكيلات اللواء الادارية ، وعينت له عدة أقضية ، كان قضاء البوكمال أحداها ويتألف من نواح وقرى وتخافر للأمن ، وجعلت قصبة البوكمال مركز القضاء الذي يتبع لواء دير الزور . أو متصرفية دير الزور . وتقع قصبة البوكمال على خط العرض الجغرافي ٣٨,٣ درجة شمال خط الاستواء ، وخط الطول الجغرافي ٥, ٤٥ درجة شرقي غرينش . على ضفة الفرات الغربية في شرق سورية على الحدود السورية

العراقية، والتي تبعد عنها ثمانية كيلومترات، وتبعد مسافة ١٣٠ كيلومتراً عن مدينة دير الزور مركز محافظة دير الزور.

وهي نقطة تلاقي طرق المواصلات بين العراق وسورية وصلة وصل بين البادية السورية والجزيرة الفراتية العراقية السورية وعلى طريق مائية هي الفرات. تتبعها خمس وعشرون قرية لكل منها مختار وهيئة اختيارية. ترتفع القصبه ١٧١ متراً عن سطح البحر. يحدها من الشمال تل أبو سيباط ومن الغرب تلال ثلاثة. ومن الجنوب وادي علي (وادي الرتكا) ومن الشرق الفرات. الذي ينقسم عندها الى فرعين بينها حويجه.

سكان القصبه عناصر من العانيين والراوين والمشاهدة وديرين من دير الزور. ومواصله ومسيحيين وعكيدات وحلبين ودمشقيين. فصلت الكلام عنهم سابقاً.

كان أول المؤسسين لقصبه البوكمال الذين هاجروا إليها من بلدة عانة: صالح الزرزور، ومحمود الزرزور، وحامده الزرزور، وسيد مصطفى العز الدين، وسيد خليفة الزعين، وسيد عثمان الزعين، ومحمد النقيب، وسائر الجاسم، وملاحيد الخضر، هؤلاء القوا عصيهم في «النحامة» عند قشلة المشاهدة. وأول من جاء من رواة: دار الراوي، وسيد حامد، ثم شريف وعلي الأصيل، وجاء من شرقي قرية حصيبة العراقية آل برغوث في العهد العثماني عمال فلاحه، لهم في البوكمال سوق خاص وبساتين.

لقد حلت بقصبه البوكمال في أثناء مسيرتها لتكوين بنيانها كوارث طبيعية أضرت بها - على حداثة عهدها وضآلة امكاناتها وثروتها - فحدث من اتساع عمرائها وتقدمها. نذكر لأنها جزء من تاريخ قصبه البوكمال:

في ٢٩ نيسان عام ١٩٤٧ هطلت ليلاً أمطار غزيرة وداهمت المدينة سيول جارفة من البادية، فغمرت المياه شوارع البلدة، ونفذت الى الدور، بارتفاع نحو متر، وأتلفت أرزاقاً وأموالاً. وهدمت مائتي بيت، وأتلفت المزارع والحقول واقتلعت

كثيراً من أشجار البساتين . وقتلت عدداً كبيراً من المواشي وجاءت الفيضانات ورجال الجراد الصحراوي . وحلت مواسم جفاف اضرت بالأهلين كثيراً . وفي عام ١٩٤٨ داهمت البلدة سيول جارفة وأضررت بها . وفي عام ١٩٤٩ ، حدث فيضان الفرات . فأغرق المزارعات وجرف كثيراً من الماشية . فتراكمت على المزارعين ديون المصارف وتجار المحركات والزيت وغيرهم .

الجوامع في بلدة البوكمال

- ١ - الجامع الكبير : في وسط البلدة ، مقابل دار البلدية بني عام ١٨٩٠ بتبرعات الأهلين وبإشراف أول مدير منطقة عين في البوكمال ، تحيط به عقارات يغطي دخلها نفقات الجامع والجوامع الأخرى له منارة ، أوقف أرضه عبد الهادي الزرزور - للأوقاف .
- ٢ - جامع عمر الفاروق في جنوب البلدة على الشارع العام ، مقابل المقبرة القديمة ، بني عام ١٩٦٤ بتبرعات الأهلين ومساعدة الحكومة ، له منارة مضلعة جميلة ، جلبت أحجارها من حلب وبنائها بناء حليبي .
- ٣ - الجامع الغربي (جامع المدرس) ، تبرع بالأرض الشيخ عبد الله النهر ، وبنى الجامع بتبرعات الأهلين عام ١٩٥٣ ، في مدخل البلدة من الغرب .
- ٤ - توجد زاويتان تقام فيهما الصلاة ، الأولى وهي الأقدم تقع في شرق البلدة بنيت بتبرعات الأهلين في أواخر القرن التاسع عشر ، والثانية في غرب البلدة بقرب بناء شركة الكهرباء أنشأها حاج عبيد الدبس سنة ١٩٢٢ ورممها أهل الخير .

الدواوين والمقاهي

الدواوين جمع ديوان . أي المضافة أو المنزل أو القنّاق . المجلس الذي

يتخذ شخص بارز في عشيرته أو بلده لاستقبال زواره وضيوفه ، للسمر وحل المشاكل . وهو تقليد اجتماعي في مناطق الفرات . كانت أولى دواوين البوكمال هي دواوين السادة : رشيد الداود . الحاج عجيل الجاسم . عبد الهادي الزرزور . عبد اللطيف المظهور . الحاج حامد السلان . حاج برغوث . وقد تقلصت . وليتها استمرت وتزايد عددها بتحسين دخل الأفراد . انها تقليد مفيد - صالونات - خير من المقاهي المضرة . التي انتشرت في البوكمال انتشار الوباء ، عرفت منها : مقهى البلدية ، ملك البلدية بايجار عبد الرزاق عبد الهادي وصالح المشوح ، ومقهى الناصر ، صاحبه خاروف اليونس ، ومقهى الشباب صاحبه جميل حيدر ، ومقهى الرافدين صاحبه عباس السمران ، ومقهى حامد السحاب ، وكلها في الشارع العام ذات مساحات كبيرة . تغص بالرواد من المتعلمين وسكان الريف وابناء البلدة . ومقاهٍ صغيرة منتشرة في الاسواق ، تزود الحوانيت بكؤوس من الشاي يجتسونها طوال ساعات النهار والليل .

ان شرب الشاي هواية وهم جميع سكان البوكمال . والمقاهي عدوى انتقلت اليهم من عاصمتهم دير الزور - مستنقع المقاهي .

نواب منطقة البوكمال

كانت البوكمال في العهد العثماني قضاء تابعاً لمصرفية دير الزور ، التي كانت تمثل بمبعوث واحد في مجلس المبعوثان العثماني في استانبول . كانت الانتخابات لهذا المجلس تجري على درجتين - فكان منتخبو الدرجة الأولى في البوكمال لانتخاب ممثل المتصرفية السادة : جاسم أبوشكير ، وعبد الهادي الزرزور ، وعجيل الجاسم ، وتوفيق الداود ، وعبد اللطيف المظهور . وفي عهد الانتداب بقي الانتخاب على درجتين ، وكان المنتخبون الاولون

نفس المذكورين، ليدلوا بأصواتهم لممثل لواء دير الزور في مجلس المندوبين في دمشق.

وعندما اتيح للبوكمال التمثيل المباشر، انتخبت البوكمال السيد توفيق الداود عام ١٩٢٨ في مجلس المندوبين السوريين من ابنائها.

وفي عام ١٩٣٢، انتخبت السيد تركي المحمود للمجلس النيابي مرشحاً عن الكتلة الوطنية. وهو من أبناء دير الزور، وكان قائمقاماً في البوكمال عام ١٩٢٣، شغل مناصب أخرى، وتوفي في دير الزور عام ١٩٣٨.

وفي سنة ١٩٣٦ انتخبت البوكمال السيد عبد الهادي الزرور نائباً في البرلمان السوري، توفي في البوكمال عام ١٩٤٤.

وفي عام ١٩٤٦، انتخبت السيد عثمان المرعي الحسن من أبناء دير الزور، يقيم في البوكمال، واعيد انتخابه لمجلس عام ١٩٤٧، توفي عام ١٩٥٠.

وفي عام ١٩٤٩، انتخبت البوكمال الشيخ دحام بن رجاء الدندل، من العقيدات عضواً للجمعية التأسيسية وهو من أبناء قرية السويعة، ويقيم في البوكمال.

وفي سنة ١٩٥٣، مثل المنطقة في المجلس النيابي، عبد الحليم الدبس من أبناء قصبة البوكمال، ولد عام ١٩٢٦، اتم دراسته الابتدائية في بلدته ١٩٣٨، والتحق بالكلية الشرعية بدمشق، ثم بالازهر. وتخرج منه عام ١٩٥١.

وفي عام ١٩٥٥، ازداد تعداد نفوس المنطقة، فمثلها نائبان: الشيخ دحام رجاء الدندل، والشيخ فهد مشرف الدندل، والثاني من قرية الغبرة، توفي بتاريخ ١٩٧٢/٨/١٦.

وفي تموز ١٩٦٠ مثل المنطقة في القاهرة السادة عبد الكريم عثمان المرعي، توفي في ١٤ ايلول ١٩٦٩، وصالح حاج حمداوي من بلدة البوكمال، ودحام الدندل من عشيرة العقيدات.

لم تمثل المنطقة بأي شخص في المجلس الوطني بدمشق عام ١٩٦٥،

ويمثلها في مجلس الشعب بدمشق عام ١٩٧١ . السيد مطر الجاسب المحمد من قرية هجين .

ومثل منطقة البوكمال في مجلس الادارة المحلية بمركز محافظة دير الزور في الانتخابات التي جرت في ١٩٧٢/٣/٣ السادة .

١ - عطا الله عبد الهادي الزرزور من قصبة البوكمال مدرس في ثانوية البوكمال .

٢ - ميزربن الشيخ مشرف الدندل من قرية الغبرة .

٣ - نافع بن حمود السيد شريف من قصبة البوكمال، توفي في ١٩٧٢/٨/١٦ .

٤ - اعبيد بن جاسم الفندي من قرية السيال الشرقي .

٥ - نوري كسار الصياح من قرية المصلحة .

٦ - مصطفى بن حرب الحاج خلف من قرية عشائر .

٧ - زوبع بن ناصر العكلة من قرية هجين .

قضاة منطقة البوكمال

منذ أن أحدثت التشكيلات الادارية لسنجق دير الزور، وجعلت البوكمال قضاء في السبعينات من القرن الماضي، أحدثت فيها محكمة ابتدائية . تعين وزارة العدل لها قاضياً، يمكث مدة، ثم تنقله وتعين قاضياً محله، وبذلك شهدت البوكمال حتى اليوم ٢٤ قاضياً من مختلف المناطق السورية . في غير وظيفتهم . هل افادت المنطقة من علمهم ومن سلوكهم الاجتماعي؟ لم يكن هؤلاء القضاة على مستوى يؤهلهم لكي يفيد السكان منهم . كان لكثير منهم سلوك معوج . فاضروا بارتشائهم وتبذلمهم .

كان اتصال اولئك القضاة بالبوكمال ووجدتهم فيها جزءاً من تاريخها الاجتماعي . ولذا اقتضى ذكرهم حسب ما وقع لي .

١ - محمد شريف الحاج عبد اللطيف العاني، جاء من عان، وكان مفتياً في البوكمال في أوائل العهد العثماني. وفي أول عهد الانتداب عين قاضياً في البوكمال حتى أوائل ١٩٢٧، نقل الى الحسكة ثم الى الرقة ثم اعيد الى البوكمال عام ١٩٣٣ قاضياً، احيل على التقاعد ١٩٣٤، سكن البوكمال حتى سنة ١٩٤٦، توفي في بغداد ١٩٤٦ وهو والد السيد شفيق العاني رئيس محكمة النقض في بغداد توفي سنة ١٩٧١. والسيد بديع العاني الاستاذ بكلية الآداب في بغداد، ولد للسيد شريف العاني في البوكمال الطبيب مصطفى العاني وتوفى مجاز حقوق وعبد الرزاق مجاز حقوق وعبد الباسط مجاز شريعة، جميعهم في العراق أسرة عربية عريقة.

٢ - محمد نهري بن حمود الشحاذه من دير الزور ١٩٢٧ مكث نصف سنة ثم عين مفتياً في الحسكة، توفي في دير الزور عام ١٩٤٣.

٣ - حمادي الشعبي من أبناء المياذين وفي الأصل من عشيرة البوسرايا ١٩٢٨ - ١٩٣٣.

٤ - عبد القادر ملا حويش من عان نشأة دير الزور ١٩٣٤.

٥ - توفيق فكرة الحسيني من أبناء دير الزور ١/٨/١٩٣٤ - ٥/١٢/١٩٣٥.

٦ - حسن الآغا من دمشق ١٩٣٦.

٧ - فوزي الرفاعي من حلب ١٩٣٩.

٨ - اديب الكيلاني من حماه ١٩٤٣ - ١٩٤٨.

٩ - حسين الفواز من الرقة ١٩٤٨ - ١٩٤٩.

١٠ - شهير ارسلان من حلب ١٩٤٩ - ١٩٥٢.

١١ - صالح كيالي من حلب ١٩٥١ - ١٩٥٢.

١٢ - حسن اسماعيل من دمشق ١٩٥٢.

١٣ - احسان سبيناتي من دمشق ١٩٥٢.

١٤ - نديم مرشد من محافظة اللاذقية ١٩٥٤ - ١٩٥٥.

- ١٥ - عبد الرحمن الشيخ يوسف من طيبة الامام محافظة حماه ١٩٥٦ - ١٩٥٨ . وجاء مرة ثانية عام ١٩٧٢ .
- ١٦ - محمد الريحاوي من حلب ١٩٥٩ - ١٩٦٠ .
- ١٧ - عثمان سويد من قرية كرناز محافظة حماه ١٩٦١ - ١٩٦٢ .
- ١٨ - صبحي الجاسم من دير الزور ١٩٦٣ .
- ١٩ - حلمي عجم أوغلي من حمص ١٩٦٤ .
- ٢٠ - جمعة عبد الله من دير الزور ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .
- ٢١ - يوسف ربابي من قرية نوى بحوران ١٩٧٠ .
- ٢٢ - غياث الدين مظفر البعاج من دير الزور ١٩٧١ - ١٩٧٢ .
- ٢٣ - عصمت سليمان من الحسكة ١٩٧٢ .

المفتون

- ١ - محمد شريف عبد اللطيف العاني، كان مفتياً في البوكمال في آواخر العهد العثماني، مر ذكره في قضاة البوكمال .
- ٢ - ملا محمد العلي المحمد، الملقب بـ محمد الخرسا، لأن أمه كانت خرساء . ولد في عشيرة البوعمر وشرقي دير الزور عام ١٨٥٠ جاء الى دير الزور، يعلّم ويقرئ الصبيان في داره . عين مدرساً في قرية البصيرة سنة ١٩٢١ ونقل الى البوكمال مفتياً ١٩٢١، وكان يدرس التلاميذ . هدم الجامع القديم في البوكمال وبناء على نفقته، وكان يعمل مع العمال في بناء الجامع، توفي في سنة ١٩٤١ في قرية الصالحية بطريقه من البوكمال الى دير الزور ودفن في دير الزور .
- ٣ - الشيخ محمد عمر العزي النقشبندي ولد في دير الزور عام ١٩١٧ . تعلم في دير الزور وفي قرية بيارة الشهيرة بلواء السلبيانية شمال العراق ١٩٣٨ . بمدرسة الشيخ علاء الدين العثماني النقشبندي الذي جاء الى دير الزور سنة

١٩٢٣ وجرى له استقبال حافل . وتزوج أخت الشيخ عمر النقشبندی وله منها أولاد في العراق وإيران .

عين الشيخ عمر مفتياً لمنطقة البوكمال في ٤ آذار ١٩٤٢ ، وبقي حتى ١٨ كانون الثاني ١٩٥٥ حيث نقل إلى الحسكة وفي ١٩٥٦ نقل إلى دير الزور .



ماري (تل الحريري)

عاصمة الشمالي السوري عروس الفرات الأوسط

مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه أصول جميع الفنون الى بلاد الاغريق ،
وصرنا نعرف أن أصول الحضارة تمتد الى أبعد من ذلك ، الى سومر اقدم كل هذه
الأمم - فقد قامت في وادي الرافدين منذ خمسة آلاف سنة حضارة من أهم
الحضارات التي عرفها فجر التاريخ ، هي الحضارة السومرية . ولم يكن اليونان
والرومان واليهود - وهم الذين نسميهم القدماء يعرفون شيئاً عن سومر . وقد كان
الكشف عن الحضارة السومرية من أروع الأمور في علم الآثار .
اختلف العلماء في الأصل الذي انحدر منه الشعب السومري الذي عرف
بأنه شعب ذكي مخترع ، مبدع ، وطد أقدامه على المجرى المتكون من نهري دجلة

والفرات - شط العرب - واسس مدناً عليه هي : أور، وأريدوا، وكيش، ولارسا، ولجش حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل المسيح وأخذ يتقدم الى الشمال الغربي شيئاً فشيئاً، وانتقلت الحضارة السومرية على طول مجرى الفرات ودجلة، فكانت هي التراث الأول لحضارة بلاد (مابين النهرين) كان أساس هذه الحضارة تربة الأرض التي أخصبها فيضان النهرين السنوي الذي كان ضاراً ونافعاً، وخلدوا أخطاره بالقصص التي تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمم، ونجا الناس من شره. ولكي يأمن السومريون شر الفيضان أجروا ماء النهرين في قنوات تخترق البلاد طولاً وعرضاً، فكان لهم نظام ري محكم يرجع عهده الى أربعة آلاف سنة، من أعظم الأعمال الانشائية في الحضارة السومرية، وكان الأساس الذي قامت عليه هذه الحضارة، واخرجت الحقول بفضل الري محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلع والخضار. وظهر عندهم المحراث تجره الثيران، واستخدموا النحاس والقصدير وصنعوا منها البرونز وعرفوا الحديد وصنعوا منه عدة آلات. وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار، وكانت البيوت من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش، وكان لها أبواب من الخشب، وكانت البضائع تنقل بطريق الماء. فقد وجدت المركبات. وكانت توجد صلات تجارية بين سومريين مصريين والهند قد وجدت الواح طينية عليها كتابات سومرية هي وثائق تجارية دلت على حياة تجارية ناشطة، وكان لديهم تقويم يقسم السنة الى اثني عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً كل أربع سنوات، وكانت كل مدينة شديدة الحرص على استقلاليتها ولها ملك كاهن. وقد سمي العلماء هذه المدن «حكومات المدن». كانت مدينة ماري احدها. وما وافى عام ١٨٠٠ قبل المسيح حتى نمت التجارة فنشأت من المدن امبراطوريات استطاعت شخصيات قوية عظيمة ان تخضع المدن والملوك لسلطانها، وكان الملك الاعظم يعيش في قصر منبع فيه هيكله وفيه مكتبة وأماكن لكبار موظفيه، وكانت النزعة الانفصالية التي كانت تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن، ولكنها كانت باعثاً على النزاع



مخطط قصر ماري مصور رقم (٢)

والحرب التي كانت تشن للسيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع وتوسيع حدود الدولة .

كان لكل مدينة مجموعة آلهة تمثل النشاط البشري . وكان السكان يقدمون القرابين للآلهة من مال وطعام في المعابد ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين . وكانت تلحق بالمعابد مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات ، وكانت نساء الطبقات العليا يحيين حياة مرفهة ، فالادهان والاصباغ والجواهر من أظهر العاديات في المقابر السومرية . وكان الاغنياء من أهل المدن يشيدون قصورهم على الروابي ، وكانت المياه تؤخذ من الآبار وكان عندهم نظام للمجاري وتصريف الفضلات في الاحياء المأهولة في المدن ، ولم يكن الاثاث يخلو من طابع الفن ، فكانت بعض الأسرة تطعم بالمعادن والعاج ، وكانت التماثيل تزين الهياكل وبلغت صناعة الذهب مستوى رفيعا .

ولقد عرف السومريون الكتابة على الواح الطين فكانت من أروع ما خلفوه وأعظم ما لهم من فضل على الحضارة العالمية . وتبدأ الألواح الطينية في الظهور حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل المسيح ، ولم يحل عام ٢٧٠٠ قبل المسيح حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد انشئ في المدن السومرية . وبدأ المؤرخون والسومريون من عام ألفين ق . م يكتبون تاريخهم وقد عثر على لوح كتب عليه الاصل السومري للمحمة جلجميش . والسومريون ابتدعوا الخط المسهاري في الكتابة ، وابتدعوا في العمارة الاشكال الاساسية للمنازل الاعمدة والقباب والعقود . مما يشهد على رقي الحضارة السومرية التي كانت الاساس للحضارتين البابلية والآشورية .

وأخرجت سومر وأكد حتى بعض انقراضها صناعات وفنانين وشعراء وحكماء واداريين ومؤرخين . وان عناصر معينة من الثقافة المصرية القديمة مستمدة من بلاد سومر وبابل لوجود علاقات تجارية بين هذين البلدين ، كما توجد علاقات لغوية بين اللغة المصرية مستمدة من بلاد سومر وبابل لوجود علاقات تجارية بين

هذين البلدين ، كما توجد علاقات لغوية بين اللغة المصرية القديمة ولغات الشرق الأدنى السامية .

ان حضارتنا هي امتداد للحضارة السومرية التي غابت آثار مدنها في الاكام والروابي والتلال الاصطناعية التي تقوم على شاطئ الفرات النهر العظيم الذي سقى هو ونهر دجلة بلاد ما بين النهرين . ففي بطون هذه التلال مدن قديمة دمرتها الحروب وجعلتها أنقاضاً غطتها التربة بفعل الرياح بساكة عدة أمتار من هذه التلال (تل الحريري) الواقع بجوار قرية الغبرة الى الغرب شمال غربي أبو كمال على بعد ١٢ كم على شمال الطريق العام بين بلدتي المياذين وأبو كمال مركز منطقة أبو كمال إحدى مناطق محافظة دير الزور على الحدود السورية العراقية وعلى شاطئ الفرات الأيمن .

في تل الحريري تحتفي مدينة ماري ، إحدى العواصم القديمة الكبرى وعاشرة المدن العظمى التي قامت فيما بين النهرين بعد الطوفان المشهور الذي ورد ذكره في الكتابات القديمة .

كانت هذه المدينة العظيمة من المدن الضائعة وبقي تل الحريري ينتظر في حبر آلاف السنين ان يتجه اليه اهتمام الناس لاستخراج دفائنه التي كشفتها الصدفة وجهود البعثة الاثرية الفرنسية المؤلفة من علماء أفذاذ وعلى رأسها الاستاذ اندره بارو المحافظ الرئيسي في متحف اللوفر بباريس ومن أساطين العلماء في الآثار وصاحب الشهرة المستطيرة والذي كشف عن اقدم مملكة سورية عرفها التاريخ في تل الحريري وأقدم عاصمة في شمال سورية .

يعود تاريخ الاهتمام بتل الحريري الى صيف عام ١٩٣٣ حيث شاهد ضابط المصالح الخاصة في بلدة أبو كمال المدعو كايان ، فوق تل الحريري جمعاً من السكان يحفرون في اطراف التل لاستخراج حجر ليضعوه شاهداً على قبر ، فعثروا على تمثال ضخيم بدون رأس من الحجر الأبيض . واخبرت السلطات الادارية بذلك ، وهذه نقلت التمثال الى المتحف الوطني بحلب . وثبت ان عهد التمثال المكتشف

يرجع الى العصر السومري ، وهو يمثل رجلاً هو الاله شمش حامي مدينة ماري ، ووجد في محل اكتشافه آثار بناء يدل على وجود معبد وضع فيه التمثال . وما ان ذاع خبر الاكتشاف حتى طلب متحف اللوفر من مديرية الآثار في سورية منه الامتياز للتنقيب واجراء الحفريات في تل الحريري فاجيب طلبه .

وجاءت البعثة الى تل الحريري وابتنت داراً عادية أقامت فيها وباشرت الحفريات في المكان الذي عثريه على التمثال ، مستعينة بعمال من المنطقة وأخذت المدينة تحبو البعثة بالكشف عن دفاتها ، كشفت البعثة عن بيوت كثيرة أضرحه في جرار ، والت البعثة جهودها وأخذت تنقل الحفر الى عدة أطراف في التل ، فكانت تعثر على رؤوس وتمائيل يتزايد عددها كل اسبوع وبينها تمثال عشتار . وكانت الكتابات لا تزال تنقص البعثة فما لبثت أن عثرت على أول نص عبارة عن بضعة أسطر سطرت على ظهر تمثال شخص يدعى لاجبي - ماري عند أعلى الكتف العاري ، وكان ملكاً وقدم تمثاله لهيكل عشتار . ومن قراءة سطر عرفوا اسم المدينة الضائعة : ماري وعثر على هيكل عشتار وخلصته مما يحيط به من الأتربة والانقاض وأخذت البعثة على نفسها ان تقف ما كانت عليه مدينة ماري ، فضاعفت عدد فرق العمال فأصبحت ثنائي فرق بعد ان كانت أربعاً ، وكانت البعثة توافي باريس بمكتشفاتها ، ومنها عثورها على قصر عظيم من عهد قدماء الكلدانيين يرتقى الى ما قبل عهد حمورابي يغطي اكثر من هكتارين ونصف الهكتار من الأرض ، ويعد أكثر من ٣٠٠ غرفة وفسحة دار ، كانت الجيوش البابلية نهبتة ودمرتة وأحرقته في أوائل الألف الثاني قبل المسيح . وقد كان اكتشاف القصر الملكي من المصادفات السعيدة التي رافقت البعثة ، ومما يزيد في قيمة هذا القصر بقاء جدرانها سالمة في وسط القصر بارتفاع يبلغ في بعضها أكثر من خمسة أمتار ، مما لم يوجد له نظير قط في أية بقعة من بقاع آسيا الغربية يرجع تاريخها الى مثل هذا العهد ، أي الى الألف الثالث ق . م . ولهذا فإن لقصر ماري أهمية كبرى بما يقدم الينا من معلومات عن فن البناء في الشرق القديم فتعرف طريقة تنوير الغرف نهراً ، وقضية فقدان النوافذ



حضارة ماري بعد الكشف عنها

وارتفاع الأبواب، وطريقة صنع السقف وعلو البناء، وشكل المخطط، وقد شيد القصر على مراحل وكانت الأبواب مرتفعة، ومواد البناء هي اللبن ثم طلى الجدران بالطين المخلوط بالتبن، وكان الآجر والحجر يستعملان في الأساس، وكانت أبواب الغرف من الخشب، والسقف من جذوع الشجر الضخمة، وكانت جميع وسائل الرفاهية موجودة في هذا القصر من حمامات ومغاطس ومطبخ وأفران، وغرف خاصة بالإدارة وبنساء القصر، ووجدت غرف منقوشة بأفاريز وأشكال هندسية وفي وسط القصر فناء متسع، وقاعة واسعة فيها مصطبة منقوشة بما يشبه المرمر ويظن أنها كانت قاعة العرش، وعثر على غرفة واسعة وجد فيها عدة صفوف من المقاعد المصنوعة من اللبن بينها ممرات ضيقة يرجح أنها كانت مدرسة لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب، فقد عثر على لوحات فخار وأدوات يظن أنها كانت تستعمل في الكتابة. وهذه أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون، وكانت جميع أدوات القصر المنزلية من المعادن أو الفخار تصنع في القصر. وعثر على عدد كبير من الرسائل الدبلوماسية وكان للملك وعائلته معبد خاص في القصر بني أحسن بناء وزين ببعض النقوش الهندسية. وكشفت التنقيبات عام ١٩٣٧ عن مدخل القصر من الجهة الشمالية عرضه ستة أمتار يحيط به برجان من كل جانب، وقد عثر علىلقى في القصر منها: ١ - تمثال الهة الماء المتفجر وهو تمثال امرأة مصنوع من حجر رخامي فج. ٢ - تمثال ايشتوب ايلوم تمثال لأمير من امراء ماري مصنوع من حجر السديوريت الصلب، بلحية طويلة لابساً القبعة التي كان يلبسها الأمراء السومريون. ٣ - رأس محارب من الرخام. ٤ - قوالب الحلوى من الفخار وقد حفر عليها مشاهد جميلة كصور الحيوانات والطيور، وأشكال هندسية. ٥ - حلى ذهبية. ٦ - نقوش جدارية. ٧ - تماثيل. ٨ - عشرون ألف رقيم من الفخار مكتوبة. ٩ - قطع أخرى مختلفة.

تواصلت حفريات البعثة مدة خمسة مواسم حتى شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩ توقفت بسبب اندلاع الحرب واثت بنتائج عظيمة، كشفت في أهم ما كشفت معبد

المدينة، وهو أول بناء اكتشفته البعثة وهو مركب من سلسلة معابد مبنية فوق بعضها، فالمعبد الأول يرجع الى أوائل الألف الثالث، ثم يتبعه بناء ثان بني على الأول فبناء ثالث يرجع عهده الى الملك زمير يلیم وكان قد خربه جنود همورابي البابلي. وقد اكتشف في غرف هذه المعابد أجزاء كثيرة لتماثيل كبيرة وصغيرة ومعها خبراء مديرية الآثار الفنيون، فإذا هي أبدع ما أنتجته عبقرية سكان الفرات في تلك العصور، وهي ذات قيمة تاريخية منقطعة النظير. وقد عبدت الربة عشتار، إلهة الحب والحرب في ماري في هذا المعبد الذي يشبه في تقسيماته معبدها في مدينة آشور. ولما استولى سرغون اغاديا على ماري في القرن الثامن والعشرين خربها وهدم معبد عشتار فيها وشوه تماثيله. على أن السلام ما لبث أن عاد الى ماري فازدهرت من جديد وأعيد بناء المعبد. وعثر على معابد أخرى منها آخر معبد بناه ملوك ماري في أواخر الألف الثالث ق. م. وقد خربه همورابي وجنوده عند استيلائهم على المدينة.

عثر على لقى كثيرة في معبد عشتار، أكثرها تماثيل اشخاص في وضعية العبادة وتماثيل آلهة ولقد وجدت كتابات على الكنف العارية لبعض التماثيل. وترجع جميع الآثار الموجودة في المعبد الى أوائل الألف الثالث ق. م. وبعض المعابد متعددة القاعات، وبعضها يضم حجرة واحدة وكانت هذه المعابد على غاية من الثراء والزينة، ولكن الغزاة نهبوا كل شيء وحطموا التماثيل.

وكان في معابد ماري كتبة لتسجيل ما يخرج منها وما يدخل إليها من الأموال التي تجبى أو تنفق باسم المعبد، وكان حي المعابد بجانب قصر ماري. وكانت آلهة متعددة تعبد في هذه المعابد التي يقرب عددها من العشرين. وبعضها يحرسها تماثيل لبوات من البرونز، أرسل ما عثر منها عليه الى متحف حلب. وما عثر عليه في حي المعابد زقورة، وهي صرح شاهق العلو، يمثل أعلى ما وجد في المدينة، ويرمز بعلوه الى الصلة بين الأرض والسماء، وقد سمت البعثة هذه الزقورة: (الكتلة الحمراء). وقد دل ظهورها على حضارة رفيعة ذات فن معماري راق. كان

البابليون وقبلهم السومريون يبنون مثل هذا البناء يسمونه زقورة . وقد اشتهرت زقورة بابل ببرج بابل ، وقد حلت المآذن محلها .

بنيت زقورة ماري على سطح مرتفع من اللبن ، وكان الى جانبها معبد ، وكانت الزقورة محمية بحرس مؤلف من عدد كبير من الأسود البرونزية أو الخشبية . وكان اللبن يستعمل في بناء الزقورة وضمنه جذوع شجرتين . وعثر في منطقة الزقورة على لقى كثيرة منها أسد برونز وعدة تماثيل ونقوش جدارية ملونة . وتعمقت البعثة في الحفر فكتشفت عدة طبقات من الأبنية بعضها فوق بعض ، ولقد عثر في عدة غرف من قصر ماري على نحو ٣٠ ألف رقيم من الفخار مكتوبة بالخط المسماري وهي مراسلات ووثائق واتفاقيات مع الممالك المجاورة نقلت الى باريس ، وينكب على دراستها منذ عدة سنوات عدد كبير من كبار العلماء في العالم لقراءتها وترجمتها وتوضع التقارير العلمية عن دراستها هذه الوثائق وترسل الى مديرية الآثار والمتاحف بدمشق . وبالإمكان ترجمة النصوص المنقولة عن الفخار الى اللغة العربية عن الترجمة الفرنسية ، وقد يترجمها علماء من الجمهورية العربية المتحدة رأساً عن اللغة الأكادية الى العربية . وستعاد هذه الرقيم بعد دراستها الى المتحف بدمشق وكثير من هذه الرقيم له قيمة تاريخية عظيمة ، فهي تدلي بنا بمعلومات تاريخ ماري وتاريخ البلاد الشرقية في ذلك الوقت السياسي والاقتصادي ، وعن اسماء بلدان كثيرة واسماء ملوك كنا نجهلهم فنرى منها تبادل الهبات بين ملوك ماري وملوك حلب والعلاقات بين ملوك ماري وحمورابي ملك بابل وملوك اوغاريت . وقد استؤنفت الحفريات في ماري من قبل بنفس البعثة في سنة أخرى ١٩٥١ - ١٩٥٢ . وتشابعت مواسم الحفر في تل الحيري ، وكشفت اشياء اظهرت ملامح ماري التي كانت تسود الممالك الشمالية بين خليج العرب والبحر الابيض المتوسط قبل الميلاد ببضعة قرون ، وكان لها سفراء في كل منها . وكانت مملكة بابل تسود الممالك أو المدن الجنوبية . وكانت حدود مملكة ماري تمتد الى مدينة حلب ، وقد تزوج زيمريم ملك ماري ابنة ملك حلب ياديم ليم

واسمها تشيبوا، وقد اشتبكت مملكة بابل مع مملكة ماري بحروب طويلة، واقتحم جنود همورابي ماري مرتين واحرقوها ودمروا قصرها الملكي فتحولت عاصمة الشمال الى قرية وفقدت استقلالها ثم زالت نهائيا في عام ١٨٥٠ قبل الميلاد، وكانت عاصرت الحثيين الذين كانوا في آسيا الصغرى (تركيا). وعاصرت البابليين أسياد العراق، وقاومت طويلاً اقواماً جبابرة حتى غلبها الملك العظيم همورابي العربي الذي حاول توحيد الهلال الخصيب بضم الساحل والداخل. وكانت هذه الممالك كلها تتكلم اللغة الأكادية.

وفي القرن الثامن والعشرين استولى سرجون اغاديا على ماري وخربها. غير أنه مالبث أن عاد الى المدينة فازدهرت من جديد.

وبرغم تطاول الزمن على ماري وما أصابها من تهديم وتخريب وحريق حفظ لنا قصرها في بعض قاعاته نقوشاً كانت تزين بعض الجدران تعد من أثنى اللقى النادرة المثال. وكان قصرها اضخم قصر ملكي اكتشف من آثار ذلك العصر.

ان ظهور آثار ماري دل على حضارة رفيعة ذات فن معماري على غاية من الرقي، وكشف النقاب عن عصر زاهر بلغ فيه الفن أوج الكمال، تجلى في النقوش واستخدم المعادن الثمينة والتحت والتصوير الواقعي. وقد ساعد ملوك ماري كثيراً على ترقية الفن فيها بتشجيعهم الفنانين ورعايتهم له.

ولقد وضعت البعثة قائمة بأسماء ملوك ماري الذين عرفوا حتى الآن بما قرئ من اللوحات (الرقم)، والأمل ان تتوفق البعثة في حفرياتهما الى معرفة اسماء جميع الملوك الذين رفعوا شأنها. وقد حكم هؤلاء الملوك في العصر الذي كان فيه قصرها عامراً أي بين سنة ٢٣٥٠ وسنة ١٩٧٥ قبل الميلاد. ولقد وجدت لهم في قصر ماري ثماثيل ضخمة، وكانت لهم عناية بالعلوم والآداب والمكاتب والفنون والبناء، فلا عجب أن جاء قصرها اضخم قصر اكتشف من آثار ذلك العهد، ولا يوجد ما

يضاهيه سوى قصر الامبراطور صارغون في خورسباد، احدى عواصم الآشوريين شرق الموصل .

وقصر ماري أقدم من قصر صارغون بألف سنة، وقد احتفظ قصر ماري بشكله القديم، وكانت غرفة تحتوي على أرشيف منظم (سجلات ووثائق) .
اعتبر علماء الآثار ان الحفريات التي أجريت في ماري من أهم الحفريات الأثرية التي أجريت في الشرق الأدنى منذ ٣٠ سنة، وحدث اكتشاف ماري دوبا في العالم كله . لأنها كانت من أشهر عواصم العالم القديم، تضارع بالشهرة بابل ونيوى . وبظهور هذه العاصمة تبلغ التاريخ السوري القديم بوضوح لم يكن موجود من قبل حيث ظهرت أقدم مملكة سورية .

لقد اكتشفت في اطلال ماري آثار عظيمة وأوابد فنية يعود عهدها الى زمن يمتد بين ٣٠٠٠ - ١٨٠٠ ق.م . وأهم من ذلك هو العثور على وثائق مخطوطة على الفخار، هي ألواح ماري (الرقم) تكشف لنا الستار عن معلومات متنوعة وكثيرة ومهمة وجديدة .

ان بعثة الحفريات في ماري لم تدل بعد بجميع ايضاحاتها العلمية عن تاريخ ماري لأنها ما زالت تدرس، ومازال معظم المدينة لم يكشف بعد ولذلك فإن معلوماتنا عن ماري لا تزال سطحية وستضيف معلومات ماري اضافات على التاريخ المكتوب .

لقد لفت اكتشاف ماري على شاطئ الفرات ومدينة أوغاريت في موقع رأس شمرا على الساحل السوري أنظار العالم، فأصبح اسم سورا على كل لسان، وكثرت المؤلفات والمحاضرات عن هذه الآثار العظيمة وصارت أرض سورا من مصادر التاريخ . وبفضل اكتشاف ماري وأغاريت تدفقت البعثات الأثرية على الأقليم السوري، وخاصة على منطقة الفرات في الرصافة وتل حلف والركة ومار والخابور .

وصارت الصحف السورية تكتب عن الآثار المكتشفة في الرقة وماري

الرصافة وتنشر رسوماتها. واحسنت مديرية الآثار بدمشق بإقامة معارض للمكتشفات الاثرية بدمشق، وأصدرت مجلة الحوليات الاثرية، مما جعل الجمهور السوري يمتلك وعياً أثرياً يزداد من وقت لآخر. وقد رعت وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق التي أخذت تعني بتأسيس المتاحف الاثرية في الأقليم السوري، فضلاً عن متاحف التقاليد.

توجد آثار مدينة ماري في متحف دمشق وحلب، وهي آثار فريدة من نوعها وذات أهمية تاريخية كبرى، وأن وجودها في هذين المتحفين مما يغنيهما ويعزز مركزهما وأهميتهما.

إن هذه الآثار وغيرها من آثار الأقليم السوري لما يبعث في النفس السورية العربية نشوة الفخر والاعتزاز بماضي سوريا الخافل بالروائع والأعاجاد. وانها لتطل علينا وتذكرنا بجهاد السوريين في سبيل ابداع حضارات زاهية، ما زلنا أهلاً لابداع مثلها وأحسن في عهد الوحدة الذي يتيح لنا امكانيات عظيمة ويؤهلنا لصنع حضارة مزدهرة قريبة على ضفاف القرات النهر المبارك العظيم الذي شهد قيام حضارات متعددة وزاهية على تعاقب العصور على شواطئه الخصيبة منذ فجر التاريخ.

دورا أوروبوس الميناء التدمري على الفرات (صالحية الفرات)

دخلت الحفصارة الاغريقية الى سوريا بدخول الفاتح الكبير الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ قبل المسيح وكانت قد شرعت في التسلل الى هذه البلاد منذ زمن ، وكان سلوقس الأول وخلفاؤه يحاولون جادين صبغ الشرق الادني بالصبغة الاغريقية ، وجعل الاغريق بهائم من مدنية رفيعة الطبقة الحاكمة في هذه البلاد . ومن جملة ما اعتمدوا من الوسائل انشاء شبكة من المستعمرات والمدن في سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين وفارس . فانشأوا انطاكية عاصمة الامبراطورية السلوقية على نهر العاصي ، وسلوقية القريبة من مصب العاصي ، ومدينة

اللاذقية ، ومدينة افامية ومدن أخرى على الفرات منها دورا اوروبوس ، أودورا نيكاتوريس أي مدينة نيكاتور وهو الذي أنشأها في نحو عام ٣٠٠ قبل المسيح وهو قائد من كبار الشخصيات المقدونية (٣١٢ - ٢٨٠) ق.م ومن أعوان الملك سلوقس الأول ، والارجح أنه كان حاكماً لبلاد ما بين النهرين .

ان دورا لفظة سامية آشورية تعني قلعة أو حصن أو محلة . وفي العصر المكدوني أضيف إليها لفظة أوروبوس وتعني مدينة ، وقيل انها الاسم للمدينة التي ولد فيها سلوقس الأول في مكдонيا .

ان بداية تاريخ دورا مجهولة ، وقد كانت جزءاً من المملكة السلوقية واحدى حواضرها . وقلعة من قلاع الدفاع عنها ، ومحطة مهمة على طريق تجار تمر بها القوافل التجارية بين الخليج العربي وسوريا والبحر المتوسط . ويقال ان نيكاتور نفسه هو الذي احاط المدينة بسور ليحميها من الأخطار التي تتعرض لها . وهي بحد ذاتها ذات موقع ممتاز واقعة على ضفة الفرات الغربية على هضبة مرتفعة تطل على النهر والصحراء في آن واحد فتتمتع بمركز استراتيجي وموقع جغرافي واقتصادي ممتاز . تبعد ٨٥ كم عن دير الزور الى الجنوب الشرقي و١٤٠ ميلا عن تدمر الى الشرق و٣٥ ميلا من الحبابور . ومنطقتها تفصل بين الحدود السورية والعراقية مما اعطاها هذه الميزة العسكرية في كل العصور ، ولذا عرفت ازدهاراً تجارياً عظيماً وازداد عمرانها وعدد سكانها الذين بلغوا حوالي عشرين ألفاً ، وكانوا خليطاً من العناصر والتقت فيها ديانات شتى وكثر عدد الساميين فيها واختلطوا بالمقدونيين والإغريق وقد حملت إليها هذه العناصر لغاتها وآدابها وفنونها وآلهتها وعاداتها . ولما ضعفت المملكة السلوقية استولى الفرس (الفرثيون الاركاشيون) على المدينة منذ نهاية القرن الثاني قبل المسيح وخلال المائتي سنة بعده وترك الفرثيون للمقدونيين والإغريق شطراً كبيراً من الحرية في التصرف بشؤونهم . ولما احتل الرومان سورية في سنة ٦٤ ق.م لم يمتد إليها نفوذهم لأنها كانت على الحدود بين سوريا وفارس ، وخضعت لتغيرات مختلفة ولم يستقر فيها الامر مدة ، ثم

احتلها جيش تدمر في القرن الثاني بعد المسيح ، ومنذ ذلك العهد ارتبط مصيرها بتدمر التي اخذت تزدهر بفضل التجارة . وكانت دورا ميناء لتدمر على الفرات وكانت فيها جالية تدمرية كبيرة ، وقد أثرت فيها المدنية التدمرية تأثيراً بالغاً يظهر في معابدها وتصاويرها ودياناتها ، ويحوي سورها الذي بناه نيكاتور مساحة تبلغ ١٣ هكتاراً . وكانت هذه المساحة منقسمة بواسطة شوارع متقاطعة بزوايا قائمة . وما عدا التحصينات التي كانت يونانية فإن جميع الآثار وجدت فيها هي آثار من طراز تدمر وفرتي وروماني . اما الكتابات فجميعها يونانية وبعضها تدمرية ولاينية . والتاريخ الذي يؤرخ به هو من عهد سلوقس الأول الذي يبدأ بتشرين الأول سنة ٣١٢ ق.م .

كان الفرات يجري من تحتها من الشمال ، وهي معزولة من جهاتها الثلاث بوديان ولا يمكن بلوغها الا من الجهة الغربية ولذا فقد حصنها أهلها تحصيناً متيناً ، وزادت مساحتها حتى أصبحت ٧٢ هكتاراً . وكان للمدينة ثلاثة أبواب : يقع الأول في طرفها الغربي المطل على الصحراء والى الآن يسمى باب تدمر ويقوم الثاني في جهة النهر والثالث في جنوبها ويشرف على الوادي الكبير .

واحتلها الرومان في عهد الامبراطور تراجان الذي زحف لاحتلال قسطنطين على دجلة سنة ١١٦ م . ولكن الامبراطور هارديان ترك ادارتها الى تدمر فازدهرت بازدهارها وارتبطت بها الى سقوط تدمر بيد الامبراطور اورليانوس ٢٧٣ م .

وفي ايلول سنة ١٦١ م . خربت هزة أرضية مجموع أبنية المدينة وتحصيناتها ، ثم أعيد بناء الدور ولم يعد بناء القلعة الا بعد ان استولى القائد الروماني لوسيوس فيروس على المدينة وهو الذي هزم الفرثيين تحت اسوار دورا سنة ١٦٥ م ولم تتغير صفاتها الاغريقية وصارت قلعة رومانية حصناً مستحسناً . سويس وكركلا على الخصوص . وعادت الى التدمريين مرة ثانية بموافقة الرومان . فقد كان التدمريون يقومون بالتجارة وكانوا تحت نفوذ روما ، ولما خلع

الجند الروماني الامبراطور غودريان عن العرش الروماني ، نادوا بفيليب العربي امبراطورا مكانه عام ٢٤٤ ، وبينما كان الامبراطور السابق سجيناً بجانب دورا أوروبوس اغتاله جنده .

وبعد مضي قرن عليها بيد الرومان وكان فيها حامية رومانية هاجمها الفرس الساسانيون سنة ٢٥٦ ميلادية وحاصروها ، فدافعت عنها حاميتها دفاعاً مستميتاً ، ولكي تمنع الحامية الرومانية هدم اسوار المدينة المحاصرة دعمت اسوارها من جميع الجهات بقطع من الأجر المشوي بحيث أقيم منه سور يلي السور الخارجي من الداخل ، ولكن حصار الفرس للمدينة كان شديداً فسقطت وخرها الفرس ، وجلا سكانها واهملت نهائياً .

وفي بدء القرن الرابع في عهد الامبراطور قسطنطين كانت دورا غربة ومهملة يسكنها بعض الفقراء ، ولما سار الامبراطور جوليان في سنة ٣٦٣ الى قسطنطين لم يجد الا خرائب مدينة كانت عامرة . وظلت دورا أوروبوس منسية . وان تكن خرائب الصالحية معروفة لدى الأهليين ومن الرحالين الاوروبيين الذين كانوا يسافرون على الطريق بين حلب وبغداد مارين بدير الزور والصالحية منذ القرن التاسع عشر . وسميت صالحية الفرات لوجود قرية جنوبها تدعى الصالحية من قرى قضاء ابوكمال في منتصف الطريق بين ابوكمال والميادين ، ولها طريقان . الطريق القديم ويسمى التحتاني يجتاز دورا ويمر بقرية الصالحية . والطريق الفوقاني وتقع الصالحية على شماله على بعد ست كيلومترات وله طريق فرعي يذهب اليها .

ويظهر ان بعض النصاري سكنها بعد خرابها وكان اسمها تنوسي فاسموا المكان الصالحية وكان ظهور هذا الاسم في القرن السادس الميلادي فقد جاء في المصادر السريانية ان مار دانيال الصالحى مولود في مدينة الصالحية على الفرات في جنوب الجزيرة العليا ، وقد ذاع صيت دانيال الصالحى في النصف الأول من القرن السادس . وكان في أول امره رئيس دير الصالحين وإليه ينسب . ويظهر أنه أقيم دير

فوق انقاض دورا اوروبوس سمي دير الصالحين وان اسم الصالحية انحدر إلينا من اسم ذلك الدير الذي لم يعمر طويلا . ولا توجد نصوص اسلامية عن الصالحية ، لأنها كانت خراباً عند الفتح الاسلامي لبلدان الفرات ولم يجد احد عمراتها في كل العصور الاسلامية .

والصالحية اليوم قرية صغيرة فيها مدرسة ابتدائية ومخفر للشرطة وهاتف . تبعد ٤٠ كم عن الميادين . وفي شمال القرية آثار ناعورة ماء مبنية بالأجر على ضفة الفرات الغربية قد تكون من آثار مدينة دورا أوروبوس لسقاية السهل الممتد في أسفل الهضبة من جهة الجنوب الشرقي .

يعود الاهتمام بحفريات الصالحية الى سنة ١٩٢٠ ويعود الفضل بذلك الى الانسة جرتروود بل المستشفة الانكليزية ومديرة مصلحة الآثار في العراق .

وفي سنة ١٩٢٨ تضافرت جامعة ييل الاميركية وأكاديمية الخطوط والآداب الجميلة الفرنسية على متابعة الحفر في دورا تحت ادارة السيدين فرانز كومان العالم البلجيكي ورستوفتريف استاذ التاريخ القديم في جامعة يي وبمساعدة مؤسسة روكلفر، وعهدت ادارة الاشغال الى علماء فرنسيين واميركان وبقيت الحفريات الى سنة ١٩٣٧ ولقد كشفت الحفريات عن مدينة ازدهرت في عهد الفرس الارساسيين على الخصوص وقد بنيت بشكل رقع الشطرنج على طراز المدن اليونانية بعهد الاسكندر ويوجد قصر أمير المدينة داخلها . وكانت معابدها يتألف كل واحد منها من ثلاثة أقسام : الباحة والدهليز وقاعة العبادة ، وقد كشفت الحفريات عن (١٢) معبداً وعن القاعة والاغوار والساحة وعدة حمامات . والشوارع يعود انشاؤها الى العهد اليوناني . وسوق وبضعة منازل . وتختص منازلها الخاصة باحتواء كل منها على باحة داخلية ، ومقبرة خارج المدينة وهي بشكل السرج وتقع عند باب تدمر في الجهة الغربية ، وعدة كنائس وقوس نصر ومنازل عديدة للطبقة الخاصة زينت افاريز بعضها بتصاوير مأخوذة من الفن اليوناني وكشف التنقيب عن هياكل الآلهة التدمريين وجدت فيها قطع تصويرية . وهيكل

جوبتير دوليخنوس وهيكل هدد . وقد امتزجت المعبودات الاغريقية والبربرية ، وكان معبد ارميس نانائا وهو من معابدها المشهورة في وسط المدينة ويرجع تاريخه الى تأسيس المدينة ، ومعبد اتاركاتيس . ومعبد ادونيس وزوت ثيوس ومعبد الالهة افرويت ومنزل الكهان اكتشفت سنة ١٩٢٩ وفي القرن الثالث ظهرت عبادات جديدة فيها دلت حفريات المدينة على اهميتها ، ومنها عبادة الالهة مثير التي يمثلها هيكل مزدان ، بنقوش وتصاوير . وقد زينت الكنيسة المسيحية (٢٣٢ م) بقطع تصويرية يمثل بعضها الراعي الصالح ، ووجدت حجرتا هيكلين مسيحين ، وزقورة (برج) وميدان روماني . وأهم ما عثر عليه في دورا كنيس يوهدي يرجع تاريخه الى زمن استيلاء روما على المدينة سنة ١٦٥ م هدم سنة ٢٥٦ لما حاصر الفرس المدينة لوقوعه قرب أسوار المدينة في الجهة الشرقية طلّيت جدرانه وصور عليها مشاهد من التوراة وبعض الزخارف ، ويظهر من رسمها تأثيرات الفنون الشرقية والاغريقية . وكان فنانونا المدينة يتوخون الوضوح والاتزان الفني وقيمة هذه الرسوم في قدمها ، إذ لم يعثر على ما يماثلها في القدم .

وقد نقلت هذه الرسوم الى المتحف الوطني بدمشق . وفي المتحف الوطني بحلب مجموعة ثمينة من الآثار التي وجدت في (صالحية الفرات) يعود تاريخها الى القرون الميلادية ، الأولى : لوحات حجرية منقوشة وصور ومجموعة كبيرة من الأواني الخزفية الخضراء والزرقاء ذات أشكال متعددة ، وصورة حفلة دينية وجدت على جدران معبد الالهة التدمرية .

وكشفت الحفريات عن وجود مسرح في دورا اوروبس شأن المدن السورية في العهد الروماني ، ومسرح دورا يختلف عن مسارح المدن الكبيرة . فقد اتصف بناؤه بشيء من الاستقلال في الاسلوب المعماري ، وهو مخصص للطقوس الدينية وهو صغير المساحة ، قطره حوالي (١٤) متراً وليس له منصة ، وهو على شكل نصف دائرة ممتد وله أربعة أدراج وثمانية صفوف من المقاعد المغطاة بالقرميد ، وربما



آثار حورا اور دوس

كان من نوع الاوديون (للحفلات الموسيقية) ويظهر المسرح كقصر يوناني روماني متحد مع معبد له باحة واسعة من أصل سامي .

وأهمية أبنية (دورا أوروبوس) الهلنستية : اسوارها وأبراجها التي بقيت الى زماننا، وتمتد هذه الاسوار على شكل مضلع غير منتظم وقد بنيت من أحجار جصية مقطوعة قطعاً جيداً من مقالع بقربها وتوجد بينها (مونة) جصية . أما الأبراج فإنها مربعة ومستطيلة ويبعد كل منها عن الآخر (٥٧/٨٠) متراً ويتألف كل منها من طابقين أو أكثر، وأشهرها (برج رماة الرماح) و(برج التدمريين) و(برج خماسي) في السور الجنوبي، وهذا البرج الاخير من أجملها، وبعد من أكثر الآثار الهلنستية ندرة في سوريا . ولم يبق من أبواب المدينة الا الباب الغربي المشرف على الصحراء ويحده برجان بارزان، في كل منهما بابان متداخلان يعلموهما قوس مدور وارتفاعهما (١١) متراً.

وتوجد في طرف المدينة المطل على الفرات قلعة مفصولة عن بقية احياء المدينة بوادي عرضه (١٠٠) متراً وشكلها مستطيل طوله ٣٥٠ متراً وعرضه ٥٠ م ويقوم في كل زاوية من زواياها برج طوله ٢٦ متراً ومبنية بأحجار تشبه أحجار السور . وبعض أقسام القلعة كان جرف بفيضان الفرات، وتخطيط القلعة شرقي ولا يعلم تاريخ بنائها . وبعض جدرانها مغطى بالرسوم .

لقد كان سكانها خليط من اليونانيين والمكدونيين، والتدمريين، والرومانيين، والفرس، والارمن . ومن الاراميين السوريين وهم القوم الاصليون ومن عناصر اخرى قليلة تأتيها مع القوافل التجارية التي تمر بها، وكانت كل جالية تلبس لباسها القومي، اما الكهنة فيرتدون لباساً أبيض طويل يظهر اليد الواحدة ويخفي الاخرى حتى ليجد احياناً تأثير حثي في اللباس . وكل جالية تتكلم لغتها وكان الكثير من السكان يعرف اكثر من لغة بحكم الاختلاط والمقتضى التجاري . وظهرت اللغة اللاتينية، واللغة الآرامية هي السائدة لانها لغة السكان . وأثرت تدمر في حياة السكان لمجاورتها لها ولما بينهما من علاقات

واتصالات دائمة فائرت ديانة تدمر في دورا وكذا الاغريق اثروا فيها بفن البناء والنحت والرسم والديانة .

وكشفت الحفريات عن كميات كبيرة من الخزف الاصفر الفاقع والاصفر الضارب الى الرمادي واخضرورمادي وأرقى أنواعه الخزف الاخضر المصقول المائل الى الزرقة وأشكاله متعددة، ويوجد بعضها في متحف دمشق على شكل جرار، وعلى بعضها نقوش بسيطة ويرجع تاريخ استعمال الخزف في دورا الى القرن الأول ق. م . وجدت فيها بعض النقود في القبور ويعود تاريخها الى زمن انطيوخوس (٢٨٠ - ٢٦١) وبعضها لعهد الامبراطور تراجان . وجدت آثار فنية أخرى وبعض الاساور والحلي والعقود والخواتم وأمشاط عرضة بمتحف دمشق . ان فن بناء دورا مستوى من فن البناء العسكري الذي نشر أصوله مهندسوا الاسكندر وقواده من بعده في مستعمراتهم في حوض الفرات .

لقد كانت دورا أوروبوس مدينة مشهورة في سوريا على الفرات وهي مدينة شهرتها وازدهارها الى موقعها الجغرافي الاستراتيجي الممتاز جعل منها حصناً على الحدود بين الشرق والغرب ، وكانت بؤرة التقت فيها حضارات الشعوب وثقافاتا . ولفنونها أهميتها في تاريخ الفنون . وهي وشيقاتها المدن الفراتية القديمة في الاقليم السوري تظهر أهمية وادي الفرات السوري وامكانياته العظيمة في كل الازمان .

المياذين

فئات سكان بلدة المياذين

كان عدد سكان بلدة المياذين عام ١٩٧٣ (١٦) ألفاً وهو ثلاثة أضعاف ما كان عليه في العشرينات من هذا القرن، يتألفون من الفئات التالية:

- ١ - البوخليل، مصدرهم قلعة الرحبة، من فرق الكلعيين، نسبة الى قلعة الرحبة. النسبة اليهم: خليلي وهم فرعان الأول: البوابراهيم بيوتهم البورسان والحمد الشيخ وعبد الاحمد، وطه ملأ حساني وسهو الشيخ وغين (بيت ضومحي والمهيد) والأيوب (أحمد ومحمد وعبد الله السوادي) الفرع الثاني البواسماعيل، بيوتهم (القاضي الحمش)، الناصر (عبد الله الناصر).
- ٢ - البوناصر بيوتهم العبادي زايد السوادي، طعمة اللطيف، المالح، عالج.

- ٣ - السنانيون ، منهم سليمان الملقب جروان .
- ٤ - الويسات ، بيوتهم : جعفر الصادق الرحيبي ، أحمد ومحمد السليمان ملا خالد .
- ٥ - البوم مصطفى ، مصدرهم قلعة الرحبة من فرق الكلعيين النسبة اليهم مصطفىاوي . بيوتهم : محمد الخضر ، الخليفات (الصياح) والبونا صيف (شعبي العبد الله الناصيف) .
- جمع الفئات المار ذكرها كلعينون نسبة الى قلعة رحبة مالك بن طوق جنوبي بلدة المياذين الحالية جاءوا منها .
- ٦ - المشاهدة مصدرهم من بلدة مشهد في العراق ، بيوتهم : العبد موسى الشدخان ، الشرايبي العليوي ، الدكاك ، عباس الحسين ، السعران (الخنيش والطوير) .
- ٧ - العانيون ، مصدرهم بلدة عانة في العراق . بيوتهم : رشيد النجم ، مشوح ، محمد الصالح (بداوي المحمد الصالح) ربيع ، السبتي ، الزركان ، حاج رزوكي ، بيت الرحو . النسبة اليهم : عاني .
- ٨ - الراويون من راوة جارة عانة في العراق ، بيوتهم : سيف الدين المرادي ، كمال المرادي ، حامد المرادي ، عبد الغفور الراوي ، السلاطنة (احمد السلطان وجاسم السلطان والبحر) . النسبة اليهم : راوي .
- ٩ - ديريون ، مصدرهم مدينة دير الزور ، بيوتهم أحمد البصري ، شاهر الفريخ ، عبد الله الكساري ، عبد الوهاب الفياض ، العثيش ، سعيد (حسن العلي وسليمان العلي) ، النسبة اليهم دير .
- ١٠ - بوسرايا ، مصدرهم عشيرة ابوسرايا غرب دير الزور ، بيت الشعبي سادة (حمادي الشعبي ، بيت حمد . النسبة اليهم سراوي) .
- ١١ - عكيدات ، مصدرهم من مختلف فرق عشيرة العكيدات الذين تجاوز

منازلهم وقراهم بلدة المياذين منهم بيت محمد المخلف جيجان . الويسات .
نسبتهم : عكيدي .

١٢ - سخاني مصدرهم قرية السخنة بين دير الزور وتدمر، أما من السخنة
مباشرة وأما من سخاني دير الزور: الحسون، الصوامعة، نسبتهم سخني .

١٣ - مواصلة، مصدرهم مدينة الموصل في شمال العراق، منهم بيت قاسم
المصلاوي وبيت زهور الحمد الصالح . نسبتهم : مصلاوي .

١٤ - بيت رمضان : اكراد من الجزيرة الفراتية (صالح رمضان وكمال
رمضان) لم يبق منهم أحد .

تطور بلدة المياذين

(مركز منطقة المياذين) في العهد السوري الى اليوم .

منذ ١٩٢٠ تطورت بلدة المياذين كثيراً، اتسع عمرانها، وهو أخذ
بالاتساع، وأصبح عدد سكانها ثلاثة أضعاف ما كان، وتضاعفت مساحة
الأراضي الزراعية وتطورت وسائل الري فيها من النصبه الى الغراف الى محرك
الضخ الانفجاري ودخلت الجرارات .

أحدثت فيها تغيرات عديدة هامة ساعدتها على التطور الملحوظ بالنسبة
الى السنة ١٩٢٠ وما قبلها، وأهم هذه التغيرات تعبيد الطريق بينها وبين دير
الزور، فقد كانت ترابية وجرى تعبيدها على مراحل، ثم عبدت الطريق بينها
وبين أبو كمال . ولهذه الطريق أهميتها في انعاش المنطقتين، لأنها الطريق بين حلب
وبغداد عبر وادي الفرات، وجرى تنوير البلدة بالكهرباء في السنة ١٩٥٣، وارتفع
المستوى الصحي والاجتماعي .

وانشأت بلدة المياذين مشروع مياه الشرب في السنة ١٩٦٤، وحديقة عامة
بمساحة عشرة دونات سنة ١٩٦٨ .

واخذت وزارة التربية تهتم بانشاء المدارس الابتدائية والاعدادية في مركز

المياذين وفي القرى، وفي الستينات من قرننا أنشأت مدارس ثانوية للذكور وللاتات، وشهدت المنطقة في السنوات الأخيرة حركة تعليم ملحوظة، فلا تخلو قرية من مدرسة ابتدائية.

وقد أخذت هذه الحركة تثمر بالتحاق عدد كبير من أبناء المياذين وقراها بالجامعات، وتخرج عدد منهم في مختلف الدراسات. وإنشئت فيها صالة للسينما أول مرة عام ١٩٥٥. ويقبل أبناء منطقة المياذين على المدارس في مختلف مراحلها، وعلى الالتحاق بالجامعات في سورية وفي الخارج. وبنت الحكومة مجمعاً حكومياً بمساحة ٤٦٩٢ م^٢ شغلته سنة ١٩٦٦. كما بنت مركزاً لعاش ريفي بمساحة ٤٠٠٠ م^٢ انتهى سنة ١٩٦٦ ميزانيته الداخلية ٣٠٠٠٠ ل. س وعدد موظفيه ٢٠ وعُبدت الطرق الفرعية بين الطريق العامة والقرى، وقررت الدولة إنشاء جسر على الفرات في المياذين ١٩٧٢ حيث الاتصال بين ضفتي النهر بواسطة سفينة محلية، على أن الزراعة في المياذين وقراها ما تزال متخلفة، وتخلو المنطقة من الخصر وأشجار الفاكهة. قرية العشارة وحدها تصدر البطيخ.

الجوامع في بلدة المياذين

- ١ - جامع الوسط، شيده أهالي البلدة في سوقها سنة ١٩٢٥.
- ٢ - جامع المشوح، بناه محمد شريف الملقب بـ(مشوح) في المحلة الشرقية على ضفة الفرات الغربية، جدد بناءه سنة ١٩٢٥ السيد عبد الله مشوح. وبني سياجه الخارجي ومرافقه الأستاذ محمود مشوح سنة ١٩٦٧، وقد هدمه اليوم ليجدد بناءه وشرع بالبناء (انتهى بناؤه عام ١٩٧٩).
- ٣ - جامع الغرب بنته الدولة قرب الحديقة العامة سنة ١٩٦٧.
- ٤ - جامع الحريب في محلة الوسط بناه صالح الحريب نائب المياذين سنة ١٩٥٠.

٥ - تكية الراوي في محلة الشرق بناها سنة ١٩٣٢ عبد العزيز جروان وهدمت سنة ١٩٦٠ .

٦ - جامع عبد الله العبيد بني في محلة محلة الغرب، العلوة، بينه أهل الخير .

٧ - جامع غرب دار الحكومة .

٨ - جامع عبد الله المشوح بناء ورثته .

نواب منطقة المياذين في مختلف المهور السورية .

- عبد المحسن الهفل، خريج مدرسة العشائر في استانبول من العكيدات .
- تركي النجرس، خريج مدرسة العشائر من العكيدات فرقة المثلث موطنه العشارة .

- عبود الجدعان من قرية ذيبان رئيس عشيرة العكيدات .

- صالح الحريب من بلدة المياذين فرقة البومصطفى موظف مالي .

- عبد المجيد المشوح مياذيني عاني موظف مالي ومدرس .

- عبد الوهاب الخضر مياذيني من فرقة البومصطفى مزارع .

- أحمد الجيجان من عشيرة العكيدات الشويط معلم .

- سلوم الشعيبي مياذيني من البومصطفى مزارع .

رؤساء بلدية المياذين :

رشيد النجم الزركان (عاني)، محمد الخضر، حسن الأحمد كيكي (ديري)
محمد الدخيل الأبورسان . أحمد البصري ديري . هاشم اليوسف (عاني) صبحي
الحنيش . خالد الحسن السعيد .

المفتون :

- ١ - عمر مشوح توفي عام ١٩٤٥ .
- ٢ - محمود مشوح عين بعد وفاة والده واحيل الى التقاعد سنة ١٩٦٨ .
- ٣ - الشيخ مسلم الصوفي .

القضاة :

- ١ - محمد بن سالم من ابو خليل جد حامد القاضي الذي يقيم في دير الزور.
- ٢ - حاج حميدي الشعبي أصله من البوسرايا من الخريطة .
- ٣ - عبد القادر ملا حويش ، ولادة عانة ونشأة وإقامة دير الزور.
- ٤ - صار القاضي الصلحي يشغل وظيفة القاضي الشرعي بالاضافة الى وظيفته .

المقاهي في بلدة المياذين

- ١ - أول مقهى في المياذين افتتحه عمجيل المثقال من دير الزور ١٩٠٥ بقي عشر سنوات . وفتح بعده محمد سالم من البوسنان مقهى .
- ٢ - القهوة المعلقة ، سميت بهذا الاسم لأنها كانت في طابق ثان أمام جامع الوسط الى الجهة الجنوبية ، كانت ملك جروان ومحمد الخضر مؤجرة ، استعملت في العام ١٩٢٤ وهجرت في سنة ١٩٣٧ ثم هدمت . رقصت فيها الراقصة حسية النورية ، فكان ذلك مدعاة تعليقات شتى من أبناء دير الزور وأبناء المياذين .
- ٣ - مقهى مدّاد الصياح في الحي الغربي على الشارع العام المتجه الى أبو كمال .
- ٤ - مقهى عبد الرحمن دكاك مقابل مقهى عيد الصياح .

- ٥ - مقهى عبد الرزاق الشعبي بجوار مقهى عبد الرحمن المذكور.
- ٦ - مقهى مرعي مطلق الحتر وش غرب مقهى مداد الصباح.
- ٧ - مقهى أحمد الناييف مقابل المستوصف على طريق أبو كمال.
- ٨ - مقهى حميد الشاكر أمام المجمع الحكومي.
- ٩ - مقهى صالح الضويحي أمام المجمع الحكومي.
- ١٠ - مقهى أحمد الصالح داخل المدينة.
- ١١ - مقهى عابد الدهوث مقابل مقهى أحمد الصالح.
- ١٢ - مقهى شاطيء المخلف داخل البلدة في السوق.
- ١٣ - مقهى أحمد السلطان داخل البلدة.

الدواوين وأصحابها في بلدة المياذين

الدواوين جمع ديوان، وهو المجلس الذي يتخذ شخص بارز في عشيرته أو بلده، في بيته في وقت معين من كل يوم بصورة مستمرة، يستقبل فيه زواره وضيوفه، ويقدم لهم القهوة ولفائف الدخان. ولهذه الدواوين دورها الكبير في حياة السكان، كل ديوان أشبه بالندوة، يلتقون فيها ويتحدثون، وإليها ترد الأخبار وتصدر وفيها يسمرون ويتبايعون، ويحلون كثيراً من خلافاتهم وفيها يستعرضون مشاكلهم ومشاكل بلدهم ومنطقتهم وفيها تصدر مطالبهم العامة وقراراتهم. كانت بعض الدواوين تعقد قبل الظهر. وأخرى تعقد في العصر ودواوين تعقد في الليل. لقد كانت هذه الدواوين جزءاً من تاريخهم الاجتماعي جديرة بالذكر، كما هي النوادي. وكان الديوان مجلس رئيس العشيرة وأقاربه منها لعام ومنها الخاص. كان أبناء المياذين يجارون أبناء دير الزور في اتخاذ دواوينهم. وكان اتخاذ ديوان مفخرة لصاحبه ولذا كانوا يحرصون على اتخاذها. وانه لسلوك محمود، فيه خدمة اجتماعية للمحيط اذا قيس بالمقاهي التي كلها ضرور. ويقتضي مكافحتها.

كان أبناء المياذين عندما يحضرون الى دير الزور يحرصون على زيارة الدواوين فيها . وقد انقرضت الدواوين في كل من دير الزور والمياذين . وهذه أسماء أصحاب الدواوين من الجيل السابق في بلدة المياذين أذكرهم لتقديرى سلوكهم هذا :

دواوين عامة : دخيل البورسان، وقاع البورسان، ضويحي الغين، محمد السلام، زايد الوادي طعمة لطيف جميع هؤلاء من البوخليل .
دواوين خاصة : الشيخ جعفر الويس، خلف السهو، علاوي المهيد، ضيف المهيد .

دواوين عامة : نايف المحمد العبد الجادر، حسين الحماة، ابراهيم العبد الله الجاموس، محمد الخضر، حمش الخلف، جميعهم من البومصطفى وديوان خاص : أحمد الجواد .

دواوين عامة : محمد المحمود، حاج حميدي العلي، حاج عباس الحسين، صبحي الحنيش، فائق الشلال، جميعهم مشاهدة .

دواوين عامة : المفتي الشيخ عمر المشوح، هواش اليوسف، حاج نجيب الرشيد، جميعهم عانيون أحمد البصري (ديري) سيد ابراهيم الشعبي (سراوي) سيد رجب الراوي (راوي) لافي الحسون (سخني) .
ديوان خاص : صالح العشائر (ديري) .

الرحبة

الموقع وأهميته ومواصفاته وتابعيته

من أهم المواقع والمدن التي اشتهرت في وادي الفرات الأعلى في العهدين الارامي والعباسي تقوضت في أواخر القرن السابع عشر للهجرة . وقد قامت بلدة المياذين الحالية على انقاضها ، في الربع الأخيرة من القرن التاسع عشر للميلاد . وتقع شرقي مدينة دير الزور على ضفة الفرات الغربية على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً ، وقد أفادت المياذين في بدء نشوئها من آجر انقاض الرحبة القديمة باستخراجه من سور المدينة القديمة ومن جدران دورها القديمة ، وحتى من القلعة القديمة الواقعة جنوبي بلدة المياذين على بعد خمسة كيلومترات ، فوق تل مرتفع ، قدّمن من هضبة محاذية لنهر الفرات ، تطل على سهل وادي الفرات من يمينه وشماله .

الى الآن لم يجر في موقع الرحبة القديمة تنقيب علمي ، ولذلك لا نعلم شيئاً عن تاريخها قبل القرن الثالث للهجرة ، ولا عن مساحتها وخطوطها القديمة . ولم يكتب تاريخها كاتب ولا مؤرخ لا قديم ولا حديث ، لا عربي ولا أجنبي . وفي أيام اليونان والرومان ، الذين استولوا على هذه الربوع ، لا نجد شيئاً هاماً عن مدينة الرحبة لأن المدينة كانت قد خرجت في القرن السادس قبل الميلاد . لم تذكر الرحبة في المصادر العربية الا في عهد الامير التغلبي مالك بن طوق بن عتاب المتوفي سنة ٢٥٩ هـ - ٨٧٣ م . وهذه المصادر لم تذكر إلا نثفاً قليلة عن الرحبة في سياق الاحداث الاسلامية في العصور العباسية وما تلاها من العهود ، وكذلك فإن المصادر العربية لم تذكر الا نثفاً عن أول حاكم لها مالك بن طوق العتابي التغلبي فلا نجد الا طريقاً لبعض الجيوش ، أو ملجأً لبعض القواد والامراء المغامرين أو اقطاعاً يقطعها السلطان لبعض الرجال ، وقد لاقت عبر التاريخ محناً شديدة ، فنهبت وخربت مراراً كثيرة حتى عفت آثارها ، وطمست اخبارها ، ولازمها سوء الطالع حتى انه لم تجر فيها تنقيبات أثرية علمية ، كما جرت في أخواتها المدن الفراتية غربيها وشرقيها كمدينة ماري (تل الحريري) ودورا اوروبوس (صالحية الفرات) والرصافة ، وبالس (مسكنة) في السنوات الاخيرة برغم مرور كثير من الرحالين الاجانب والأثاريين بها منذ القرن السادس عشر للميلاد الى اليوم ، وورود اسمها في مؤلفاتهم ورحلاتهم فضلاً عن ذكرها في بعض الموسوعات الاجنبية وبخاصة في الموسوعة الاسلامية التي أصدرها لفيف من المستشرقين باللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية . وشرع الاساتذة المصريون ابراهيم زكي خورشيد واهمد الشتاوي والدكتور عبد الحميد يونس بنقلها الى العربية ، وقد صدرت اجزاء من الترجمة في طبعتين قديمة وحديثة باسم دائرة المعارف الاسلامية .

لقد عز على سكان المنطقة أن ينسى ذكر الرحبة وذكر مالك بن طوق مجد بنائها فاطلقوا على قلعة قديمة آشورية اسم رحبة مالك بن طوق أميرها العربي

الأول، وشاع الاسمان مقترنان، الى يومنا، واكتفى السكان العامة والمتعلمون بذلك، دون أن يهتموا بمعرفة موقع المدينة القديمة وتاريخها وأشائها، وأمر مدينة مالك بن طوق التي ذاعت لها شهرة بعيدة في حياة مالك وبعده، وليس من المعقول ان تكون رحبة مالك هي القلعة الآشورية القديمة، واكتفى القراء من ابناء المنطقة وغيرهم رواية ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» عن سبب بناء الرحبة وربطه بالخليفة العباسي هارون الرشيد. ان رواية ياقوت الحموي هذه عارية عن الصحة. وكذلك روايات كثيرة يروها السكان عن الرحبة.

ليس سكان بلدة المياذين - وريثة رحبة مالك بن طوق. ولا سكان منطقة وادي الفرات وحدهم الذي اهملوا معرفة تاريخ الرحبة وتحقيق موقعها، وانما شاركهم في هذا الاهمال الزري كل من وزارة التربية وجامعة دمشق ووزارة الثقافة والمؤسسات الثقافية في سورية، والسوريون المعنيون بتاريخ الشرق القديم.

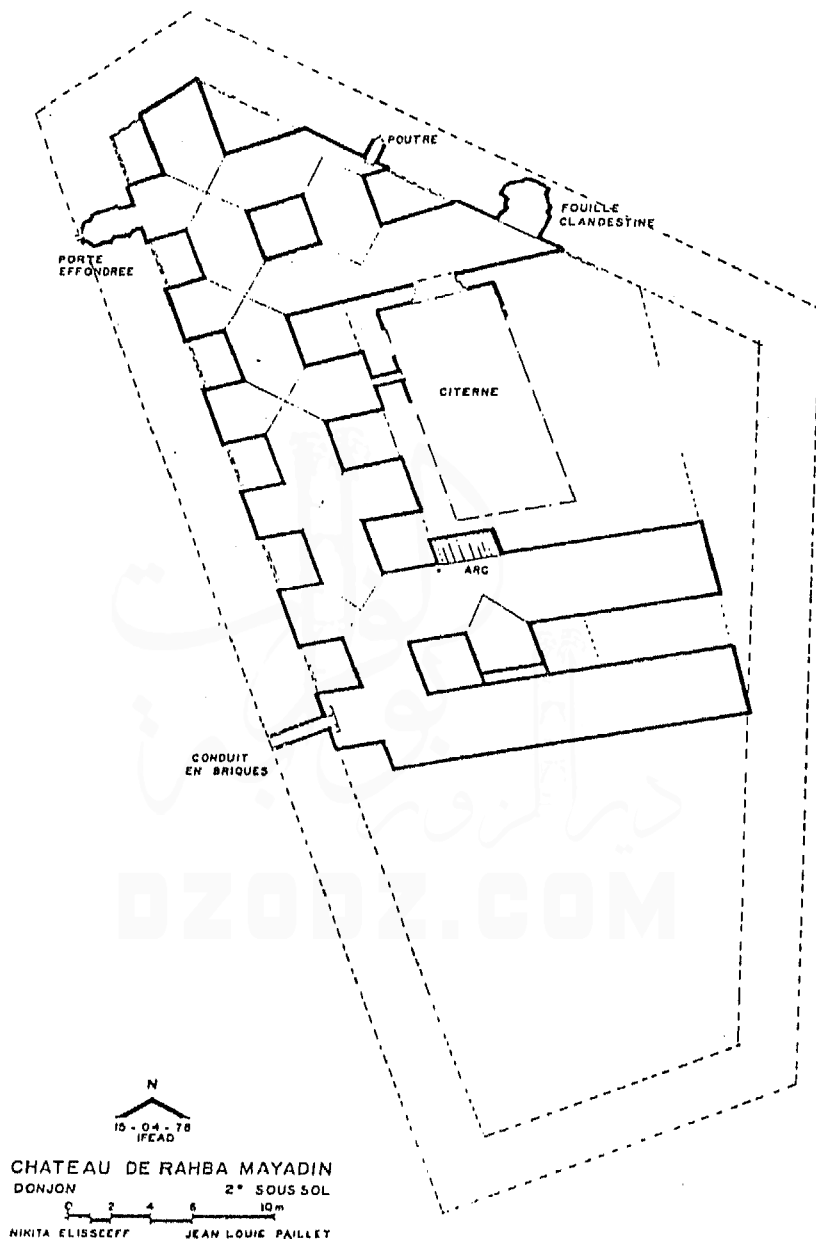
ليست الرحبة بلا تاريخ، لقد كان لها شأن خطير في الاحداث العربية في العصر العباسي وفي المملكة الفاطمية ودولة المماليك. ان تاريخها هام فهو تاريخ وادي الفرات، الجدير كل الجدارة باهتمامنا الزائد بجميع نواحيه وشؤونه وأحواله التاريخية والجغرافية وغيرهما. . . .

قال البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: «لم يكن لها أثر قديم، انها أحدثها مالك بن طوق العتابي التغلبي في خلافة المأمون» وتقول مصادر اسلامية ان مالك جدد بناء الرحبة ان «مالك» عندما عين والياً على الجزيرة الفراتية والخابور وأعمال طريق الفرات، وكان لابد له من اختيار مكان اقامة له ولرجال، لفتت اطلال مدينة الرحبة القديمة نظره، واسترعى انتباهه حسن موقعها الاستراتيجي والاقتصادي على الطريق الممتدة على ضفة الفرات الغربية، بين مدينة الانبار ميناء على ضفة الفرات الشرقية وكانت بقرب من بلدة (الفلوجة) الواقعة على ضفة الفرات الغربية على بعد ستين كيلومتراً غربي بغداد، وبين بالس (مسكنة) ميناء حلب على الفرات، شرقي حلب تبعد عنها نحو تسعين كيلومتراً، على

الطريق العامة بين حلب ودير الزور. وإشراف موقع الرحبة على بادية الشام وبادية الساوة وبادية الجزيرة الفراتية حيث منازل قبيلة تغلب الشهيرة قوم مالك بن طوق واليهما نسبته. ومن هذه القبيلة بنو حمدان الذين أسسوا دولة لهم في الموصل واخرى في حلب. قال ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض: «فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثيرة من بني قشير وعقيل وبني نمير وبني كلاب وملكوا غير بلد واقليم منها. كحوران وجسر منبج والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في أيديهم، يتحكمون في مرافقها، ورسم ابن حوقل مكان الرحبة في مصوره^١». وقد أطنب في خصب السهول المروية في الرحبة والتي على ضفة الفرات الشرقية. وإنها ذات رياض وبساتين، ينمو فيها النخيل، وكان سفرجل هذه الناحية مشهوراً (المقدسي) ذلك ان الضفة الشرقية كانت تسقى من ماء الفرات ومن ترع الخابور، وهي سهول فسيحة، بخلاف سهول الضفة الغربية فإنها ضيقة محصورة بين الفرات وهضاب وكلا الضفتان كانت في نطاق الرحبة.

وكان السهل الذي تقع فيه الرحبة والممتد على ضفة الفرات الغربية خصباً عامراً بالقرى والمدن منها الرحبة والدالية، وتعرف بدالية مالك بن طول، وهي مدينة صغيرة في أسفل الرحبة على ضفة الفرات الغربية، وكان موقع الدالية عند مصب ترعة سعيد الخير الأموي في الفرات. واحسب ان مكانها اليوم قرية «القرية» شرقي بلدة المياذين على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً. وكانت ترعة سعيد تخرج من غربي دير الزور وتخترق السهل الممتد بين دير الزور والمياذين، وتزمن جنوب الرحبة ومن أسفل قلعة الرحبة، فكان سهل الرحبة في الشامية يسقى منها ومن الفرات، ومن ذلك جاءت وفرة أشجار ونخيرات الرحبة، فضلاً عن مرور

١ - أخطأ ابن حوقل في وضع الرحبة على ضفة الفرات الشرقية بدلاً من وضعها على الضفة الغربية.



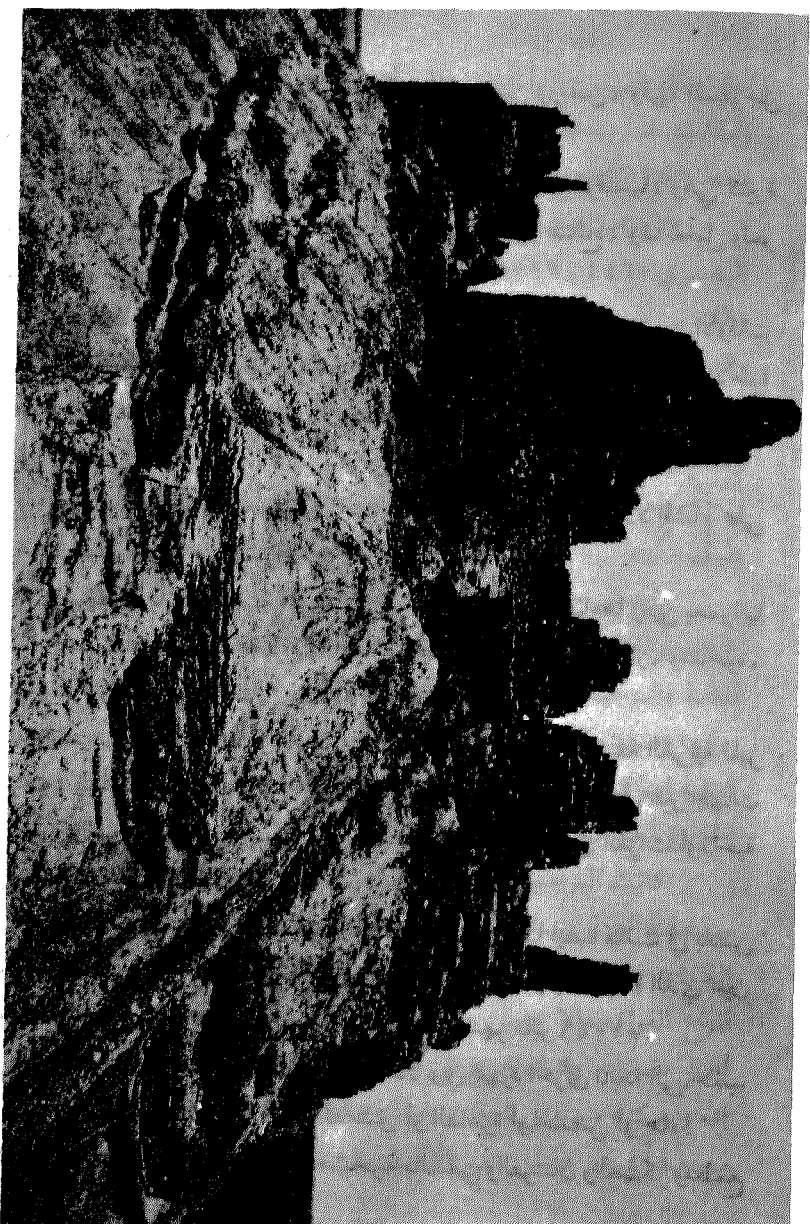
مخطط قلعة الرحبة

طريق الفرات الشهير فيها . والذي كان من أهم أسباب نمو الرحبة وازدهارها وشهرتها المستفيضة في العصر العباسي ، وما تلاها من العصور والعهود ، وبقيت لها شهرتها حتى بعد خرابها ، وقيام بلدة الميادين الحالية على انقاضها . وهي ميناء على نهر الفرات تمر بها السفن التي تمخر به .

وبحسب رأي المقدسي فإن الرحبة شيدت في شكل نصف دائري في طرف الصحراء ، تحميها قلعة حصينة في الجنوب على بعد خمسة كيلومترات على تل ، وكان يحيط بها خندق ، وحول تلها اكام كانت لحراسة المدينة ، ولحراسة موضع هام من الطريق التجاري والنهري الذاهب من مدن الفرات في سورية الى بغداد والعراق ، ويرجع بناء هذه القلعة الى العهد البابلي ، على ان فيها بناء آشورياً وفارسياً ورومانياً واضافات عربية ظاهرة حتى اليوم . وما زال خندقها ، وكانت جانب تلها مرصوفة بالحجارة ، لا تزال بعض آثارها . وقد زارها الرحالة ابن بطوطة وزار قلعة حلب ، فقال وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق (رحلة ابن بطوطة ج ١ ، ص ٤٠ طبعة مصر ١٩٢٨) .

وكانت هذه القلعة مسكونة منذ نيف ومائة سنة ، سكنها أجداد بعض سكان بلدة الميادين الحالية ، ولا يزال يسمون بالقلعيين نسبة الى هذه القلعة ، وانتسب بعضهم الى الرحبة . ويؤخذ على سكان الميادين ، انهم منذ نصف قرن الى اليوم يهدمون جدران هذه القلعة ، ليحصلوا على الأجر لادخاله في بناء دورهم في الميادين ، يحملونه على ظهور حيرهم ، بعد أن استنفذوا أجر سور مدينة الرحبة القديمة وأجر اساسات دورها القديمة . تعمل السلطات المحلية ومديرية الآثار السورية هذه القلعة ، كما اهتمت آثار اخرى في المنطقة .

وبحسب الاصطخري ، كانت الرحبة أكبر من قرقيسيا ، ويسمىها نقطة الوسط لناحية الفرات قال المقدسي في كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وأما المدن الفراتية ، فأكبرهن رحبة مالك بن طوق ، وقال : «وناحية الفرات ،



قلعة رجة طوق بن مالك (المادين)

آجلها الرحبة، مدينة كبيرة من نحو البادية، ولها حصن وربض، وفيها السفرجل الفائق».

وقال ابن حوقل: «ورحبة مالك بن طوق أكبر من قرقيسيا، وهي كثيرة الشجر والمياه... وقد عداها الاختلال، وهي ذات سور صالح، ولها نخيل وتمر وسقي كثير من جميع الغلاق».

وتذكر الروايات العربية ان هذه المدينة، كانت تعرف في وقت من الأوقات باسم «فرضة نعم» الطبري أو «الفرضة» فحسب، «ابن مسكويه» «تجارب الأمم» وكان في جوارها دير هو «دير نعم» «ياقوت» وقد كان بالقرب منها «دير حنظلة» سيأتي ذكره.

وعرفت بـ«رحبة الشام» لأنها كانت آخر ديار ربيعة، وأول بلاد الشام على الفرات، حيث يجدها من الشرق ديار العراق.

واشتهرت باسم «رحبة مالك بن طوق الذي جدد بناءها وعني بعمرائها وأمنها واقتصادها وكان له قصر فيها أو قل بلاط، وقصده شعراء كبار، ومدحوه، فيهم أبو تمام والبحري والعتابي ودعبل وغيرهم».

وسميت رحبة الفرات أو الرحبة الفراتية، لوقوعها على الضفة الغربية لنهر الفرات، ولتمييزها عن أماكن أخرى تحمل كل منها اسم الرحبة في غير جهات الفرات، والرحبة منذ تأسيسها قاعدة منطقة الفرات أو طريق الفرات أو ناحية الفرات. وكان لها حكامها الإداريون وخارجها.

وكانت مدينة الرحبة أسقفية يعقوبية على أنها أيضاً كانت في بعض الفترات نسطورية، كما يتبين من ترجمة حياة الجاثليق «إيليا الأول» الذي عين اسقفاً لهذه المدينة قبل وفاته بقليل من السادس من شهر مايو ١٠٤٩م.

في بعض عهودها كانت تابعة لبغداد، وفي عهود أخرى تابعة إلى حلب وطورا تابعة إلى الموصل وأخرى تابعة لدمشق أو القاهرة أو لخمص أو حماء. وكانت دوماً مركز ناحية كبيرة، مشحونة بالسفن والفرسان والعسكر ومطعم

انظار المغامرين والمساومين على أهميتها الاستراتيجية والجغرافية والاقتصادية .
ولذلك كثرت عليها أيدي الطامعين وجر عليها حسن موقعها الولايات . عاشت
وسط القتال تلعق جراحها .

ولاستفاضة شهرة الرحبة ، فقد سمي أبو محمد القاسم بن علي الحريري
البصري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) المقامة العاشرة ، بالمقامة الرحبية ، نسبة الى مدينة
مالك بن طوب . أي أن الحرير ، أسلك الرحبة في جملة المدن المشهورة في عصره ،
والتي سمي مقاماته بأسمائها ، كالمقامة الكوفية ، والمقامة الاسكندرانية ، والمقامة
البغدادية ، والمقامة الدمشقية ، والمقامة المكية ، والمقامة الحلبية والمقامة البصرية .
وهذا أول المقامة الرحبية .

«حكي الحارث بن همام قال : هتف داعي الشوق بي الى رحبة مالك بن
طوق . . .»

وقد شرح ابو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي ، أحد أئمة
الأدب واللغة من الاندلسيين الذين عاشوا في كنف دولة الموحدين ، قال في شرح
لفظة «الرحبة» : «والرحبة مدينة شهيرة من عمالة الفرات ، بناها مالك بن طوق
وليها فنسبت اليه ، واليها تنسب الثياب الرحبية ، وتعرف برحبة الشام . . ومالك
كنيته ابو كلثوم ابن مالك بن عتاب ، وكان جواداً ممدوحاً ، شجاعاً ، أميراً على
الجزيرة ، مسكن قومه بني تغلب . . .» .

كانت الرحبة مشهورة بثيابها الرحبية القطنية ، فقد كان القطن يزرع في
سهولها التي يروىها الفرات ونهر سعيد الخير على ضفة الفرات الغربية ، ويروىها
الفرات وترع الخابور على ضفة الفرات الشرقية . وكانت هذه السيول تنبت من
أنواع الفواكه مالا يحصى ، اليك ما جاء في رحلة ابن بطلان المتطبيب الراهب من
أهل بغداد ، وكان خرج من بغداد الى حلب . قال : «وكننت خرجت على اسم
الله وبركته مستهل شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة (كانون الثاني ١٠٤٩
م) بعداً في نهر عيسى على الانبار ، احد الانهار المتفرعة من الفرات) ، ووصلت

الى الرحبة بعد تسع عشرة مرحلة، وهي مدينة طيبة، وفيها من أنواع الفواكه ما لا يحصى، وبها تسعة عشر نوعاً من الأغراب، وهي متوسطة بين الانبار وحلب وتكريت والموصل وسجار والجزيرة. وبينها وبين قصر الرصافة مسيرة أربعة أيام . . .» .

ان حجي خليفة بحسب من عانا الى الرحبة ثلاث أيام سفر، ومن الرحبة الى الديردير الزور يوماً واحداً (جهان نامه) والمسافة اليوم بين عانا والرحبة نحو مائتي كيلومتر ومثلها بين الرحبة والرقه. وبينها وبين حلب ٣٥٥ كيلومتراً، وبينها وبين دمشق عبر بادية تدمر ٤٦٠ كيلومتراً.

تاريخ موقع الرحبة قبل العصور الكلاسيكية

سكن الانسان ناحية الفرات منذ العصر الحجري، وكانت له حضارته البدائية التي كشف التنقيب العلمي عنها مؤخراً في قرية بقرص من قرى منطقة المياذين. وعرفت المنطقة الانسان السومري والأكادي والآشوري والآرامي، وكانت موجات من الجزيرة العربية تفسد الى وادي الفرات بسبب الجفاف في الجزيرة طلباً للماء والكلاً والمراعي، وفي هذه الموجات البشرية كان الآراميون الذين انتشروا في انحاء وادي الفرات وبلاد ما بين النهرين، واسهموا في عمران هذه البلاد ونشروا لغتهم وآدابهم، ومكنوا لاستقرارهم وسط اقوام أخرى، واستطاعوا أن يؤسسوا على شواطئ الفرات امارات وممالك صغيرة آرامية مزدهرة كانت كل منها ذات حكم ذاتي محلي تحت نفوذ ملوك بابل، ثم تحت نفوذ ملوك آشور. ومن وادي الفرات انطلق الآراميون الى بقية أنحاء سورية، يؤسسون الممالك الآرامية في حلب وحماه ودمشق وفي بلاد ما بين النهرين.

ومن الامارات الآرامية على الفرات: بيت أديني، أو (عدن) وهي منطقة الرقة، وكانت عاصمتها تل برسيب، وامارة زوحي ولاقي، بين نهري الخابور والبلخ، وموقعها منطقة حلبية ومنطقة زلبية حالياً، ومملكة رماني بين الفرات

وينابيع نهر البليخ، وامارات (آرام بيت رحوب) منطقة الرحبة القديمة، والمياذين حالياً.

ومدينة الرحبة عريقة في القدم يرتقي تاريخها الى حوالي القرن العشرين قبل الميلاد وعندما أسسها الآراميون اماراتهم في موقعها استبقوا اللفظة القديمة مع اخضاعها الى أصول اللغة الآرامية. وهي لفظة سامية قديمة وتعني الرحابة والوسع، وذكرت بكونها مسقطاً لرأس أحد ملوك آدوم، وسلسلتهم في الاصحاح السادس والثلاثين والعدد ٣١ - ٣٩ من سفر التكوين «التوراة».

وبعد أن يأتي الكاتب على ذكر ملوك آدوم، اعتباراً من بالغ بن بعور حتى سملة، وهو الملك الخامس في هذه السلسلة، يقول: «مات سملة، فملك مكانه شارك الأول من رحبوت النهر».

ثم وقعت رحبوت بيد الآراميين عند استيلائهم على المدن السورية في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، واسسوا فيها مملكة، سميت (آرام بيت رحوب).

ان كلمة بيت في الآرامية تعني دائماً: موضع، أو محل، أو بيت ونرى هذه الكلمة في اسم رحبوت، ورحوبوت، وفي الآرامية القديمة «رحبوتا» ومعناها الأماكن الرحبة، وهي أسماء لمدينة واحدة. وهذا الخلاف في التسمية، يعود الى أصول اللغة الآرامية. فعند استيلاء الآراميين على هذه المدينة قدموا مقطع (بيت) على رحوب بحسب لغتهم، فقالوا: بيت رحوب عوضاً عن رحبوت وقد ذكرت «آرام بيت رحوب» مرات كثيرة في التوراة وقد عين موقعها على نهر الفرات.

وعرفت بهذا الاسم مدينتان، الاولى كانت بين نينوى وكالاح من حواضر الآشوريين في الشمال وهي مدينة أسسها آشور، أو نمرود، في أرض آشور والثانية على الفرات، وهي التي بنيت على انقاضها مدينة رحبة الأمير مالك بن طوق في

المعهد العباسي ، وبنيت على أنقاض هذه بلدة الميادين الحالية مركز منطقة الميادين في محافظة الفرات السورية .

كانت هذه الامارات على الفرات على اتصال دائم مع بعضها البعض ، ومع الممالك الآرامية الاخرى في سورية وفي بلاد ما بين النهرين بدافع القومية الواحدة والمصلحة المشتركة والدفاع عن كيانها تجاه أقوام وممالك طامعة بأرضها وبخيراتها وباخضاعها واستعبادها .

كانت امارة الرحبة الآرامية تتمتع بمنزلة مرموقة أتاحتها وفرة مياهها وخصوبة أرضها وحسن موقعها وازدهارها ، فكانت عضواً فعالاً في جسم الامبراطورية الآرامية بزعمارة مملكة دمشق الآرامية . وقد أسدت الى دمشق الآرامية يداً كريمة ، حيث ساعدتها عسكرياً ، عندما اصطدمت مملكة دمشق بمملكة اسرائيل في أواسط القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وذلك عندما قرر داود ملك اسرائيل مهاجمة الآراميين في عقردارهم . فاستنجد ملك دمشق الآرامية اخوانه الآراميين ، فهبوا لنصرته ، وألقوا حلفاً آرامياً قوياً . وكان لآرامي «الرحبة» اليد الطولى في هذا الحلف . فقد قدموا الى هذا الحلف زهاء عشرين ألفاً من الجنود المدربة والمسلحة ، من أبناء الفرات .

وقد بلغ الآراميون بعد هذا التاريخ أوج عزهم ، فكانت مملكتهم تسيطر على المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين - وهي منطقة آشورية - وخضعت لهم بلاد آشورية . كان ذلك في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، هبت آشور واكتسحت الامارات الآرامية وغيرها ، وسيطرت على بلاد ما بين النهرين الى حدود بابل ، وقسمتها الى ولايات صغيرة ، وفرضت عليها الجزية . ولم يبق للآراميين الا بيت ديني ، ومالئ الملك الآشوري ، آشور ناصربال ، ان هاجمها وطوقها ، فاستسلمت اليه ، واجبر ملكها «اهين» على دفع الجزية ونقل من سكانها الآراميين ألفين وأربعمئة الى مدينة كالح على نهر دجلة ، كما كان شأن بعض ملوك آشور في البلاد التي يفتحونها ، لكي يأمنوا انتفاضات سكانها عليهم ، ولكن

ذلك لم يكن مجدياً ولا حائلاً، دون تصدع الامبراطورية الآشورية وثورات الشعوب المغلوبة لاستعادة حريتها.

وزحف الملك الآشوري شلمنا الثالث على هذه الربوع مرتين متعاقبتين في السنتين ٨٥٨ و ٨٥٧ قبل الميلاد، واخضع ما تبقى من المدن الآرامية ومن بينها (بيت أديني) و(بيت رحوب) وأخذ منها الجزية فضة وذهباً ونحاساً وآنية نحاسية، وغللات زراعية، وأعقب ذلك خرابها.

لقد شاركت مدينة رحبوت أخوتها المدن الآرامية صعوداً وهبوطاً، فنهضت معها، ووقفت الى جانبها وأفلت بافولها. ولم يستطع الزمن أن يعفي على أسسها، بل زادته حقب متعاقبة متفاوتة انتشاراً وذيوغاً، ولقد رجوت من هذه الدراسة المتواضعة بان يكون حزمة حطب جزل على نار اسم الرحبة فتزيده اشتعلاً وتوهجاً وارتفاعاً وسناء، فيمتد الى أزمنة أخرى، ان الفرات يتيمني، وتهميني مدنه القديمة والحديثة فاطلب لها جميعاً ذبوع الصيت والخلود. ومن أجل ذلك اكتب محاولاتي الفراتية.

تاريخ الرحبة في العصر العباسي

ان تاريخ الرحبة في العصر العباسي، انما هو تاريخ باعث عمرائها وأول ولائها الامير مالك بن طوق العتابي التغلبي، وكنيته أبوكلثوم، فلا بد لنا من الوقوف عنده بعض الوقت، نتعرف شيئاً عن اخباره وملاحمه، ما اسعفتنا المصادر على ندرتها.

ان اخبار هذا الوالي العباسي قليلة جداً وغامضة لا تشفي غليل الراغب بمعرفة شخصيته، ولم يترجم له أحد من المؤرخين والكتاب المعاصرين سواء من العرب أو من غيرهم على أهمية هذه الشخصية. والتي تهم أبناء وادي الفرات لأن تاريخها جزء من تاريخ وادي الفرات في فترة زاهية تبعث على الفخر والاعجاب. بضعة أسطر وردت عنه في ابن خلكان، لم يزد عليها صاحب الاعلام.

عرف الخلفاء العباسيون أهمية منطقة الفرات العسكرية والاقتصادية الكبيرة، والجغرافية والسكانية لخصب أراضيها ووفرة مياهها وكثرة مدنها وقراها ومرور طرق كبيرة فيها، ولتوسطها بين العراق والشام والحدود البيزنطية ولأنها مجال عشائر عربية ذات حول وطول. فأولوها عناية كبيرة واهتماماً زائداً، فكانوا يولون امرة انحائها ومدنها كبار ولاتهم وقوادهم ووليها بعض أولياء العهد. فمن ولي الرقة المهدي ولي عهد المنصور وعبد الملك بن صالح بن علي من الهاشميين، والقائد طاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر، وكانت مصر مضافة اليه، يولى عليها والياً من قبله وهو مقيم في الرقة.

لقد خبر خلفاء بغداد مالك بن طوق، وقدروا كفاءته ونسبه التغلبي. وحسبوا حساب قبيلته تغلب الكبيرة ومنزلتها الرفيعة قبل الاسلام وبعده ومنازلها في الجزيرة الفراتية بين الحلابور والرقة وفي منطقة البشري في الشامية، مما يلي الفرات، فاختراروا مالكا والياً على (ناحية الفرات) أو (طريق الفرات) كما كان يسمى في العصر العباسي، وهي المنطقة الممتدة بين عانة وبالس (مسكنة) والتي عرفت مؤخراً بمصطلح (الزور).

لم تسعفا المصادر بمكان ولادة مالك ولا بتاريخ ولادته، وكان نشأته وتاريخ تعيينه والياً على الرحبة ولا تاريخ عزله عنها، وتعيينه مرة ثانية ولا تواريخ اتصال مادحية الشعراء به، واختلفت الروايات في تاريخ وفاته روى انه توفي في السنة ٥٢٩هـ - ٨٧٣م وروي أنه توفي في السنة ٢٦١هـ - ٨٧٥م.

نفيد من رواية البلاذري ان تعيين مالكا والياً على الرحبة كان في خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨).

ان الرواية التي رواها ياقوت الحموي في معجمه (معجم البلدان) في مادة الرحبة والتي ملخصها أن الرشيد اجتاز الفرات بسفينة ومعه مالك بقرب الرحبة، فانقلبت السفينة بمن فيها، وكان مالك حذر الرشيد من ركوبها وأن الرشيد اقطع هذه البقعة، ثم عصى مالك على الرشيد فاخضعه وحمل مكبلاً بالحديد الى

بغداد وأمر الرشيد بضرب عنقه ، فأنشده أبياتا يستعطفه فيها على صبية له صغار فعفى عنه ، ان هذه الرواية ملفقة لا أساس لها .

ان الابیات التي ذكرها ياقوت الحموي على أنها لمالك ، هي الى تميم بن جميل السدوسي ، كما جاء في كتاب (المستجد في فعلات الأجواد) للمحسن التنوخي ، تحقيق الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي العام ١٩٤٦ - ص ١١٧ - ١١٨).

وكان تميم هذا هو الذي خرج بشاطئ الفرات . والتف حوله كثير من الأعراب ، فعظم امره ، وبعد ذكره ، فكتب الخليفة المعتصم الى مالك بن طوق ان يحاربه . فهزمه وظفربه ، فحمله موثقاً الى باب المعتصم ، ولاتصال حياة تميم بن جميل السدوسي بتاريخ وادي الفرات وبحياة مالك بن طوق أذكر أبياته وقصتها :

قال أحمد بن أبي داود : « مارأيت رجلاً ، عاين الموت ، فما هاله ، ولا شغله عما كان يجب عليه ان يفعله الا تميم بن جميل ، فإنه لما مثل بين يدي المعتصم ، فاحضر السيف والنطع ، واوقف بينهما تأمله المعتصم ، وكان جميلاً وسيماً ، فأحب أن يعلم اين لسانه من منظره فقال تكلم : يا تميم . فقال : أما اذا اذنبت يا أمير المؤمنين ، فأنا اقول : الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدا خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء معين ، جبر بك صدع الدين ، ولم بك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، واخذ بك شهاب الباطل . ان الذنوب تحرس اللسان الفصيحة ، وتعبي الأفئدة الصحيحة ولقد عظم الذنب ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق الا عفوك أو انتقامك وأرجو أن يكون أقربها مني ، وأولاهما بكرمك ، ثم قال :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا	يلا حظني من حيث ما اتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي	وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرئ يأتي بعدد وحجة	وسيف المنايا بين عينيه مصلت

وما جزعي من أن أموت وأنني لا علم ان الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة اذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره وأخر جذلان يسرويشمت
فتبسم المعتصم وقال: يا غيم قد وهبتك للصبية وغفرت لك الصبوة، ثم
أمر بفك قيوده، وخلع عليه.

إن (مالك) عندما عين والياً على طريق الفرات والجزيرة الفراتية والخابور.
اتخذ من موقع الرحبة مركزاً لآمارته، فجدد بنائها وأقام فيها مدة طويلة. وكثر
سكانها في عهده، بالنظر لحسن موقعها ووقوعها على طريق هامة هي ثانية طرق
المملكة العباسية. وكانت الطريق الأولى هي التي تذهب من الموصل الى حلب
عبر الجزيرة الفراتية. مارة بنصيبين ورأس العين، تحتاز الفرات عند جسر منبج
وتتوجه الى بزاعة ومنها الى حلب. فضلاً عن الطريق المائي وهو الفرات.
وقد كان مالك أميراً جواداً وفصيحاً وفارساً شجاعاً وشاعراً، محباً للشعر
يرويهِ، ويشجع الشعراء في الرحبة ومدحوه بقصائد جيدة، ومن هؤلاء الشعراء
أبو تمام الطائي والبحثري، والعتابي ودعبل الخزاعي وابن أبي الشيص، وبكر بن
النطاح وغيرهم.

وكان مالك والياً على الرحبة في عهد المأمون وعهد المعتصم (٢١٨ -
٢٢٧هـ). وجاء في (قوات الوفيات) لابن شاعر الكتبي في مالك: «صاحب
الرحبة»، أحد الاشراف والفرسان الأجواد، ولي امرة دمشق للمتوكل، كان ينادى
على باب داره بالخضراء، وكانت دار الامارة، بعد المغرب، الافطار يرحمكم الله،
قال: والابواب مفتحة، يدخلها الناس، توفي سنة تسع وخمسين ومائتين، وهو
الذي بنى الرحبة على الفرات، واليه تنسب».

يستفاد من هذه الرواية ان مالكاً عزل عن الرحبة، ثم أعيد اليها ولعله
عزل عن الرحبة في خلافة المتوكل، لشغب قبيلته تغلب عليه في الجزيرة الفراتية.

وتخاصمها فيما بينها فأتعبت وأتعبت المتوكل وأجرى الصلح بينها وأقر الأمن في الجزيرة الفراتية، وكان حازماً شديداً، بطش بمن خرج عليه من بني قومه ومن غيرهم، وطردهم، ثم جاءوا مستغفرين، فشفع فيهم الشاعر أبو تمام ضيف مالك في الرحبة، فعفى عنهم.

فقال أبو تمام من قصيدة يمدح مالكاً ويخاطب بني تغلب:

مهلا بني غنم بن تغلب انكم	هدف الأسنة والقنا يتحطم
فستذكرون غداً صنائع مالك	إن جلّ خطب أو تدفع مغرم
ان تذهبوا عن مالك أو تجهلوا	نعما فالرحم القرية تعلم
كانت لكم اخلاقه معسولة	فتركتموها وهي ملح علقم
فقساً لتزدجروا من يك حازماً	فليقس احياناً على من يرحم
واخافكم كي تغمدوا أسيافكم	ان الدم المعتر يحرسه الدم
ولقد علمت لدن لججتم أنه	ما بعد ذاك العرس الا المأتم

لأبي تمام عدة قصائد في مالك من عيون الشعر العربي انشدها في مدينة الرحبة. وحسب ابنائها فخراً أن يشرف مدينتهم شاعر كبير كأبي تمام، وإن ينشد فيها قصائده في أميرها، وتشارك هي في وحي هذا الشعر، ويصدر عنها، كما لو كان أبو تمام من أبنائها، فإن لم يكن من الرحبة ذاتها، فهو فراتي من قرية جاسم بمنبج، وحسب الرحبة فخراً أن يزورها أبو تمام، ويقيم بين أهلها وينشد شعره أميرها في قصره، ويستمعوا هم إليه، وما احسبهم إلا قد حرصوا على تقييده في دفاترهم وعلى استظهاره، وترويته لابنائهم وأحفادهم.

على أن الرحبة ليست وحدها التي تفخر بقصائد أبي تمام في أميرها الفارس الشاعر الفرات كله يفخر بذلك ويزهو.

لقد تميت لو أن أديباً أو متأدباً من أبناء الميادين أو من أبناء الفرات، يدرس شعر أبي تمام الذي انشده في الرحبة، ذلك أن هذا الشعر جزء من أدب وادي الفرات، جدير مع غيره من الأدب الفراتي باهتمام أبناء الفرات ودراستهم.

من قصائد أبي تمام في مالك تائيته ، وتقع في اثنين واربعين بيتاً ، نوه فيها
بجود بني عتاب عشيرة مالك ، وأشار الى الخلاف المستحكم بين مالك وقومه وذكر
أياماً مشهورة لتغلب ، واثني على بطش مالك بمن أساءوا إليه ومطلعها :
لو أن دهرأ رد رجع جواب أو كف من شأويه طول عتاب
ومنها :

لا جود في الأقوام يعلم ما خلا
متدفقاً صقلوا به أحسابهم
قوم اذا جلبوا الجياد الى الوغى
يا مالك بن المالكين ولم تزل
للجود باب في الأنام ولم تزل
يا مالك استودعتني لك منة
يا خاطباً مدحي اليه بجوده
هم صيروا تلك البروق صواعقاً
فأقل اسامة جرمها واصفح لها
لارقة الخضر اللطيف غدتهم
فإذا كشفتهم وجدت لديهم
أسبل عليهم ستر عفوك مفضلاً
وقصد الشاعر البحري مالكا في السنة ٢٢٦ هـ وكان البحري في

العشرين من عمره ومدحه بقصيدة جيدة أوحتها شخصية مالك القوية وجوده
ومنزلة الرحبة وشهرتها ، جاء فيها :

بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذ
عطن الوفود فمنجد أو متهم
القوا بجانبها العصي وعولوا
ملك له في كل يوم كريمة
ب المشارب والجناب المعشب
أو وافد من مشرق أو مغرب
فيها على ملك اغرمهذب
إقدام ليث واعتزام مجرب

وتراه في ظلم السوغي فتخاله
يا مالك بن المالكين الألى
اعطيتني حتى حسبت جزيل ما
فشبت من برّ لديك ونائل
فلتشكرنك مذحج ابنة مذحج
ومتى تغالب في المكارم والندى
قمرأ يشد على الرجال بكوكب
ماللمكارم عنهم من مذهب
اعطيتنيه وديعة لم توهب
ورويت من أهل لديك ومرحب
من آل غوث الاكشرين وجندب
بالتغلبيين الأكارم تغلب

ومن وفد على مالك في الرحبة من أئمة الشعر والادب كلثوم بن عمرو
العتابي قريب مالك . وقد أنس مالك بضيفه الاديب الكبير ، وأكبره وارتاح الى
وجوده ورآه أهلاً كي يئشه شكواه من خروج عشيرته ، وكيف تدل عليه وستكبر وتستطيل .
فيقول له الاديب العتابي : «ايها الأمير : ان عشيرتك من أحسن عشرتك ، وان
عمك من عمك خير ، وان قريبك من قرب منك نفعه ، وأن أحب الناس اليك
اخفهم ثقلاً عليك» .

ويغلب على الظن ان الشاعر دعبل الخزاعي قصد مالكا في الرحبة ومدحه
بشعره ، وأجازه مالك ، ويظهر أن دعبل استقل عطاء مالك ، أو استبطأ عطاءه
ودعبل حاد المزاج ، مولع بهجاء الولاة والملوك ، فهجا مالكا هجاء مقذعاً ، وهجا
قومه تغلب ، وهرب الى البصرة ، وعليها اسحق بن العباس وكان ممن هجاهم
دعبل ، فضاقت به البصرة ، فهرب الى الاهواز ، فبعث مالك من يتبعه ليقته ،
حتى وجده في قرية من نواحي السوس في الاهواز ، فضرب ظهره بعكاز لها زج
مسموم ، فمات من غد السنة ٢٤٦هـ ، وكانت ولادته في السنة ١٤٨ هـ .

كان مالك بن طوق يقول باتصال نسب بنسب عمرو بن كلثوم التغلبي
صاحب المعلقة المشهورة واحد فرسان تغلب وسادتها فهجا دعبل مالكا حتى في
هذا الامر حيث قال :

الناس كلهم يعدو لحاجته
ومالك ظل مشغولاً بنسبته
ما بين ذي فرح منهم ومهوم
يروم منها بناء غير مهوم

يبي بيوتاً خراباً لا أنيس بها ما بين طوق الى عمرو بن كلثوم
ومما هجا به تغلب عشيرة مالك قوله :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يرونها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤول
وممن قصد مالك في الرحبة من الشعراء ابن أبي الشيص محمد بن عبد بن
رزين الخزاعي جاء يحمل كتاب توصية به الى مالك من الحسن بن وهب بن سعيد
الحارثي ، أبو علي الكاتب والمتوفى العام ٢٥٠هـ و٨٦٥م ، من الشعراء كان
معاصراً لأبي تمام له معه أخبار ، وكان وجيهاً استكتبه الخلفاء ، ومدحه أبو تمام ،
وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي) ولما مات رثاه البحتري بأبيات وهذا نص
الكتاب الذي حمله ابن أبي الشيص الى مالك ، أورده للعلاقة بين مالك والحسن
بن وهب والاتصال الكتاب بحياة مالك :

«كتابي اليك ، كتبته بيدي ، وفرغت له ذهني ، فما ظنك بحاجة هذا موقعها
مني؟ اتراني أقصر في الشكر عليها ، أو أقبل العذر فيها؟» .

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه : «أقبل اعرابي من بني أسد الى مالك بن
طوق ، فأقام بالرحبة حيناً ، وكان صعلوكاً في عباءة صوف وشملة شعر ، فكلما أراد
الدخول منعه الحجاب ، وشتمه العبيد وضربه الاشراف ، فلما كان في بعض الأيام
يخرج مالك بن طوق ويريد التنزه حول الرحبة ، فعارضه الاعرابي ، فضربوه
ومنعه ، فلم يشنه ذلك ، حتى أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : أيها الامير اني عائد بالله
من أشرطك هؤلاء ، فقال مالك : فدعوا الاعرابي ؟ هل من حاجة يا اعرابي ؟
قال : نعم اصلح الله الأمير ، ان تصغي اليّ بسمعك ، وتنظر اليّ بطرفك ، وتقبل
اليّ بوجهك . قال : نعم فأنشد الاعرابي يقول :

يبابك دون الناس انزلت حاجتي وأقبلت أسعى حوله وأطوف
ويعنني الحجاب والستر مسبل وانت بعيد والشروط صفوف
يدورون حولي في الجلوس كأنهم ذئاب جيع بينهن خروف

فأما وقد أبصرت وجهك مقبلاً
ومالي من الدنيا سواك ولا لمن
تخطى أعناق الملوك ورحلتي
فجئت أبغي اليسر منك فمربي
فلا تجعل لي نحو بابك عودة
فأصرف عنه انني لضعيف
تركت ورائي مربع ومصيف
اليك وقد أخذت علي صروف
ببائك من ضرب العبيد صنوف
فقلبي من ضرب الشروط محوف

فاستضحك مالك، حتى كاد أن يسقط عن فرسه. ثم قال لمن حوله:
من يعطيه درهماً بدرهمين، وثوباً بثوبين. فوقع عليه الدراهم والثياب من
كل جانب ثم قال له: هل بقيت لك حاجة يا اعرابي؟ قال أما اليك فلا. قال:
فألى من؟ قال: «إلى الله أن يبيحك للعرب، فلأنها لا تزال بخير ما بقيت لها».

«جلس مالك بن طوق في قصره في شبك مطل على البرية، ومع جلساؤه
فاقبل اعرابي تحب به نافته. فقال إياي أريد، ونحو قصد. ولعل منه أدباً، ينتفع
به. ثم أمر بادخاله. فلما مثل بين يديه قال: ما أقدمك يا اعرابي؟ قال: سيف
الأمير، ورجاء نائله، قال هل قدمت أمام رغبتك وسيلة؟ قال نعم: أربعة أبيات
قلتها بظهر البرية، فلما رأيت ما بباب الأمير من العيبة والجلال استحققتها
واستصغرتها.

قال مالك: فهل لك أن تنشدنا أبياتك، على أن نجزيك عليها ألف
درهم، فإن كنت ممن أحسن ربحنا، والا فقد نلت مرادك، وربحت، قال
رضيت - وأنشده:

ومازلت أخشى الدهر حتى تعلقت
فلما رأيته الدهر تحت جناحه
رأني بحيث النجم في رأس باذخ
فتى كسما الغيث والناس حوله
يداي بمن لا يتقي الدهر صاحبه
رأى مرتقى صعباً منيعاً مطالبه
تظلل السورى اكنافه وجوانبه
إذا قحطوا جادت عليهم سحائبه
فقال مالك: والله ما قيمتها الا عشرة آلاف درهم. فأمر له بها.

كان مالك يحب الشعر الجيد ويرويه ، وكان يقيد ما يستحسن من الشعر في دفاتر يلازمها في مجالسه ، ينظر فيها من وقت إلى آخر.

حدث عبدون الحراني قال : «دخلت على مالك بن طوق ، وعنده العتابي وعليه جبة صوف وكساء صوف ، وفي يده دفتر ، فرفع رأسه إليّ فقال : قاتله الله ما أشعره . قلت من يا أبا عمرو؟ قال ، الذي يقول :

إذا نحن اثنيينا عليك بصالح
فانت كما نثني وفوق الذي نثني
وان جرت الالفاظ منا بمدحة
لغيرك انساناً فانت الذي نعني

قلت : من هو يا أبا عمرو؟ قال : أوماتعرفه؟ قلت : لا . قال الذي يقول . . . وانشد أبياتاً أخرى ، ثم تكرر انشاد الشعر والسؤال عن الشاعر . حتى عرف آخر الأمر أن الشاعر الذي يتغنى مالك بقوله ويلهج بفضل هو ابونواس .

وكما سبق للرجة أن أرسلت نجدة كبيرة من الجند الى آرامي دمشق عند مهاجمة دولة اسرائيل لها في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ترسل بعد مرور عشرين قرناً في القرن التاسع عشر للميلاد نجدة الى بغداد . قال ابن الاثير في كتابه (الكامل) في حوادث السنة ٢٥١هـ :

«وفي هذه السنة بويح للمعتز بالله ، وكان بسامرا . وكان المستعين خليفة مستقراً ببغداد فاستاء منه جماعة الاثراك ، فعملوا على استخلاف المعتز بالله ، وكان محمد بن عبد الله في معية المستعين في بغداد . ولما اتصل بمحمد بن عبد الله خبر بيعه المعتز ، أمر بطع الميرة عن أهل سامرا ، وكتب الى مالك بن طوق في المسير الى بغداد هو وأهل بيته وجنده ، وكتب الى آخرين في منع السفن والميرة عن سامرا . وأمر المستعين بتحصين بغداد وبحفر الخنادق . ونصب على الأبواب المنجنيقات والعدارات وشحن الاسوار . وجرت اشتباكات بين أنصار المستعين وبين أنصار المعتز بالله ، ولقيت بغداد والانباء وسامرا بلاء شديداً من ذلك . ثم تم الصلح بين الطرفين في السنة ٢٥٢هـ .»

(وفي السنة ٢٥٦هـ بويح الخلافة أحمد المعتمد على الله . بايعه بخراسان

محمد بن عبد الله بن طاهر، ويكور الفرات مالك بن طوق التغلبي، وبديار مضر وديار ربيعة وجند قنشرين ابن أبي الساج محمد بن ديواداذ، المعروف بالأفشين، وبمصر أحمد بن طولون التركي» هؤلاء هم ولاة أمصار المملكة العباسية المعاصرون لمالك بن طوق.

لقد ساعدت الظروف وبعد مصر عن مركز الخلافة أحمد بن طولون، بأن يستقل بمصر، ويؤسس فيها الدولة الطولونية فيوجد من يؤرخ سيرة حياته ويجمع أخباره، وتعاكس الظروف مالك بن طوق في كور الفرات، فتتحرك الاحقاد الكامنة في قوم مالك تغلب في انحاء الجزيرة الفراتية وربوع الفرات وتحارب بعضها بعضاً، وتتدخل الخليفة المتوكل في النزاع، ويصلح بين الاطراف المتنازعة، ويمدح أبو تمام المتوكل منوهاً بفضله بهذا الصلح.

ولكن المتآمرين بمالك يستمرون في عملهم ضده حتى عزل عن ولاية الرحبة والجزيرة الفراتية قبل موته بنحو ثلاث سنوات.

وكتب رجل الى مالك لما عزل: «أصبحت والله فاضحاً متعباً، أما فاضحاً فلكل وال قبلك بحسن سيرتك. وأما متعباً، فلكل وال بعدك أن يلحقك» شهد مالك عهود ثمانية خلفاء من بني العباس من المأمون الى المعتمد.

قال ابن الأثير في الكامل ج ٥ ص ٣٧٣ (المطبعة المنيرية) في حوادث السنة ٢٦١ هـ: «وفيها مات مالك بن طوق التغلبي بالرحبة، وهو بناها واليه تنسب» مات في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) (٨٧٠ - ٨٩٢ م).

وقد كانت مدة ولاية مالك بن طوق على الرحبة نحواً من أربعين سنة. لم يشتهر اسم أحد من ولاة مدن منطقة الفرات بمثل الشهرة التي ذاعت واستمرت حتى اليوم لمالك بن طوق، برغم عدم وجود سيرة له، وبرغم قلة أخباره، وإهمال الترجمة له كل هذه القرون. ولم تشتهر مدينة من مدن هذه المنطقة نظير شهرة مدينة الرحبة، التي بقيت تنسب الى مالك منذ أن بعث عمرائها وولى أمرتها الى يومنا هذا. اقترن اسم كل منهما بالآخر، اقتراناً محكماً، لم تستطع

الحقبة الطويلة ان تعفيه . برغم قلة أخبار الرحبة كذلك . واهمال المؤرخين
القدامى والمحدثين التاريخ لها والكتابة عنها .

بعد موت مالك ، خلفه على حكم الرحبة ابنه أحمد .
وفي السنة ٢٦٩هـ - ٨٨٢م هاجم الرحبة محمد بن أبي الساج المعروف
بالافشين ، والذي كان يحكم ولاية الموصل والجزيرة والرقعة وحلب ، فدافع أهلها
عنها ، وقتلوه ، فغلبهم ، وقتل منهم اناساً كثيرين ، وهرب أحمد بن مالك بن
طوق الى الشام .

وكان ابن ابي الساج وهو تركي ومن قواد المعتصم ، تارة يتفق مع أحمد بن
طولون يدعوله على منابر أعماله ، ويتلقى الأموال منه ، وتارة ينقلب عليه ، ويعمل
لخليفة بغداد . وكان تحالف مع اسحاق بن كنداج على أن يحكما ديار ربعة ومصر
والشام ، ثم تنافرا وجرت بينهما عدة مواقع وخاض ابن ابي الساج معارك كثيرة ،
وعاث في هذه البلاد فساداً وتقتيلاً وتخريباً .

آلت الرحبة الى حمدان بن ناصر الدولة التغلبي ، أقطعها اياها ناصر الدولة
الحسن بن عبد الله بن حمدان الذي كان والياً على الموصل وإليه الجزيرة الفراتية في
خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ - ٩٣٢م) .

وفي السنة ٢٩٥هـ عاث بنو تميم في جهات حلب وافسدت فساداً عظيماً
وحاصروا حلب ، وكان واليها يدعى ذكا . فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان
وهو مقيم في الرحبة في انجاد ذكا ، فأسرى من الرحبة ، حتى أناخ بخناصره ، فأسر
منهم أربعمئة رجلاً وحملهم في غرائر الشعر على جمالهم وانصرف ولم يجتمع بذكا
فمات أكثرهم في الحبوس ببغداد . الى أن سئل فيهم الاغر السلمي ، فأطلقوا ولم
تسكن بنو تميم بعدها .

ولابي فراس الحمداني قصيدة يرثي بها أبا المرجى جابر بن ناصر الدولة وقد
توفي بالرحبة ومدح الشاعر الصنوبري الحسين بن حمدان لايقاعه ببني تميم .

فها هي الرحبة تنجد حلب بعد أن كانت في عهد واليها مالك بن طوق
انجذت بغداد، وبعد أن كانت انجذت دمشق في عهد الأراميين.

الرحبة في يد القرامطة

في عهد الخليفة العباسي المقتدر، سار أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام
الجنابي القرمطي صاحب البحرين الى الكوفة سنة ٣١٥هـ يريد الشام، واقتل
مع عسكر الخليفة فهزمهم، وسار الى الأنبار، واقتل مع عسكر الخليفة وهزمهم،
وواقع أهل هيت يوم الاحد لثمان خلون من ذي الحجة السنة ٣١٥هـ وارتمل عنها
الى ناحية رحبة مالك بن طوق، وعليها أبو جعفر محمد بن عمرو التغليبي،
فافتتحها عنوة ونزلها في ٣٠ آذار السنة ٩٢٨م. وقتل كثيراً من أهلها (ابن
مسكوبة: تجارب الأمم) والمسعودي وابن الاثير.

ومن الرحبة بعث السواري الى النواحي في الجزيرة الفراتية، الى كفر توثا،
ورأس العين ونصيبين فأوقعوا بالاعراب من تغلب والنمر وغيرهم.

ووجه بسرية في نحو ألفين الى الرقة، وكان نزول السرية عليها يوم الاحد
لثمان بقين من جمادى الأولى السنة ٣١٦هـ. وبعد قتال ثلاثة أيام، وقتل أناس من
الفريقين رجع القرامطة الى الرحبة، وبقي فيها أبو طاهر سبعة أشهر يروي في
قصد الرملة في فلسطين أو مدينة دمشق متخذاً من الرحبة مكان انطلاق. ولكنه
سار عنها في أول شعبان السنة ٣١٦هـ في البر والماء منحدرأ في الفرات وعاد الى
البحرين. هذا الانحذار يدل على أهمية الرحبة كميناء على الفرات.

وكانت الرحبة بعد ذلك - في عهد الخليفة العباسي الراضي، الذي ولي
الخلافة في السنة ٣٢٢هـ - ٩٣٤م. وتوفي في السنة ٣٢٩هـ - ٩٤٠م من اقطاع
أبي بكر محمد من رائق الذي ولاه الراضي ولاية بغداد ولقبه أمير الامراء. وولاه
الخراج في جميع بلاده وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وقلد الراضي ابن رائق
طريق الفرات وديار مضر وحران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم، وهو

الذي يستوزر، وكان ابن رائق قد اختار رجلين لقيادة الجيش احدهما بدر الخرسني، والثاني بجكم الديلمي .

كان في الرحبة من جهة ابن رائق في السنة ٣٣٠هـ رجل يدعى مسافر بن الحسن، فلما قتل ابا بكر بن رائق استولى مسافر على الناحية وجبى خراجها فسير ناصر الدولة علي بن خلف بن طياب ومعه عدل حاجب الامير بجكم حاكم دمشق وهو امير تركي، الى ديار مصر الشام، التي كانت بيد ابن رائق، وارسل طياب عدلاً في جيش، ليخرج (مسافر) عن الرحبة. فلما سار اليها، فارقها مسافر من غير قتال، وملك عدل الحاجب البلد مع طريق أفرات وقسماً من الخابور (ابن الأثير) في العام ٢٣٠هـ - ٩٤١ - ٩٤٢م .

صار مسافر الى قرقيسيا وأخرج منها أصحاب عدل وملكها، وبقي في الخابور ستة أشهر فجبى الأموال العظيمة وقوى وعاد الى الرحبة، فسار اليه الحسين بن حمدان وأسرهم مع ابنه وسمل عدلاً وسيرهما الى بغداد بسبب خيانتهم، فوصلها في العشرين من شهر شعبان اسنة ٣٣١هـ .

اختلفت على الرحبة أيدي أبناء ناصر الدولة الحمداني . وكانوا يتقاتلون عليها، فتقع تارة بيد حمدان وتارة بيد أبي تغلب وأخرى بيد أبي البركات . وفي السنة ٣٥٦هـ (٩٦٩م) استولى ابو البركات على الرحبة ثم استناب بها من يحفظها في طائفة من الجيش وعاد الى الرقة .

وكان نجا غلام حمدان ونائبه بالرحبة، أخذ جميع ماله بها وهرب الى أصحاب أبي تغلب بحران فسار اليها حمدان من بركة تدمر ودخلها، وقتل رجال أخيه، أبي البركات، وسار في اثره حتى ادركه في بلدة عرابان على الخابور وقتله، وعاد الى الرحبة وجاء ابو تغلب من حران، وكبس أخاه حمدان بالرحبة، فهرب واستولى أبو تغلب على الرحبة، وحسب أحوالها وعمّر سورها، ورجع الى الموصل في ذي الحجة من العام ٣٦٠هـ .

القرامطة في الرحبة مرة ثانية

كان الاخشيديون حكام مصر والشام ، يحملون الى القرامطة في الاحساء كل سنة مالا ليدفعوا اذاهم عن حدود مملكتهم . ولما استولى الفاطميون على مصر سيروا احد قوادهم جعفر بن فلاح بن مروان الكتامي الى فلسطين ومنها الى دمشق لقتال الاخشيديين والاستيلاء على ما بأيديهم من المدن ولما استولى جعفر بن فلاح على دمشق ، انقطع المال عن القرامطة . لقد أراد الاخشيديون ان يستعينوا بالقرامطة لمحاربة الفاطميين في الشام ومصر واستعادتهما . فذهب من رجال الاخشيديين محمد بن عصودا وظالم بن مرهوب العقيلي الى الاحساء ، وحثا القرامطة على المسير الى الشام ، فوافق ذلك منهم رغبة دفينة سبق أن شرعوا بتنفيذها ، واليوم تهيأ لهم انصار في الاخشيديين والنافرين من الفاطميين الشيعة ، فساروا ونزلوا على الكوفة ، وكتبوا الى الخليفة ببغداد وهم يعلمون مدى خوفه من الفاطميين الذين يريدون تقويض سلطان العباسيين والاستيلاء على بغداد ، وقد ملكوا دمشق . فأنفذ اليهم خزائن سلاح ، وكتب لهم بأربعائة ألف درهم على أبي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة ابن حمدان من مال الرحبة ، وعندما نزل القرامطة على الرحبة اكرمهم أبو تغلب وبعث الى أبي الحسن بن حمدان ابن ابي سعيد الجنابي ، المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له : « هذا شي اردت أن أسير أنا فيه بنفسي ، ولكنني مقيم في هذا الوضع الى أن يرد إلي خبرك ، فان احتجت الى مسيري ، سرت إليك » .

ونادى في عسكره من أراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم الى الشام مع الحسن بن امد فلا اعتراض لنا عليه . وقد أذن له في المسير والمعسكران واحد ، فخرج الى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ودمشق ممن فرّ من جوهر الصقلي ومن جعفر بن فلاح .

وكان جعفر بن فلاح ، لما أخذ طبرية ، بعث الى أبي تغلب ابن حمدان حمدان بداع من الدعاة الفاطميين ، يقال له ابو طالب التنوخي ، يقول له : انا

سائرون اليك، فتقيم لنا الدعوة. فلما قدم الداعي على أبي تغلب، وهو بالموصل، وادى الرسالة، قال له: هذا ما لا يتم، لانا في دهليز بغداد، والعساكر منا قريبة، ولكن اذا قربت عساكركم من هذه الديار، أمكن ما ذكرته، فانصرف الداعي بغير شيء.

ثم أن الحسن بن أحمد القرمطي سار عن الرحبة الى أن قرب من دمشق فخرج اليهم جعفر فقاتلهم قتالاً كبيراً فانهمز اصحاب جعفر ووجد قتيلاً. وكانت هذه الواقعة يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة السنة ٣٦٠هـ فامتألت أيدي القرامطة بما احتوا عليه من المال والسلاح، ملكوا دمشق وورد الخبر بذلك الى جوهر القائد في مصر فاستعد لحرب القرامطة الذين كانوا قد عادوا الى الاحساء، بعد أن دقوا باب القاهرة في ربيع الأول ٣٦١ وفي ربيع الثاني ٣٦٣.

افتكين القائد التركي العباسي في الرحبة

كان ابو منصور افتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة احمد بن بويه، ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغلب على عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه. وسار افتكين الى الرحبة في نحو أربع مائة رجل بطريقه الى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي الطائع بن المقتدر بويج له بالخلافة في ذي القعدة ٣٦٣هـ (اغسطس ٩٧٤م) وخلع في رجب سنة ٣٨١هـ (تشرين الأول السنة ٩٩١م). وأمد أبو المعالي بن حمدان افتكين بجيش وتلقاه في منطقة حمص وأكرم وفادته. وكتبه أهل دمشق لكرهم المغاربة، ودخل افتكين دمشق من غير حرب. كما دخل بعلبك. ودعا للطائع العباسي وقد استدعى افتكين القرامطة من الاحساء لمعاونته على قتال الفاطميين وخراجهم من الشام ومن مصر، فقدموا دمشق في السنة ٣٦٥ ومعهم كثير من اعوان افتكين الذين شت المعز البويهي شملهم. مع ان القرامطة كانوا يقولون بأنهم من مذهب الفاطميين وبأنهم ينشرون الدعوة لهم. سار القرامطة وافتكين من دمشق الى الرملة، وانضم اليهم كثير من

الاخشيديين، وجرت معارك بن الطرفين، كانت كفة القرامطة هي الراجحة، وتفاقم خطر القرامطة وافتكين في الشام واستعصى امرهما على الفاطميين، ولم يتم القضاء عليهما الا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر الصقلي فقد سار جوهر بنفسه على رأس جيش عظيم لقتال افتكين والقرامطة سنة ٣٦٦هـ. وبعد معارك كاد افتكين أن يقضي فيها على جوهر ويأسر جيشه، حقق العزيز بكل الوسائل الانتصار يوم الخميس ٢٣ المحرم السنة ٣٦٨هـ وفر الحسن القرمطي وقبض على افتكين وارسل الى العزيز في القاهرة وشفع به جوهر فعفى عنه العزيز، وعاش مكرماً في مصر حتى مات في السنة ٣٧٢هـ.

خرجت الرحبة من يد أبي تغلب بن حمدان في السنة ٣٦٨هـ - ٩٧٨م وخضعت لسلطة عضد الدولة البويهى. واستولى عليها أبو علي بن ثمال الخفاجي، ولاء عليها الحاكم بأمر الله صاحب مصر.

وفي عهد الخليفة القادر الذي بويع سنة ٣٨١هـ وتوفي سنة ٤٢٢ استولى على الرحبة بكجور الذي كان والياً على دمشق للعزيز بالله الفاطمي. وفي السنة ٣٧٨هـ عزله عنها، فتوجه الى الرقة واستولى عليها وعلى الرحبة وجعل الرقة مقره، وقتل واستولى سعد الدولة مالك حلب على امواله بالرقة. ومات سعد الدولة بعد ذلك. فأرسل أهل الرحبة الى بهاء الدولة البويهى ببغداد يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم، فأنفذ اليهم اميراً تسلمها.

انتقلت البلاد الى حوزة الفاطميين، وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة. الا أن سلطانهم كان اسماً والنفوذ الى رؤساء القبائل المضرية. وكان هؤلاء يتطاحنون، فقد قتل عيسى بن خلاط العقيلي السنة ٣٩٩ على بن ثمال الخفاجي، واستولى على الرحبة. وأقام فيها مدة. وقصده بدران بن المقلد العقيلي، فأخذها منه، فأمر الحاكم بأمر الله الفاطمي نائبه بدمشق لؤلؤ البشاري بالمسير اليه، فقصد الرقة أولاً وملكها، ثم سار الى الرحبة وملكها وعاد الى دمشق. وعادت الرحبة الى سلطان الفاطميين.

لقد كان موقعها يهم الفاطميين ، لتحكمها بطريق الفرات المؤدي الى بغداد . والفاطميون منذ أن جاءوا الى مصر، فكروا بالاستيلاء على بغداد والقضاء على الدولة العباسية السنية، ونشر مذهبهم الفاطمي في العراق وكانت الرحبة موضع انطلاقهم الى العراق .

كان بالرحبة رجل من أهلها، يعرف بابن محكان . ملك البلد، واحتاج الى من يستعين به على رد من يطمع فيه، فكاتب صالح بن مرداس الكلابي في الحلة فقدم اليه، وأقام عنده مدة وتزوج ابنة ابن محكان . وضم ابن محكان عانه اليه ولكن أهلها خرجوا عليه، فسار ابن محكان وصالح الى عانه، وكان اكثر مقام صالح في الحلة، فبعث من اغتال ابن محكان^(١)، وسار الى الرحبة فملكها في السنة ٤١٥ هـ . ثم ملك منبج وبالس، ثم ملك حمص وبلبك، وأسس الدولة المرداسية بحلب والتي استمرت الى السنة ٤٧٢ هـ، ملك من بعلبك الى عانه . وكان يدعولللفاطميين بمصر، بقيت الرحبة بيد أبنائه . تنتقل من يد أحدهم الى الآخر، تارة بالقتال فيما بينهم وتارة بالاتفاق كما كان حالها مع الحمدانيين .

فكانت في السنة ٤٢١ هـ الى معز الدولة ابوعلوان ثمال بن صالح المرداسي . وكان البساسيري اتخذ الرحبة مقراً له بموافقة المرداسيين، ووضع فيها أمواله وسلاحه . فلما قتل سنة ٤٥١ هـ سار الامير أسد الدولة أبوذؤابة عطية بن صالح من بالس الى الرحبة فيمن جمعه وحشده، ولم يزل نازلاً عليها، ومضايقاً لأهلها، ومراسلاً لهم الى أن سلمت اليه في صفر السنة ٤٥٠ هـ . (ابن القلانسي، والنجوم الزاهرة) .

ولي معز الدولة بن صالح وزارته في السنة ٤٤٢ هـ رجلاً من أهل الرحبة يقال له أبو الفضل ابراهيم بن عبد الكريم بن الانباري، ولقبه الثقة الكافي، وكان رجلاً حسن السياسة .

٢ - توجد قرية بمنطقة المياذين تسمى محكان .

وفي السنة ٤٤٧هـ ولى معز الدولة المذكور سديد الدولة أبا القاسم هبة الله بن محمد الرعباني الرحبي (ابن العديم - تاريخ حلب).
انتهى امر المراداسيين على يد الدولة العقيلية في الموصل في عهد خليفة بغداد القادر بن المقتدر، ببيع بالخلافة في رمضان السنة ٣٨١هـ (تشرين الأول ٩٧٤م).

الرحبة قاعدة فاطمية

وصول البساسيري وداعي الدعاة اليها

منذ قيام الدولة الفاطمية في المغرب، أخذ الفاطميون يخططون للاستيلاء على مصر التي كانت بيد الاخشيديين وعلى الشام والحجاز ويطمعون بالاستيلاء على بغداد والقضاء على الدولة العباسية السنية، ونشر المذهب الفاطمي في العراق. وكان الفاطميون يرسلون الدعاة الى مصر والشام وفارس، وكسبوا انصاراً كثيرين بين مختلف طبقات الناس. ولما فتحوا مصر في السنة ٣٥٨هـ - ٩٦٩م على يد القائد جوهر الصقلي، أخذ في بث الدعوة للخليفة المعز الفاطمي وبني جامع الازهر، لبث المذهب الفاطمي واجتماع اشياعهم. وقام المعز بنفسه في مصر بنشر الدعوة، ثم تولاهما الخلفاء الفاطميون أنفسهم من بعده.
وقد استعان الفاطميون في نشر مذهبهم الدعاة بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم في جيوشهم، وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي بعد فتح مصر، تزداد على يد داعي الدعاة، وكان من كبار الموظفين. وقد خصص له المعز مكاناً في قصره.

وقد استعان جوهر الصقلي قائد الفاطميين وفتح مصر بطائفة من الدعاة، وعين لهم رئيساً هو داعي الدعاة، كان مركزه الجامع الازهر. وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً. كما كان له نواب ينوبون عنه في

سائر البلاد المصرية . ويحضر إليه فقهاء الدولة ، يتلقون منه الأوامر . وكان يلقي عليهم المحاضرات .

كان من أغراض تأسيس جوهر للقاهرة لتكون مقر الفاطميين ، ومركزاً لنشر مذهبهم الديني ، واتخاذها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين دقوا باب القاهرة ، وكادوا أن يقوضوا دعائم الدولة الفاطمية .

كان أبو الحارث ارسلان بن عبد البساسيري ممن كسبتهم الدعوة الفاطمية وعملوا لها ، كان مملوكاً تركياً من ممالك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهية . وهو منسوب الى بسا مدينة بفارس ، كان سيده الأول منها .

وكان الخليفة القائم بأمر الله ببغداد ، قد قدمه على جميع الاتراك وقلده الامور ، وخطب له على منابر العراق وخوزستان ، فعظم أمره ، وهابته الملوك . وفي السنة ٤٤٧هـ ، ابتدأت الوحشة بين البساسيري وبين الخليفة القائم ، وخرج عليه ، وأخرجه من بغداد . ولما علم بقدوم السلطان طغرل بك ، سار الى الرحبة ، وسير الى معد أبي تميم الامام المستنصر بالله في مصر ، يلتمس منه النجدة لفتح بغداد ، وانه يكفي في رد طغرل بك عن قصد الشام ومصر ، فأجيب الى ذلك (ابن ميسر ، وابن خلكان) .

كان البساسيري في أرض الرحبة في قل من الرجال وبموافقة المرداسيين أصحابها وبالاتفاق مع الفاطميين ، فلقي فيها معز الدولة ثمال بن صالح المرداسي وأكرمه وحمل إليه مالا عظيماً (ابن العديم في زبدة الحلب من تاريخ حلب) . وحدث بعض العرب من بني كلاب ، انهم لم يروا مثله في الشجاعة والمكر ، وكان اذا ركب معز الدولة ، قفز إليه ، ليمسك له الركاب ، ويصلح ثيابه في السرج ، وهمت بنو كلاب بالقبض عليه ، فمنعهم معز الدولة . ثم ندم ، واجتمعت اليه العرب والاتراك ، ففزع منه معز الدولة . «وكان قد عرض عليه اولا مفاتيح الرحبة ، فلم يأخذها منه ، ثم طلبها منه في هذه الحالة ليجعل فيها أهله

وماله وسلاحه في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فسلمها معز الدولة إليه». «وكان معز الدولة كريماً معطاء حليماً».

كان حصول البساسيري في الرحبة حدثاً هاماً في تاريخها وفي تاريخ الفاطميين، فقد اتخذت قاعدة للفاطميين لاحتلال بغداد وتقويض الدولة العباسية، وبسط سلطان الفاطميين على العراق.

ولم يكن حصول البساسيري في الرحبة صدفة، وإنما كان بتدبير دعاة الفاطميين وبفضل نشاطهم وتفانيهم من أجل انجاح الدعوة الفاطمية ونشرها، وقد كان وراء هذه الحركة واتخاذ الرحبة قاعدة فاطمية، بصورة خاصة داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله بن موسى، عرف في تاريخ الأدب العربي برسائله التي ناظر بها أبا العلاء المعري في موضوع أكل اللحوم سنة ٤٤٩هـ. عرف بلقبه المؤيد في الدين. وعرف أحياناً بـ(المؤيد) فقط، ويسمى بالسلماني نسبة إلى سلمان الفارسي.

ولد في شيراز حوالي السنة ٣٩٠هـ في أسرة اتخذت التشيع ديناً، والفاطمية مذهباً، وكان والده داعياً للمذهب الفاطمي بشيراز وعرف المؤيد بنشاطه في الدعوة لمذهبه، وكان له أمر المذهب في شيراز، وقد شقي في حياته. وهرب من فارس إلى مصر في السنة ٤٣٨هـ. واتصل ببعض الوزراء ورجال بلاط المستنصر بالله، قابل الوزير الفلاحي الذي أكرمه ورحب بوصوله، وأمر بأن تجهز له دار. وزار أبا سعيد التستري المتصرف بالبلاط كلها، فبالغ في إكرامه، ووهبه الأموال والخلع. وزار القاسم بن عبد العزيز بن محمد، وكان يتولى القضاء والدعوة. وطلب المؤيد من الوزير الفلاحي أن يتشرف بمقابلة الامام المستنصر، فساعدته، ومثل بين يدي الخليفة في آخر شعبان من السنة ٤٣٩هـ وولى بدار الانشاء، وزاد في زرقه فتحسن حاله. وظل في ديوان الانشاء إلى السنة ٤٤٦هـ. وفيها سمع بأن طغرل بك السلجوقي دخل مدينة الري، بعد أن هادن البيزنطيين. وانهما اتفقا على غزو املاك الدولة الفاطمية في الشام وأعالي الجزيرة. فعمد المؤيد لدفع البلاء

الذي سيحل بالفاطميين الى مكاتبه الكندري وزير طغرلبك كما كاتب آخرين ممن كان يعفرهم ، ويعرف أنهم على اتصال بالسلجوقيين ، واجتمع في ان يستميلهم جميعاً الى الفاطميين . وكان الساسيري قد وصل الى الرحبة . فاتفق المؤيد مع أولى الأمر في مصر على أن يكاتبوا الساسيري ومن معه بأن الفاطميين على استعداد لتأييدهم ومدهم بالاموال والسلاح ضد السلجوقيين ، ووصلت كتب المؤيد الى الساسيري فرحب بالعمل للخليفة الفاطمي فأخذ الفاطميون في اعداد الاموال والخلع والسلاح التي وعدوا بها الساسيري وفوض خليفة مصر المؤيد بتولي أمر الاموال والخلع ، والقيام بهذه المهمة وهي قلب نظام الحكم في العراق واسقاط الدولة العباسية .

وقبل المؤيد المهمة بعد رفض واعتذار ، على أن يسافر مع الذخيرة ، مشروطاً بأن لا يوجه إليه لوم ، ان فشل في مهمته . فأجيب الى ذلك . وصدر توقيع الخليفة بقبول الشرط . ودعى المؤيد للباس خلع الوزراء فاعتذر ، مفضلاً أن يظل في زي أهل العلم . ورحل الركب بعد أوودع المؤيد امامه وسارين جلبة عظيمة . والناس في عجب من أمره ، فإنه مقدم على خطر جسيم دون أن يتخذ معه جنداً . بل كان اعتماده على الاموال والخلع التي معه .

وصل المؤيد الى دمشق ، فكاتب ثمال بن صالح بن مرداس بحلب . وشرح له سبب خروجه . فاطهر ثمال رغبته لخدمة الفاطميين . والتقى المؤيد وثمان في الرستن وسارا معاً الى حلب وفيها أخذ المؤيد عليهم إيمان البيعة للخليفة المستنصر ، وخلع على ثمال بن صالح . ثم تأهبوا للسفر الى الرحبة حيث الساسيري . وأخذ المؤيد في مراسلة القواد والكتاب وامراء الامارات والدويلات في ديار مصر وديار ربيعة وديار بكر وكور الفرات وغيرها يستميلهم إليه ، ويدعوهم الى نصرته وتأييده ، ويحذرهم من الخضوع لطغرلبك وكتب له نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ديار بكر ، يظهر له مفارقتة لطغرلبك ، ورغبته في معاونه المؤيد ،

فرحب المؤيد بدخوله في طاعته . ودعاه الى ان يدعو للمستنصر في بلاده ، وان يتصل بالخليفة الفاطمي في مصر .

وسار المؤيد الى الرحبة ومعه الأموال والخلع . وكان جموع كبيرة من العرب والأتراك والأكراد قد تجمعت في الرحبة حول البساسيري ، لبثت نداه . وقوي شأنهم لما سرى فيهم نبأ ورود المؤيد بالأموال .

وخرج البساسيري وجيشه للقاء المؤيد على بعد مرحلتين من الرحبة . وفي الرحبة أخذ المؤيد العهود على أمراء العرب والأكراد وخلع عليهم الخلع الفاطمية النفيسة ، التي لم يشاهدوا لها مثيلاً . ولما فرغ من ذلك خلع على البساسيري في يوم مشهود ، وقرأ عهده من الامام المستنصر على الناس .

ووصلت الى الرحبة نجدة من دمشق من بعض الأمراء الكلبيين ، فلقبهم المؤيد بالابتهاج . وسار هذا الجيش المؤلف من جماعة مختلفة المذاهب والغايات والاهواء ، والتي استطاع المؤيد أن يوفق بينهم مؤقتاً بقيادة البساسيري . ولكن الذي كان يدير دفته ويرقب حركاته هو المؤيد ويكاتب الأمراء حوله لنصرته . حتى انتصر على جيوش طغرلبيك في الموقعة التي تعرف (بموقعة سنجار) .

ودخل جيش البساسيري الموصل في شوال ٤٤٨ هـ وأرسل المؤيد الى مصر بالنصر وكان لهذا النصر أثره القوي في نفوس أمراء العراق . وأقاموا الدعوة للمستنصر في بلادهم .

ولكن نجاح المؤيد لم يدم طويلاً ، لأن جيوشه كانت مؤلفة من أناس مختلفي النزعات ، فدب الانقسام فيها .

فلما علم طغرلبيك بانقسام جيوش عدوه ، سار من بغداد اليها ، وقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم ، واستولى على الموصل والجزيرة ، وسلمها الى أخيه لأمه ابراهيم بن ينال ، ثم عاد الى بغداد في أوائل السنة ٤٤٩ هـ .

وقابل الخليفة القائم بأمر الله ففوض اليه الخليفة إدارة البلاد ، وخاطبه بملك المشرق والمغرب .

أجفل البساسيري الى الرحبة ، ووجل أهلها . فقد كان وجود جيوش البساسيري فيها حملاً ثقيلاً عليها . فكانت ترى نفسها بين المطرقة والسندان . بين جيوش البساسيري الموالية للفاطميين بمصر ، وجيوش طغرل بك المؤيدة لخليفة بغداد السني . فكان الخوف والقلق يعذبان أهل منطقة الرحبة . وأصبح موقف المؤيد حرجاً جداً ، وخشى من مقامه بالرحبة ، ولكنه أظهر الجلد ، واستمر في ارسال الكتب الى الامراء يستحثهم ويؤملهم في النصر ، ولكنهم لم يتحركوا . ووقع الضعف في جيش البساسيري بعد هزيمتهم في الموصل . وطالب البساسيري وآخرين المؤيد بأن يدفع لهم أموالاً مما يرده من مصر . والا فالجيش في حل من قسمه ، وللأمر أن يفرقوا . فاضطرب المؤيد ، واقنعهم بخلو يده من المال .

وسار المؤيد الى حلب . ثم لحق به البساسيري والتقيا في دير حافر . وفي اجتماعهما اكد البساسيري عهده للمؤيد . وبعد أيام قليلة أرسل ابراهيم بن ينال من الموصل رسولاً الى البساسيري يطلب اليه أن يخاطب المؤيد لكي يخلع عليه ويلقبه من جانب الدولة الفاطمية ، واذا هو غدر بطغرل بك ، وملك البلاد باسم الفاطميين . فسير البساسيري رسول ابراهيم بن ينال الى المؤيد بحلب ، فرحب به المؤيد ، وسلم بكل ما طلبه ابن ينال من شروط . وأطال المؤيد المقام بحلب يراقب حركات ابراهيم بعد هذا الاتفاق الذي ابرم بينهما .

وفي السنة ٤٥٠ هـ خالف ابراهيم بن ينال طغرل بك ، وترك بلاد الموصل وتوجه الى همدان لتنفيذ الخطة التي انفق بشأنها مع المؤيد . وكان المؤيد كلما هم بترك حلب ، تبعه البساسيري بجيشه . فلما ورد الخبر بترك ابن ينال الموصل ، انتهز المؤيد هذه الفرصة ، وأمر البساسيري بالرجوع الى الرحبة ، فرجع اليها ، واقنع المؤيد بعض الأمراء الاتراك البغداديين المقاطعين للبساسيري والذين كانوا يريدون الذهاب الى مصر بأن يردهم الى جيش البساسيري . المهم ترك ابراهيم بن ينال الموصل وتوجه الى همدان السلطان طغرل بك ، فذهب من نصيبين في

الجزيرة وراء ابراهيم بن ينال ، عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه . ولم يزل يجتاح البلاد ، حتى وصل الى بغداد في ثامن ذي القعدة السنة ٤٥٠ هـ واستولى عليها لخلوها من جند يحميها . وخطب بجامع المنصور للمعد المستنصر العلوي صاحب مصر . وأذن بخير العمل ، وكانت العامة مالت اليه ، أما الشيعة فلا تحاد المذهب . وأما أهل السنة قلما فعل بهم الا تراك من الشر .

وذهبت البشائر الى مصر ، وأقيمت فيها معالم الزينة ، وخلع المعد الخلع على الرسل الذين بشروا بالاستيلاء على بغداد .

أما الخليفة القائم بأمر الله ، فقد ساروا به من قصره الى حديقة عانه . وسار البساسيري في بغداد سيرة ملك ، ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التي أرسلت اليه من مصر . ثم ملك واسط والبصرة ، وهتف على منابرها باسم آل علي .

استنجد السلطان طغرل بك بأولاد أخيه ، فجاءوه وهو بالري بالعساكر الكثيرة ، فخرج بهم الى ابراهيم ينال بالقرب من الري وأسرهم وقتله .

وقصد بغداد ، ولما قرب منها ، رحل عنها البساسيري سادس ذي القعدة السنة ٤٥١ هـ متوجهاً الى حلة دبب بن مزيد . فسير السلطان عسكراً في أثره ومن معه ، فأدركوه وقتلوه وحملوا رأسه الى بغداد وعلق فيها . واستولى عطية بن مرداس على أمواله وسلاحه التي تركها في الرحبة .

سرد المؤيد حياته بدءاً من السنة ٤٢٩ هـ ذاكراً الحوادث التي ساهم فيها .

• سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة) نشرتها دار الكاتب المصري سنة

١٩٤٩ .

الرحبة بيد العقيليين

استطاع أبو النؤاد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد من بني عقيل ان يؤسس دولة عربية ، سميت بدولة بني عقيل وبني المقلد وآل المسيب تألف من بني

عقيل وبني كلاب وبني نمير وبني خفاجة وكلهم من عامر بن صعصعة وبني من كهلان . كانوا انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات ، وكانوا كالرعايا لبني حمدان ، يؤدون اليهم الاتاوات وينفرون معهم للحروب . واتسعت حتى شملت من السندية التي على نهر عيسى في غربي بغداد الى ديار مضر وربيعة وحلب والشام . وكان شرف الدولة مسلم العقيلي من أشهر أمراء بني عقيل وأحسنهم سياسة . ضاهى بقوته ملوك السلجوقيين . وأخذ الاتاوة من بلاد الروم . وكانت اليه الرحبة . قتله قوام الدولة أبوسعيد كربوقا في صفر السنة ٤٧٨هـ . ولذلك أسره تاج الدولة تتش وسجنه بحلب الى أن قتل تتش وملك ابنه الملك رضوان حلب . فأطلقه بطلب من السلطان بركيارق وأطلق أخاه التونتاش . فرتب السلطان ملكشاه السلجوقي ابن شرف الدولة أبا عبد الله محمد بن شرف الدولة في الرحبة وحران والخابور وزوجه أخته زليخة (ابن الاثير) .

الرحبة بيد سلاجقة سورية

من بيت تتش بن الب ارسلان ، ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤)م وانتهت سنة ٥١١هـ (١١١٧)م في ذي القعدة من العام ٤٨٩هـ (١٠٩٦)م . ملك كربوقا مدينة الموصل بعد أن حاصرها تسعة أشهر وضاق الامر بصاحبها علي بن مسلم فسار الى الامير صدقة بن مزيد بالحلة . وكان مع كربوقا أخوه التونتاش الذي عسف البلد واستطال على كربوقا ، ولكن هذا قتله . واحسن كربوقا السيرة في الموصل . وسار نحو الرحبة فمنع عنها ، فملكها ونهبها واستتاب بها وعاد . وانتقلت بعد موته الى قايباز من قواد السلطان الب ارسلان وماليكه ومات قايباز في صفر السنة ٤٩٦هـ ، وقام مقامه غلام تركي . اسمه ترك حسن . وخاف من ملك دمشق دقاق بن تتش ، فقبض على الذين يخافهم وقتل جماعة من أعيان البلد ، وخطب لنفسه ، فتوجه اليه دقاق وحضره فسلم العامة البلد اليه . واعتصم ترك حسن بالقلعة . فامنه دقاق ، فسلم القلعة اليه فاقطعه اقطاعاً في الشام ، وقرر أمر

الرحبة وأحسن الى أهلها، وجعل فيها لحفظها محمد بن السابق الشيباني . واخذ وله رهينة معه الى دمشق ليأمن عصيانه . ولما توفي دقاق، أرسل محمد بن السابق قوماً سرقوا ولده من دمشق وحملوه اليه . فلما وصل الى أبيه، خلع طاعة رضوان بن دقاق بدمشق . وخطب في الرحبة لقلج ارسلان من سلاجقة قونية . وكان يطمع بامتلاك منطقة الموصل .

وفي السنة ٥٠٠هـ، جاء (جاولي سقاد) أحد الأمراء السلجوقيين المعروفين بشجاعتهم من رجال السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الى الرحبة في شهر رجب، وحاصرها وهي بيد محمد بن السابق فامتنع عليه وقتلته، فأرسل جاولي الى الملك رضوان بدمشق يعرفه أنه على الاجتماع به ومساعدته ضد الصليبيين وغيرهم، ويشترط عليه أن يمد له للاستيلاء على الرحبة، حتى اذا تسلم البلد، سار بمن معه لمحاربة عدوه . فأقبل رضوان وحضر عنده . فاشتد الحصار على أهل الرحبة، وضاعت عليهم الامور وانفق ان جماعة كانوا في أحد الابراج، وراسلوا جاولي على حفظهم وحراستهم، وأمره أن يقصد البرج الذي هم فيه عند انتصاف الليل، ففعل ذلك، فرفع من في البرج أصحابه اليهم بالحبال، فضربوا بوقاتهم وطبولهم، فخذل من في البلد . ودخله أصحاب جاولي في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان (التاسع عشر من شهر مايو ١١٠٧م)، ونهبوا الى الظهر، ثم أمر برفع النهب . ونزل إليه محمد بن السابق الشيباني صاحب الرحبة وأطاعه وصار معه .

وسار جاولي الى الموصل، فحاصرها، وخرج اليه جكرميش من رجال قلج ارسلان، فاقتتلا، وانهزم جيش جكرميش، فاستدعى جماعة من أهل الموصل الملك قلج ارسلان صاحب قونية ليسلموا اليه البلد، فسار بعسكره نحو الموصل، فرحل عنها جاولي الى الرحبة كما مر . وملك قلج ارسلان الموصل واسقط خطبة السلطان محمد بن ملكشاه وخطب لنفسه . ثم سار من الموصل بخمسة آلاف فارس الى جاولي بالرحبة، والتقيا قريباً منها على نهر الخابور واقتتلا، فهزم

اصحاب جاوولي أصحاب قولج ارسلان، وخاف قلعج أن يقع أسيراً فالتقى بنفسه في نهر الخابور، وغرق وظهر بعد أيام، فدفن بالشمسانية (قرية على نهر الخابور). وسار جاوولي الى الموصل وملكها وأعاد خطبة السلطان محمد فيها.

وهكذا يتكرر اتخاذ الرحبة ملجأ وقاعدة انطلاق لاحتلال بلدان. وذلك لأهمية موقعها وتحكمه بعدة طرق وبالنظر لخيراتها. وقد سبب لها كثيراً من النكبات والمصائب، مما ثقل عليها فناءت تحته وجرها الى الخراب.

وفي السنة ٥٠٢هـ سار جاوولي والامير ايلغازي بن ارتق من جهات نصيين نحو الرحبة. ولما وصلا الى عريان على الخابور، عاد ايلغازي ليلاً من صحبة جاوولي. وقصد نصيين. وسار جاوولي الى الرحبة. فلما وصل ماكسين على الخابور، أطلق القمص الفرنجي، صاحب الرها الذي كان سجيناً في الموصل متفقاً معه لقاء مال يقدمه وشروط أخرى. وجاء جاوولي أبو النجم بدران وأبو كامل المنصور ابنا سيف الدولة صدقة أصحاب الحلة. وكانا بعد مقتل ابيهما بقلعة جعبر على الفرات عند سالم بن مالك. فتعاهدوا على المساعدة. ووعدهما انه يسير معهما الى الحلة لاستعادتها. وعزموا على ان يقدموا عليهم بكتماش تتش بن الب ارسلان. فوصل إليهم الاصبهيد صباود، وكان قد قصد السلطان فاقطعه الرحبة فاجتمع بجاوولي، واثار عليه أن يقصد الشام فإن بلاده خالية من الأجناد، والفرنج قد استولوا على الكثير منها، فقبل قوله، واصعد عن الرحبة. فبلغ ذلك الملك رضوان، فسار من حلب الى صفين على الفرات، فصادف تسعين رجلاً من الفرنج معهم مال من فدية القمص صاحب الرها قد سيره الى جاوولي فاخذه، وأتى الرقة فصالح بني نمير على مال ورحل عنهم الى حلب، وكانت الرقة بيد علي بن سالم العقيلي، فوثب جوشن النميري وقومه وقتلوه وملكوا الرقة. فاستنجد سالم بن مالك بجاوولي وسأله أن يرسل الى الرقة ويأخذها، ووعد به بما يحتاج إليه. فقصد الرقة وحصرها سبعة أياماً. فضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً فأرسل الى سالم انني في أمر أهم من هذا. وأنا عازم على الانحذار الى العراق، فإن تم أمري،

فالركة وغيرها لك، ولا أشتغل عن هذا الامر بحصار خمسة نفر من بني نمير .
ووصل جاولي الى منبج وعاد الى الرحبة بعد ان انهزم امام عسكرة الامير قطب
الدين مودود اتابك صاحب الموصل الذين اخذوا الموصل منه .

وفي سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) ولي السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي
على الرحبة ابا سعيد آل سنقر البرسقي الغازي ، الملقب قسيم الدولة صاحب
الموصل والرحبة وتلك النواحي - وهو أحد الامراء السلاجقة . وكان حارب
الصلبيين قبل نقله الى الرحبة . وكان بها قبله أسبا سلا مودود من جهة محمد بن
ملكشاه .

وقتل مودود يوم الجمعة ١٢ ربيع الآخر السنة ٥٠٧هـ قتله الباطنية .
وفي السنة ٥١٢هـ استخلف اقسنقر البرسقي ابنه عز الدين مسعود على
الرحبة ، وسار الى السلطان ببغداد لزيادة اقطاعه . فبلغه وفاة السلطان محمد ، ولما
تولى السلطان محمود ولي البرسقي شحنة بغداد .

وولى السلطان محمود عز الدين بن البرسقي ماكان أبوه يتولاه من الموصل
وغیرها ، وكان شجاعاً شهماً ورتب الامور فكثر جنده ، فطمع في التغلب على بلاد
الشام ، فجمع العساكر وسار يريد دمشق ، فابتدأ بالرحبة وكانت خرجت من يده .
ونازلها وقام يحاصرها ، واستولى عليها بموافقة أهلها العام ١٢٧م ومرض ومات
في نفس اليوم ودفن في الرحبة ، واقتتل خلفاؤه على ما كان بيده ، فكان الواحد
منهم يقتل الآخر ، وآلت المدينة الى الأخ الأصغر لعز الدين بن البرسقي واستولى
على البلاد وعلى الرحبة مملوك للبرسقي يعرف بالجاولي ودبر أمر الصبي .

الرحبة بيد الزنكيين

لما تولى السلطان عماد الدين زنكي ، وهو أول ملوك الدولة الاتابكية . السنة
٥٢١هـ (١١٢٧م) ، أقطع الرحبة وأعياها الى جاولي المذكور . وبقيت الرحبة

وجوارها من أعمال الدولة الاتابكية من السنة ٥٢١هـ الى السنة ٦٣١هـ واحتل
 قطب الدين بن زنكي المدينة السنة ٥٤٤هـ (١١٤٩ - ١١٥٠م).
 وفي الثاني عشر من شهر آب ١١٥٧م خربت هزات أرضية مدينة الرجة
 وحماة وشيزر وسلمية وغيرها. وفي السنة ١١٦١م نهبت قبيلة خفاجة الحلة
 والكوفة، فطاردتها جيوش حكومة بغداد، فالتجأت الى الرجة، وقويت فيها
 بانضمام أرهاط من العرب الرحل، وهزمت جيش حكومة بغداد الذي كان
 يطاردها ويتبعها.

الرحبة بيد الأيوبيين

ان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي كان يملك الجزيرة وكور الفرات
 وحلب وحمص وحماة أقطع أسد الدين عم صلاح الدين الايوبي وكان في خدمته الرحبة
 وحمص في السنة ٥٦٧هـ (١١٧١م). وبذلك دخلت الرحبة في طاعة صلاح الدين
 الايوبي مؤسس الدولة الايوبية وخلفائه.

ولانشغال أسد الدين شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي في حروبه، عهد
 بإدارة الرحبة الى ضابط يدعى يوسف بن الملاح الحلبي وآخر معه من بعض القرى...
 وقد أساء التصرف في الرحبة، ولم يحسن تدبيرها. وفي أبناء الرحبة جرأة منذ القديم، وما
 زالت فيهم، اكتسبوا من طول قتال الطامعين بمدينتهم ومن النكبات التي ما فتئت تحل
 بهم وبلدهم، وما برحوا يثبتون أمامها، وينهضون نافضين عنهم آثار المصائب والمحن.
 فكتب يحيى بن النقاش... أحد أبناء الرحبة الى أسد الدين شيركوه، ينتقد
 ادارة هذين الرجلين شعراً، رواه ياقوت الحموي في معجم البلدان تحت مادة الرحبة هو:
 كم لك بالرحبة من لائم يا أسد الدين ومن لاح
 دمرتها من حيث دبرتها برأى فلاح وملاح
 وله اليه:

يا أسد الدين اغتنم أجرننا وخلص الرحبة من يوسف

تغزروالى الكفروتغزوبه الاسلام ما ذاك بهذا يفى
إن رحبة مالك بن طوق المدينة التي ازدهرت في عهد مالك وكثر سكانها، واتسعت
عمارتها وبنائها، وقد تولى عليها الخراب ولم تعد صالحة للسكن، بسبب كثرة الحصارات
التي تعاقبت عليها، وكثرة الايدي التي تداولتها واختلفت عليها وكثرة الطامعين بها لحسن
موقعها ووفرة خيراتها، ويسبب الهزات الأرضية وفيضانات الفرات.

ولما كانت منطقتها من أقطاع الامير الايويي أسد الدين شيركوه ولأهمية الموقع
الاستراتيجي لم يفرط به أسد الدين شيركوه، فاستحدثت في جنوبها على بعد أربع كيلو
مترات بلدة صغيرة في أسفل القلعة القديمة لتفيد البلدة المستحدثة من قرب هذه
القلعة - وكان شرب أهل هذ البلدة من نهر قديم خارج من نهر الفرات هي قناة سعيد
الخير بن عبد الملك بن مروان. والذي كان يسقي سهل الرحبة على ضفة الفرات
الغربية ما بين دير الزور ودالية مالك بن طوق (قرية القرية) اليوم أسفل مدينة الميادين
على بعد ١٣ كيلومتراً ويصب في الفرات عند الدالية المذكورة.

جاء في كتاب تقديم البلدان لأبي الفداء صاحب حماة (تحقيق المستشرق رينو
والبارون كوكين طبع باريس ١٨٣٠): «... والرحبة المذكورة خربت وبقيت قرية وبها
آثار المدينة القديمة من الموازين الشاهقة وغيرها. واستحدثت شيركوه بن أحمد شيركوه بن
شادي صاحب حصص في جنوبها الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الفرات، وهي اليوم
محط القوافل من العراق والشام، وهي أحد الثغور الاسلامية في زماننا هذا».

وقد جاء الرحالة الشهير ابن بطوطة الى الرحبة قادماً من بغداد في طريقه الى
دمشق في السنة ٧٤٨هـ واليك وصفه الطريق ما بين الانبار والرحبة، في كتابه تحفة النظار
ج ٢ ص ١٧٤ (المطبعة الازهرية) بمصر ١٩٢٨: «ثم رحلت من بغداد، فوصلت الى
مدينة الانبار، ثم الى هيت، ثم الى الحديثة ثم الى عانة، وهذه البلاد من أحسن البلاد
واخصبها. والطريق فيها بينها كثيرة العمارة كأن الماشي في سوق من الأسواق.

وقد ذكرنا أننا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين، الا هذه البلاد، ثم وصلت
الى مدينة الرحبة، وهي التي تنسب الى مالك بن طوق. ومدينة الرحبة آخر بلاد العراق

وأول بلاد الشام، ثم سافرنّا منها الى السخنة وهي بلدة حسنة، ثم سافرنّا الى تدمرومنها الى مدينة دمشق» .

وبقيت المدينة بيد عائلة شيركوه خلال قرن الى اليوم الذي وضع فيها الملك الظاهر بيبرس البندقداري عام ١٢٦٤ حاكماً مصرياً (ابن الاثير، ابو الفداء).

الرحبة في عهد دولة المماليك

كانت الرحبة في دولة المماليك نيابة من نيابات الدولة، وكان يكتب بنياتها مرسوم شريف في قطع النصف، وعليها نائب هو مقدم ألف أو (طبلخانة). وكانت نيابتها مساوية لنيابة حمص في صدور المرسوم).

وقد روى القلقشندي في الجزء الثاني عشر من كتابه «صبح الاعشى» ص ١١٠ - ١١٢ نص المرسوم الذي كان يكتب بها. كما روى توقيع بنظر الرحبة من انشاء ابن نباتة لمن لقبه (تاج الدين) في الجزء الثاني عشر من صبح الاعشى ص ٤٠٧ - ٤٠٩.

اهتمت دولة المماليك بالرحبة لوقوعها على الحدود الشرقية لدولتهم ولمواجهتها خطر التتار في العراق كان سلاطين المماليك يوكلون المحافظة على الأمن في طريق الفرات الى آل مهنا أو آل ريشة من رؤساء عشيرة طي. وكان مركزهم الرئيسي في سلمية لقاء رسم سنوي معين، وكانت لهم اقامة في الرحبة. وكانوا يتحاسدون ويتاتلون بسبب هذا المنصب، وكان بعضهم ينهب القوافل التي تسلك طريق الفرات بين الشام والعراق فتتعبه السلطة وتقتص منه ان هي ادركته.

ان سنقر الاشقر أمير دمشق الذي خرج على السلطان قلاوون في السنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م (التجأ بعد هزيمته الى الرحبة قرب الامير عيسى بن مهنا).

وكان حاكمها ابن الارقش المتوفي بدمشق السنة ٧١٥هـ - ١٣١٥م - ١٣١٦م) (ابو الفداء) وفي اثناء حكمه السنة ٧١٢هـ - ١٣١٢م) حاصرها المغول

بقيادة خاربندا في اثناء حملتهم على سورية . غير أنه تراجع عنها تاركاً أدوات حصاره ، فنقلها المدافعون عن المدينة الى داخل القلعة (أبو الفداء) . وفي ربيع العام ١٣٢٠م طرد فريق من آل مهنا من جهات سلمية وتبعتهم الجيوش السورية الى الرحبة وعانة (أبو الفداء) .

وفي العام ١٣٣٠م سبب فيضان الفرات للمدينة خراباً كبيراً (ابن كثير) وفي السنة ألف وأربعمائة للميلاد ، كان السلطان بمصر الناصر زين الدين فرج بن برقوق ونائبه بدمشق سودون . وفي هذه السنة تملك تيمورلنك العجم وطبرستان والعراقين والموصل والجزيرة ، وجمع عساكر عديدة وقصد بلاد الشام . وارسل الى السلطان رسلاً ومعهم هدية وكتاب ، فلما وصلوا رحبة مالك بن طوق وثب عليهم نائب الرحبة كمش بغا ، فقتلهم وارسل الى السلطان الهدية والكتاب (تاريخ الازمنة للدويهي الطبعة الكاثوليكية) .

وفي العام ٧٩٥هـ وفد على السلطان برقوق رسول من نائب الرحبة يخبره بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة هارباً من بطش تيمورلنك الذي نهب معظم بلاده وصادر املاكه بعد أن خدعه بمعسول الكلام ، فثني عزمه عن قتاله . وسار القان من الرحبة الى حلب ، فأوفد نائبها رسولاً الى مصر يخبر السلطان بوصول اويس الى حلب وأنه بطريقه الى مصر . فاستعد السلطان للقاءه . فالرحبة بحكم انها مدينة حدود ، كانت وما زالت تستقبل القادمين اليها على طريقها الرئيسي .

ومما يتصل بتاريخ الرحبة في عهد المماليك ان جماعة من العرب قدموا الى مصر في العام ٦٥٩هـ ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله بن الامام الناصر العباسي . وكان الامراء المسلمون يفكرون باحياء الخلافة العباسية ، فشرع السلطان الظاهر بيبرس بتنفيذ الفكرة بوصول احمد بن الامام الظاهر الى مصر . وقد قصد بيبرس من وراء ذلك تقوية عرشه

وتعزيز زعامته الاسلامية . ولذلك احتفل كثيراً بالامام أحمد وانفق الاموال الكثيرة في سبيل ذلك خدمة لاغراضه هو .

عقد السلطان بيبرس مجلساً دعا إليه القضاة والعلماء والامراء . ليشهدوا بإثبات نسب الامام ، واستدعى العربان الذين قدموا مع الامام احمد من بغداد فاقروا جميعاً بين يدي قاضي القضاة بأن الامام أحمد بن الخليفة الظاهر بامر الله المتصل بالنسب بالعباس بن عبد المطلب . فقبل القاضي شهاداتهم ، وحكم بصحة نسبه وبايعوه بالخلافة سنة ٦٦١هـ ، وبايعه السلطان بيبرس ، ولقبوه بالمستنصر بالله . واخذ له البيعة من الناس ، وأمر بالدعاء للخليفة وله .

وشرع الظاهر بيبرس بعد ذلك يعد العدة لاعادة الخليفة الى عرشه ببغداد . فرتب له بعض الامراء والعساكر ، وهياً له كل سبل الراحة . وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل ، ولما وصلوا الى دمشق قيل للسلطان بيبرس أن تأسس خلافة قوية في بغداد ، قد تكون خطراً عليه ، فاوغر ذلك صدره على الخليفة ، وتركه يخترق الصحراء برفقة قوة من الاعراب والترك . فتابع الخليفة السير حتى وصل الى الرحبة . وفيها فارقه أولاد صاحب الموصل ، وأبوا السير معه ، وقالوا له : « ما معنا مرسوم بذلك » . وارسلوا معه ستين رجلاً من ممالك والدهم . ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام الى مشهد علي ومنها الى عانة . وانضم اليه اناس ، فرحل الى الحديثة ، واستولى عليها . وقصد هيت ، فامتنعت عليه . فدخلها ونهب أموال اليهود والنصارى فيها . ولما علم التتار بقدمه ، خرجوا لقتاله بقيادة قرايغا ، فقاتلوه وهزموا جيشه واستشهد في القتال السنة ٦٦١هـ .

لقد ابتدأت هذه الرواية مهزلة وانتهت مأساة .

ولقد مات السلطان بيبرس بطلها في دمشق في شهر المحرم السنة ٦٧٦هـ .

مراكز البريد ومطارات الحمام الرستائي والمناور

في المملكة المملوكية واتصالها بالرحبة

اعتنت الدول الاسلاميه بالبريد حرصاً على طلب الاخبار، واقامت لذلك مراكز على الطرق، وكان البريد يحمل على الخيل والبغال والنجب. ولما تولى الملك الظاهر بيبرس واجتمع له ملك مصر والشام الى الفرات، كان يوصي عماله بمواصلته بالاخبار، وما يتجدد من اخبار التتار والفرنج، وقال لأحد عماله ان قدرت أن لا تبتي كل ليلة الا على خبر ولا تصبني الا على خبر فافعل. وكان للبريد في عهده معالم ومراكز يقف بها خيل البريد لتغير خيل البريدية ولكل مركز طرق عندها الآبار.

فمن مركز دمشق مراكز موصلة الى حمص وحماة وحلب والرحبة والى طرابلس والى جعبر ومصيف وبيروت وصيدا وبعبك والكرك.

وأما طريق الرحبة، فمن القطيفة الى العطنة ومنها الى المصنع، ومنها الى القريتين، ثم الى الحير، ثم الى البيضاء، ومنها الى تدمر، ثم الى ارك، ثم الى السخنة، ثم الى قباقيب، ومنها الى كواثل ومنها الى الرحبة، وهي حد هذه المملكة وثغرها على الفرات. كما أن جعبر ثغر الفرات في غربي الرحبة كل هذه المراكز معروفة الى اليوم. وكان في بعضها خانات لتفريق الخبز والاحذية ونعال الدواب (النضوات) وكل هذه المراكز محطات للقوافل بين دمشق والفرات.

وأبراج الحمام الرستائي من القواعد والطرق في البريد. ولقد اعتنى باقتناء الحمام الرستائي خلفاء بني العباس ومن جاء بعدهم من ملوك المسلمين. فكان لهم مطارات ومنسارح للحمام الرستائي ربما زادت على مراكز البريد. وكانت هذه المطارات في القلاع وبين المدن. وكان أهم مراكزها في المملكة المملوكية مركز قلعة الجبل في القاهرة، ومنها يتدرج الى سائر الجهات أبراج موصلة فهناك أبراج مثلاً من قلعة الجبل الى غزة، ومن غزة تتفرع الى دمشق. ومن كل مركز الى مجاوره.

ومن دمشق الى بعلبك ، ومن دمشق الى القريتين . ومن دمشق الى بعلبك ، ومن دمشق الى القريتين ، ومن دمشق الى قارة ثم الى حمص ثم الى حماه ثم الى المعرة ومنها الى حلب ، ومن حلب الى البيرة وما جاورها . ثم من القريتين الى تدمر ومنها الى السخنة ومنها الى قباقيب ، ومنها الى الرحبة ، وللحمام مراكز في سائر الممالك الاسلامية .

اما المناور فهي مواضع توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهراً للاعلام بحركة العدو واذا قصد دخول البلاد لحرب أو اغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في ابنية عالية ، وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند ، وقد استعملتها الدولة المملوكية للاعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو اغارة ومواضع هذه المناور معروفة تعرف بها اكثر السفارة وهي من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة وجعبر والرحبة والى السلطان بقلعة الجبل حتى أن المتجدد من الاخبار بالفروات ان كان بكرة علم به عشاء ، وان كانت عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد وتارة في غير ذلك .

وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقررة (رواتب) .

وكان ينور بمدينة عانة من مملكة التتار قوم من النصاح النظارة المملوكية وقد ينور قدام من النصاح في بلاد الروم لنفس الغرض . ترفع النار بخربة الروم وبالجرف على الفرات فترى بالقناطر ، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة وقاها الله ، ويرفع بها فيرى في كواثل ، ويرفع فيها فيرى في منظره قباقيب ، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين ، ويرفع بها فيرى بالسخنة ويرفع فيها فيرى بمنظره أرك . ويرفع بها فيرى بمنظره تدمر ، ويرفع فيها بمنظره البيضاء ، وهكذا يرى في الحير ومنها يرى في القريتين ، وفيها يرفع فيرى بالعطنة فيرفع فيها فيرى بثينة العقاب فيرفع

فيها فيرى بمثذنة العروس ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة. فيرى في دمشق. وهنالك مناوور طريق البيرة وطريق الرحبة.

بذلك يرقى بلوغ الاخبار بسرعة الى الغاية القصوى (في ذلك الوقت) ذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره. والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد. والمناوور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة.

لقد ذكر القلقشندي في صبح الاعشى في الجزء الرابع عشر بتفصيل مراكز البريد ومطارات الحمام ومسارحه والمناوور في المملكة المملوكية في الجزء الرابع عشر، وهو مصدر هذا الفصل.

وتذهب من الرحبة القديمة، والمياذين الحالية طرق عديدة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً الى دمشق وتدمر والبادية والى العراق على الطريق البري والطريق المائي وهو الفرات. والى الجزيرة عبر الفرات والموصل وسامراء وتكريت وأنحاء الخابور. والى حلب وحمص وحماة.

يصدر أبناء الرحبة الاغنام والسمن والصوف والحبوب والقطن والدجاج والبيض. وتصدر قرية العشارة البطيخ، بنوعيه الأحمر والأصفر. وكانت المياذين تصدر البصل. ان حاصلاتها الزراعية ما زالت ضئيلة ومحدودة دون امكاناتها بكثير. وبإمكانها ان تعنى بأشجار الفاكهة وبالحضراوات وبالذواجن لتزيد من دخل ابنائها. منطقة المياذين فقيرة ومتخلفة بسبب ضالة مواردها. لا بد لها من زيادة مواردها والا بقيت فقيرة ومتخلفة. ان في السهل الممتد بين المياذين ودير الزور، امكانات تجعل منه غوطة كغوطة دمشق، كان ذلك بالامكان منذ ربع قرن على القليل. ان طوله ٤٥ كيلومتراً تجري فيه سواقي المياه بغزارة، وبرغم خصب التربة لا توجد فيه شجرة واحدة. ولا تزرع فيه خضروات، وتقتصر الزراعة فيه على القمح والشعير والقطن مؤخراً.

وهذا دليل من الادلة العديدة على اهمال المسؤولين لهذه المنطقة في العهد

السابقة ودليل تقصير السكان بسبب جهلهم وتفرق كلمتهم . ان فواكه وخضروات المنطقة جيدة .
وخضروات المنطقة جيدة فلو أن السكان اهتموا بزراعتها لصدروا أنواعاً طيبة وبكميات كبيرة .

علماء نزلوا الرحبة

ومن نزل الرحبة من العلماء في عهد المماليك صلاح الدين الصفدي ، خليل بن ابيك بن عبد الله . ولد في صفد بفلسطين العام ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) تعلم بصغره صناعة الرسم على القماش ، كانت فناً شائعاً في صفد ، وفي العشرين من عمره غادر بلده ليجوب الشام ومصر طالباً للعلم وموظفاً . وكان في دمشق وهو ابن اثني وعشرين يتصل بابن تيمية وبالشهاب محمود أحد المعمرين في ديوان الانشاء ، يقرأ عليه مؤلفاته وكتباً في الادب ويدرس التاريخ على الحافظ الذهبي ، ورحل الى حلب ، ثم عاد الى صفد ، أقام فيها العاملين ٧٢٤ - ٧٢٦هـ . وسافر الى القاهرة وأقام فيها العاملين ٧٢٧ و ٧٢٨هـ اتصل الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس ، درس عليه الحديث وكان يتردد الى مجلس النحوي اللغوي أبي حيان الغرناطي ، وكانت مصر حكم السلطان المنصور قلاوون . وتعرّف الصفدي في القاهرة الى كثير من العلماء . وعاد الى الشام ليلقى فيها الشاعر ابن نباته السنة ٧٢٩هـ في دمشق ، وليلقى الشاعر صفي الدين الحلبي في شمال حلب . ثم نقل الى القاهرة العام ٧٣٢ - ٧٣٧هـ . وكان يواصل تحصيله العلمي الى جانب اشتغاله بوظيفته . ومن مصر نقل كاتباً للسر الى رحبة مالك بن طوق . وكانت نيابه من نيابات المملكة المصرية . وبقي فيها نحو من السنة . وكانت قد نالت من الحروب المتتابة والنكبات المتكررة وزايلها ازدهارها فلا عجب أن كره مقامه فيها لشدة بردها وحرها . وهجاها في عدة مقطوعات منها قوله

عدمت بالرحبة اكتسابي فلا قريض ولا قراضة
 وكل طرفي بها وفكري فلا رياض ولا رياضة
 وكان يفضل ان يكون كاتباً للذست بدمشق على ان يكون رئيساً لديوان
 الانشاء بالرحبة . ولم يكن يترك مناسبة تمر وهو في الرحبة من غير أن يكتب الى
 استاذة ابي حيان الغرناطي يدلل فيها على وفائه وعرفانه بالجميل . كتب اليه
 متشوقاً ومحياً من الرحبة بالابيات التالية :

لو كنت أملك من دهري جناحين لطرت . . لكنه فيكم جنى حيني
 يا واحد العصر ماقولي بمتهم ولا أحاشي أمراً بين الفريقين
 هذي العلوم بدت من سيبويه كما قالوا وفيك انتهت يائاني اثنين
 وكانت لأبي حيان ابنة اسمها (النضار) من العالمات الفاضلات ، توفيت
 بمصر، فحزن لوفاتها حزناً شديداً . وقد عزى الأدباء والشعراء شيخهم ، وبلغ
 موتها الصفدي في الرحبة ، فأرسل الى شيخه قصيدة يعزيه يقول فيها :

بكيـنا بالجـين على نضار فسيل الدمع في الخدين جاري
 فيالله جارية تولت فنبكيها بأدمعنا الجواري
 ولما خلت احدى وظائف الديوان بدمشق العام ٧٣٩هـ نقل إليها ، فأقام
 فيها مدة لينقل رئيساً للديوان بحلب ثم ليعود الى دمشق ، ثم استدعى الى مصر
 العام ٧٥٣ - ٧٥٤هـ ثم عاد الى دمشق كاتباً للذست ووكيلاً لبيت المال معاً الى
 آخر حياته . وقد اتسعت ثقافته وامتد صيته ، حتى سمي «أديب العصر» كان
 متواضعاً كريم الخلق سخي اليد حسن المعاشرة . جميل المودة . توفي في الطاعون
 الذي اجتاح ديار الشام العام ٧٦٩هـ والعاشر من شهر شوال
 (١٢٦٣/٧/٢٤م) . كان جيد الخط صبوراً على النقل والتقييد . مولعاً باقتناء
 الكتب المحققة .

أولع الناس في زمنه بكتابة التراجم ، فكتب الصفدي وصنف عشرات
 المجلدات في التراجم أشهرها كتابه (الوافي بالوفيات) في ثلاثين مجلدة على

حروف المعجم طبع منه أربعة أجزاء ، وصنف في الأدب . ذكر له الاستاذ برو كلمن كتباً موزعة في مكتبات العالم .

رحالون أجنب مروا بالرحبة

١ - غسبارو بالبي - كان جوهرياً ايطالياً من أهل البندقية - بدأ رحلته السنة ١٥٧٩ م . كتبها باللغة الايطالية . ونشر ترجمتها الانكليزية في لندن السنة ١٨١١ م . وقد وصف فيها حلب - الرحبة - الفلوجة - بغداد - البصرة . وفي السنة ١٨٨٤ نشرت في لندن ترجمة انكليزية لرحلة بالبي في العراق ، بعنوان : «غسبارو بالبي ، رحلة من بغداد الى البصرة في السنة ١٥٨٠» . وان المستشرقة الايطالية أولغابتو ، قد اعادت نشر قسم من رحلة بالبي ، وهو القسم الخاص بحلب والعراق مع تعليقات وحواش كثيرة لها ، وذلك في مجلة الاكاديمية الاهلية في ايطاليا السنة ١٩١٢ م .

ومما جاء في هذه الرحلة ، أن غسبارو بالبي ، غادر حلب في ١٣ كانون الأول سنة ١٥٧٩ م ، قاصداً بغداد بطريق البيرة (بره جيک) ماخراً نهر الفرات ، ومربالرحبة فروى «رأينا قصر الرحبة الذي بالقرب منه تشاهد مدينة مهدومة ، ولكن في بعض أقسامها هي مسكونة من اناس قليلين ، يدعون (رحبلاقة)» ، وهي كلمة منحوتة من كلمتين أي الرحبيون القلعيون وبمعنى آخر سكان قلعة الرحبة . ويقصد بالقصر قلعة الرحبة القديمة . والمدينة المهذومة التي شاهدها هي رحبة مالك ، كما يقصد بالقسم المسكون فيها بلدة شيركوه المستحدثة . أوبيوتا مسكونة في الرحبة القديمة .

٢ - بترود لافاله - سائح ايطالي ، من أشهر الرحالين الاوروبيين الذين أموا بلدان الشرق في أوائل القرن السابع عشر (١٥٨٦ - ١٦٥٢ م) . ساح سياحة واسعة استغرقت خمسة أعوام (١٦١٦ - ١٦٢١ م) . زار خلالها بلاد آشور وبابل وايران . وبعض الاصقاع المجاورة . وكان عالماً آثارياً مطلعاً على ما ورد بشأن

الأثار الشرقية في التوراة وفي المصادر الاغريقية . وحديث رحلاته في الشرق رسائل كتبها باللغة الايطالية، بعث بها الى صديقه شيبانو، استاذ الطب في نابولي . وقد طبعت بعدئذ في مجلدين سنة ١٦٥٣ م، ثم طبعت طبعة حسنة سنة ١٨٤٥ في مجلدين . ونقلت الى الفرنسية وطبعت سنة ١٦٦١ - ١٦٦٣ ، وقد شاهد دلافاله الرحبة وذكرها في رحلته .

٣ - جان باتست تافرنية (١٦٠٥ - ١٦٨٩) في طليعة الرحالين الفرنسيين الذين رحلوا الى عدة أرجاء من أوربة وبلاد الشرقين الأدنى والاوسط ولد في باريس . ظعن الى آسيا عام ١٦٣٦ . سافر اليها ست مرات في ثلاثين سنة ، فأثرى ثراء عظيماً بتجارة الالماس والحجارة الكريمة . وكان يتكلم معظم لغات أوربة .

ومن أشهر تأليفه ، حديث رحلاته الست المطبوع في باريس السنة ١٦٧٦ في مجلدين ، ثم أعيد طبعه فيها السنة ١٧١٣ . ونقلت هذه الرحلات الى الانكليزية ، فنشرت في لندن السنة ١٦٧٨ . ظلت رحلة تافرنية بعيدة عن قراء العربية ، حتى نقل الى العربية الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس ما يخص العراق من هذه الرحلة الواسعة في كتاب «العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنية مطبعة المعارف - بغداد ١٩٤٤ ، ١٨٤ ص .

اجتاز تافرنية سورية بطريقه الى العراق غير مرة ، فقطع كثيراً من البوادي والفيافي ومر بمدن وقرى ومواقع حمة . وقد مر بالرحبة ، ويذكر موضعاً يطلق عليه (مشهد الرحبة) وهو على بعد ستة أميال الى الجنوب الغربي من الرحبة . وهو ما يسميه سكان المنطقة اليوم (عين علي) وهي عين ماء جارية تخرج من سفح الاكمة المطللة على سهل الرحبة وتسقي في الشتاء والربيع بضعة هكتارات من القمح والشعير - وقد نسب سكان المنطقة العين الى الخليفة الرابع علي بن أبي طالب . وعلى الاكمة منارة قديمة بنيت بالأجر مثمثة الاضلاع ، مازال درجها الداخلي سليماً ، يصعد فيه بعض الناس ، وكانت على المنارة نفوش حصية بشكل محاريب

وبجوار المنارة مسجد صغير متهدم ، وعنده بقايا بيوت ، واحسب أن هذه الآيات بنيت في عهد المهاليك لم تدرس دراسة أثرية علمية بعد .

الحركة العلمية في الرحبة

شاركت الرحبة بالحركة الفكرية في العصر العباسي منذ تاريخ تجديد بنائها على يد أميرها مالك بن طوق ، الذي كان شاعراً ويروي الشعر الجيد ويتذوق الأدب ، وقد قصده شعراء كبار أمثال أبي تمام والبحري والعتابي وابن الشيص ، مدحوه بقصائد جيدة وأثابهم عليها ثواباً غير قليل حتى أرضاهم . ولقد روى أبناء الرحبة هذا الشعر وتأدبوا عليه فيما روا . ونبغ في الرحبة ، ونسب إليها جماعة من الأدباء والعلماء والقضاة والأطباء والساسة ، رحل أكثرهم الى الحواضر الإسلامية ، بسبب توالي النكبات على الرحبة وأقاموا في تلك الحواضر ، يعملون في فنونهم ومجالاتهم وعلومهم ، وذاعت لهم شهرة بعيدة . وقد ترجم أصحاب التراجم والطبقات الكثير منهم . فضلاً عما نزل الرحبة من القضاة والكتاب والعلماء الذين بقوا فيها سنين عديدة . وصاروا يعدون من أبنائها ، وقد أفادت الرحبة من علمهم وفنونهم . وإليك أسماء ما تحصل لي من أبناء الرحبة ونزلاتها العلماء والقضاة والأطباء فضلاً عن الشعراء .

١ - ابو علي الحسن بن قيس الرحبي ، كان محدثاً .

٢ - ابو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن الرحبي الفقيه الشافعي ، المعروف بابن المتفنتة ، تفقه على أبي منصور الرزاز البغدادي ودرس ببلدة الرحبة وصنف كتباً ، ومات بالرحبة سنة ٥٧٧هـ وقد بلغ الثمانين .

وكان ابنه محمود قد ورد الموصل وتولى بها نيابة القضاء ، وبقي مدة ، ثم صرف عنها ، وعاد الى الرحبة ، وكان فقيهاً عالماً (ياقوت معجم البلدان) .

٣ - جاء في كتاب مختصر الدول لابي الفرج الملطبي الطبعة الكاثوليكية ص

٣٧٧ في كلامه عن حوادث سنة خمس وسبعين وخمسمائة :

(وكان في هذا الزمان من الحكماء المشهورين بالمشرق الرحيبي الطيب^(٣) .
نزيل دمشق من أهل الرحبة حسن المعالجة لطيف المباشرة، نزه النفس بعاني
التجارة، ورزق بها مالاً جماً وأولاداً، مرضي الطريقة، له اشتغال جيد في هذا
الفن . وكان كثير التنعم حسن المركب والملبس والمأكل والمنزل، يلزم في أموره
قوانين حفظ الصحة الموجودة . قيل له : ما ثمره هذا؟ قال ان يعيش الانسان العمر
الطبيعي . فقليل له : انت قد بلغت من السن ما لم يبق بينك وبين العمر الطبيعي
إلا القليل، فأني حاجة الى هذا التكلف، فقال لأبقي ذلك القليل فوق الأرض
واستنشق الهواء واتجرع الماء . ولا أكون تحت التراب بسوء التدبير .

٤ - وقال أبو الفرج اللطفي في كتابه المذكور ص ٤٨٠ عن مشاهير الاطباء
في أواخر النصف الأول من القرن الهجري :

«منهم شرف الدين الرحيبي وأخوه جمال الدين الدمشقيان (ولكنهما ابناء
الرحيبي المذكور) أما شرف الدين فكان بارعاً بالجزء النظري من الطب . له معرفة
تامة به واطلاع على أصوله، تصدر لافادة هذا الشأن وأخذ عنه جماعة من الطلبة .
وكان قليل التعرض لمباشرة المرضى . وسمعت وقت تحصيلي بدمشق أن له تعاليق
وحواشي على القانون ولم أرها . وأما جمال الدين أخوه، فكان له عناية تامة في
الجزء العملي من الطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في المعالجة . صحبته مدة
أباشر معه المرضي بالبيهرستان النوري بدمشق، وكان حسن الاخلاق، لم أرفي
الجماعات احسن منه زياً وصمتاً ونطقاً ومبسلاً» .

٥ - عبد الوهاب بن علي بن نصر بن احمد بن الحسن بن هارون بن مالك
بن طوق صاحب الرحبة، التغلبي البغدادي، أحد أئمة المالكية ومصنفهم، له
كتاب التلقين يحفظه الطلبة، وله غيره في الفروع، والاصول، وقد أقام ببغداد

٣ - هورضي الدين ابو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحيبي كان والده من الرحبة وكان
مولده بجزيرة ابن عمر السنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) .

دهراً، وولى قضاء دارياً وماكساباً، ثم خرج من بغداد لضيق حاله، فدخل مصر فأكرمه المغاربة (الفاطميون) وأعطوه ذهباً كثيراً. فتحول حاله فأنشأ يقول متشوقاً الى بغداد:

سلام على بغدا في كل موقف وحل لها مني السلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن ملالة واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الارزاق فيها تساعف
فكانت كخجل كنت أهوى دنوه واخلاقه تنأى به وتحالف
لم ترى المالكية أفقه منه . قال ابن خلكان : وعند وصوله الى مصر، حصل له شيء من المال، وحسن حاله مرض من اكلة اشتهاها، فذكر عنه أنه كان يتغلب ويقول : لا إله الا الله عندما عشنا متنا .
قال وله أشعار رائعة . منها قوله :

ونائمة قبلتها فتنبهت فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت اني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد
ومما انشده ابن خلكان للقاضي عبد الوهاب :

بغداد دار لأهل المال طيبة وللمفالس دار الضنك والضيق
ظلمت حيران أمضي في أزقتها كأني مصحف في بيت زنديق
٦ - أبو الحسن علي بن محمد بن سلامة الروحاني المقرئ الرحبي، من قرية رَوْحاً من قرى الرحبة، لا يقول أهلها الا مقصوراً والروحاني نسبة الى روحا. كان موصوفاً بجودة القراءة والمعرفة بوجودها وصحب الصوفية، ورحل في طلب الحديث، ذكره السلفي في معجم السفرواثنى عليه كثيراً (ياقوت الحموي : معجم البلدان).

ومن ولي القضاء برجة مالك بن طوق الفقيه الشافعي ابو عبد الله بن نصر بن الحسين بن الخميس الكعبي الموصلي الجهمي، الملقب تاج الاسلام مجد الدين الفقيه، أخذ الفقيه عن أبي حامد الغزالي ببغداد وعن غيره، والى القضاء برجة

مالك بن طوق، ثم رجع الى الموصل وسكنها . وصنف كتباً كثيرة - ذكره الحافظ أبو سعيد السمعي في تاريخه وأثنى عليه . توفي في شهر ربيع الآخر السنة اثنين وخمسين وخمسمائة . وكان مولده بالموصل السنة ٤٦٦هـ، وكان شيخ الموصل في زمانه (ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان) .

في العهد العثماني لم نعرف عن أحد من أبناء قلعة الرحبة حصل علماً عدا أخوين لأم من البوخليل ذهباً في منتصف القرن الثامن عشر الى الجامع الازهر بمصر هما الشيخ ابراهيم والشيخ اسماعيل ولكل منهما ذريته : البواراهيم والبو اسماعيل أعرف ان لبعض الرحبيين من سكان دير الزور محاولات أدبية وتاريخية وفقهية مخطوطة^(٤) .

دير حنظلة بناحية رحبة مالك بن طوق

هو حنظلة بن أبي عفراء الطائي من أهل الحيرة، نسك في القرن السادس للميلاد، في عهد ملكها المنذر بن ماء السماء، فارق بلاد قومه ونزل الجزيرة الفراتية مع النصاري حتى فقه في دينهم، وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات بين الدالية والبهنسة أسفل من رحبة مالك بن طوق .

قال أبو الفرج الاصبهاني : وموضعه حسن لما فيه من جنينات . رهبانه وأشجارهم، وما يلبسه الربيع من الرياض . نزل به الامير العباسي عبد الله بن الخليفة محمد الامين، فاستطابه وقال فيه أبياتاً روتها كتب الادب منها :

ألا يا دير حنظلة المفدى لقد أورثتني سقماً وكذ

٤ - وهم جعفر الويس ومحمد السلطان (شاعر ومدرس) ورشيد الرحبي وعبد الجبار الرحبي وعبد النعم الرحبي والمدرس حسن حسني ملاحساني واسماعيل حسني . الأخيران من البوخليل .

أزف من الفرات اليك دنا واجعل حوله الورد المبدي
وابدأ بالصبح أمام صبحي ومن ينشط لها فهو المفضي
وروى الخالدي فيه لغيره شعراً منه :
يا دير حنظلة المهيج لي الهوى هل تستطيع صلاح قلب العاشق

بئر جمر

بئر عميقة في وسط قلعة الرجة، شاع اسمها منذ القديم في منطقة الميادين دون أن يعرف ماذا يعني اسم (جمر) هذا ويضرب المثل ببئر جمر في المنطقة للحفرة العميقة .

خزف الرجة :

كانت مع المدن الفراتية الرقة والرصافة وبالس قد اشتهرت بخزفها . وكان أهالي الميادين ينقبون في آثارها ويعثرون على آنية خزفية ملونة كانوا يهربونها في العهد العثماني الى حلب ومنها تصدر الى متاحف أوربة وأميركا .

الرجبة في عهد المملكة العثمانية :

كانت دولة المماليك قد قامت في مصر والشام على انقاض المملكة الايوبية السنة ٦٤٨هـ ، ١٢٥٠م وكانت اكتسبت شهرة بانتصارها على التتار، فصدمتهم عن سورية ومصر . وكانوا قد ملأوا افئدة العالم رعباً لما ارتكبوه من تقتيل وتدمير . وكانت دولة المماليك قد امتدت من جبال طوروس الى آخر حدود مصر وشملت سورية والحجاز والجزيرة الفراتية وكيليكيا، وامتدت في الشرق على الفرات حتى أطراف عانة ، وكانت الرجة مركز نيابة أي ولاية من ولايات دولتهم ، بالنظر لأهميتها على الحدود الشرقية في مواجهة مملكة التتار .

وكان السلطان قنصوه الغوري (٩٠٦، ٩٢٢هـ - ١٥٠٣ - ١٥١٦م) اخر سلاطينهم بسورية .

وكانت هذه الدولة تجاور العثمانيين في آسيا الصغرى . ولما اذيل من سلاطين المماليك لسلاطين العثمانيين بعد التقاء الجيش المملوكي بقيادة السلطان قنصوه الغوري ، والجيش العثماني بقيادة السلطان سليم في مرج دابق شمال مدينة حلب صباح يوم الاحد ٢٥ رجب ٩٢٢هـ الموافق ٢٤ آب ١٩١٦م وانتصار السلطان سليم ، فتح هذا النصر أمام العثمانيين أبواب سورية ومصر والحجاز . فتأسست الدولة العثمانية في سورية السنة ٩٢٣هـ . ١٥١٧م .

أما العراق العربي فما دخل نهائياً في حكم العثمانيين الا في عهد السلطان سليمان الأول القانوني في السنة ١٥٣٤م . كانت السلطنة العثمانية قد وصلت الى أوج اتساعها وقمة مجدها في عهده (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) وكان قد دخل مدينة تبريز السنة ١٥٣٣م .

كان السلطان سليم قد قسم سورية الى ثلاث أيلات أو ولايات ، هي حلب في الشمال وتشمل وادي الفرات ودمشق في الجنوب وتشمل بعض الشواطىء وطرابلس . وفي القرن الثامن عشر قسمت سورية الى خمس باشويات هي الشام وصيدا وفلسطين وطرابلس وحلب ، وكانت حلب تشمل سبعة سناجق ويعني السنجق لواء .

كانت الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري تقسم الى ٣٢ ايالة ، (١٤) منها كانت عربية . وكانت بعض المدن العربية تتبع ايلات غير عربية . ومن الايلات العربية : ايالة حلب ، وتضم سبعة الوية ، منها لواءان فراتيان وهما لواء بالس (مسكنة) ولواء منبج . وإيالة الرقة أو الرها . كانتا ايالة واحدة وتتبعها ستة ألوية هي : لواء الرقة ، لواء الجماسة ، لواء بيره جك لواء دير رهبة أي لواء دير الزور ، لواء ربيعة ، لواء سروج . هذه التقسيمات الادارية العثمانية الاولى في وادي الفرات .

وفي سنة ١٢٨٥هـ. ١٨٦٨ جعلت دير الزور سنجقاً تضم أربعة أفضية هي قضاء رأس العين وقضاء العشاري^(١) وقضاء أبو كمال وقضاء عربان، وهي قرية عجاجة اليوم. ولقد أراد العثمانيون احياء اسم عربان القديمة قاعدة الخابور كما احيوا اسم لشهرة كل منها. واضافوا اسم الدير الى اسم الرحبة ويكتبونها الرهبة احياء لاسم الرحبة القديمة. فكان اسمها دير الرحبة، واختاروا العشارة وهي في منطقة الرحبة لوجود بيوت فيها، فلم تكن المياذين قد تكونت أو كان فيها بيوت قليلة من بيوت العشارة. حيث لا يزال السكان في القلعة القديمة معتمسين فيها بسبب فقدان الأمن.

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على وادي الفرات والعراق العربي في الربع الثاني من القرن السادس عشر الميلادي قد قدروا موقع قلعة الرحبة وأهميتها في حماية طريق وادي الفرات، ولوجود سكان فيها، فعينوا لها حراساً مسؤولين من سكانها براتب، وكان هذا التعيين بناء على قرار يصدره السلطان، وقد رأيت بيد بعض أبناء المياذين ممن أجدادهم في القلعة نماذج من هذه القرارات وصورتها. وقد بقيت القلعة مأهولة الى منتصف القرن التاسع عشر، ولما ضاقت بسكانها وصعب عليها تأمين شربها، واستتب الأمن، ابتدأ سكانها بهجرونها على دفعات، وأكثر ما كانت الهجرة بعد التشكيلات الادارية الثانية في السنة ١٨٦٨م، وتأسيس قضاء العشارة، شرع قسم من سكان الرحبة بالهجرة الى قرية العشارة مركز الناحية المحدثه. والتي تقع شرقي موقع الرحبة على بعد عشرين كيلومتراً. وتحولت الهجرة الى موقع الرحبة القديمة لقرها من القلعة ولكي يستعين اللاجئون بأجر المدينة القديمة يستخرجون من انقاضها ومن سورها في بناء بيوتهم. وليكونوا على

٥ - وكانت العشائر ناحية في سنة ١٨٥٤ بقيت كذلك مدة ربع قرن. ثم سمي القضاء باسم قضاء المياذين مع بقاء المركز في العشارة، حتى اتسع عمران المياذين فنقل المركز إليها.

نهر الفرات لتأمين شربهم وسقاية ماشيتهم . فلقد خربت التربة القديمة التي كانت تتفصر من نهر سعيد الذي كان يخرج من نهر الفرات . وخرب نهر سعيد هذا ، فصار شراها من صرة من الفرات ثم من موج على الفرات ينقل الماء بالقرب .

وكانت مآذن شاهقة قد بقيت في الرحبة القديمة الى جانب انقاض المدينة ، وكانت العربان تسمي المكان الموازين أي المآذن ، سمى المكان بابرزما فيه ، ثم قلبوا الواوإياء فصار اسم المكان الميازين ، اطلق على البلدة المستحدثة . وجميع أهالي المنطقة والديريون ما زالوا ينطقون اسمها بالذال وليس بالذال . ولخبرة سكان القلعة منذ القديم بالبناء ولتحضرهم النسبي ، توسعوا في بناء البيوت على انقاض الرحبة القديمة ، لتستوعب هذه البيوت النازحين من القلعة ، ولم يبق فيها أحد ، ومنذ العهد السوري ، صار موظفودوائر الحكومة وخاصة الذين من غير أبناء الفرات يكتبون اسم البلدة بالذال ، كما ينطقونها لأنهم يستثقلون لفظ حرف الذال ، فأبدلوه بـ(دال) وشاعت التسمية ، وقبلها أهل المنطقة وحسبوها تعني ميادين الخيل ، وزعموا انها سميت ميادين لوجود ميادين قديمة للخيل أو ميادين قتال . ويجهل الأهليون أن الميازين الحالية انها تقوم على انقاض الرحبة القديمة بالرغم من مشاهدتهم الانقاض القديمة التي استعملوها في بناء بيوتهم ، وبالرغم من أنهم كلما حفروا أساساً لبناء جديد يقعون على جدران بيوت قديمة . ويعتقدون أن رحبة مالك بن طوق هي القلعة القديمة . ويرون في الانقاض التي يبنون فوقها بيوتهم مجرد انقاض أبنية قديمة . ويقول بعضهم أن الرحبة كانت على ضفة الفرات الشرقية . وهم يخلطون بين نهر الفرات ونهر سعيد الاموي . ولما جعلت دير الزور سنجقاً مرتبطاً بالاستانة مباشرة كمصرفية القدس ومتصرفية بنغازي ، ونقل مركز القضاء في قرية العشارة الى بلدة الميازين لاتساع عمرانها ولتوسطها بين قشلة أبوكمال ودير الزور .

روت لي السيدة فرحة وقاع ميادينية من البوخليل تسكن دير الزور أن

رؤساء العشائر العكيدات في المنطقة وكانوا رحلاً اقنعوا سكان القلعة بالنزول الى ضفة النهر واتفقوا على اختيار موقع انقراض الرحبة، بذلك افادت العكيدات من خبرة الكلبيين الحضارية، وتقوّت بهم. مع أسباب أخرى. واخذت المياذين تنمو. وتقلصت العشارة وما زالت متأخرة. وكانت الرحبة قد احتلت مركز قريساء وعادت المياذين الى شأنها القديم محطة للقوافل بين حلب وبغداد فكانت احدى محطات الطريق البرية بين حلب وبغداد وميناء نهرياً على الطريق المائية. واجتذبت انساناً من أماكن متعددة ومختلفة اتخذوها سكناً، ومارسوا فيها حرفهم، وقد بنى فيها المدعو عبد العلوي من أبناء دير الزور خاناً في الستينات من القرن التاسع عشر عرف باسمه، ومكانه بقرب مدرسة الزراعة القديمة العثمانية الى الشمال الغربي.

وكان الطريق يمر به. وبنت السلطة العثمانية في السنة ١٩٠٤ داراً للحكومة من طابق واحد على ضفة الفرات بعقود من الجص، ثم شيد الطابق الثاني السنة ١٣٣٨ هـ. وأول من سكن الطابق القائم مقام تركي المحمود من أبناء دير الزور في السنة ١٣٣٨ هـ. وبنت السلطة العثمانية مركزاً للهاتف والبريد من طابقين بالقرب من السرايا القديمة مهجورة اليوم لتصدعها. كما بنت داراً لمسكن القائم مقام (مدير المنطقة). هجرت السرايا القديمة في السنة ١٩٦٦ انتقلت الى بناء المجمع الحكومي الجديد. والى السنة ١٩٣٤ كانت المدعوة ريمة الحيادة الهجو تعيش في المياذين وهي من سكان القلعة^(٦). وبنت الحكومة العثمانية مدرسة زراعية في العام ١٩١٦ ما تزال قائمة بالقرب من السرايا القديمة. وتستعمل اليوم مدرسة ابتدائية. وكان في قصبة المياذين مدرسة واحدة ولم تكن نفوس القصبة تزيد على أربعة آلاف.

٦ - كانت تقص على المتصلين بها من سكان المياذين اخبار سكان القلعة. وكانت قوافل العكيل تبعهم الكساء وحاجات أخرى مقابل القمح الذي يزرعونه في سهل الرحبة.

وقد مر بالرحبة رحالون وعلماء عرب وأجانب، وذكروها في كتاباتهم . جاء إليها المهندس الزراعي السوري وصفي زكريا في العام ١٩١٦ بحكم وظيفته آنذاك . مكافح جراد بمديرية الزراعة . ذكرها في مذكراته عن وادي الفرات عام ١٩١٦ والتي نشرها مؤلف هذه الدراسة سنة ١٩٦٨ ، قال في الصفحة ٥٢ :

«اما في المياذين التي زرتها بحكم عملي ومكثت فيها عدة أيام ، فقد صعدت الى قلعة هناك اسمها (الرحبة) رابضة فوق تل شاهق مخروطي صعب الصعود والنزول جداً . احجارها ضخمة ترايبية اللون . شاذة صامدة على كل الدهور ولم أعثر فيها على كتابة أو نقش ، أستدل بها على اسم بانيتها وتاريخ بنائها .

وفي حضيض هذه القلعة قبور قديمة . ومزار باسم (عين علي) رأيت نساء الميادين يقصدنه ، ويذبحن فيه الذبائح ، ويقرأن الأدعية ، ويمرحن طول النهار ، ثم يرجعن ، ولم أعرف أي هذا ومتى كان وكيف كان . وزرت وقتئذ قرية البصرة ، التي عند مصب الخابور ، وقد انتقلت اليها بالسفينة من المياذين » .

تعليق : (عين علي) ليست في حضيض قلعة الرحبة ، أنها تبعد عنها ستة كيلومترات الى الشرق والذبائح التي تذبح عندها هي نذور ، ويقصد سكان المنطقة من اسم علي : الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وقد بني في القديم على أكمة مجاورة للعين مسجد ومنرة ، وتوجد أنقاض دور . وكان هذا المكان يسمى مشهد الرحبة يزوره الكثيرون من سكان المنطقة ، ويسبحون في العين للتبرك لنسبتها الى علي بن أبي طالب .

المزارات القديمة في المياذين :

مزارات قديمة ترى على الأكام الواقعة جنوب المياذين والممتدة من الغرب الى الشرق ، والمزار عبارة عن قبة وقبتين بنيت على قبور بعض الصالحين من

سكان الرحبة أوبنيت لمجرد نذر، ولتكون بالقرب من عين علي يزورها السكان وخاصة في فصل الربيع، وهي معالم المياذين، هذه هي اسمها.

١ - الشيخ أنس غربي المياذين .

٢ - الشيخ شبل جنوب المياذين .

٣ - الشيخ سريج جنوب المياذين .

٤ - عين علي شرقي المياذين .

ولا يزال من معالم الرحبة، بقايا من سورها القديم في الجهة الشرقية، وأنقاض في مكان (العلوة) في وسط المياذين . وأحسب أن هذه العلوة كانت مكان قصر الامارة ومكان الجامع والمآذن، وقد جرف نهر الفرات قسماً كبيراً من المدينة في الجهة الشمالية . وتوجد آثار أبراج غربي القلعة في سهل الرحبة .



دير الزور

دير الزور - حاضرة وادي الفرات وقلبه النابض

تحقيق اسمها - لمحات من تاريخها، دورها الحضاري والوطني،
تقاليدها الأصيلة، صناعاتها التقليدية، فنونها الشعبية،
تشكيلاتها الادارية، حاجاتها، دير الزور المدينة.

ان بلدة دير الزور عريقة في القدم، بسبب تميز موقعها الجغرافي على الفرات
الأعلى. ومثل موقعها، لم يكن يخلو من السكان والعمران. كانت آثارها القديمة
تختفي تحت الديرة العتيق، التل الاصطناعي الذي كان يتألف من أنقاض مدن
الواحدة فوق الأخرى. بنيت كل واحدة في عهد بعيد عن الأخرى. بسبب
الحروب التي تعاقبت على المنطقة. كانت تؤدي الى تقويض المدن. وبسبب تميز
الموقع، سرعان ما يعمر ويأهل بالسكان، وأول ما يميز به موقعها، انه كان معبراً
صالحاً على الفرات.

ولقد رفع محافظ دير الزور بصفته رئيساً لبلدية دير الزور بالاضافة لوظيفته ،
تل الدير العتيق سنة ١٩٦٩ . وكان من أبرز وأهم معالم دير الزور التاريخية .

وبسبب عراقه قدم دير الزور، وتعاقب الدول على وادي الفرات، وما نزل
به من خراب وقتل سكانه، لم تحتفظ دير الزور باسم واحد، وانما تبدل اسمها كثيراً
وغابت عنا اسماء قديمة لها بغياب المصادر. فلا بد من أن توضع لمكانها أسماء
مختلفة . اختلف في تعيين موقعها وانطبق بعض الأسماء القديمة التي حفظتها
المصادر عليها .

١ - ذكر الجغرافي اليوناني بطليموس في القرن الثاني الميلادي أسماء عدة مدن
على الفرات ، مال ريتر الى تعيين (برته) موضعاً لدير الزور، وقال آخر أنها
(ادارة) ويرجح مولر وفليشر، وهو ترفلد أنها كانت (جديرتة) واللفظة آرامية، تعني
حظيرة، مكان التجاء الغنم .

٢ - يوافق موقع دير الزور اسم (دير الرمان) الذي ورد في (معجم البلدان)
لياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ للهجرة (١٢٢٨م). وقد روى المعمرون
الديريون أنه كان بدير الزور رمان ممتاز انقطع بسبب توالي الخراب الذي كان البدو
يلحقونه بالبلدة .

٣ - لما انقطع الرمان بقيت لفظة (الدير) مجردة ولعله انشئ فوق انقاض
المدينة القديمة، أفاد مؤسسوهذا الدير من الأنقاض ومن حسن المواقع .

وكانت توجد عدة أديرة على ضفاف الفرات وروافده الخابور والبليخ، قد
درست بسبب الحروب . فلم يبق غير ديرنا، الذي اجتذب اناساً، شردوا من
ديارهم، فبنوا حوله بيوتاً لهم، وأخذ عدد البيوت يزداد مع الزمن ومع توالي
القادمين الجدد .

ولما كان ديرنا وحده في المنطقة، لم تكن ثمة حاجة الى تمييزه بالحقاق لفظة
أخرى به . ولفظة (الدير) مجردة كانت شائعة عند القبائل المجاورة، فهم يقولون

انهم ذاهبون الى الدير، أو قادمون من الدير، ويعنون دير الزور الحالي، والنسبة الى الدير هي ديري، جمعها ديريون، ولا يقال دير الزوري.

٤ - وقيل كان اسم ديرنا (دير بصير). وقيل أن هذا الدير كان في بلدة البصرة، عند مصب الخابور في الفرات. وروى أن اسم ديرنا في العهد الأموي هو (دير الختليف) وأن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان اجتاز عنده الفرات في تشرين الأول سنة ٦٩١م بطريقه من دمشق الى الجزيرة الفراتية لمحاربة مصعب بن الزبير أخي عبد الله بن الزبير الذي بوع له بالخلافة في الحجاز.

٥ - لما شكّل العثمانيون تشكيلاتهم الإدارية في القرن العاشر الهجري، ميزوا ديرنا بأن أضافوا الى الاسم اسم الرحبة - القلعة القديمة الواقعة جنوبي بلدة المياذين، وكانت مأهولة بالسكان. وفيها حامية عثمانية لقرب الدير منها ولشهرتها القديمة. فصار اسم ديرنا «دير الرحبة» وتكتب في المواسم العثمانية بالهاء بدلاً من الحاء. غير أن هذه التسمية لم تشع، لتضالّ مكانة الرحبة، ونمو عمران ديرنا. وبقي اسم الدير مجرداً هو الشائع في المنطقة.

٦ - وكانت ديرنا في القرن التاسع عشر تعرف في حوران ومنطقة حمص وحماه، ولدى القبائل السورية باسم «دير الشُعراء» بضم الشين وتشديد العين وفتحها. والشعار تعني الشعراء. وهذه صيغة جمع محلية. ومنشأ التسمية هو أن شعراء عاميين من أبناء ديرنا كانوا يقصدون شيوخ العشائر يمدحونهم بشعرهم. ولكي تميز العشائر بلد هؤلاء الشعراء، ألحقوا لفظة الشعراء وشاعت سنين عديدة. وهنا يؤيد أن اسم ديرنا كان مجرد اسم (الدير) وفي أبناء دير الزور استعداد فطري قديم لنظم الشعر بلغتهم ولهجتهم العربية العامة. ومن فرق الزور فرقة تدعى (الشعار). في حين لا يقتصر قول الشعر على هذه الفرقة، وإنما هو عام في أبناء دير الزور رجالاً ونساء قديماً وحديثاً. وأخذوا ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى. ونبغ في دير الزور الشاعر محمد الفراتي، شاعر الفرات من

شعراء سورية المحدثين . وفخر دير الزور، ورائد أدبها ان صار لها أدب . فلم تسبقه اراء صافات تشير الى تكوينه في القريب .

٧ - سماها بعض الرحالين الأوروبيين «دير العسايفر» لكثرة العسايفر فيها، وبخاصة البلابل . وهذا الاسم قديم سمعه الراحلون من السكان . وفي السنين الأخيرة أطلقت عليها عدة أسماء : عروس الفرات ، والمدينة الخامسة ، وبلدة الخصب ، والزمردة الخضراء .

٨ - وعندما شكّل العثمانيون التشكيلات الادارية الثانية في دير الزور سنة ١٨٦٤ ، جعلوا من الدير مركز سنجق أي لواء ، ولم يروا بداً من تمييز الدير باضافة اسم اليها ، فكان لفظة الزور . وهذه اللفظة تحتاج الى تحقيق لان مفهومها الشائع خطأ .

١ - يذهب الظن بالبعض أنها من زارة الأسد ، بمعنى الأجمة ذات الماء والقصب . أو من زئير الأسد ، لوجود أسود في الماضي في هذا المكان .

٢ - وبحسب البعض أن لفظة الزور متأتية من لفظة الزيارة ، لزيارة السكان للدير .

٣ - ويوهم آخرون بقولهم ان لفظة الزور تركية ، تعني الصعوبة .

٤ - وفي عرف العامة يعني الزور الغابة ، كزور شمرو وزور البوحم وزور الغانم ، وهي أزوار واقعة على ضفة الفرات الغربية على طريق حلب دير الزور .

٥ - ويتبادر الى الذهن أن لفظة الزور ، متأتية من فعل زور زورا وأزوارا وزورة ، بمعنى مال وأعوج ، لازوار الفرات عند موضع دير الزور .

٦ - ينطلق البعض من غير أبناء دير الزور حرف الزاي في لفظة الزور بضمها وأشباعها فتصبح بمعنى الكذب والباطل . ويتجنّى البعض على المنطقة فيقول : انما سميت بالزور لشيوخ شهادة الزور في أهلها . ويتجنّى آخرون بقولهم انما سمى دير الزور بمعنى الدير الباطل ، لاستنكارهم لذلك الدير .

٨٧ - جاء في كتاب (البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية)

تأليف البطريق اغناطيوس يعقوب الثالث . جونية . لبنان ١٩٦٩ ص ٣١ : دير الزور: أصلها دير زور أي الدير الصغير، وكان بالقرب منه الدير الكبير .

٨ - والزور بفتح الزاي وتسكين الواو، مصدر «وهو أعلى وسط الصدر» فرس عريض الزور، أي عريض الصدر، ويريد السكان في القديم من لفظة الزور: أعلى ضفة النهر، أي صدره، يقابل ذلك عندهم تعبير (بطن النهر) لمجرى النهر الذي تحول عنه الماء . ويطلقون لفظة الزور على ضفة النهر، سواء كان عليها شجر، أو كانت خالية من الشجر. عندما يكون الانسان الفراتي في البادية، ويقدم منها نحو النهر، يقول لمن يسأله عن وجهته انه ذاهب الى الزور، وهذه اللفظة أطلقتها القبائل العربية التي قدمت من الجزيرة العربية الى الفرات منذ عدة قرون على القسم السوري من نهر الفرات، ما بين مسكنة «بالس القديمة» في الشمال، الى بلدة عانة على الفرات في الجنوب، وما زالت هذه التسمية شائعة عند سكان وادي الفرات فهي بمثابة مصطلح جغرافي قديم .

ولما جاء الاتراك الى وادي الفرات، كانت اللفظة شائعة، وعندما شكلوا تنظيماتهم الادارية، جعلوا المنطقة سنجقاً سموه (سنجق الزور) ثم متصرفية الزور، ثم لواء الزور، جعلوا مركزه دير الزور، التي كان اسمها «الدير» وكانت مركز التجارة بين العراق وسورية، ونقطة اجتياز النهرين الشامية والجزيرة. ومتصرفية ممتازة .

جاء وصف الزور في كتاب (جهان نما) لكاتب حلبي مطبوع في استنبول سنة ١١٤٥هـ بالتركية، وفي قاموس الأعلام لشمس الدين سامي بالتركية مطبوع في استنبول سنة ١٣١١ رومية وفي مجلة صوت الفرات المجلد الأول سنة ١٩٥٨ .

وتنسب بعض الحاصلات والصناعات المحلية الى الزور. نقول قمح زوري وبساط زوري . وبلاد الزور.

لمحات من تاريخ المدينة

مرت دير الزور بعدة عهود هي : عهد ما قبل التاريخ العباسي ، لا نعلم من أمره الا ما ورد من أسماء مدن قديمة ، قيل ان بعضها ينطبق على مكان دير الزور وغير آثار أبنية قديمة من الآجر وجدت عندما حفرت أساسات بناية فندق رغدان وأساسات مستشفى الدكتور عبود، يعود تاريخها الى العهد البيزنطي .

العهد العباسي

وهو عهد استفاضة العمران والازدهار الزراعي ، بفضل الأمن والعناية بالري بشق الجداول والترع من الفرات والخابور . وبفضل «طريق الفرات» التجاري والهام الذي كان يمر فيها . وفي هذا العهد كان اسم المدينة «دير الرمان» . وكانت ترعة سعيد ، وهو سعيد الخير أحد الأمراء الأمويين تمرّ فيها . وكانت المدينة من أعمال رحبة مالك بن طوق . قاعدة طريق الفرات ، وأكبر مدينة على الفرات على العهد العباسي ، بلدة الميادين حالياً . وليست القلعة كما هو شائع خطأ .

العهد العثماني الأول

يمتد من تاريخ استيلاء العثمانيين على سورية سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م الى سنة ١٢٨٠هـ - ١٨٦٤م ، وجدها العثمانيون بلدة صغيرة على الفرات الأعلى باسم «الدير» . فأختاروها مركزاً لموظفيهم ووضعوا فيها بعض شيوخ العشائر لحماية الطريق ، وأخذ أبناء العشائر يقدون عليها للاتصال برجال السلطة ولشراء بعض الحاجات ولوجود معبر عندها أو مخاضة على الفرات ، كانت محطة للمسافرين بين الشامية والجزيرة الفراتية ، جاء وصفها في هذه الحقبة في كتب الرواد الذين زاروها منذ سنة ١٥٧٤ الى سنة ١٩٢٤ . وقد وصفها بعض الكتاب المعاصرين .

كانت بيوتها متلاصقة فوق تل اصطناعي ، وكان سكانها أقوياء البنية ، وأخلاقهم مهذبة تستأنس بالغريب ، وكانت محصولاتهم الحنطة والشعير والقطن والذرة ، وكانت بسايتهم حافلة بأنواع الفواكه . وفيها شجر النخيل والليمون والبرتقال ، وكان شيوخها يلعبون الشطرنج . وكان عليها سور . تليه ترعة من الجبهة الجنوبية ، تخرج من الفرات . وكنا نسمي مكان تلك الترعة ، بشارع النهر وعلى طرفه الصاغة .

وقد تعرضت البلدة مراراً لهجمات البدو طمعاً بنهبها ، وقد تأثرت كثيراً بهذه الهجمات ، من ذلك هجمات الوهابيين في عام ١٨٠٧ ، نهب وخربت مراراً من البدو . لأن الدولة العثمانية لم تكن قد اخضعتهم ، كانت مشغولة بحروبها وفساد سلاطينها وجهازها . ولما أتيح للديرين ان يقتنوا البنادق ، وكانت بفتيل وصوانة ، أحسنوا الدفاع عن مدينتهم . وخافتهم العشائر ، كانوا مقاتلين ماهرين وشجعاناً . هذا الاضطراب جعل الدير تنكمش داخل سورها ، بلا ذكر ، مشغولة برد هجمات البدو عليها ، وافادت العزلة الديرين ، فاعتمدوا على أنفسهم في صنع كثير من حاجاتهم وحاجات العمران المجاورين لهم ، من ذلك القفوس وسنان الرماح والسيوف وزراعة القطن وغزله وحيآكته ، وصنع البارود ، ونسج البسط والعباءات والثياب القطنية وكانت الدير تابعة بإدارتها الى ولاية أورفا . ولما استتب الأمن نسبياً ، اخذت القوافل (السافات) التجارية تمر بالمنطقة ، وكانت دير الزور محطة لها ، تمدها بالزاد والعلف والحاجات والراحة ، وانشئت خانات فيها ، وأخذ الطريق بين حلب وبغداد ينعشها كما أخذت تخرج من عزلتها . ويطلع ابنؤها للتجارة .

ان الغارات التي كانت تستهدف لها الدير من العربان ، جعلت من الديرين رمة ماهرين ويقظين ساهرين على حماية بلدهم . والى سنة ١٩٢٠ ، كانت دير الزور هدفاً لغارات العشائر عليها لنهبها ، حاولت عشيرة أبوسرايا ان تدخل دير الزور لنهبها في سنة ١٩٢٠ ، ولكن الديرين قاتلوها وردوها . وفي

فترات الفوضى ، كانت المدينة تؤلف حكومة محلية لها جيش لحماية المدينة وحفظ الأمن فيها . كانت حكومة الحاج فاضل بن الشيخ عبود المنتخبة من الديرين وشيوخ العشائر، حكومة بمعنى الكلمة، حفظت الأمن وحمت المدينة . وهي التي ألحقت لواء الفرات بالدولة السورية ١٩٢١ ، وقد نفاه الفرنسيون الى جسر الشغور عدة سنوات ، وعاد ليمثل دير الزور ورأس البلدة .

كان عدد نفوس البلدة نحو تسعة آلاف في بداية القرن العشرين . وكان لقسم كبير من الديرين رحلة الى حوران في القرن التاسع عشر في أول الربيع ، يعملون صناعات وبيعاً عمالاً وتجاراً ، ثم يعودون في أول الخريف ، ورحلة الى الجزيرة الفراتية للعمل والتجارة ، وكانوا يذهبون الى حلب وبغداد وماردين وأورفة للتجارة .

ولما استولى القائد المصري ابراهيم باشا بن محمد علي والي مصر على سورية ١٨٣١ م . دخلت الدير في حكم المصريين ، ووصلت الجنود المصرية الى الدير والرقه والرجبة ، بعد انتصار الجيش المصري على العثمانيين في موقعة نزيب سنة ١٨٣٩ ، ونزيب قرية صغيرة على ضفة الفرات الغربية بالقرب من بلدة براجيك في الحدود التركية ويدعي القائد المصري الذي جاء الى الدير «قفطان» وعين لها حاكماً يدعى «معجون أغا» وربطت الدير بسنجد حماة وظلت تحت الحكم المصري الى عام ١٢٥٥ هـ . ثم عاد الحكم العثماني الى سورية ، وحصل الديرين على بندق من سلاح ابراهيم باشا ، سميت الابراهيميات ، احتفظوا بها واستعملوها ، للدفاع عن أنفسهم وعن بلدتهم ضد هجمات البدو والعشائر الطامعة دوماً بنهب البلدة .

العهد العثماني الثاني

يمتد من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٩١٨ وهي سنة انسحاب العثمانيين من الفرات وسورية . سirt الحكومة العثمانية حملة عسكرية بقيادة القائد عمر باشا

الكرواتي، خرجت من حلب في ٢ كانون الثاني ١٨٥٨، تضم ٥٠٠ جندياً مع عتادها لاختضاع العشائر في منطقة الفرات. والتوجه الى بغداد. وصلت الحملة الى دير الزور، وجرى بين جنودها وبين الديرين الذين قتلوا ١٦ جندياً، وتم الصلح بين الطرفين، واكتفى القائد بأن جند ١٦ رجلاً من الديرين ليحلوا محل الجنود القتلى. وبلغت اخبار الفوضى الى حلب ثرياً باشا، فأرسل حملة عسكرية الى دير الزور. وبعد أن استقرت الحملة جاء ثرياً باشا الى دير الزور وأعلن تأسيس الحكومة، وجعل دير الزور مركزاً قائمقامية «منطقة» عهد بشو ونها الى عمر باشا قائمقام عسكرية حلب، وقفل راجعاً الى حلب، والحق الدير بحلب. وعين خليل بك ثاقب الأورفلي سنة ١٨٦٥ قائمقاماً لدير الزور. فأنشأ داراً للحكومة. هي السرايا القديمة، وثكنة عسكرية، ومستشفى، وباشربناء سوق الميري، واستقدم اناساً من أورفة من أصحاب المهن والبساتين والكتابة للعمل في دير الزور. ما زال أحفادهم فيها.

وبعد نصف ساعة، جعلت الدير سنجقاً (متصرفية) من تشكيلات حلب. وفي سنة ١٨٦٨م فك ارتباطها بحلب وربطت بالآستانة. ومنح متصرفها صلاحيات واسعة، وصار لها أفضية ونواحي تمتد بين عانة ومسكنة، وتضم الجزيرة الفراتية في الشمال، وتمتد حتى حدود حماة في الغرب. تقطن فيها عشائر عنزة وشمر والجبور، وطى، والبوشعبان، وعقيدات، وبقارة وموالي وحديدون ولهب وكيار، وبوخميس، وبنوسعد وغيرهم. وقد توطد الأمن، وخاصة بعهد المتصرف أرسلان باشا. جاء متصرفون، اهتموا بتنظيم وتخطيط البلدة، فأنشأوا المدارس وشقوا الشوارع، وبنوا الأبنية، وأحدثوا حديقة عامة في البلدة، وأصلحو نظام الضرائب نسبياً، وبنيت عدة مساجد، وبنوا جسراً من الحجر على الفرات في المدينة هو المسمى اليوم الجسر الصغير، وآخر من السفن، وشجعوا التشجير، وأدخلوا الزي الأوروبي في اللباس وان لم يعمموه ولم يؤكد.

كانت مدة ذلك العهد ٥٤ سنة، تعاقب فيها ٢٩ حاكماً أو متصرفاً ولم تكن

ظروف الدولة العثمانية ولا ظروف دير الزور مواتية . لكي تخطو دير الزور اكثر مما خطته . تلف الجسر الخشبي سنة ١٩١٦ وازالت البلدية الحديقة العامة وكان ينبغي بقاءها .

ان تغير الحكام المتواصل ، يضاف الى ذلك قلة الامكانيات واضطراب الأحوال في الدولة العثمانية حرمت دير الزور من نشاط الحكام الصالحين ، وجد الدير عمرانياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً . وقد ساءت فيها الحالة مدة الحرب العالمية الأولى بما جند من أبنائها ، وبسبب المجاعة والأمراض والمصادرات وتوقف التجارة وبوار الزراعة وبعد المدينة وعدم وجود سكة حديدية فيها يربطها بالداخل السوري .

ان دير الزور مدينة بحضارتها للحكام العثمانيين على علامتهم ، فقد تركوا عليها آثار بصماتهم .

ان النتيجة التي نخرج بها من القاء نظرة نافذة على ذلك العهد الذي مر بسرعة هي قابلية دير الزور للتحضر السريع عندما تنهأ لها الأسباب ، ويؤخذ بيدها بالرغم من بداوتها ، أخذاً جدياً مقروناً بالعمل الهادف والمدرّوس .

فترة الفلت - أو الفوضى الأولى

من ٦ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وهو انسحاب العثمانيين من دير الزور الى ١١ كانون الثاني ١٩١٩ كانت المدينة بلا حكومة ، وتسلك السكان بالبنادق التي أبقاها الأتراك ، فحافظوا على كياناتهم تجاه بعضهم بعض . وتجاه العشائر المحيطة بهم . وفي هذه الفترة ، تأسست حكومة أهلية مؤقتة برئاسة حاج فاضل العبود ، الذي كان رئيساً لبلدية دير الزور . وفي كانون الأول ١٩١٨ قدم مرعي باشا الملاح من حلب موفداً من الحكومة الفيصلية - العربية ، متصرفاً للواء دير الزور ، فشكل دوائر الحكومة ، وعين قوام مقام للأقضية ، وكان النفوذ في المدينة لزعماء أنحاء البلدة . وفي ١١ كانون الثاني ١٩١٩ ، دخلت قوة بريطانية دير الزور ، عن طريق

الحدود العراقية، وتسلمت ادارة لواء دير الزور بناء على كتاب شكري باشا الأيوبي حاكم حلب بعهد الحكومة العربية استناداً الى اتفاقية بين الملك فيصل وبريطانيا.

الفترة البريطانية

من ١١ / ١ / ١٩١٩ الى ٢١ / ١٢ / ١٩١٩، عنيت السلطة البريطانية بالأمن ونظافة البلدة واختصرت الجهاز الحكومي وعنيت بالمدرسة الصناعية التي تأسست في العهد العثماني. وأنشأت مدرسة ابتدائية، أخذت تعلم اللغات الانكليزية. وكان الطبيب الأمير رثيف أبي اللمع اللبناني المعروف بدير الزور منذ العهد الفيصلي. وكان فاضل العبود رئيساً للبلدية. وسعى الديريون للتخلص من الحكم البريطاني، وكتبوا برغبتهم الى الحكومة العربية بدمشق، وكان الضباط العراقيون من حزب العهد العراقي بدمشق يرغبون باحتلال دير الزور، وجعلها قاعدة لتحرير العراق من الاحتلال البريطاني فمينوا رمضان الشلاش حاكماً للفرقة. ليكون ذلك خطوة لتحرير دير الزور، جاء الضابط رمضان الشلاش. واحتل دير الزور بمساعدة أبنائها، وعشيرته ابوسرايا، وانسحبت القوة البريطانية في ٢٧ / ١٢ / ١٩١٩ الى الحدود العراقية، تسلم رمضان الشلاش ادارة دير الزور بصفته حاكماً عسكرياً، وكانت سلطته اسمية، والنفوذ الحقيقي لوجوه البلدة. وما كانوا راضين عن تصرفاته. فأخرجوه من البلدة بعد شهرين. وخلفه مولود مخلص العراقي ممثلاً للحكومة العربية. جاء مع عدد من الضباط العراقيين في ١٧ / كانون الثاني ١٩٢٠. وفي ٣ / شباط / ١٩٢٠، جاء مظهر بك في عهد الاحتلال البريطاني مرتبطاً بحلب. وتقررت حدود اللواء بعد المفاوضات مع السلطة البريطانية بواسطة ومراقبة الديريين والعشائر الفراتية في بلدة المياذين نحواً من شهر. ولهذا المراقبة أهمية كبيرة وهي حدث هام في تاريخ دير الزور ومنطقة الفرات بالنسبة لأبناء دير الزور في تلك الأوقات، ولم تثهم قوة بريطانيا العظمى.

اشترك الحاج فاضل العبود وشيوخ العقيدات وشيخ البقارة وشيوخ عشائر فراتية أخرى في حفل تتويج الملك فيصل على سورية بدمشق . وقد استقبل الحاج فاضل بحرارة من الملك فيصل .

كانت فترة الحكم الفيصلي أو العربي في دير الزور امتداداً لفترة الفلت أو الفوضى الأولى المذكورة . وفي أيار / ١٩٢٠ / . حضر من دمشق مصطفى بك القنواطي متصرفاً الى ٩ / تشرين الأول / ١٩٢٠ . وكان آخر حاكم للفترة العربية بدير الزور .

عهد الانتداب الفرنسي

من ١٠ / تشرين الأول / ١٩٢٠ الى ١٧ / نيسان / ١٩٤٦ ، كان الحاج فاضل العبود حاكماً ادارياً الى تاريخ ٢٣ / ١٠ / ١٩٢٠ ، وكان حكمه امتداداً للفوضى واضطراب الأمن في منطقة دير الزور بسبب الفراغ الذي تركه الحكم العربي ، وضعف الحكومة المحلية ، وهذه الحكومة الأهلية الثانية للحاج فاضل العبود ، وقد أدت خدمات كبيرة الى البلدة بالنسبة الى أهليتها وضعف امكاناتها . ووجود العشائر حولها .

كان لواء دير الزور من سنة ١٩٢١ - ١٩٢٤ أحد ألوية حكومة حلب ، وكان اللواء يتألف من أقضية أبو كمال والمياذين والرقه والحسكة والحمدى . ولما تشكلت الوحدة السورية ١٩٢٤ ، انفك لواء دير الزور من حلب وألحق بدمشق بسعي الوطنيين من أبناء دير الزور ، لتمثل النضال العربي في دمشق .

في عهد الانتداب ، تعاقب على ادارة بشؤون محافظة دير الزور خمسة عشر محافظاً ، كانوا جميعاً من صنائع المستعمر . وقد التفت الطبقة البورجوازية حولهم . تسندهم على فسادهم ويسندونها . وكان دير الزور مهملة . ومنفى للموظفين الفاسدين فعاثوا فساداً . وكانت الروح الوطنية ضعيفة جداً . ولذا لم تعن دير الزور بأمر الثورة السورية ١٩٢٥ ، باستثناء اسرة واحدة هي أسرة عياش الحاج التي

تجاوبت مع الثورة، وضحت أبنائها وأموالها ونفى المستعمر أفرادها الى جبهة أربع سنوات أغفلها من أرخوا للثورة، لأن عائلة عياش آثرت الصمت الطويل.

بقي الدير ييون سادرين في جمودهم الى سنة ١٩٣٦، فشاركوا بالاضراب الستيني وتظاهروا عدة مرات، وكان أروع تلك المظاهرات مظاهرة يوم ١٠ / شباط / ١٩٣٦. يشهد بعنف الديرين اذا ما تحركوا. وكان للسيد بشير فاضل العبود دور كبير في النضال الوطني وفي مظاهرات سنة ١٩٣٦، سجن كثيراً واضطهد كثيراً.

كان لدير الزور في سنة ١٩٣٦ ثلاثة نواب في المجلس النيابي. ومن هذا التاريخ، بدأ الاهتمام بمحافظة دير الزور اهتماماً نسبياً وبخاصة بالمدارس. وكان لبلدية دير الزور رئيس ومجلس. وكانت أصوات الديرين ما تفتأ تطالب بالمدارس وبالطرق.

ومنذ سنة ١٩٣٢، أخذ الشباب الدير، وهم طليعة المحافظة، يحصلون أول مرة في تاريخ دير الزور على شهادات في الطب والحقوق والزراعة. لكن عددهم بقي ضئيلاً، لا يذكر بالنسبة لعدد سكان المحافظة ولم تكن حكومة دمشق تشرك أبناء الفرات في البعثات الى الخارج. وكان للسيد ثابت عزوي شأن كبير في تقديم طلبات البلدة.

لم تكن في دير الزور ثانوية للذكور فكان التلاميذ يذهبون الى دمشق وحلب لانعام تحصيلهم الثانوي وكثيراً ما طالب الدير ييون الحكومة لكي تحدث ثانوية للذكور.

وفي ٣٠ ايلول ١٩٣٠، فكت الحكومة المركزية قضاء الحسكة عن لواء دير الزور جاعلة منه محافظة الجزيرة، مركزها بلدة الحسكة. ثم أصبحت محافظة الحسكة.

وكان اقتصاد محافظة دير الزور يعتمد في الدرجة الأولى على تربية الماشية بشكل بدائي، وفي الدرجة الثانية على الزراعة، بشكل بدائي كذلك. وكان

الربا متفشياً يشكل معدل الفائدة ٥٠٪ ويقرض بعضهم المحتاجين بفائدة تزيد على مائة بالمائة. وما زال الربا الفاحش متفشياً وهواة المنطقة وسبب تدهور اقتصادها. ارتفعت للمرابين القصور وهم وجهاء البلدة أطلقت عليها مجلة صوت الفرات اسم «بلدة الربا». وكانت الأمية متفشية بنسبة ٩٥٪ خاصة بالقرى. والأمراض كثيرة، وعدد الأطباء لا يكاد يذكر، كل هذه الأسباب مع رداءة طرق المواصلات والبعد وضالة الوعي الاجتماعي، أخرت المحافظة عن بقية المحافظات السورية وعن الركب الحضاري.

وبين سنة ١٩٢٧ - ١٩٣٣، أنشأت الحكومة بعض الأبنية: الجسر المعلق والمستشفى ودار القضاء وأنشأت بلدية دير الزور مسلخاً صغيراً وحديقة صغيرة في حي الحميدية.

وأسس شاب ديري هو أحمد المصطفى مطبعة صغيرة في سنة ١٩٣٦ (مطبعة الفرات). ظلت الى عام ١٩٥٨ الوحيدة في المدينة، طبعت خلال هذه المدة ديوان شعر صغير للشاعر محمد الفراتي (النفحات) وفي سنة ١٩٤٥، صدرت مجلة ثقافية أول مرة في دير الزور هي (صوت الفرات) بعد سعي طويل، وكانت السلطة غير راغبة بوجود صحيفة ولا مجلة بدير الزور، حتى لا تساعد على نشر الثقافة والوعي فيها.

وأسس كبار تجار دير الزور (شركة الفرات للكهرباء والمشاريع العامة) في عام ١٩٣٧، لكنها لم تقم بغير تمديد الكهرباء. وهي الشركة الوحيدة ذات الامتياز في كل المحافظة ووادي الفرات. استبد مؤسسوها بإدارتها. فلم يشجع ذلك على تأسيس شركات بالبلدة.

وفي سنة ١٩٣٠ تأسس فرع لمصرف سورية ولبنان بدير الزور، ولم يكن فيها غيره باستثناء المصرف الزراعي الحكومي.

كانت الفوضى تعم دوائر الحكومة في المحافظة. وكان التناوب سائداً بين سكان المدينة. وفي العشائر وكان مراسلو الصحف الديريون يصفون هذه

الأوضاع في صحف دمشق وحلب وبيروت لخلود دير الزور من الصحافة المحلية . كانت الحكومة ترفض اعطاء ترخيص بصحيفة في دير الزور . فكان مراسلوا الصحف لسان البلدة وكانوا متطوعين .

ورخصت السلطة بتأسيس نادي أدبي بدير الزور ١٩٣٠ كان رئيسه السيد ثابت عزوي وسرعان ما أغلقت السلطة النادي وسجنت رئيسه وقدمته الى المحكمة في حلب .

عرفت دير الزور معرض الربيع مدة عدة سنوات . توقف في سنة ١٩٤٣ ، وكانت المحافظة تفيد منه ، ما فتئنا نطالب السلطات باعادته . لكن مطالبنا تذهب مع الريح . وقامت في دير الزور ثلاثة أندية رياضية هي نادي الأخوة ونادي الفرات ونادي غازي ما زالت عائشة بموارد ضئيلة . نادي غازي أكثرها نشاطاً تأسس سنة ١٩٤٠ يشغل مكانه الحالي بالايجار ومورده ضئيل .

وفي سنة ١٩٤١ - ١٩٤٣ ، استوزرت الحكومة السورية محمد العايش من كبار تجار دير الزور ، فكان أول وزير ديري في الحكومة السورية وبعده صار من التقليد الوزاري ضم أحد أبناء دير الزور من الطبقة البورجوازية الى الوزارة . وقليلاً ما أفادت المنطقة من الوزراء الديريين ، أفادوا هم من توزيعهم .

خطا التعليم خطوات في هذه الفترة ، وكانت ترد دير الزور الصحف السورية والمجلات المصرية . تأسست فيها مكتبة استوردت كتب المطالعة ، ولكن المدينة لم تعرف حركة أدبية ، فلم ينبغ فيها الا شاعر واحد هو محمد الفراتي ، دون أن يفيد منه مواطنوه ، فقد أضاعوه ، وخلت المدينة من صحيفة ، في حين عرفت في سنة ١٩١٦ صحيفة (جول) بمعنى البادية ، كانت تصدر بأربع صفحات باللغة التركية والعربية . وتطبع في دير الزور بمطبعة جلبت من حلب لمدرسة الصنائع بدير الزور توجد نسخة منها بمتحف دير الزور .

وأخذ عدد المقاهي يزداد زيادة تلفت الانظار ، حتى قالوا ان في دير الزور بين كل مقهى ومقهى مقهى . فزاد في خمول أبناء دير الزور وركودهم وتبلد الحس

أي حس . وبخاصة الحس الثقافي والأدبي ، فلم تكن لهم مشاركة في أدب أوفن .
تعاقب على حكم المحافظة خلال عهد الانتداب ، أي فترة ربع قرن تسعة
عشر محافظاً ، لم يكن لأحد منهم يد بيضاء عند دير الزور ولا عند المنطقة . كان
سجلهم على العموم مخازي . وهذه المهمة أرادهم المستعمر الذي كان من وراء
تعينهم ، كانوا على حد المثل الفراتي : (كأحجار مرحاض) .

عهد الاستقلال ١٧ نيسان ١٩٤٦ - ٢ شباط ١٩٥٨

تعاقب على المحافظة ١٣ محافظاً ، بمعدل محافظ كل سنة . في هذا العهد
بنيت دار البلدية في سنة ١٩٤٨ بقلّة ذوق ، سهاها الأهليون (قهوة معدان)
واستقرضت البلدية مليون ليرة سورية ، أساءت التصرف بها ، وفي سنة ١٩٤٧
جرى احصاء للسكان ، ظهر منها أن نفوس دير الزور لا تتجاوز الثلاثين ألفاً
وكانت تقدر تقديراً بـ ٧٦ ألف خطأ . وهو عدد ضئيل بالنسبة الى مكانة دير
الزور . وفي سنة ١٩٤٧ حدث فيها (انتفاضة القمح) في عهد محافظ دير الزور
مكرم الأناسي ، بسبب استئثار السلطة بالقمح الجيد الذي كانت تصدره مؤسسة
الميرة . وقد نجحت الانتفاضة ، ونالت مطالبها ، بفضل تنظيمها ، ووجود موجه
واعٍ على رأسها ، ورئيس شجاع في تاريخ دير الزور الحديث ، دلت على مقدار
ما يمكن للجماعة المنظمة ذات الهدف العام ان تحقق مطالب عامة ، اذا هي
صمدت ، وكانت جريئة متلاحمة واعية .

كانت رئاسة البلدية منشطة بالمحافظ ، مما أضمر كثيراً بالبلدة ، وكان هذا
التدبير من ايعاز المتنفذين في البلدة ، وإلا لما كان .

وفي انتخابات ١٩٤٧ و ١٩٤٩ و ١٩٥٢ و ١٩٥٤ مثل دير الزور ومناطقها
نواب من المدينة ومناطقها ، حرصوا على منافعهم الخاصة ، ولم تفد المحافظة من
تمثيلهم لها شيئاً جديراً بالذكر . وقد امتهنوا الأخلاق أسوأ امتهان في أثناء التحضير

للانتخابات . من هذا الامتهان شراء أصوات الناخبين . وبذلك جعلوا من المواطنين سلعة رخيصة . واستردوا الثمن أضعافاً بأبخس السبيل .

لم تكن للحكومة خطة في تعيين المحافظين فلم يكونوا يلمون بقضايا المحافظة ، ولا يتحمسون لها ، ولم يكن للمحافظة مجلس يتم بقضاياها ، فكان المحافظ يتخبط في تصرفاته ، وكثيراً ما كانت صبيانية ، فكان ذلك من أسباب تأخر المحافظة .

عرفت دير الزور في كل عهودها فروعاً لكل الأحزاب والمنظمات السياسية التي عرفتها المدن السورية ، دون أن تترك أثراً ثقافياً أو أدبياً أو فنياً أو وعياً اجتماعياً .

لقد ازداد عدد المدارس الابتدائية في المحافظة ، وأحدثت ثانوية للذكور وأنشئ جسر عین أبو جمعة بعد أن بحث أصوات الأهلين مطالبة بإنشائه ، حيث سبب القديم حوادث كثيرة وضحايا عديدة . واکمل تعبید طریق المیاذین وطریق دیر الزور حلب ، وأتمت شركة كهرباء دير الزور . وفي سنة ١٩٥٧ تأسس متحف دير الزور للتقاليد الشعبية ، أول مرة في دير الزور ، وما زال الوحيد في كل وادي الفرات ، وهو متحف خاص مسبل على الزوار . والحكومة مقصرة بحق المنطقة لاغفالها تأسيس متحف التقاليد في دير الزور حتى اليوم^(١) للضياع ، وهي من صميم تاريخ الشعب ، ومطلوب من الدولة .

وفي هذه الفترة تأسس ناديان أدبيان هما البيت الثقافي في سنة ١٩٤٤ وكان يحتوي على مسرح صيفي وآخر شتوي وعلى مكتبة ومتحف صغير ، وكان يقوم بتعليم الأميين ، والنادي الثقافي تأسس سنة ١٩٤٦ أغلقهما حسني الزعيم فيما أغلق من النوادي في سورة . وكانت تلقى فيها المحاضرات .

وتأسست مجلستان ثقافيتان هما مجلة «صوت الفرات» صاحبها المحامي عبد

(١) تأسس المتحف وتحققت أمنية الباحث .

القادر عياش ، تأسست سنة ١٩٤٥ ، و«مجلة الثقافة» صاحبها السيد جلال السيد تأسست ١٩٤٦ ، عاشت بضعة أشهر وأوقفها صاحبها ، وكان يصدرها النادي الثقافي بدير الزور.

ووجدت مطبعة ثانية عام ١٩٤٨ ، هي مطبعة مجلة صوت الفرات ، باعها صاحبها ونقلت الى حلب بسبب اغلاق السلطة لمجلة صوت الفرات بسعي المرابين لفضحها أفعالهم ، وكان صاحبها اعتمدها اساساً لدار نشر أعلن قيامها وأعلن أسماء المصنفات التي تباشر طبعها .

وتأسست دار كتب وطنية عام ١٩٤٨ في مديرية الأوقاف عين لها الشاعر محمد الفراتي قيساً مع شيخوخته براتب شهري قدره مائة وخمسون ل . س . هو راتب عامل يقبضه من بلدية دير الزور . وقد تم هذا التعيين بعد سعي حيث ، بذله أصدقاء الشاعر . ان هذا الراتب على ضآلته وما انفق من جهد للحصول عليه هو العمل الحسن الوحيد الذي يذكر للمجلس البلدي بدير الزور ، وقد بقي الراتب جارياً حتى سنة ١٩٥٩ ، انتقل فيها الشاعر الى دمشق لمباشرة عمله في وزارة الثقافة .

وفي عام ١٩٥٢ أقبل أبناء دير الزور على شراء محركات الضخ ونصبها على الفرات والخابور لزراعة القطن . وضعوا فيها كل ثرواتهم بصورة مرتجلة ، دون أن يكون للحكومة تدخل للحد من هذا الاقبال الجنوبي الذي كان فيه دمار الاقتصاد الفراتي . واستمرت بلدية دير الزور كل هذه المدة دون أن يكون لها رئيس منطقة بالمحافظ . وفي ذلك العهد أقبل كثير من الشباب على تعلم الميكانيك بالممارسة في ورش الميكانيك لسد حاجة محركات الضخ والجارات واصلاحها ، وازداد الاقبال على كليات جامعة دمشق من أبناء دير الزور يدرسون في مختلف الكليات ، وتخرج عدد كبير مدرسين في ثانويات دير الزور ومحافظتها . وأول مرة يتوفر المال لدى مديرية أوقاف دير الزور وتشبيد عدة أبنية تدر عليهما المال ، فتنفق في خدمة المساجد وموظفيها .

عهد الوحدة ٢٢ شباط ١٩٥٨ - ٢٨ ايلول ١٩٦١

عين الاستاذ طه حداد من أبناء دير الزور رئيساً لبلديتها، وكان مديراً للتربية بدير الزور. وقد أخذ ينهض بوظيفته، ومما يذكر له انشاء الحديقة العامة عند مدخل المدينة من الغرب، لكنه ما لبث ان غادرها الى مجلس الأمة في القاهرة. فعادت الى المحافظ حتى ١٩٧٢. مما يضرب دير الزور، ولم يطلب الاهلون بتعيين رئيسهم لبلديتهم.

واحدثت مدرسة ثانوية للبنات أول مرة في دير الزور بسعي عبد القادر عياش وبشير فاضل عبود. وأستأنفت مجلة صوت الفرات صدورها في بداية عام ١٩٥٨ بشكل جديد، وجلب السيد عدنان سليم مطبعة أوتوماتيكية هي المطبعة السليمية في بداية عام ١٩٥٨، تولت طبع مجلة صوت الفرات عدة سنوات وأنشئ بناء الهاتف الالي، ومدرسة زراعية ثانوية، وجمعية العاديات، ومركز للدراسات التاريخية والجغرافية أول مرة بدير الزور، أسسها المحامي عبد القادر عياش ما زالت الجمعية والمركز قائمين. وتأسس فرع لمصرف مصر هو مصرف التسليف الشعبي حالياً. وبناء جديد لمصرف سورية والمهجر. وتأسس المركز الثقافي العربي شغل مكاناً بالآجار ولذلك هو ينتقل من مكان الى آخر. وتأسست ثانوية صناعية، وصارت وزارة التربية توفد بعض التلاميذ الديريين في بعثات الى الخارج. وانتسب جملة طلاب فرائين الى الجامعات المصرية، وكانوا جميعاً يتلقون اعانات من الحكومة المصرية، وأنشئ مطار دير الزور والاستاذ الرياضي أول مرة بدير الزور.

وجدد الديريون بناء الجامع الحميدي وجامع الرفاعي وبنوا الميتم الاسلامي وبنى كل من السادة هزاع الطعمة - ومحمد نوري السليم - ومحمد العايش مسجداً باسمه، وبنيت السيدة خديجة فرحان من أهالي دير الزور مسجداً بمحلة علي بك.

وبدأت في دير الزور أول حركة نسائية، تمثلت في جمعية المرأة العربية

تأسست في عام ١٩٥٩ جمعية يقظة المرأة العربية تأسست عام ١٩٦٠ . وكلا الجمعيتان تتلقيان مؤازرة من السلطة . واشتركت وتخرجت طبيبة هي عائدة عزاوي . أول فتاة ديرية تخرجت طبيبة في الخارج . وكانت الأنسة لمياء الجوهري أول طبيبة ديرية تتخرج من جامعة دمشق . وعملت اختصاصاً في طب الأطفال في باريس مدة سنتين تشغل اليوم وظيفة طبيبة بمستشفى الولادة بحلب ولها عيادة خاصة .

العهد الاشتراكي ٨ آذار ١٩٦٣

أمت المشاريع الزراعية الفردية في سائر أنحاء المحافظة ، وتأسست جمعيات تعاونية زراعية في كثير من قرى المحافظة أول مرة في تاريخها ، كما تأسست شعب حكومية كثيرة كشعبة الاصلاح الزراعي ، وشعبة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وشعبة الاقتصاد الوطني ، ودائرة التخطيط ، وشعبة الاحصاء .

وعبدت طرق عديدة ربطت القرى بالطرق العامة ، أول مرة في تاريخ المحافظة ، وتأسست محطة الابقار في دير الزور بدأت بأبقار قليلة وبلغ عددها اليوم نحو أربعمئة بقرة يوزع حليبها الى مئات المشتركين في المدينة . وانشئت ثانوية صناعية حديثة ، في محلة الشيخ ياسين بدلا من القديمة وهي ثكنة عسكرية غير ملائمة واتسعت حركة العمران في دير الزور اتساعاً ملحوظاً وشقت طرق كثيرة وعبدت في المدينة قامت عليها احياء للعمال والموظفين ساعدت البلدية والمصارف في تمويلها . وتكونت أحياء جميلة البنيان مثل حي القصور . وبنيت عدة مساجد جديدة في الاحياء الحديثة هي مسجد الروضة ومسجد الفردوس ومسجد الإمام علي ، بناء محمود ورشيد ميلم . وبنيت السيدة صالحة كردوش مسجداً بمحلة الشيخ ياسين واقامت ثلاثة جسور على الفرات ، بدير الزور وبنيت محلجة كبيرة في دير الزور ودار للضيافة . وبنيت وزارة التربية مدارس ابتدائية واعدادية وثانوية في دير الزور والقصبات والقرى . وبنيت الدولة سدوداً في بادية الفرات لشرب

المواشي، أول مرده في المحافظة. وتتسع مساحة الأراضي الزراعية، وحركة العمران في الريف بشكل ظاهر يلفت النظر. ويزداد عدد الجارات الزراعية من سنة الى أخرى، وتتحسن حالة سكان الريف باضطراد التعليمية والصحية والاجتماعية.

وقد هجرت القبور في دير الزور وحل محلها طرق وحدائق عامة. وقد انشيء في دير الزور سوق هال وبراد عام، كانت المدينة تطالب بهما منذ مدة طويلة. وبني مركز لاتحاد نقابات العمال بدير الزور. ويدرس عدد كبير من أبناء دير الزور في جامعات أوروبا.

يتنشر التعليم بين النساء، وقد عم السفور في دير الزور. وتسهم المرأة بوظائف حكومية وفي المؤسسات الى جانب الرجل فضلا عن قيامها بالتعليم، وتحضر الاجتماعات العامة، وتأسس اتحاد نسائي بدير الزور له فروع في المدينة وفي المحافظة، وقد قام بتأسيس روضات أطفال. وله نشاط في تعليم الاميات وميادين أخرى. ودخلت الفتاة الديرية مختلف فروع جامعة دمشق وجامعة حلب. ومنهن اليوم طبيبات ومدرسات في ثانويات دير الزور. ليس فيهن شاعرة أو كاتبة.

ويجري استثمار الملح في قرية البويطية غربي دير الزور. وهو أول استثمار فني لشروة ثروات محافظة الفرات الدفينة. ويجري نقل الركاب بين دمشق ودير الزور على الطائرة خمسة أيام في الاسبوع بساعة وعشرة دقائق والخط ناجح. تستكمل الطائرة ركابها في الذهاب والاياب. وقد قربت هذه الوسيلة بين دير الزور والعاصمة. ويوجد بجامعة دمشق خمسة مدرسين من دير الزور أول مرة بتاريخها. ومدرسان بجامعة حلب. لقد حل الالتفات الى محافظة دير الزور من قبل المسؤولين والعناية بها محل الاهتمام في العهود السابقة. وهذه البادرة نقطة تحول في تاريخ المحافظة. أمل ان يمهّد لهذا التحول أدب فراثي واقعي يصاحبها، ينبر لها الطريق، ويؤرخ لها، فلا تمضي المحافظة على سيرها السابق دون أن يصدر عنها انتاج ادبي يعرف بها. ويثبت خطاها ويقومها، ويساعد على نشر الثقافة والوعي

ويسهم بالحركة الفكرية والأدبية . يأخذ الفراتيون منها ويعطونها ، أن لركودهم
الفكري أن ينجلي .

دور دير الزور الحضاري والوطني في تاريخ وادي الفرات

تمتع دير الزور بموقع متميز ، لوقوعها على شاطئ الفرات الأعلى ، بين
بادية الشام والجزيرة الفراتية ، وهي ملتقى طرق تجارية قديمة ، ومحطة للقوافل بين
العراق وسورية ، يمر بها الطريق بين دمشق والموصل ، والطريق بين حلب
وبغداد . وهي ميناء على نهر الفرات ، ومعبر قديم بين الجزيرة والشامية ، ووسط
عشائري منذ عدة قرون ، وسوق تجارية لعشائر كثيرة تضرب في باديتها . ومركز
إداري لها ، ومنارة إشعاع حضاري ليس على الفرات بكل طوله الألفين
والأربعمئة كيلومتر ، بين منابعه ومصبه في الخليج العربي لمدة تضاهيها لا بعدد
سكانها ولا بحضارتها وعمرائها ومساحة رقعتها وشأنها . لقد صمدت في وسط
البادية أمام القبائل الطامعة بها ، دافعت عن نفسها ، وتعرضت للمحن بسبب
غارات البدو عليها وبعدها . ومضت في تحضرها وإداء رسالتها ، كان وادي الفرات
يتأثر بها . وما زال يتأثر بها . انها حاضرت بحق ، كان وجودها وكفاحها
ونضالها الوطني قدرة للسكان في وادي الفرات وموضع إعجابهم وتقديرهم ،
وحافزاً لهم . وكان وجودها وحيوية أهلها سبباً في عمران الرقة والميادين وأبوكمال
والسبحة والحسكة ومعدان والبصيرة وعمران الجزيرة الفراتية ، كان دور الديرين
كبيراً في الجزيرة .

لقد نشرت دير الزور في أرجاء وادي الفرات والجزيرة الفراتية الحضارة
والوعي الوطني والروح القومية والادراك السياسي . انها قلب الفرات النابض
وحصن الوطنية فيه ، وزمردة وادي الفرات . لم ينصفها الكتاب السوريون فلم
يكتبوا عنها ، جهلوا .

أدرك العشائون موقعها وأهميتها، فاهتموا بها، وجعلوها سنجقا مرتبطا بالآستانة مباشرة. وقدرها الفرنسيون فسموها «بابل الحديثة» وأحبوها. كان دور أبناء دير الزور الحضاري والوطني كبيرا في تاريخ وادي الفرات. كافحوا الانكليز في الفرات وكان لوطنيتهم الفضل في اقرار حدود الدولة السورية من جهة الشرق سنة ١٩٢٠، وأحبطوا مؤامرات الفرنسيين المتعددة بفصل الجزيرة الفراتية عن أمها سورية في سنة ١٩٣٦، ١٩٣٧، لم يستطع بعدها وتأخرها وتسلط المستعمر عليها وفقرها وغلبة الامية على المنطقة أن يحول دون مشاركة أبنائها بالاحداث السورية ودون تقديمها التضحيات بالنفوس والأموال، ولكي تقوم بدورها الحديث تحتاج الى اعداد والى حقها بروح المدنية والصناعة لتصبح مدينة عصرية بحق.

ليست دير الزور بلا تاريخ كما يتوهم ابناءؤها والآخرين. وانما هي ذات تاريخ قديم، لكنه لم يكتب بعد. أن لكل مدينة حقها الصريح على ابنائها بأن يعنوا بتاريخها ويصونوه، ويبرزوه ويتعهدوه. ولقد عني أبناء المدن السورية بواجبهم نحو مدنهم، وقصر الديريون بحق مدينتهم وبحق التاريخ. ان ثمة أناس يرغبون بالاطلاع على تاريخ دير الزور، ويقدرون أهميتها، لقد رشحت عام ١٩٢٠ عاصمة لسورية والعراق من قبل الضباط العراقيين بدمشق. يجهل ابناءؤها قدرها ودورها الخطير.

ويزهد أبناء دير الزور وخاصة المتعلمين منهم في تاريخ مدينتهم، لأنهم يجهلونه (المرء عدوما جهل)، لم يعن أحد من متعلميها بمحاولة كتابة فصول في تاريخها البعيد أو القريب. تنعدم الرغبة في نفوسهم بمعرفة تاريخ بلدهم ومنطقتهم. ولذلك لا توجد كتب في تاريخ دير الزور وأحداثها على أهميتها، لقد هزت ثورة دير الزور ١٩٢٠ المستر تشرشل واعتبرها من الاحداث الكبرى في الشرق. لم يتصد لها أحد من أبناء دير الزور.

لظاهرة زهد المتعلمين من أبناء دير الزور بتاريخ مدينتهم أسبابها، وهي في

رأى نقص في نظام التعليم الثانوي والجامعي في سورية، وعوامل تربوية خاصة في بيئتهم وتربيتهم المنزلية والمدرسية في دير الزور، وحادثة عهد متعلميها بالتعليم وبالثروة فأولوها كل همهم .

ان لم تعلم المدارس عندنا تاريخ المدن السورية فأى شيء تعلم من التاريخ؟

لئن لم يكتب أبناء الفرات تاريخ منطقتهم وواديهم ، فهم معذورون لغلبة البداوة حتى على المتعلمين منهم بحكم الوراثة . فما عذر وزارة التربية ووزارة الثقافة ومجمع اللغة العربية والمجلس الأعلى للأداب والعلوم الاجتماعية والجامعات السورية ووزارة الاعلام؟ والمؤرخين السوريين؟ أم خلت سورية من المؤرخين في عصرنا؟

تعاقب على محافظة دير الزور محافظون عديدون ، لم يهتم أحد منهم بتاريخ المحافظة . ولا غرفة التجارة ولا غرفة الزراعة ، ولا المجلس البلدي ولا أحد من أغنياء المدينة او منظماتها ، رصدت مبلغاً ما لمن يكتب في تاريخ دير الزور ومحافظتها .

إن من شأن هذا التاريخ ان يساعد كثيراً في ادراك الديريين لدورهم الخطير . وفي تكوين شخصية لهم . عاشوا كل هذه السنين بدونها ، ليس لديهم حس بتاريخهم . لا شك أن المتعلمين منهم يقرأون فصولاً من التاريخ الا تاريخهم ، ثم لا تثير هذه القراءة في نفوسهم رغبة في تاريخهم وتحري مصادره ، وتشجيع ما يكتب ويظهر من محاولات فيه . لا يشعر الجامعيون في دير الزور بالظماً الى المعرفة والفن . يروهم الخمول .

لئن كنت كثيراً ما أنقد تقصير الديريين بحق منطقتهم وتاريخهم ، فلا ني أحبهم بكل تأكيد ، فهم أهلي وقومي ولا أقصد التشهير بهم . وانما ايقاظهم وحثهم ، أني أرتب عليهم مهمة كبيرة حضارية وفكرية لواديهم وحاضرتهم بلدهم . اني أحب منطقتي حباً زائداً ، أعيشها وأعيش لها . وقفت جهودي ووقتي ومالي

وتفكير ي على خدمتها منذ أربعين سنة الى اليوم ومدى حياتي ، حسبي أني (مجنون وادي الفرات) كما أطلق علي بعضها أصدقائي . وأطلقت زوجي على (شهيد وادي الفرات) أعيش وأموت وفي نفسي أشياء من وادي الفرات .

الصناعات التقليدية والفنون الشعبية في دير الزور

ان بعد دير الزور وعزلتها في العهود السابقة ، جعلها تعتمد على نفسها مستغلة قدم حضارتها ومعرفتها ومواردها المحلية ، فلم تكن الدير بلا صناعات ولا فنون تسد حاجاتها وحاجات العشائر ، التي كانت تحيط بها وتعتمد عليها عرفت البلدة في تاريخها صناعات كثيرة ، انقرض بعضها بحكم التطور وحلول صناعات نافستها ، وبقي بعضها ، عرفت البلدة غزل القطن الذي كانت تزرعه وحياسة بعض أنواع النسيج ثياباً ولحفاً وحياسة العباءات والبسط والسجوف أو الشفوف من خيطان الصوف الملونة ، وصناعة محاميس القهوة من الحديد وتكفيتتها وتزيينها بصفائح النحاس الاصفر بشكل نجوم ، وصنع السيوف والخناجر والسكاكين والخراب وسنان الرماح وصياغة الحلي الفضية والذهبية ، وصنع أنواع الفؤوس والشص وآلات الزراعة ، وصنع البارود واصلاح البنادق الحربية والسلاح وصنع الانية النحاسية والفخارية والخشبية ، وصنع عدة الخيل من سروج وأجمة وركاب وأعنة . وصنع العقال والخرج واللباد وصنع الاحذية المحلية (الكلاش) وصنع الفرواة من جلد الخراف وصنع دلاء الماء من جلد البقر لسقاية المزروعات . وصنع الدولاب من الخشب والحديد لسقاية المزروعات ، وصنع الدمى للأولاد ، وأنواع السلال من العيدان ، وصنع الجص الابيض بشي الحجر الكلسي في النامورة ، ثم سحقه وغربلته لطلاء جدران غرف البيوت من الداخل والخارج ، وصنع الجص الأسود بحرق

تراب الكفان بالزبل على وجه الأرض في ضواحي المدينة واستعماله ملاطاً لبناء الجدران وتغطية أسطح المنازل وصناعة نقر الرحي والمدار والدنج من الحجر البازليتي يجلبونه من غربي دير الزور. وصناعة الفخار لصنع الجرار والصحن والمزامل والدنان والقواقة. وكان قتل الشعيرية وما زال من الصناعات التقليدية المشهورة في دير الزور. وثمة صناعة تطريز العباءات والثياب النسائية، وصنع دلال القهوة.

وقد تمثلت الفنون الشعبية في فنون الغناء الشعبي وفي الموسيقى وأدواتها الربابة والدف والمزمار المفرد والمزمار المجوز والطبل. وفن العمارة ونقر ونقش الرخام، وللدريين أنواع من الألعاب الشعبية يدخل ضمنها الشطرنج والمنقلة والنرد والدامة ولعبة الطبق.

التشكيلات الادارية الحالية لمحافظة دير الزور^(١)

١ - دير الزور مركز المحافظة على الفرات ترتبط بها بعض القرى القريبة وثلاث نواحي هي : ناحية الكسرة غربي دير الزور على ضفة الفرات الشرقية . وناحية البصرة عند مصب الخابور في الفرات . وناحية الصور على الخابور وكل ناحية تتألف من عدة قرى على ضفة الفرات الشرقية .

٢ - منطقة المياذين، قصبتها بلدة المياذين على ضفة الفرات الغربية، تتبعها ناحيتان : ناحية العشارة على ضفة الفرات الغربية ، وناحية ذيبان على ضفة الفرات الشرقية .

٣ - منطقة أبوكمال، قصبتها بلدة أبوكمال، على ضفة الفرات

(١) لقد توسعت هذه التشكيلات منذ وفاة الباحث حتى الآن

الغربية على الحدود العراقية . تتبعها ناحية هجين على ضفة الفرات الشرقية ولها عدة قرى .

تقاليد الفروسية في دير الزور

لأبناء دير الزور ولع بالفروسية كبير منذ القديم أصيل في نفوسهم ورثوه عن قبائلهم العربية . يحرصون على ممارستها والاحتفاظ بها . يكرمون الضيف ويغيثون المستجير ويحامون عن الجار . واقتناء الخيل وركوبها والطردها والالتجار بها والالمام بما يتصل بها من تقاليدهم المتوارثة ولهم ولع زائد باقتناء السلاح من سيوف وخنجر وبنادق حربية وبنادق صيد . ومسدسات لا يستكثرون ثمنها لشرائها يزينونها بالفضة والذهب ، وكانوا الى مدة قريبة رماة ماهرين . ولهم اهتمام كبير بالصيد والقنص والكلاب وطيور الصيد والأشراك ، يمارسون أنواعا عديدة من الألعاب الرياضية المحلية منها القفز والعدو والمهارة واليقظة . ولهم ولع بصيد السمك في نهر الفرات والخابور بالشص (التتالة) والشبك والفالة . طالبت المسؤولين في دير الزور إقرار مهرجان سنوي ولي فيها مخطوط . ما زال ذكرها يبعث في نفسي الغبطة . وما زلت أحن الى زمنها الجميل . يا رعى الله ذات الزمن .

دير الزور المدينة

ان دير الزور حتى في عهودها الأخيرة ، وبرغم ما قطعتة من مراحل الحضارة حتى اليوم ، وعلى ما أدت من خدمات كبيرة الى وادي الفرات ، وما نهضت به من مهام وطنية وعمرانية ، ما تزال بلدة . ولما تصبح مدينة الا بالاسم . واني حين أطلق عليها اسم مدينة تفاؤلا . على أني اعود فاسميتها بصفتها الحقيقية بلدة : وسط بين القرية والمدينة . بين الدواير الحضارة

الصریحة بمعنى المدینة، والدیوریون أقرب الى البداوة منهم الى المدینة. «انی
أثیر مفهوم التسمیتین بمناسبة العدد الخاص الذي تصدره مجلة العمران عن
دیر الزور، ولأن دیر الزور مقبلة على عهد جدید من تاریخها. ولن تتعرض
مقالات العدد الا لأقل جوانب البلدة».

ان ایراد تعریفات للمدینة، یکشف عن وضع دیر الزور، فیتضح منه
مواطن الضعف والنقص فی تکوینها، فیتبین لأبنائها ان كانت مدینة ام شیئا
آخر.

ما هي المدینة؟ لم یسبق أن کان هذا السؤال موضوع نقاش فی دیر
الزور. مع أهمیته. المدینة هي الاطار الذي تتجمع داخله قوة مجتمع وثقافة،
خلال عصور متتابعة. وما أبنائها الا ماصنعتهم مدنیتهم، انها تاریخ
حتى صنعه تاریخ الحجارة التي یعیشون بینها، والمدینة الحققة هي التي توفر
لأبنائها الحرية والأمن والعمل والصحة الجسدية والنفسية والثقافية والرفاه
والتحابب والاخاء والتجدد والتقدم.

ما المدن الجمیلة سوى خلاصة جهود أبنائها وعمليات تجمیل مستمرة
قام بها مهندسون أكفاء، أزرقهم أبناء تلك المدن وأطلقوا أیدیهم.

المدینة کائن حي یرتبط جمالها بصحة جسمها الذي یتألف من خلايا
هي أحيائها، فلا بد من ان تكون جمیع هذه الخلايا صریحة، وللمدینة
شرایینها هي طرقها. ینبغي أن تكون سلیمة، وللمدینة رثناها وهي حدائقها
العامة وساحاتها الجمیلة ومیادینها الفسحة البهیجة. كما لها أنظمتها وقوانينها
تقالیدها النابعة من ارادة أهلها.

ان جمال مدینة فی أهم أشكاله هو تعبیيره عن تاریخ المدینة وكفاحها.
«لی أن جمال المدن لا ینحصر فی أمور معینة، مدن جمالها البارز فی
نظمتها، وأخرى فی روحها وجاذبیاتها ومدن جمالها فی مؤسساتها العملية

وأبنتيتها، وأخرى جمالها في قدمها وآثارها ومدن جمالها اسطوري تغنى به التاريخ كمدينة بابل الحاضرة الفراتية .

وراء المدينة مجلس بلدي مستنير حازم يسهر على جميع شؤونها مادق منها وما جل . وفوق كل ذلك تتميز المدينة الجميلة بسمو أخلاق أبنائها وحلاوة طباعهم وسلامة ذوقهم ، وبحبهم لمدينتهم وتعاونهم من أجل نفعها وتقدمها وتجميلها . وابداع روح فيها .

للمدن الجميلة مفاهيمها العصرية ، ولا نتصور مدناً حديثة بغير توفر هذه المفاهيم مجتمعة فيها ، يكمل بعضها بعضاً . ان جمال المدن عنوان لتقدم الشعوب .

بفضل حسن موقع دير الزور الجغرافي وأهميته ، وحضارتها القديمة النسبية ، وخلو وادي الفرات من العمران ، ولحيوية أهلها وتمرسهم بالخطوب ، استطاعت دير الزور ان يكون لها شأن غير قليل . ودور خطير في وادي الفرات . الا انها قد استنفدت دورها ، على ان وادي الفرات برغم تقدمه الحضاري في السنوات الأخيرة بالنسبة للعهود السابقة ، لا غنى له عن دور دير الزور القيادي الجديد ، وعلى دير الزور أن تبقى أمينة على رسالتها بعد أن تستعد لها أتم الاستعداد ، فلقد تغيرت الظروف وجدت أحداث . على دير الزور أن تأخذ دور المعلمة لوادي الفرات في عهده الجديد . ولكي تقوم بهذه المهمة بجدارة ، ينبغي لها أن تبلغ مرتبة المدينة الجميلة . على بنيتها ان يتخلوا عن صفاتهم البدوية ، وان يكتسبوا خصائل أبناء المدينة الجميلة والعصرية ، وأهمها حب العلم وتحصيله وعشق النظافة وهواية الفنون الجميلة وممارستها .

لدير الزور قابلية بلوغ مرتبة المدينة واستئناف دورها . ان لها امكاناتها لحيوية أهلها وجراثيمهم وتمرسهم بمختلف ضروب الكفاح في عهودهم

السابقة ، وبفضل نهرها العظيم وأهمية موقعها وخصب تربتها واتساع مساحة أراضيها وذكرى حضارات الفرات القديمة والشهيرة .

ان المجتمع الديري في صميمه ، قبلي لا مدني ، برغم مظاهر العمران واللباس والتعليم . انها صبغة خارجية سرعان ما تنكشف عن بدواة أصيلة هي السبب الهام في تخلف البلدة .

انها مجتمع متحضر نسبياً . الرابطة الاجتماعية بين سكانها هي رابطة العشيرة ، وليس رابطة المدينة . يفكر ابن دير الزور بعشيرته ويعقليتها ، ويعيش تقاليدها . كل هدفه ان يسود عشيرته ، لا أن يبرز في بلده بفضله وخدماته له . لا يحس الديري برابطة المدينة .

ان تزايد عدد السكان في دير الزور لم يأت من داخلها وإنما جاء من الريف والبادية فرفد فيها البدواة وزاد الطين بلة والعقد عقدة . فلا عجب أن كانت البدواة متغلبة .

ان مظاهر تخلف دير الزور كثيرة ، يشاهدها البصير الغريب الذي يمر فيها ، ويشعر بها الأعمى ، ويسمع بها البعيد ، فقد تحدثت بها الصحب السورية . فلا داع لسرد شواهد عليها . ولكن ما هي أسباب هذا التخلف؟ والذي يبدو عجباً في عصر الذرة وغزو الفضاء؟ انها أسباب كثيرة تراكت مع مرور الزمن ، فكونت تركة ثقيلة بغیضة ، انها صخرة عظيمة سدت منافذ الطريق على دير الزور . فلم تبلغ مرتبة المدينة .

حلبية وزلبية

المدينتان التدمريتان على الفرات

تقع منطقة حلبية وزلبية شمال غربي دير الزور على بعد ٥٨ كم في أراضي قرية التبي شرق طريق دير الزور حلب على شاطئ الفرات، وشرق شمال تدمر على بعد ١٦٥ كم.

المنطقة هضبة ترتفع عن النهر أكثر من مائة متر، تغطيها حجارة بركانية بسمك ٣ - ٦ أمتار يشقها الفرات قسمين، يسمى الأهلون القسم الغربي حمة الشامية حيث توجد مدينة حلبية أي مدينة زنوبيا أو الزباء على ضفة الفرات الغربية في الشمال، والقسم الشرقي حمة الجزيرة حيث توجد مدينة زلبية أو زلوياء على ضفة الفرات الشرقية في الجنوب بين المدينتين ثلاثة كم. اسم الحمة بفتح الحاء مأخوذ من الحمم البركانية والهضبة امتداد لسلسلة جبال البشري انفصلت عنها في العصور الجيولوجية.

كان لمضيق حلبيية الضيق أهمية كبرى في التاريخ القديم، لسهولة محصينه بالصخور الشاهقة الموجودة على سفح الهضبة والتي تسيطر على مدخل الممر وعلى مخرجه تشكل أبواباً ضيقة، وهذا المضيق أو الممر مكان نادر من نهر الفرات، ومعنى الاستيلاء عليه السيطرة والتحكم بالطريق النهري وطريق القوافل التجارية التي كانت تسلكه وهو موقع عسكري ممتاز. وفي العصور الإسلامية نشأت فيه مدينة إسلامية هي الخانوقة لأن النهر وهو يمر من تحتها كأنه منحوق، ولأهمية هذا الممر كان عامراً بالسكان والمدن منذ العصر الحجري كما تشهد بذلك الآثار على جانبي النهر.

ذكر الموقع في أخبار الملك الآشوري (آشور ناصر بال) باسم (نينقوشابورات) كانت عنده عدة مدن آشورية منها (دور كرباني) بنيت بأمر ملك آشور (ناصر بال الثالث) عام ٨٧٧ قبل الميلاد. يرى موسل أنها هي حلبيية «زنوبية».

كان كثير من سكان وادي الفرات السوري في العصور البابلية والآشورية آراميين أسسوا عدة امارات في وادي الفرات منها إمارة زوحي في منطقة زلبية، وامارة لاقى في منطقة حلبيية بين نهر الخابور ونهر البليخ، والى الآن يسمى الأهلون منطقة حلبيية (لايحة) أي لاقى القديمة. كانت هذه الامارات تحت نفوذ مملكة بابل ثم مملكة آشور، ولم تكن الحال فيها تستقر فتارة كانت تدفع الجزية الى آشور وتارة تشور عليها. وكان سلوك بابل وآشور يجتازونها في طريقهم الى سورية ومصر فأصاب هذه البلاد خراب كثير، وأكثر ما كان ذلك من ملك آشور ناصر بال الثالث (٨٨٥ - ٨٦٠) قدم له ملك لاقى فضة وذهباً ونحاساً وحجارة كريمة وارجواناً وجمالاً، ونصب تمثال آشور ناصر بال في وسط قطره علامة لعبوديته. وذهب ملك زوحي الى نينوى وقدم مثل ذلك وثارت زوحي على آشور ناصر بال الثالث أكثر من مرة، فأتى إليها في سنة ٨٧٨ ق.م ونكل بأهلها وخربها وبنى قلعتين في ممر حلبيية واحدة على الضفة الغربية سماها (نيبارت اسور) والاخرى

على الضفة كرخ آسور ناصر بال) وكذا فعل شلمنصر الثالث (٨٦٠ - ٨٢٥) وخلفاؤه من بعده الى ان انقرضت دولة آشور سنة ٦٦٨ .

وقبل الآراميين بقرون سكن مضيق حلبيّة سكان غير معروفين . وفي عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر الكبير الذين آلت إليهم هذه البلاد وجدت عدة مدن في ممر حلبيّة ، اندرست وبقيت اسماءها منها (تلدا) يرى دوسو أنها زلبيّة نفسها (وماسيليا) يرى بوادبار أنها بجوار زلبيّة الى الشمال وترى الأنسة بل ان تلدا في تل حميضة شمال زلبيّة . ومدينة أنوكاس في قبور ابي عتيق في الممر .

ولما نمت تدمر ذلك النمو المفاجيء الذي جعلها من أكبر مدن الشرق بفضل السياسة الرشيدة التي سار عليها رجالها الاذكياء الشجعان الذين عرفوا الاستفادة من موقع مدينتهم واختاروا الحياد تجاه الدولتين المتنازعتين الفرس والروم وجعلوا بلدهم مركزاً تجارياً تمر بها قوافل التجارة تحمل البضائع بين أسواق العراق وما يتصل بها من بلاد ايران والهند والخليج ، وبين أسواق الشام وحوض البحر المتوسط ، وعرف رجال تدمر كيف يحافظون على الأمن في بادية الشام ، وكانوا خبراء بالطرق فصارت القوافل تعبر بادية الشام مارة بتدمر يتجرون لحسابهم ويربحون من قيادة القوافل .

كان وادي الفرات الاوسط تحت نفوذ الفرثيين الفرس شجعوا التدمريين على القيام بالتجارة فأسس التدمريون مراكز تجارية لهم في مضيق حلبة وفي صالحية أبوكمال (دورا) التي مازالت تحتفظ بباب ضخّم في سورها الغربي يسمى باب تدمر . وكانت توجد طرق بين تدمر ودورا وتدمر وحلبيّة تسلكها القوافل التجارية .

صارت تدمر بغناها مطمح أنظار الطامعين ، فتوجه اليها القائد الروماني مرقس انطونيوس سنة ٣٦ ق . م بعد أن حارب الفرثيين في الشام وحاول الاغارة عليها ونهبها ، فبادر التدمريون الى نقل أموالهم وعيالهم وعبروا الفرات وأقاموا عند زلبيّة ، فتعقبهم انطونيوس واقتتلوا قتالاً شديداً كانت الغلبة فيه لأهل تدمر ،

ولكنها خربت في سنة ٤١ ق. م. قدر التدمريون أهمية مضيق حلبية لتجارتهم فجعلوا فيه ميناء نهرياً ومستودعات للبضاعة بموافقة الفرثيين وأقاموا عنده السدود على النهر ما تزال آثارها.

اغتنت تدمر في أوائل القرن الثاني الميلادي وبلغت بعمرانها درجة سامية فطمع الرومان بها وأخضعوها لحكمهم ، ولما قويت تجارتها ازدادت قوتها الحربية ، فخلعت طاعة روما في سنة ٢٥٠ وحمل ملك تدمر أذينة الثاني على شابور ملك فارس وكسره وغنم أمواله فرفع الامبراطور الروماني غالينوس منزلة أذينة ، ودعاه قائداً عاماً على جميع عساكر المشرق . واستولى أذينة على الجزية الفراتية سنة ٢٦١م وشدد الحصار على ساليق على دجلة ، واتخذ التدمريون من مضيق حلبية قاعدة استراتيجية لتموين جيوشهم لغزو الامبراطورية الفارسية ، ولكن أذينة الثاني اغتيل في حمص فنودي بابنه الصغير وهب اللات ملكاً على تدمر ، فتولت أمه زنوبية زوجة أذينة تدبير الأمور . كانت تصحب زوجها الى ساحات الحروب ، نشأت في الآداب ، وكانت تتكلم عدة لغات منها الاغريقية واللاتينية ، وكان لها بلاط جمعت فيه الفلاسفة . واعتنت بتحسين عاصمتها وتزيينها ، وامتدت حدود مملكتها الى قسم من آسيا الصغرى والى النيل سنة ٢٦٩^(١).

وقد بنت مدينة على الفرات لحماية حدود مملكتها من الشرق ولتجعل من المدينة ميناء نهرياً تزاحم به ميناء مدينة الكفل (الجيشا) بلواء الحلة في العراق ، اسمت المدينة (زنوبية) وهو اسمها باليونانية سماها العرب زينب ، وهي نفسها مدينة الزباء كما اسمها الطبري . وبنت مدينة مقابلة هي زلبية فوق انقاص المدن الآشورية في المسر الذي يمتد سبعة كيلومترات على الفرات بين قريتي التبنّي والقصبي من قرى دير الزور . ولا تذكر المدينتان الا مقرونتين معاً ، وتوجد لوحة

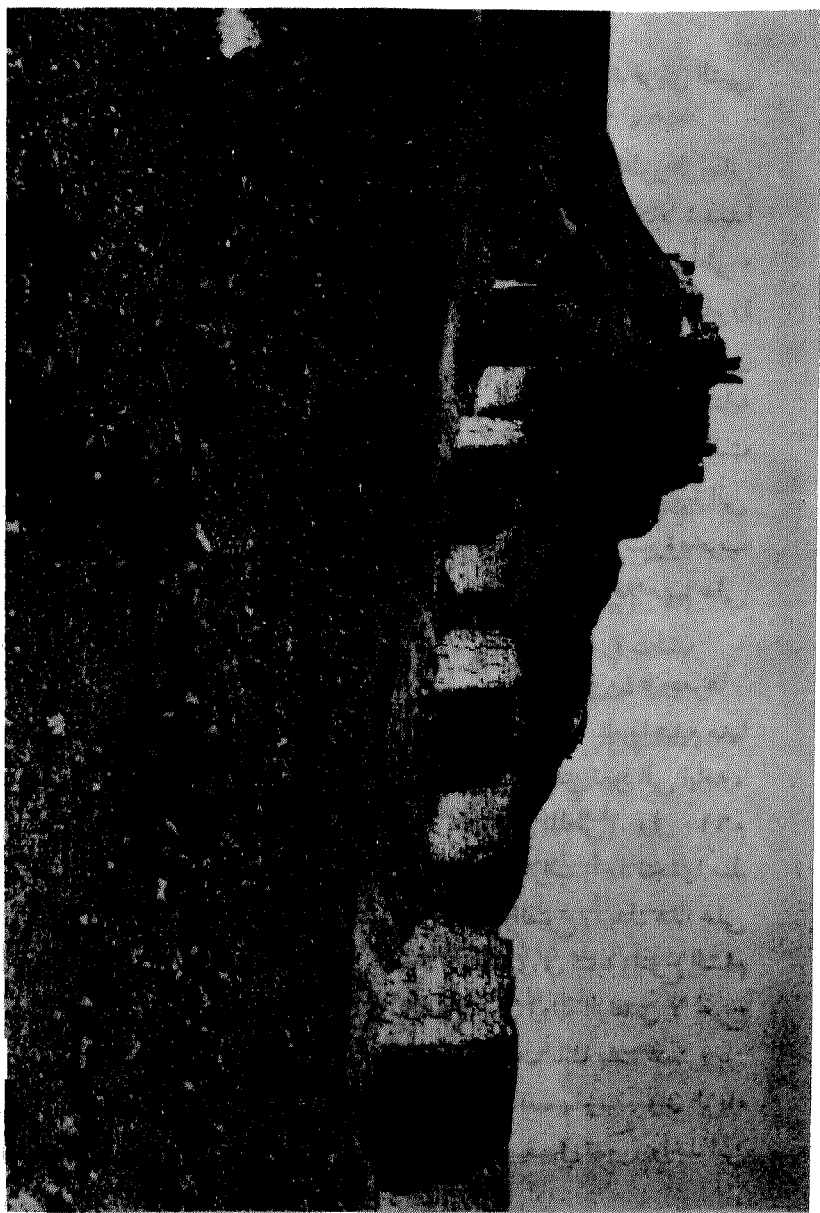
- كانت تدمر العاصمة الأولى لوحدة سوريا ومصر آنذاك .

تحمل اسم حلبية وزلبية على الطريق العام بين حلب - دير الزور عند قريتي التبي بجوار طرف الحمة الغربي .

رأى الرومان في تدمير منافساً خطيراً لروما فحارب الامبراطور الروماني اورليانوس جيوش زنوبية وحاصر تدمر سنة ٢٧٢م وقاتل التدمريون قتالاً شديداً عند مدينتهم ، وانطلقت زنوبية من عاصمتها تدمر الى مدينتها على شاطئ الفرات لتذهب منها الى الجزيرة الفراتية تهيء مقاومة الى احلاف ، ولكن مفرزة من الجنود الرومان كانت ارسلت لتقطع عليها الطريق ، فاتجهت الملكة الى الشرق ، ووصلت دير الزور كما يقول المؤرخ العراقي الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الاسلام ج٣) وفي دير الزور ادركتها المفرزة الرومانية بينما كانت تنأهب لأخذ قارب ينقلها الى الضفة الثانية من النهر عادت بها المفرزة أسيرة الى اورليانوس في خريف سنة ٢٧٢ اصطحبها معه مع بناتها الى روما أسيرة وخرب تدمر ، واستولى الرومان على مدينة زنوبية على الفرات وكانت من قلاعهم على الحدود الشرقية لامبراطوريتهم .

استولى خسرو الأول ملك فارس على زنوبية حوالي سنة ٥٤٠ ودمرها . وقد استرجعها الامبراطور جوستنيان (٥٣٧ - ٥٦٥) فاعاد بناء ما تهدم منها واسكن فيها اناساً وحامية عسكرية ، وقد عثر على المباني التي تعود الى ايامه ، وبعضها من عمل معمارية (يوحنا البيزنطي) و(ازيدوروس الملطي) . وفي ٦١٠م في أيام القيصر فوقاس هاجمها خسرو الثاني وانزل بها الخراب وأخذ نجمها منذ ذلك الحين في الأفول ، فلم يسمع عنها شيء في أخبار (الفتوح) وبدل هذا على انها لم تكن شيئاً يذكر في ذلك الحين . وانفرد الواقدي في كتابه (فتوح الشام) بتخصيص فصل ذكر فيه فتح القلعتين زبا وزلوبيا ، غير أن رواية الواقدي لا تخرج عن اقاويص الاخباريين عن الزباء ، واسمها عندهم نائلة بنت عمرو بن الطرب ، وعلى زعم آخر اسمها ليلي ، وزعموا ان لها اختا اسمها زبية . وان الزباء بنت قصرأ لاختها على الفرات وكانت تشتو عندها وتصيف في تدمر . واخذ ابن

منظر لمدينة حلايية (روم آثار زلايية)



خلدون رواية الطبري وتصرف ببعضها. ذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب ج ٢) ان مدائن الزباء على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي، وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية، وجعلت نفقاً ما بين مدائنهما، وذكر انها حفرت سرباً من تحت سريرها وبنته حتى خرج من تحت الفرات الى سريرها. ان وجود مدينة زنوبية على الفرات ومدن أخرى على الجانب الآخر من النهر لا يعرف الأخباريون شيئاً عنه هو الذي خلق قصة النفق في مخيلتهم. وترجع قصة النفق الى الاخباري ابن الكلبي رواها الطبري. أما الأصل فخبير من أخبار الاخباريين. وقصة النفق بين المدينتين شائعة عند سكان المنطقة تلقنوها من ألسنة قراء كتاب الواقدي وغيره، وقد تكون قديمة في المنطقة. ذكر البكري أن المدينة التي بنتها الزباء على شاطئ الفرات هي الخانوقة وزعم أن الزباء عمدت الى الفرات عند قلة مائه فسكّر ثم بنت في بطنه ازجا جعلت فيه نفقاً الى البرية وأجرت عليه الماء، فكانت اذا خافت عدوا دخلت في النفق وخرجت الى مدينة اختها الزبية. ولعل أصل النفق بين المدينتين يعود الى وجود جسر كان على الفرات لربط الجانبين من النهر، وكان الجسر من طابقين اعتنوا به ليحيى متفقاً مع أهمية الموقع وأهمية المدينتين وما زالت آثار ركائز الجسر باقية تشاهد في ايلول وقت نزول مستوى النهر. وذكر ياقوت ان الزباء مدينة على شاطئ الفرات سميت باسم الزباء صاحبة جذيمة الابرش، وروى عن أبي بكر عبد الله بن عثمان المقرئ الدمشقي خطيب الزباء أنه قال: «الزباء معقل في عنان السماء ومدينة قديمة حسنة الآثار»، فتكون في عهد ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ مسكونة ولا بد أنه كان فيها مسجد يصلي فيه ما دام لها خطيب وذكر فيه مادام لها خطيب. وذكر ياقوت أن الخانوقة مدينة على قرب الرقة ينسب إليها أبو عبد الله محمد بن محمد الخانوقي محدث. فهي عند ياقوت غير الزباء. في حين أن البكري يسمى الخانوقة مدينة الزباء، وهو الأرجح. ويذكر اليعقوبي بقعة على شاطئ الفرات وانها كانت لامرأة يقال لها الزباء ولكنه جعل بقعة قرب الأنبار، وبما أن بقعة

هذه جاءت مقترنة بالزبء وبجذيمة الأبرش فتكون هي حلبيه ويذكر الميداني النيسابوري في كتابه (مجمع الأمثال) في تفسير المثل (خطب يسير في خطب كبير) قصة جذيمة والزبء محشية بالأمثال. ويذكر ياقوت في موضع آخر من معجم البلدان: بلدة عدان على شاطئ الفرات لاخت الزبء ومقابلها أخرى يقال لها (عزان) وهويقصد حلبيه وزلبية، اذ لا توجد على الفرات مدينتان متقابلتان لهما علاقة بالزبء غيرهما. وهذا الاسمان بعض ما سميت به المدينتان بسبب ما أصابها من خراب وما توالى عليهما من السكان.

ان لفظة حلبيه متأخرة لا أعلم مصدرها، وبما لا جدال فيه انها هي الزبء أو زنوبية. وان بقاء لفظة الزبء وزنوبية وزلبية تعني أن المنطقة كانت من أعمال مملكة زنوبية ملكة تدمر بل ملكة الشرق في ذلك الوقت.

منطقة حلبيه وزلبية من الأماكن الاثرية بمحافظة دير الزور، اهتم بدراستها بعض العلماء والرواد الغربيين: سار، وهرتزلد، وتشسني، وساخو، والانسة بل. وفي سنة ١٩٣٦ درست جامعة ييل الامريكية التي كانت تعمل في الصالحية (دورا اورويس) بعض أبراج المدافن في مقبرة حلبيه، وفي سنة ١٩٤٥ أجرى الاثري الفرنسي ج. لوفري حفريات في حلبيه، وساعده الجيش الفرنسي بدير الزور بأن شق له طريقا للسيارة على سفح الهضبة من بين النهر والهضبة ليصل الى حلبيه قسم من هذا الطريق وسط سهل وهو معظمه والقسم الثاني على سفح الهضبة.

ان موقع مدينة حلبيه عبارة عن مرتفع بارز منفصل عن الحمة، يحيط به واديان، ولكن المرتفع الذي يصله بالحمة منخفض. وعلى قمة المرتفع قلعة يتفرع عنها سوران جصيان ينحدران باتجاهين متعاكسين الى الفرات، اما الضلع الثالث للمثلث المواجه للنهر فقد ذهب به مياه الفرات، وأعيد بناؤه خلف البناء القديم، وأقيم سد في النهر يحاذي الشاطئ لكي لا يلاحق النهر السور الشرقي المواجه له. وتشرف القلعة من فوق المرتفع على الأراضي المجاورة وعلى الجزيرة. وللسور من

جهة النهر بابان أو ثلاثة . ولكل ضلع من الضلعين الآخرين من المثلث باب ، وعلى كل ضلع عدد من الأبراج المربعة المتشابهة ذات طوابق وأدراج ومداخل ومزاغل ، والأسوار مبنية بالأحجار الجصية التي يكثر وجودها في منطقة الفرات ، ومتأثرة في طراز بنائها بالعمارة العسكرية البيزنطية ، وبرغم وجود البازلت حولها لم يدخل في بنائها وعلى الضلع الشمالي قصير يرجع انه عربي ، كان قصر الحاكم مؤلف من ثلاث طبقات ، عقود من القرميد فوق أقواس من الحجر .

يجتاز المدينة شارع ذو أعمدة رخامية على الجانبين يتجه من الجنوب الى الشمال ويمر ببابي المدينة الجنوبي والشمالي ، وللأعمدة تيجان مزخرفة من الرخام ما تزال آثارها ، وفي وسط المثلث آثار كنيسة وبعض أبنية مخربة تخريباً تاماً . وكشف لوفري عن أسوار ثانية وعن المحكمة وأبراج المدافن وعن حمام ومطابخ ووجد أواني خزفية ونقوش كتابية ومجموعة عظيمة من الأقمشة وضعت في متحف دمشق ، ووضع ومعاوناه مخطط الشوارع الرئيسية ووضع المباني وقدم تقريراً بذلك الى مديرية الآثار السورية .

تظهر مقبرة وراء الباب الجنوبي . وهناك حي خارجي يمتد بين سور المثلث وبين سور آخر للدفاع يقع على بعد أربع مائة متر . وآثار السور الثاني لا تزال وبلغ طوله ثلاثة كيلومترات ونصف ويقع كله ضمن حلبية ويتجه من الشمال الى الجنوب . ويبدو أنه يقطع الحمة بعرضها ، وهذا السور مبني بالحجر البازلتي ومعه برج يشكل خطأ أولياً للدفاع يحمي مؤخرة المدينة ، وعلى بعد كيلومتر جنوب السور برج جنائزي تنتهي عنده المقبرة وحول البرج اكتشفت كنيسة صغيرة وبعض التوابيت .

ان قسماً من السور فقط يمكن نسبته الى جوستنيان ، أما القسم الآخر فيعود الى عهد أقدم ، والاختلافات بين هذين القسمين ظاهرة في أسلوب البناء وفي مادته . وتوجد كنيسة في الجهة الغربية هي من عهد جوستنيان وأخرى في الجهة

الشرقية أقدم . ان أسلوب البناء في هذه المدينة موضعي خاص بمناطق الفرات ،
والمواد هي الاعتيادية المستعمل فيها الجص .
لم يبق من آثار تدمر في حلبية الا أبراج جنائزية تتألف من طابقين أو ثلاثة
وأهرام تدمرية للقبور دون الاهارم الموجودة في تدمر في الصنعة والفن .
ولا تعرف بلدة اسلامية عند زلبية التدمرية . وزلبية هذه التي تقع على ضفة
الفرات الشرقية جنوب حلبية على بعد ثلاث كيلومترات مرتفع من الحجر
الجصي كان عليه قلعة ذات أسوار وأبراج مبنية بالحجر الجصي وقد جرف النهر هذا
المرتفع لأنه يمر من تحته مسرعاً لوجود آثار سد شماله وذهب بمعظم القلعة . وإلى
شمالها في السهل على سفح هضبة حمة الجزيرة آثار رسوم أبنية من الحجر البازلتي
هي زلبية القديمة الآشورية التدمرية يذهب إليها من دير الزور عبر الجزيرة على
بعد ٦٥ كيلومتراً في أراضي قرية الكبر من قرى ناحية الكسرة التابعة لدير
الزور .

قرقيسيا (البصرة)

نهر الخابور عبر التاريخ

الجزيرة الفراتية او الجزيرة السورية عبارة عن نهر الخابور

كان حتى العشرينات من قرننا يبدو وكان لا شأن له ولا خطر.
ومؤخراً تبرز أهميته الاقتصادية والوطنية بروزاً ظاهراً، يلفت إليه الانظار،
ويسرعي الاهتمام بفضل جهود ابنائه والتفات الحكومة السورية اليه اكثر من قبل،
يشهد تدفق النفط والسكك الحديدية - تفتحت العيون والأذهان على أهمية
حوض الخابور لا في حياة الجزيرة الفراتية حيث يجري النهر فحسب، بل في حياة
سورية واقتصادها.

كان للخابور أهمية كبيرة في العصور القديمة، فقد شهد حوضه الأعلى حضارات تعاقبت، وشهدت ضفافه بين منابعه ومصبه في الفرات عمراناً وقرى ومدناً منذ عصور قديمة، طوله ٤٥٠ كيلومتراً، يشكل واديه ولاية واسعة، حفلت ببلدان حمة.

اجتذبت تلّول الخابور الاصطناعية القديمة ومواقع مدنه الاثرية علماء وباحثين ومنقبين آثاريين منذ منتصف القرن التاسع عشر، كتبوا عنها بحوثاً ومؤلفات، من أشهرهم هنري لا يريد الانكليزي، وارنست هرتزفولد الالماني، والبارون ماكس فون اوبنهايم الالماني، والذي قام بحفريات في تل حلف بالقرب من مدينة رأس العين في أعالي الخابور، في الربع الأول من القرن الحالي، استمرت عشرين سنة، أسفرت عن الكشف عن حضارة متميزة، اطلقوا عليها تل حلف او الحضارة الميتانية نسبة إلى الشعب الميتاني، الذس أسسها، وقد عاصرت حضارات مصر وآشور وكان لها معها علاقات.

نقلت الآثار الميتانية المكتشفة في تل حلف إلى المتحف الوطني بحلب، وإلى متحف أسسه البارون أوبنهايم في برلين، كان واجهته تحمل عبارة «متحف تل حلف» دمر في أثناء الحرب العالمية الثانية. ونشر أوبنهايم عدة مؤلفات عن جغرافية المنطقة وتاريخها وعن تنقياته وضمّنها رسوماً ومخططات عديدة.

ما زال موقع تل حلف وتل الفخيرية يجتذبان بعثات آثرية اميركية و المانية . ليس عدد المصادر التاريخية التي ذكرت الخابور بأقل من التي ذكرت الفرات . ولقد ذكر الجغرافيون المسلمون من بلدان الخابور و اوصافها اكثر مما ذكروا من بلدان الفرات . وزار حوض الخابور علماء آثاريون ومنقبون بقدر ما زار منهم وادي الفرات . وسبق التنقيب الآثاري بتل حلف ، التنقيب في الحريري - مدينة ماري - على الفرات بمنطقة ابوكمال بمحافظة دير الزور . عاصرت حضارة ماري التي ازدهرت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد

حضارة تل حلف، وكان بين المدينتين صلات ودية وثيقة، اقتضتها وحدة المنطقة والمصالح الاقتصادية والدفاعية.

كان الخابور منذ القديم بغزارة مياهه وخصوبة سهوله، واعتدال هوائه أساس قيام حضارات قديمة أقدم ما نعرفه هي الحضارة السوبارية التي اوجدها الشعب السوباري في أعالي الخابور. وسميت البلاد التي عاش عليها: سوبارتو، لم تكن تقل حضارة عن حضارة بابل ومصر. وقد خلفتها الحضارة الميتانية. وجاء الآراميون بعد عشرة قرون من خراب تل حلف، وبعثوا العمران في المنطقة، وشادوا المساكن والقصور فوق تل حلف، واحاطوه بأسوار حصينة، واقتبسوا فنون السكان الأصليين، وظهر نشاطهم في مجالات البناء والتجارة وتأسيس الامارات والممالك في بلاد ما بين النهرين وفي سورية، منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ونشروا لغتهم الآرامية وآدابهم في سورية والعراق وبلاد ما بين النهرين وفلسطين. ولما جاء الآشوريون أخضعوا الممالك الآرامية ودمروا قواعدها، والتفتوا إلى أهمية الخابور، وأنشأوا على ضفافه القلاع والمراكز. وكان بعض ملوكهم يأتي من نينوى حاضرة الآشوريين على دجلة في الشمال لصيد الفيلة في غابات الخابور الممتدة.

ولما استولى الفرس على الجزيرة الفراتية عنوا بشؤون الري، فحفروا الترع واقاموا السدود على نهر الخابور، فكانت الحقول المسقية تمتد مسافات بعيدة على جانبي النهر وفي سهول الجزيرة الفراتية، وكانت أقنية الخابور ونهر دورين، إحدى الترع القديمة، وهي خربة اليوم، كانت تخرج من الخابور وتجري مسافة ثمانين كيلومترا في السهل على ضفة الخابور الشرقية تسقي هذا السهل، ويرجع تاريخها إلى عهد دار الثالث العاهل الفارسي. وتحمل اسمه، وما تزال اثارها بادية للعيان.

وعندما استولى الاغريق على هذه البلاد بقيادة الاسكندر الكبير، أفادوا

من مراكز حضارات الخابور فبنوا مراكز جديدة على بعضها، فقد اظهرت الطبقة العائدة للعصر الاغريقي في تل حلف مساكن يونانية .

وفي اثناء الحكم الروماني لهذه البلاد اهتموا بها، واتخذوا من ضفاف النهر خط دفاع ضد الفرس المجاورين لهم والطامعين بمد حدودهم إلى الغرب، وازداد عمران حوض الخابور، برغم الحروب بين الدولتين الفارسية والرومانية ووقع بلدان الخابور تارة بين الفرس وأخرى بيد الرومان، مما عرضها للنكبات .

في العهد العربي ازدهر حوض الخابور، حيث تمتع بالأمن افاد السكان من اتساع رقعة المملكة العربية في العصرين الأموي والعباسي، وافاد وادي الخابور من الطريقين الكبيرين في المملكة العباسية : طريق الموصل حلب، وطريق الفرات بين الانبار وحلب، فضلاً عن الطريق المائية نهر الفرات، فازدادت اهمية مدينة رأس العين عند منابع الخابور لوقوعها على الطريق الأول، وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً، تفيد منها مدن الخابور، وازدهرت عليه مدينة الحربة .

وكان الخابور طريقاً مائية، نقل عليها سكانه القدماء الغلال الزراعية من فواكه وقطن في مراكب نهريّة خشبية منذ العصور القديمة . ونشطت الملاحة في الخابور في العهد العربي وخاصة في العصر العباسي . كانت السفن تحمل القطن الفواكه إلى العراق منحدرة في الفرات . وكانت مدينة قرقيسيا - بلدة البصرة حالياً - مرفأً تجارياً في أسفل الخابور ومرفأً تجارياً على الفرات بنفس الوقت على ضفته الشرقية، ترسو فيها السفن من أعالي الفرات وتغادرها بطريق الفرات إلى العراق .

كان حوض الخابور عامراً بالمدن والقرى والمزارع والحصون التي بقيت إلى تاريخ اجتياح التتار للجزيرة الفراتية وقتلهم السكان وتخريبهم العمران في القرن الثالث عشر للميلاد . وأعقب ذلك اجتياح تيمورلنك وتتابع مجيء العشائر العربية البدوية من الجزيرة العربية إلى الجزيرة الفراتية ذات المراعي الخصبة لأغنامها، واستوطنت براري الخابور، وكانت حرباً على ما تبقى من عمران وادي الخابور

الذي ظل قفراً حتى الفترة الأخيرة من العهد العثماني . حيث ساد الأمن نسبياً ، فأفاد أشخاص من بلدي ماردین ودير الزور من وجود السدود القديمة ، ومن ركائز دواليب الماء القديمة ، وصنعوا دواليب خشب جديدة لسقاية مساحات قليلة قرية من ضفاف الخابور إلى جانب السقاية بالدلو على البكرة . واجتذبت الزراعة الصغيرة المستجدة قسماً من أبناء عشائر براري الخابور الرحل . وبذلك بعثت الحياة على ضفاف الخابور بعد بوار دام قروناً أعقب ازدهاراً .

كانت العشائر العربية التي تعيش في براري الخابور على ماشيتها في صراع دائم مع بعضها البعض سواء منها السورية او العراقية ، ولم يتوقف الغزول لبعضها البعض إلا في السنة ١٩٤٦ ، وكانت كل من السلطة الفرنسية في سورية والانكليزية في العراق تشجع الغزوين العشائر لاغراض استعمارية .

ذكرت المصادر السريانية وذكر الرحالون المسلمون والأجانب في العصر العباسي وما تلاه مدن الخابور ، ووصفوا عمرانها باعجاب وهذه اهمها :

١ - رأس العين : من أمهات مدن الجزيرة الفراتية ، عريقة في القدم ، يرجع تاريخها إلى العهدين البابلي والآشوري ، شاد الرحالون بعيون الماء الكثيرة فيها ، وبعمرائها وسعتها واتصال الضياع الكثيرة بها . وكان يغلب على زراعتها القطن . أصابها خراب بسبب الحروب ، وخرج فيها كثير من العلماء والأدباء ، نسب بعضهم إليها .

٢ - المجلد : كانت مدينة حسنة في أسفل رأس العين ، تتصل بها قرى عديدة .

٣ - ماكسين ، كانت مدينة صغيرة ، كثيرة الخيرات . وكان عندها جسر على الخابور . وكان يرتفع منها ومن المجلد قطن إلى خلاط والموصل . وكان فيها معاصر للزيت ، ومركز للمكس ومنه اشتق اسمها . ونسب إلى بعضها الأدباء والعلماء .

٤ - عربان، وهي موقع عجاجة اليوم، كانت مزدهرة بالعهدين البابلي والآشوري. وكان لها أهمية استراتيجية كبيرة في عهد الروماني، حيث كانت المركز الرئيسي في خط الحدود بين المملكة الرومانية والمملكة الفارسية. وكانت في العهد العربي قاعدة الخابور، يصدر منها القطن إلى العراق وأرمينية. وتحمل منها ثياب القطن إلى الشام وغيرها. وتخرج منها طرق عديدة. وفي نواحيها مدن كثيرة غلبت عليها البادية. وبين عربان وقرقيسيا التي عند مصب نهر الخابور في الفرات، كانت توجد مدن صغيرة هي: الشماخية الحصين، والدارة، والشمسانية، والفدين، والصور، وتينير، وسكير العباس، والعبدية، والجحشية، ومردة، وتل شدادي، والفدغمي، وتل الشيخ حمد، وتل طابان.

ودلت المراقبة الجوية لطريق رأس العين الحسكة على وجود آثار مدن حصينة، مكانها اليوم تلول كانت منشآت دفاعية، وكذلك التلول الموجودة حول الحسكة مركز محافظة الحسكة على الخابور الاوسط.

٥ - قرقيسيا عند مصب الخابور في الفرات، وهي أقدم مدن الخابور ومن أهمها بالنظر لتمييز موقعها ولكونها ميناء على نهري الفرات والخابور. وكانت محطة للقوافل بين العراق والرقه ورأس العين وبادية الشام. سيأتي الكلام عنها بشيء من تفصيل بحكم انها عنوان هذه الدراسة وهدفها.

كانت مدن الخابور مراكز أدب وعلم منذ القديم، أسهمت بالحركة العلمية في العصور الآرامية والعصور العربية وبخاصة في العصر العباسي بما أخرجت من علماء وفقهاء، وأدباء وكتاب سريان وعرب، نسب بعضهم إلى مدائنهم فقبل الرسعني نسبة إلى رأس العين والمجدلي نسبة إلى المجدل والماكسيني نسبة إلى ماكسين، والقرقساني نسبة إلى قرقيسيا.

ونسب بعض ادباء الخابور إلى قبيلته كالعتابي نسبة إلى بني عتاب من قبيلة تغلب وهو من رأس العين، والنمري وهو منصور التمري نسبة إلى عشيرته نمير من قيس موطنه رأس العين ونسب أدباء آخرون إلى المنطقة فقبل الخابوري

وثمة أدباء وشعراء فحول موطنهم بين الخابور والفرات هم من أبناء الجزيرة الفراتية امثال عمرو بن كلثوم والاخلطل القطامي . والاسمان الاخيران ألقاب .
ولشعرائه القدامى وآخرين شعر في احداثه التاريخية وفي اسماء اماكنه روته
كتب تاريخ الأدب وكتب التاريخ بصورة عامة .

وكان النتاج الأدبي الخابوري رافداً غزيراً نميراً ، رقد نهر الأدب العربي
حقبة طويلة . سنتعرف على بعض شعر القطامي التغلبي والذي قاله في مدح أمير
قرقيسيا الشاعر الفارس الجواد ، زفر بن الحارث الكلابي المتوفي عام ٧٥هـ وعلى
قصيدة رثائية قالتها إحدى نساء الخوارج في الجزيرة الفراتية الفارعة ليلى بنت
طريف الشاري ، ترثي بها أخاها الوليد بن طريف الشاري الشيباني ، القائد
الخارجي الكبير والذي نازل جيش الرشيد بالقرب من الخابور ، وقتل في المعركة .
في سنة ١٧٨هـ . جاء في هذه المراثية بيت مشهور ، يذكر كلما ذكر نهر الخابور
وواديه ، يستشهدون به على كثرة الاشجار بوادي الخابور في العصور القديمة . في
حين انه يكاد يخلو اليوم من الاشجار برغم العمران الذي اخذ يدب فيه مؤخراً .
ثم لا يعلم معظم رواة بيت الفارعة من أمركائته ، ولا من امزطروف قوله وتاريخها
شيئاً . واكثر ما يستشهد المستشهدون على شجر الخابور بالشطر الأول من بيت
الفارعة ، ويظلمون هذا البيت بعدم روايته بشطريه وهما :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تمزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المسال إلا من قناً وسيوف
جاء آسم الخابور في مصادر عبرية ويونانية وفارسية ورومانية وآرامية وعربية
وافرنجية بصيغ مختلفة .

وسميت منطقة الخابور في بعض المصادر العربية بـ «خابوراء» نسبة إلى
الخابور . قال ياقوت في معجم البلدان : «فهو اسم لنهر كبير بين رأس عين
والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان حمة ، غلب عليها اسمه ، فنسبت
اليه من البلاد قرقيسيا ، وماكسين والمجدل وعربان ، واصل هذا النهر من العيون

التي برأس عين، وينضاف اليه فاصل الهرماس ومد، وهو من نهر نصيبين، فيصير نهراً كبيراً، ويمتد فيسقي هذه البلاد ثم ينتهي إلى قرقسياء فيصب عندها في الفرات».

ذكر الخابور في سفر الملوك وسفر حزقيال من اسفار العهد القديم (التوراة) وسفر حزقيال كتب على الخابور في أثناء السبي اليهودي، فهو من الأدب الخابوري القديم. ان الجزيرة الفراتية على شهرتها واتساعها تكاد ان تكون وادي الخابور.

ذكر الاخطل الخابور بقوله:

اراعتك بالخابور نوق وأجمال
وقال الربيع بن ابي الحقيق اليهودي من بني قريظة:

دور عفت بقرى الخابور غيرها
بعد الأنيس سوافي الريح والمطر
ان تُمسِ دارك ممن كان يسكنها
وحشا فذاك صروف الدهر والغير
وتعصب بعضهم لماء الخابور وفضله على ماء الفرات العذب، انشد ابن الاعرابي:

رأت ناقتي ماء الفرات وطيبه
أمر من الدفلى الذعاف وأمقرا
وحنّت إلى الخابور لما رأت به
صياح النبط والسفين المقيرا
فقلت لها: بعض الحنين فان بي
كوجدك إلا أنني كنت أصبرا

ولما كان الأدب من ابرز سمات الأقوام واكثرها دلالة عليها، ولما كان لوادي الخابور أدبه عبر القرون وبخاصة أدبه العربي، اقتضى ان اذكر نموذجاً في قصيدة الفارعة ليلى بنت طريف الشيباني، رثت بها أخاها الوليد بن طريف الشيباني الذي خرّج في سنة ١٧٨ هـ. بالجزيرة الفراتية وآرمينية. واتسع امره وجبى الأموال، فسير الرشيد اليه يزيد بن مزيد الشيباني، فقاتله. فقتله، بالقرب من موقع الصور على الخابور الأوسط حيث لا يزال قبره. وورثية الفارعة هذه تعد من اللطف الرثاء وفاخر الشعر العربي:

بتل نهاكا رسم قبر كأنه
تضمن مجدداً عد مليا وسوددا
فيا شجر الخابور مالك مورقا
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى
فقدناك فقدان الربيع وليتنا
وما زال حتى أزهق الموت نفسه
ألا يا لقوم للحمام وللبلبل
ألا يا لقومي للنوائب والردى
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى
وليث كل الليث إذ يحملونه
الا قاتل الله الحشى حيث اضمرت
فان يك اوداه يزيد بن مزيد
عليه سلام الله وقفنا فاني

على جبل فوق الجبال منيف
وهمة مقدم ورأس حصيف
كأنك لم تجرع على ابن طريف
ولا المال إلا من قنا وسيوف
معاودة للكر بين صفوف
مقاماً على الأعداء غير خفيف
فان مات لا يرضى الندى بحليف
فدينناك من فتياننا بالوف
شجبا لعدوا ونجنا للضعيف
ولالأرض همت بعده برجوف
ودهر ملح بالكرام عنيف
وللشمس لما أزمعت لكسوف
إلى حفرة ملحودة وسقيف
فتى كان للمعروف غير عيوف
فرب زحوف لفها بزحوف
ارى الموت وقاعا بكل شريف

موقع قرقيسيا (البصرة) :

ان مكاناً يقع في رأس المثلث الذي يؤلفه الفرات والخابور عند التقائهما
خصب التربة . وملتقى طرق برية ومائة كم موقع قرقيسيا من المؤكد انه كان مأهولاً
بالناس منذ عصور قديمة ، ومن المؤكد انه كان من الناحية الاستراتيجية هاماً .
فأولاه العسكريون اهتمامهم وعنايتهم لأهميته الجغرافية والاقتصادية .
ان موقع قرقيسيا هو القسم الأسفل من نهر الخابور ، ومنطقة قرقيسيا هي في

القسم الجنوبي من الجزيرة الفراتية او بلاد ما بين النهرين - مهد الحضارات الزاهية في التاريخ . والتي عرفها الاغريق باسم (ميزوبوتاميا) أي بلاد الأنهر، وغلب عليها اسم الجزيرة، وخصوها باضافة الفرات وقالوا الجزيرة الفراتية، نسبت إلى اخص نهرها الفرات . وسماها بعض السوريين : الجزيرة السورية .

تقع قرقيسيا على خط طول (٢٥ , ٤٠) درجة شرق غرينويتش، وعلى درجة عرض (١٠ , ٣٥) شمال خط الاستواء، وترتفع عن سطح البحر ٢٣١م، وهي واقعة على الضفة اليمنى لنهر الخابور، على تل اصطناعي مرتفع عن أرض الدلتا . وهي بالنسبة إلى الفرات تقع على ضفته الشرقية . وهي نقطة اتصال بين حوض الخابور الأعلى وحوضه الأسف، وصلة الوصل بين القسم الجنوبي من الجزيرة الفراتية والقسم الشمالي والغربي من العراق، لا تبعد عن الحدود العراقية سوى ١١٠ كيلومترات . وتقع شرقي مدينة دير الزور على بعد ٤٣ كيلومترا . وعن بلدة الحسكة الواقعة على الخابور الأوسط ١٧٥ كيلومتراً، وعن بلدة الميادين التي تقع شرقيها ٦ كيلومترات، وتبعد عن نهر الفرات ٢٠٠م، ويجري الخابور في شمالها . احتار السكان موقع التل في القديم والحديث . تحسباً لفيضان كل من نهر الفرات ونهر الخابور وطغيان مياه الفيض على الضفاف في فترة الفيضان، فيبدو التل كأنه قلعة حصينة، وفعلاً كان التل حصناً عسكرياً في العهود القديمة، ثم صار يجمع بين الحصن والمدينة فكان لها اسوار منيعة من الأجر ما زالت آثارها .

اسم المدينة :

كان في موقع البصيرة الحالية مدينة منذ اقدم العصور بالنظر لأهميته الجغرافية والاقتصادية والاستراتيجية، ضاع اسمها القديم بسبب القدم المוגل في التاريخ، كما يحدث في أسماء مدن الشرق الأدنى القديمة بسبب الحروب وتغير الأقوام التي تحتل المكان، وكل قوم يطلق على المكان اسماً ما يلبث ان يتناسه السكان، او يذهب مع الذاهبين من سكان المكان .

قيل ان اقدم ما عرف من اسم المدينة هو (ناباكاث)، ثم (شوبورا) أي المدينة الواقعة على الخابور وسميت ميلدا، او ميلد، وفي عهد الملك سرغون الأول ملك آشور في القرن التاسع قبل الميلاد، صار اسم المدينة (سركي)، وكانت من مملكة آشور، وفي السنة ٨٧٨ قبل الميلاد، امتنعت سركي وغيرها من مدن الخابور عن أذية الخراج إلى ملك آشور (ناصر بال)، فاجتاحها، وضرب كل البلاد الواقعة على طول مجرى الخابور والفرات الأوسط، احرق المدن وذبح السكان.

وبعد ثلاثمائة سنة، ادخل دارا الأول العاهل الفارسي المنطقة في ولاياته الـ ٢٣، وعنى برها واصبحت منطقة غنية بخيراتها الزراعية. أنشأ ترعاً تصل ما بين الفرات والخابور. وصارت منطقة الخابور أهراً لدولة الفرس وكانت حاصلاتها الزراعية الفائضة تنقل بالسفن على الفرات إلى فارس. وكانت قرقيسيا ميناء نهرياً على الفرات والخابور معاً، وإلى ذلك ترجع أهميتها فضلاً عن خصب دلتا النهر حيث موقعها الممتاز.

وكانت منطقة الخابور نقطة حدود بارزة بين الحدود الفارسية والحدود الرومانية، ثم البيزنطية، ولذا قامت الحصون على ضفاف الخابور مراكز دفاعية وقرقيسيا نفسها كانت حصناً عسكرياً لحماية الطريق التجارية والعسكرية النهرية، ولحماية الحدود والسكان.

وفي العهد اليوناني سميت المدينة: «كيركسيون» او، «كيركسيون كاسترون»، وكاسترون، تعني في اليونانية قلعة، وكاركا في الآرامية تعني مدينة. جاء في كتاب (مختصر الدول) لأبي الفرج الملطي ص ١٠٠ «وفي زمان بطليموس اورغاطيس الملك اليوناني من خلفاء اسكندر الكبير، بنيت قرقيسيا، وقالوا نيقوس (الركة) وهذا يدل على قدم قرقيسيا، مع ان تاريخها يرجع إلى زمن اقدم بكثير مما ذكر ابن الملطي.

وفي الاحتلال الروماني لمنطقة الخابور بعد احتلال سورية، اطلقوا على

سركي القديمة اسم (سيرسيوم) ومعناها القصر المحتوي على حلبة للخيول واسم سيرسيوم مشتق من الاسم الآشوري سركي .

ان هذه الاسماء تدل على ان الموقع ، كان منذ القديم قلعة أو حصناً أو مخفراً للجند ، ويضم حلبة ، وكيركيس في اليونانية معناها حلبة ، وكل حصن عسكري قديم أو محطة عسكرية قديمة لا بد من ان تضم خيولاً لجنودها .

اولى الامبراطور الروماني دقلسيان مدينة قرقيسيا اهتماماً خاصاً لأهميتها وحسن موقعها . فجعل منها حصناً قوياً على الحدود الأكثر تقدماً للإمبراطورية الرومانية في بلاد ما بين النهرين الجنوبية .

اجتازت بمنطقة قرقيسيا جيوش كثيرة رومانية وفارسية وعربية وتترية وفرنسية لتلتقي في معارك كبيرة ، ولتؤول المدينة إلى المنتصروهي في كل ذلك بين المطرقة والسندان .

كان سيرسيوم في العهد البيزنطي مركز أسقفية ، وكان سدد سكانها ستين ألفاً ، وبنيتيجة المعاهدة الخجلة التي وقعها الامبراطور الروماني جوفيان في سنة ٣٦٣ بعد الميلاد ، وقعت المدينة بيد الفرس في أثناء استيلائهم على الجزيرة الفراتية .

في أواخر القرن التاسع عشر قامت بعثة (البارون فون أبنهايم) الألمانية والبعثة الانكليزية (فوكس تالبت) ببعض الحفريات ، التي اسفرت عن ان وادي الخابور ووادي الفرات ، كانا أيام ابراهيم الخليل السنة (١٠٥٠) قبل الميلاد مقسمين إلى امارات صغيرة عديدة ، لكل امارة ملك لا تتعدى مملكته بعض الضياع ، وكانوا في نزاع شديد وقتال مستمر فيما بينهم . لعل موقع قرقيسيا كان مركز احدي تلك الامارات .

وفي مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة الموافق شهر آذار السنة ٦٣٤م في اواخر عهد الخليفة ابي بكر الصديق ، توجه القائد العربي خالد بن الوليد ، الذي كان يحارب في العراق بناء على كتاب ابي بكر يأمره فيه بالتوجه إلى الشام مدداً

للقائد ابي عبيدة بن الجراح الذي كان على أطراف الشام من الجهة الجنوبية . قال الواقدي : « خرج خالد من سوى إلى الكواثل ، ثم اتى قرقيسيا ، فخرج اليه صاحبها في خلق ، فتركه وانحاز إلى البر ومضى لوجهه ، واتى أرك . . » .
وفي كتاب الخراج لأبي يوسف ، ان خالداً توجه من الحيرة واتى عانات ، ثم مضى إلى بلاد قرقيسيا ، فأغار على ما حولها ، وأخذ الأموال وحاصر أهلها أياماً ، حتى أجابوه إلى الصلح » ومن منطقة دير الزور توجه إلى اليرموك ماراً بتدمر ، ولم يكن ذلك فتحاً لقرقيسيا .

ان تاريخ قرقيسيا قبل الاسلام غامض ، وليس تاريخها في العهد الاسلامي بأكثر وضوحاً ، قل أن ذكرتها المصادر العربية بأكثر من كلمة او عبارة .

عرب العرب الذين كانوا يقيمون في الجزيرة الفراتية وفي بادية الشام قبل الاسلام اسمها القديم اليوناني كركيسوم ، الذي كان يغلب على المدينة اكثر من اسمها الروماني (سيرسيوم) ذي الأصل الآشوري فصار قرقيسيا معرب كركيسيا وهو اسم حلبة الخيل يحىء بالآلف الممدودة والهمزة . وكثيراً ما يجيء في الشعر مقصوراً والنسبة العربية اليها قرقساني وجاء بياء واحدة لضرورة شعرية : قرقيساء .

فتح العرب لقرقيسيا :

فتحت قرقيسيا اول فتح سنة ١٦ هـ ، وكانت اسقفية بيد الروم في عهد فتوحات الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان سبب فتحها ان اهل الجزيرة الفراتية من تغلب وغيرهم أمدوا جيش هرقل في حمص التي كان يحاصرها القائد العربي ابو عبيدة الجراح ، وبعث الروم جنداً إلى أهل هيت ، لصدد الجيش العربي عنها ، فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى قائده في العراق سعد بن ابي وقاص ، ان يهاجم الجزيرة الفراتية لاشغال اهلها عن إمداد هرقل في حمص ، وليلحق المقاتلة العرب في جيش هرقل ببلادهم في الجزيرة الفراتية ، فأرسل سعد بن أبي وقاص إلى الجزيرة عمرو بن مالك الزهري في جند ، وجعل على مقدمته الحارث بن يزيد

العامري ، فخرج عمرو بن مالك واتى هيت فنازلها ، وخلف عليها الحارث بن يزيد يحاصرها وخرج في نصف الناس ، فجاء قرقيسيا على عرة ، فأخذها عنوة سنة ١٦ للهجرة . ونزل أهلها على حكمه ، فقال عند ذلك :

ونحن جمعنا جمعهم في حفيرهم بهيت ، ولم نحفل لاهل الحفائر
وسرنا على عمد نريد مدينة بقرقيسيا سير الكهامة المساعر
فجئناهم في دارهم بقتلة[ة]ضحى فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا ندين بدين الجزيرة المتواتر
قبلنا ولم نردد عليهم جزاءهم ووطنهم بعد الجزاء بالبواتر
لم يطل الاستيلاء على قرقيسيا ، وتركها العرب موقتاً ليتفرغوا لمعاركهم مع
الفرس والروم ، على ان حملة الجزيرة هذه قد حققت غرضها الذي قصده الخليفة
عمر بن الخطاب ، وفتح ابو عبيدة الجراح حمص .

وبعد فتح العرب لحلب سير أبو عبيدة قائده عياض بن غنم إلى فتح بلدان
الفرات والجزيرة الفراتية ففتح بالس (مسكنة) وسار إلى الرقة ، وعسكر فيها ،
لينطلق منها إلى رأس عين والرها وقرقيسيا . وسار جيش المسلمين إلى قرقيسيا
بقيادة عبد الله بن غسان وسهل بن عدي ، ولما نزل المسلمون على قرقيسيا ، وقتل
عدد من متقدميها ، وضايقها المسلمون ، وفتحوا ثغرة في سورها دخلوا منها إلى
المدينة ، ووضعوا السيف في أهلها ، واحتوا على ما كان فيها من الأموال
والذخائر . فأمנם القائدان عبد الله بن غسان وسهل بن عدي . وعرضا عليهم
الاسلام ، فمنهم من اسلم فوهبوا له أهله وماله ، ومن ابى وضعت عليه الجزية ،
وكان فتحها في أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين للهجرة ، وبنوا
الكنيسة العظمى وهي بيعة جرجيس جامعاً ، ولم يرحوا حتى صلوا فيه ، واطلقوا
الرهائن ، وتسلم ولايتها حبيب بن كعب في مائة وخمسين رجلاً ، واتخذت قاعدة
لفتح بلدان الخابور . فارتحل عبد الله بن غسان عن قرقيسيا ، ونزل على ماكسين
صلحاً على اربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير ،

فقلقوا من ذلك، فترك لهم النصف، وكذلك أهل الشمنانية، ثم نزل على عربان، فصالحوه بما صالح به أهل مكسين، ثم ارتحل إلى المجدل. ولما فتح عبد الله بن غسان ارض الخابور صلحاً وأقام بالمجدل، أنشد قيس بن أبي تحازم البجلي هذه الأبيات :

أقمنا منار الدين في كل جانب	وصلنا على أعدائنا بالقواضب
ودان لنا الخابور مع كل اهله	بفتيان صدق من كرام العرائب
هزمناهم لما التقينا بهامسح	وثار عمجاج النقع مثل السحاب
وجندل وفد الروم في كل جانب	تركناهم في القاع نهياً لناهب
فلله حمد في المساء وبكرة	وما لاح نجم في سدول الغياهب

قال الزهري : لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على يد عياض بن غنم : فتح حران والرها والرقعة وقرقيسيا ونصيبين وسنجار.

وحدث ابو عبد الله القرقساني عن أشياخه : ان عمير بن سعد، لما فتح رأس العين سلك الخابور وما يليه حتى قرقيسيا، وقد نقض أهلها. فصالحهم على مثل صلحهم الأول، ثم اتى حصون الفرات حصناً حصناً ففتحها على ما فتحت عليه قرقيسيا، ولم يلق في شيء منها كثير قتال.

واصبحت قرقيسيا قاعدة عربية اسلامية لادارة بلاد الخابور.

ولما عبر الخليفة الرابع علي بن ابي طالب الفرات من الكوفة إلى الجزيرة متوجهاً نحو الرقة لمحاربة معاوية في سهل صفين، أرسل قسماً من جيشه ليسيروا على ضفة الفرات الغربية، ولكن هذا القسم من الجيش خاف جيش معاوية الذي كان أكثر عدداً وعدة، فأراد ان يعبر الفرات من عانات ليلحق بالجيش العام، فمنعهم أهلها، وحبسوا عنهم السفن، فرجعوا وعبروا من هيت ثم لحقوا عليها بقرية دون قرقيسيا.

قرقيسيا في العهد الأموي :

مركز للقيسين ولزعيمهم زفر بن الحارث الكلابي .

كان على قرقيسيا عياض الحرسى ولاء اياها يزيد بن معاوية .

ان اهم حادث اقترن بتاريخ قرقيسيا في العصر الأموي هو التجاء زفر بن الحارث الكلابي ، ابو الهذيل زعيم قيس مع رهط من قومه اليها ، واستيلائهم عليها واعتصامهم بها بعد وقعة مرج راهط شمالي دمشق سنة ٦٥ هـ و ٦٨٤ م وانتصار مروان بن الحكم على أنصار عبد الله بن الزبير الذي بويع له بالخلافة في مكة بالحجاز وفي أمصار أخرى . كان زفر والياً على قنسرين ، من انصار عبد الله بن الزبير ، ولما بلغته هزيمة قيس الموالية لابن الزبير ، ومقتل زعيمها الضحاك بن قيس الفهري ، الذي كان عاملاً للأمويين في دمشق ، غير ان هواه كان في ابن الزبير ، وما لبث ان بايعه ، وأخذت قيس كلها في الشام تدعو إلى نصرته ابن الزبير ، وكتب تدعو إلى بني أمية .

وسار الضحاك ومن معه من قيس والناس ، حتى نزل مرج راهط ، وأظهر البيعة لابن الزبير ، وبايعه على ذلك جل أهل دمشق . واجتمع بنو أمية وكتب بالجابية بحوران ، واستخلفوا مروان بن الحكم ، وبايعوه في ٣ / ذي القعدة سنة ٦٤ هـ . فسار مروان إلى مرج راهط ، ومعه كلب وغسان والسكاسك والسكون في سبعة آلاف رجل وكان الضحاك في نحو عشرين ألفاً ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً استمر عشرين يوماً . وأسفرت البيانية في قتل قيس ، قتل منها عدة آلاف . فهزم دعاة بان الزبير وانتصر مروان ابن الحكم .

وكان زفر يوم وقعة مرج راهط في قنسرين والياً لعبد الله بن الزبير وكان يبعث بالمدد إلى الضحاك بن قيس .

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين ، سار إلى قرقيسيا ، واجتمعت عليه قيس ، وصحبه في هزيمته إلى قرقيسيا شابان من بني سليم

فجاءت خيل مروان تطلبهم ، فقال الشابان لزفر: انج بنفسك فانا نحن نقتل ،
فمضى زفر وتركهما ، فقتلا ، وقال زفر في ذلك :

أريسي سلاحي لا أبا لك اني	أرى الحرب لا تزدد إلا تماديا
أتساني عن مروان بالغيب انه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
فضي العيس منجاة وفي الأرض مهرب	إذا نحن رفعنا هُن المشانيا
فلا تحسبوني ان تغيت غافلا	ولا تفرحوا إن جئتم بلقائيا
فقد بنبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعمري لقد أبقيت وقية راهط	لحسان صدعا بيننا متنائيا
اتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هي ماهيا
أيذهب يوم واحد ان أسأته	بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا	وتثار من نسوان كلب نسايا
الا ليت شعري هل تصيين غارتي	تنوخا وحبي طيء من شقايا

فأجابه حواس بن القعطي بمقطوعة منها :

لعمري لقد أبقت وقية راهط	على زفر مرا من الداء باقيا
مقيماً ثوى بين الضلوع محله	وبين الحشا أعيا الطيب مداويا
وتبكي على قتلى سليم وعامر	وذبيان معذوراً وتبكي البواكيا
دعا بالسلاح ثم أحجم إذ رأى	سيوف جناب والطوال المذاكيا

وقال عمرو بن الجلي الكلبى يجيب زفرأ من قصيدة :

بكى زفر القيسي من هلك قومه	بعبرة عين ما يحف سجومها
ويبكي على قتلى أصيبت براهط	تجأوها هام القفار ويومها
فمت كمدا أو عش ذليلاً مهضما	بحسرة نفس لا تنام همومها

لحق زفر بن الحارث بقرقيسيا ، وكان عليها عياض الحرسى عاملاً ليزيد بن معاوية ، فدخلها زفر ، وتغلب عليها وأخرج عاملها وتحصن بها ، وجعلها قاعدة لقيس الذين خرجوا من أرض الشام بعد وقعة مرج راهط ، إلى الجزيرة الفراتية ،

ونفوسهم تغلي بالحقد، وتحصنوا بديار مضر، وأمروا عليهم زفرا، وعقدوا العزم على الانتقام لأنفسهم من كلب.

كانت قيس تشن من قريسيها غاراتها على كلب، وانضم إليها عمير بن الحباب السلمي، وقد استطاع زفران يضم إليه أيضاً تغلب، التي تسكن ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية، وهي أعظم قبائل ربيعة، وهي وقيس من عدنان. والعداء قديم بين عدنان وقحطان (اليمن)، فشاركت تغلب في الاغارات التي كانت قيس تشنها على كلب في مواطنها.

وكان شعراء كلب ينددون بتغلب، فكان الأخطل شاعر تغلب يهجو (كلب)، ويتننى بأجداد نزار بن معد بن عدنان.

كان من الممكن ان يطول الاتحاد بين قيس وتغلب، لولوتقم قيس بعد أخذها بثأرها لقتلى راهط بالتغلغل في الجزيرة الفراتية، والدعوى لالابن الزبير، ونزول عمير بن الحباب السلمي بالخابور، وهو منازل تغلب. وأخذت فروع قيس تعتدي على تغلب، وتستلب أموالها، فضاق بنو تغلب بذلك، وطلبوا من زفران يجلي سليماً قوم عمير بن الحباب عن أراضيهم، فرفض، ودعت قيس تغلب إلى الدخول في طاعة ابن الزبير، وطالبتها بالصدقات التي كانت تدفعها إلى عمال بني أمية، فرفضت تغلب، وتمسكت بولائها للأمويين، لارتباط حياتها الاقتصادية بالشام، وصممت على طرد القيسية من ديارها، فوقع بين القبيلتين عدة وقعات. منها وقعة (ماكسين) على الخابور، انهزمت فيها تغلب. وقتل كثير من رجالها، وبقرت بطون نساء منهم.

فحشدت تغلب أنصارها، والتقت بقيس على (الثرثار) واقتتلوا قتالاً شديداً فانهمزت قيس، وقتلت تغلب ومن معها مقتلة عظيمة، وبقرت بطون ثلاثين امرأة من بني سليم. وتعددت الوقعات بين قيس وتغلب، فكان يوم الثرثار الثاني، ويوم الفدين، ويوم السكير، ويوم الشرعية، ويوم البليخ، ويوم الكحيل، ويوم البشر، وغيرها، وقد أُرِّخ لها ابن الأثير في الكامل، وكلها في السنة ٧٠ هـ.

وكانت الحرب بينهما سجالاً، وقد اشترك زفر بن الحارث في أكثر هذه الحروب وشارك فيها كل من الشاعرين التغلبيين الأخطل والقطامي ووصفاها في شعرهما. واستمرت الحرب بين قيس وتغلب، حتى تدخل الخليفة عبد الملك بن مروان فأوقفها، لأنه يريد أن يتفرغ إلى حرب مصعب بن الزبير في العراق. وفي يوم من الأيام بين تغلب وقيس، هزمت تغلب، واسرت قيس القطامي الشاعر التغلبي، وأخذ ماله، فقام زفر بن الحارث الكلابي بأمره حتى رد عليه ماله ووصله، فمدحه القطامي بشعره.

ولاتصال حياة هذا الشاعر الفراتي بحياة زفر بن الحارث الكلابي وبتاريخ قرقيسيا أقف عنده وقفة قصيرة، نتعرف على ملامحه وشعره ومنزلته: قال عبد الملك بن مروان للأخطل ذات يوم: اللهملا، إلا شاعر مغدق القناع، حامل الذكر، حديث السن، إن يكن في أحد خير، فسيكون فيه، ولوددت أني سبقتة إلى قوله:

يقتلننا بحديث ليس يعلمنه من يتقين ولا مكنونه بادي
فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
وكان ذلك الشاعر الحامل الذكر: عمير بن شبيب بن حبيب، ولقبه القطامي من الأرقام، والأرقام أحياء من تغلب، والقطامي من أسماء الشاهين ومن القاب السادة الأشراف، وله لقب ثان: صريع الغواني لقوله:

صريع غواني راقهن ورقنه لدن شب حتى شاب سود الذوائب
ولقد لقب مسلم بن الوليد الشاعر العباسي بصريع الغواني بعد ذلك، لقبه الخليفة هارون الرشيد لقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الراح والأعين النجل
لم تذكر المصادر تاريخ ميلاد القطامي، ومكان ولادته، ومكان ترعرعه بل اكتفت بذكر تنف قليلة من أخباره، والروايات مختلفة في تاريخ وفاته وأصحابها انه توفي سنة ١٠١هـ، الموافقة ٧١٩م.

كان قد مدح عبد الواحد بن سليمان ، وزفر بن الحارث الكلابي ، واسماء بن خارجة الغزاري .

روى المؤرخون أنه شاعر فحل رقيق الحواشي حلو الشعر حسن التشبيب وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية الاسلاميين . غلب على شعره الوصف والمدح والغزل .

وقد عده رواة كثير ون احسن الاسلاميين ابتداء قصيد ، حيث يقول :
إننا محيوك فاسلم أيها الطفل وان بليت وان طالت بك الطيل
القطامي شاعر مقل ، استحسنا شعره لرقه حواشيه وكثرة الامثال فيه
ولحسن تشبيهه وحلاوة تعبيره .

ذكر ديوانه الحاج خليفة في كتابه كشف الظنون . وكان شرح ديوانه أبو سعيد الحسن السكري . وطبعه المستشرق برت اول مرة سنة ١٩٠٢ وهو في ٩٢ ص من الحجم الكبير في ليدن ، ونقل إلى الألمانية ، وعلق عليه عدة ملحوظات مع روايات شتى ، وكتب له مقدمة باللغة الألمانية في (١٧ ص) وقد اخرج الدكتور ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب طبعة جديدة للديوان محققة ، لأن طبعة اوربا غير متيسرة ، طبعت في بيروت في دار الثقافة سنة ١٩٦٠ ، ١٩٦ ص من الحجم الكبير حيد الطبع مشكول .

قال القطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي من قصيدة في اثنين وسبعين بيتا يخاطب في مطلعها ضباعة ابنة زفر :

ولا يك موقف منك الودعا	تقي قبل التفرق يا ضباعا
وقومك لا أرى لهم اجتماعا	تقي داوي اسيرك ان قومي
من الحرم العظام وما أضاعا	وكيف تجامع مع ما استحلا
وتغلب قد تباينت انقطاعا	ألم يحزنك ان حبال قيس
لمؤتمر الغواية ان يطاعا	يطيعون الغواة وكان شراً
أسالا من دمائها التلعا	الم يحزنك ان ابني نزار

فلا تبعد دماء ابني نار
وامور لو تدبرها حلیم
ولا تقر عيونك يا قضاعا
اذن لنهی وهیب ما استطاعا
ومنها فی شکر زفر علی إطلاقه وإنعامه علیه بآقة :

اكفرا بعد رد الموت عني
فلو بيدي سواك غداة زلّت
إذن هلكت لو كانت صغارا
فلم أر منعمين أقل منا
من البيض الوجوه بني نفيل
بني القرم الذي علمت معد
وقال بمدحه من قصيدة في ستة وستين بيتاً:

وبعد عطائك المائة الرتاعا
بي القدمان لم أرج اطلاعا
من الأخلاق تبتدع ابتداعا
وأكرم عندما اصطنعوا اصطناعا
أبت اخلاقهم اتساعا
تفضل فوقها سعة وإباعا

من مبلغ «زفر القيسي» مدحته
إني وإن كان قومي ليس بينهم
مثنٍ عليك بها استبقيت معرفتي
فلن أثيبك بالنعماء مشتمة
وإن هجوتك ما نمت مكارمتي
وقال بمدحه من مقطوعة :

يا زفر بن الحارث بن الأكرم
 إذ أحجم القوم ولما تحجم
 انقذتني من خطر معمم
 وله قصائد ومقطوعات أخرى في مدح زفر بن الحارث الكلابي .

قد كتبت في الحرب كريم المقدم
 انك وابنيك حفظتم محرمي
 والخيل تحت العارض المسوم

وفي السنة سبعين، سار الخليفة عبد الملك بن مروان من دمشق إلى الفرات وعبره بالقرب من دير الزور متوجهاً إلى قرقيسيا، قاصداً زفر فحاصره حصاراً طويلاً، ونصب المجانيق على أسوار قرقيسيا، فقال زفر لعبد الملك:

وبه يكنى ، وأمره أن يخرج بخيله على القوم ، فحمل عليهم وانكشفوا ، ووطأ الهذيل ورهطه فسطاط عبد الملك . وقطعوا بعضها ، ثم رجعوا فقال زفر :

ألا لا أنالي من أتاه حمامه إذا ما المنايا عن هذيل تجلت
تراه أمام الخيل أول فارس ويضرب في إعجازها ان تولت

وكان عبد الملك يقاتل بقضاة ، ومعه روح بن زباع ، وسعت الرسل بين عبد الملك وزفر بالصلح ، فتم على الامان لزفر ومن معه وأموالهم . وان يعطى زفر ما أحب ، واشترط زفر ألا يقاتل مع عبد الملك وابن الزبير حي لبيعة له في عنقه ، ولم يدخل الهذيل في شرط أبيه ، ولما دخل زفر على عبد الملك بعد ان اتم الصلح أجلسه معه على سريريه ، ولما رأى قلة من مع زفر من الرجال ، قال : لو علمت انه في هذه القلة لحاصرته ، حتى ينزل على حكمي ، فقال زفر ان شئت رجعنا ورجعت ، فقال عبد الملك : بل نفى لك يا أبا الهذيل .

ولما سار عبد الملك بعد ذلك إلى مصعب بطريق الجزيرة الفراتية ، سار الهذيل معه ، حتى إذا قرب من مصعب تحول اليه ، وقاتل مع ابراهيم بن الاشر قائسد مصعب ، فلما قتل مصعب ، اختفى الهذيل ، حتى استؤ من له من عبد الملك ، فأمنه ، ثم عفى عنه لشجاعته .

وكان الأخطل ما يزال يحقد على زفر ، واشتد عليه أن يعفو عبد الملك عنه بعد انتصاره على مصعب ، فكان زفر أول هدف للأخطل من زعماء قيس يجرىض عليه عبد الملك ، عندما يكون زفر في مجلس عبد الملك ، فمن قوله في ذلك :

بني أمية أني ناصح لكم فلا يتبين فيكم آمنة زفر
ان الضغينة تلقاها وان قدمت كالعريكم حينئذ ينتشر

ولكن عبد الملك وفي بعهد زفر ، وتزوج مسلمة بن عبد الملك الرباب بنت زفر فكان يؤذن لاختوبها الهذيل والكوثر في أول الناس إلى مجالس الخليفة .

زفر هذا الذي يفى الخليفة الأموي عبد الملك له بعهد ويقره على قرقيسيا ويحترم شروطه هو من التابعين وكبير قيس في زمانه ، قال ابن سلام في طبقات

الشعراء: «زفر من بني نفيل بن عمرو بن كلاب من ولد يزيد بن الصعق، وهو سيد شريف» شهد وقعة صفين مع معاوية أميراً على اهل قنسرين، سمع الحديث من السيدة عائشة ام المؤمنين ومن معاوية، وروى عنه ثابت بن الحجاج، سكن البصرة، وانتقل إلى الشام، وكان في جيش البصرة، الذي خرج لاغاثة الخليفة المحصور عثمان بن عفان في المدينة. وكان في وقعة صفين رسول معاوية إلى عائشة وكانت تسأله عمن قُتل في صفين.

ظل زفر اميراً على قرقيسيا، حتى مات في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ - ٦٩٥ م، وكان شاعراً جزل الألفاظ، متين النسيج، مقل بحكم انشغاله بولايته في ظروف سياسية صعبة، يتمثل في حياته الصراع بين القبائل العربية في وادي الفرات وفي الجزيرة الفراتية، ينتهي نسبه إلى قبيلة قيس عيلان بن مضر بن نزار من عدنان. وهي قبائل كثيرة، وإذا قيل قيس دخلت العدنانية كلها في قيس نسب وعصيبة ذكرت قيس عند النبي (ص) فترحم عليها، وقال: ان قيسا فرسان الله في الأرض، يا قيس حي يمنا، يا يمن حي قيسا (الحديث) وقحطان جد القبائل اليمنية.

اتصلت احداث اسلامية بارزة كحدث التوابين بقرقيسيا وبأمرها زفر بن الحارث الكلابي. لما قتل الحسين بن علي، رأت الشيعة أنها قد اخطأت خطأ كبيراً بتركها نصرته واجابته حتى قتل إلى جانبهم، ورأوا انه لا يغسل عارهم والاثم عليهم إلا قتل من قتله، فاجتمع رؤ سائهم في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، وهو المقدم عليهم، باشروا حركتهم بعد هلك يزيد بن معاوية سنة اربع وستين، وبايع أهل الكوفة لابن الزبير، وخرج سليمان بن صرد الخزاعي سنة خمس وستين في اربعة آلاف بطريق الجزيرة الفراتية قاصدين عين الوردة (رأس العين) عند منابع نهر الخابور، ساروا حتى انتهوا إلى قرقيسيا على تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابي قد تحصن بها منهم، ولم يخرج اليهم، فأرسل اليه المسيب بن نجبة من رؤ سائهم يطلب اليه أن يخرج اليه سوفاً فأمر زفر ابنه فأخرج

اليهم سوقاً، وأمر لمسيب بألف درهم وفرس، فأخذ الفرس ورد المال. وبعث زفر اليهم بخبز كثير وعلف ودقيق، حتى استغنى الناس عن السوق، إلا أن كان الرجل يشتري سوطاً أو ثوباً ثم ارتحلوا من الغد، وخرج اليهم زفر يشيعهم، وزودهم بنصائحهم ومعلوماته الاعلامية. ولما وصلوا إلى عين الوردة اقتتلوا مع جيش عبد الله بن زياد - جيش الشام الذي يفوقهم عدداً قتل من التوابين معظمهم وقتل سليمان بن صرد الخزاعي في شهر ربيع الآخر وسارت بقيتهم حتى أتوا قرقيسيا، فعرض عليهم زفر الإقامة ثلاثاً فأضافهم ثم زودهم، وساروا إلى الكوفة، ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل سليمان وانهمزام أصحابه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأعلن مقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة.

حظيت قرقيسيا في العهد الأموي بحظوة كبيرة بنزول الخليفة عبد الملك فيها ومصالحته أميرها زفر وقبول شروطه ووفائه بها، وبزواج اخي عبد الملك بابنة زفر الرباب، وبتردد اخويها الهذيل والكوثر على مجلس الخليفة عبد الملك.

قرقيسيا في العهد العباسي وما تلاه من العهود:

ان اخبارها في هذه الحقبة غامضة، وان كانت حتى اوائل القرن الثالث الهجري تدخل في حكم الوالي الذي تعينه بغداد لطريق الفرات والجزيرة الفراتية، وكان الذي يستولي على الرخبة من العسكريين المغامرين او الامراء، يستولي على قرقيسيا من الامراء الحمدانيين وال طولونيين والسلجوقيين والأتابكية والايوبيين والمرادسيين والعقيليين والمهاليك.

وقد امتد نفوذ حكام مصر الطولونيين إلى قرقيسيا. غير ان الموفق أخا الخليفة المعتمد ببغداد أخذ المدينة منهم سنة ٢٦٨هـ.

اتصل تاريخها في العصر العباسي بتاريخ أختها وجارتها رجة مالك بن طوق الواقعة على ضفة الفرات الغربية، والتي جدد بنائها في النصف الأول من القرن الثالث هجري، وجعلها قاعدة طريق الفرات، فازدهرت في عهده لحسن موقعها

على طريق الفرات البرية والمائية وبفضل وفرة مياهها وخصب سهولها، فانتقلت إليها مكانة قرقيسيا، وكانتا تشكلان ناحية واحدة. وظلت كذلك مدى قرون وكان يفصل بينهما الفرات، وتحملتا نفس المصير وهو الخراب الذي آلتا إليه. مر بقرقيسيا الشاعر العباسي ربعة الرقي، المتوفى سنة ١٩٨هـ - ٨١٢م في عودته من العراق إلى بلدة الرقة وكان قد مدح الخليفة المهدي وبعض الأمراء العباسيين وكان ربعة يلقب بالغاوي. وكان له مع شعر المديح شعري الغزل حسن سلس حلو، وشعره كله مليح عذب مطبوع جيد.

وفي نزوله بقرقيسيا تشبَّب بجارية يقال لها عشمة، كانت لرجل من أهل قرقيسيا، يقال له ابن مرار. قال:

اعتاد قلبك من حبيك عيده	شوق عراك فانت عنه تذوده
والشوق قد غلب الفواد فقاده	والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده
في دار مرار غزال كنيسة	عطر عليه خزوزه وبروده
ريم أغر كأنه من حسنه	ضم يحج بيعة معبوده
ماضر عشمة أن تلم بعاشق	دنف الفؤاد متيم فتعوده
وتلده من ريقها فلربما	نفع السقيم من السقام لدوده

وجاءته امرأة من منزل هذه الجارية، فقالت تقول لك فلانة ان بنت مولاتي محمومة فان كنت تعرف لها عوذة فافعل، فأمر من كتب هذه العوذة:

ثقوا ثقوا باسم الإله الذي	لا يعرض السقم لمن قد شفى
أعيذ مولاتي ومولاتها	وابنتها بعوذة المصطفى
من شر ما يعرض من علة	في الصبح والليل إذا أسدفا

فقال له الكاتب: أبا ثابت. لست احسن أن اكتب ثقوا ثقوا، فكيف اكتبها؟ قال انضح المداد من رأس القلم في موضعين، حتى يكون الكنف، وادفع العوذة إليها، فاننا نافعة. ففعل. فلم تلبث ان جاءت الجارية وهي لا

تتهالك ضحكاً، فقالت له : يا مجنون ما فعلت بنا، كدنا نفتضح ، بما صنعت .
قال فما اصنع ، أشاعر أنا أم صاحب تعاويد؟

ومن تشبيهه بعشمة المذكورة قوله من قصيدة تستملح له وهو اطبع ما يكون
من الشعر واسهل ما يكون الكلام :

أعشمة أطلقي العلق الرهينا	بعيشك وارحمي الصب الحزينا
ربيعه مغرم بك مستهام	يحن اليك من شوق حنيننا
ترعش زائراً لك فارحميه	فلقد أورثت زائرك الجنونا
رآك وانت مقبلة فلما	أأتك العين هجت لنا فتونا
وقمت تأودين وعهد عيني	بحسنك في الحزن تأودينا
فلما ان رآك الناس قالوا	تعالى الله رب العالمينا
وقد أعطاك ربك فاشكره	جمالاً فوق وصف العالمينا
إذا أقبلت زُعت الناس حسناً	وان أدبرت قيدت العيوننا

كان أمر تعيين الولاة على الرحبة وقرقيسيا ، يصد تارة من بغداد ، وتارة من دمشق وأخرى من حلب ومرة من الموصل ، وأحياناً يغتصب بعض القواد والأمراء هذه الناحية اغتصاباً من يد عاملها باغتيالها ، وبذلك لقيت كل من الرحبة وقرقيسيا كثيراً من المصائب والكوارث مدى قرون متتابعة ، وتميزت الرحبة بأنها كانت وما زالت أكثر وابعد شهرة من قرقيسيا ، جاء إليها القرامطة من الرحبة سنة ٣١٥هـ بقيادة ابي طاهر سليمان بن سعيد ، ومنها بعث السوادي إلى النواحي في الجزيرة الفراتية .

كانت الرحبة اقطاعاً إلى ابي محمد بن رائق الذي ولاه الراضي ولاية بغداد مع طريق الفرات ومضرو وحران وكان في الرحبة من جهة ابن رائق في السنة ٣٣٠هـ رجل يدعى مسافر بن الحسن ، فلما قتل ناصر الدولة الحمداني ابن رائق استولى مسافر على الناحية وجبى خراجها ، فأرسل ناصر الدولة جيشاً لخراج مسافر من الرحبة ، ففارقها مسافر من غير قتال وسار إلى قرقيسيا وملكها ، وبقي في

الخابور ستة أشهر فجبى الأموال العظيمة، وقوى وعاد إلى الرحبة. ما لبث الحمدانيون ان قتلوه.

هذه عينة من تاريخ قرقيسيا في ذلك العهد.

في عمران قرقيسيا يقول ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الذي تجول في البلاد سنة ٣٣١ هـ ووضع كتاب (المسالك والممالك) ص ١٥٥: «قرقيسيا مدينة على الخابور، ويجلب من فواكهها وفواكه الخابور إلى العراق في الشتاء الكثير، وان كان الاختلال قد شابهها، وبينها وبين الخانوقة يومان» والخانوقة هي حلبية الحالية على ضفة الفرات الغربية تبعد ٥٤ كم شمالي غربي دير الزور- قريبة التبني.

وروى بنجامان ثوديل الرحالة انه وجد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي خمسين عائلة يهودية بين سكان قرقيسيا.

كانت قرقيسيا إلى نور الدين محمود بن زنكي بن مودود المتوفى سنة ٦٢٤ هـ ١٢٢٧م ودفن فيها ابنه عثمان المتوفى سنة ٦٣٥ هـ، وكانت مع الخابور في حكم شرف الدولة مسلم العقيلي، ولما قتل في سنة ٤٧٨ هـ و ١٠٨٥م رتب السلطان ملكشاه السلجوقي في محله أبا عبد الله محمود بن شرف الدولة.

وكانت تحت امرة جاوي سقاو من امراء السلجوقيين. وتولى عليها سيف الدولة اقسنقر البرسقي احد الامراء السلجوقيين سنة ٥٠٩ هـ ١١١٥م ولاه اياها السلطان محمد بن ملكشاه.

أحسبها قد خربت بكاملها في أواخر القرن السادس الهجري بدليل شاهد البيت التالي الذي رواه ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان والمتوفى سنة ٦٢٦ هـ.

لعن سخطه من خالفي اولشقوة تبدلت قرقيساء من دارة الروم
وكان ابن حوقل الذي تجول في البلاد سنة ٣٣١ هـ قد أشار إلى الاختلال الذي شابهها.

كان هولاكوفي زحفه على الشام سنة ٦٥٨هـ، تقدم في الجزيرة الفراتية، فنصب جسراً على الفرات قريباً من ملطه وآخر عند قلعة الروم، وثالثاً عند قرقيسيا، عبرت عليها عساكره إلى الضفة الغربية، وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة (تاريخ مختصر الدول، لابن العبري).

واستولى عليها المغول، واسترجعها سلطان مصر والشام الظاهر بيبرس في سنة ٦٣٦ هـ ١٢٦٤م، وكان وسع حدود مملكته إلى الحابور. وكانت اقطاعاً إلى الخوارزمية، وبعد التتار آلت إلى تيمورلنك الذي قتل السكان ودمر البلاد.

وملك التركمان البلاد بعد انقراض التتار سنة ٩١٤ هـ ١٥٠٨م على يد الشاه اسماعيل الصفوي. ولما استولى العثمانيون على العراق سنة ٩٤١ هـ ١٥٣٤م كانت قرقيسيا خراباً.

وفي العهد العثماني (القرن العاشر الهجري) كانت قرقيسيا المخربة والرحبة المدمرة ودير الزور الصغيرة من التشكيلات الادارية لولاية الرقة، وكان مركزها مدينة أورفا (الرها) لخراب الرقة.

تنوسي اسم قرقيسيا بانقراض السكان القدماء، ومجيء سكان طارئين من جهات متعددة إلى المكان القديم، وهو التل الأثري الذي يخفي قرقيسيا القديمة في داخله. وحلت محلها منذ نصف ومائة عام قرية فقيرة حملت اسم «البصرة» تشكل سكانها من قلعين أتوا إليها من قلعة الرحبة، ومن ديريين أتوا إليها من ير الزور، ومن راويين أتوا إليها من راوة في العراق، ومن عكيدات جاؤوا من عشائر العكيدات والمجاورين والقاطنين على ضفة الفرات الشرقية.

ولازم المكان سوء الحظ فنهبت حملة ديبوفر الفرنسية عام ١٩٢٢ القرية على فقرها.

لا يعلم مصدر تسميتها باسم البصرة، ولا تاريخ اطلاق هذا الاسم على

مكان قرقيسيا الذي تنوسي في العصور الأخيرة . ويجهل السكان اسم قرقيسيا وتاريخها جهلاً تاماً بسبب طروثهم على المكان وعشائريتهم وغلبة الأمية عليهم . وقد لفتت التسمية الأخيرة نظر العالم الألماني (هرتفولد) الذي زار المنطقة في أوائل القرن العشرين وقال ان هذه التسمية أتت من اسم دير قديم كان بقرها ، يسمى بدير البصير ، كانت له شهرة في الناحية فسميت البلدة المخربة باسمه .

لا صحة لهذا الزعم ، فلم يكن في الناحية دير بهذا الاسم ، وليس له ذكر بين السكان ، فضلاً عن أن تكون له شهرة . والناحية منذ عدة قرون مجال عشائر عربية ، لا ذكر بينها لهذا الدير . ولم تذكره المصادر العربية ولا السريانية .

بناحية قرقيسيا تمر قوافل بين العراق وسورية على ضفة الفرات الشرقية ولعل أحد المسافرين في هذه القوافل لاحظ الشبه بين موقع البصرة على شط العرب ، المؤلف من الفرات ودجلة ، وموقع مكان قرقيسيا حيث يلتقي الخابور بالفرات ويؤلفان نهراً واحداً فسمي المكان البصيرة تصغيراً لاسم ثغرهم البصرة وبقي الاسم غير متداول لغلبة الاسم القديم ، أو ان بعض أبناء البصرة من جيش علي بن ابي طالب سكن في قرقيسيا عقب وقعة صفين ولعل هؤلاء هم الذين أطلقوا على المكان اسم البصيرة تصغيراً لاسم ثغرهم البصرة وبقي الاسم غير متداول لغلبة الاسم القديم ، ثم شاع الاسم الجديد بعد خراب قرقيسيا واندثار عمرانها .

ولقد سألت بعض أبناء البصيرة ان كانوا يعرفون سبب تسمية المكان بهذا الاسم فردوا ذلك إلى ان بدوياً كان يعتلي قمة التل ، وينظر إلى الجهة الشمالية ويخبر جماعته بأنه يبصر جبال ماردين وبيوت قراها . فسمى السكان المكان باسم البصيرة أي المكان الذي يبصر منه . رواية لا اثبتها ولا انفيها .

عاشت البصيرة منذ مائة سنة إلى اليوم قرية فقيرة ، لم تحقق خلال هذه المدة الطويلة إزاًزاً تقدماً ضئيلاً وازداد عدد سكانها أضعافاً .

وكانت مركز قضاء في أواخر العهد العثماني ، يمتد حتى تل حميضة في

الجزيرة مقابل القصبي على الفرات في الغرب ويمتد في الشمال حتى موقع الشداي على الخابور الأوسط، وكان فيها قاض وكان نجم الطلحة الراوي يصنع قواقه لدواليب الخابور وصحوناً ومزامل وجراًاً وقذور فخار من طين البصرة. وكان حمدان اللولح وآخرون يصنعون البارود من تراب نقرة احمد الحماد بالقرب من جامع البصرة وكان السكان يستخرجون طباق الأجر من البيوت القديمة يصدرونه إلى دير الزور.

وقبل الحرب العالمية الأولى كان لبعض سكان البصرة دواوين يسمرون فيها على غرار الدواوين بدير الزور، اصحابها عبد الله الاحمد الخالد، العبيد الذيب، وعبود الشاهر الكسار، وفرحان الخلف الهوش، وخلف الناييف، ومحمد الناييف، وغدو اللجي .

وكان بعض ابناء البصرة يشتركون مع العكيدات بغزو عنزة وشمر والدليم، ويغنمون إبلاً كانوا يفتخرون بها.

البصرة (قرقيسيا) في العهد السوري :

في التشكيلات الادارية السورية، أي منذ عام ١٩٢٠، جعلت ناحية ألحقت بقضاء الميادين أحد أقضية متصرفية دير الزور، وفكتها الحكومة من منطقة الميادين في ١٩٦٣/١١/٩، وألحقتها بمركز دير الزور، بسبب تعبيد الطريق بين البصرة ودير الزور، والتي كانت ترابية في كل العهود الماضية على أهميتها حتى سنة ١٩٦٣ وكانت نفقات تعبيدها من أموال العمل الشعبي .

فئات سكان قرية البصرة :

١ - قلعيون من البومسطفى، مصدرهم قلعة رجة مالك بن طوق على ضفة الفرات الغربية، في اسفل البصرة وجارتها، يفصل بينهما نهر الفرات هذه

بيوتهم : خلف الناييف وأولاده، محمد الناييف وأولاده، جارا الله الناييف، فرج الزيد، كريد الزيد، سليمان الزيد وأولاده، علي الزيد وأولاده.

٢ - الراويون، مصدرهم بلدة راوة في العراق على ضفة الفرات الشرقية : هذه بيوتهم : اسماعي السطم الراوي وأولاده. جاء جده عبد الحسين إلى البصرة، حمادة السطم وأولاده، فرج المحمد العبد وأولاده. عكوش المحمد العبد وأولاده، احمد السلامة وأولاده، حاج محمد السلامة وأولاده، حسان السلامة وأولاده، حمادي الحاج محمد السلامة رحيم المحمد العبد.

٣ - ديريون، بوشلهوم مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : ملحم اللجي وأولاده وأحفاده، غدو اللجي وأولاده، حمادي اللجي وأولاده، علي اللجي وأولاده، حناش اللجي وأولاده، بنية اللجي وأولاده، هريدي اللجي وأولاده، شيخ الحسن وأولاده، دلي صالح الحسن العلي وأولاده حنيف الحسن وأولاده، عواجي مظهر الحسن وأولاده، ظاهر الحسن وأولاده، سليمان الحسن وأولاده، خالد العلي وأولاده، حسن العلي وأولاده، عبد الله العلي، فرحان الخلف الهوش الشبلي وأخوته حساني ووحيد.

٤ - ديريون، جواشنة، مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : عبد الملحم العزاوي، كانوا أكثر لكنهم نزحوا عن البصرة. الياسات، محمد، حسين، علي، حمزة وأولادهم وأحفادهم.

٥ - عكيدات، مصدرهم عشيرة العكيدات المحيطة بالبصرة، بيوتهم : رافع المطر ومنصور المطر.

٦ - ديريون، بوفيريو، مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : عبد الرحمن النجم وأولاده، أحمد النجم وأولاده، محمد النجم وأولاده، حناش النجم.

٧ - سخاني، مصدرهم قرية السخنة أما مباشرة منها واما من سخاني دير الزور: بيوتهم : محمد التدمري، عوض التدمري.

٨ - مشاهدة، مصدرهم قرية مشهد في العراق، بيوتهم: عبود الحميد وابنه عبيد، صالح الدخيل وأولاده.

٩ - الربيعيون، هنادة، اصلهم من بقايا جيوش ابراهيم باشا المصري التي جاءت إلى وادي الفرات في حملة ابراهيم باشا على سورية، بقي بعضهم بعد وقعة نذب ١٨٣٩، هذه بيوتهم: حسين الجاسم عبد الله المحمد الربيع، ملا حمادي الجاسم، ملا بنية الجاسم، صالح الدودة، ابراهيم الخليف الربيع، محمد الخليف الربيع، احمد الدودة، رجب العبد الربيع، حسن العبيد الربيع، حمادي العبيد، ملحم العبيد الربيع.

١٠ - قلعيون، من البوخليل، مصدرهم قلعة رجة مالك بن طوق بيوتهم: علاوي الخلف المنصور وأولاده، محمد خلف المنصور، زهدي الخلف المنصور (خلف المنصور الملقب الاشكر).

نصيبين

رئيسة بلاد ما بين النهرين وقاعدة ديار ربيعة

تقع في أول سهل الجزيرة الفراتية عند اتصاله بسفوح جبل الطور على ضفة نهر جفجغ وكان يسمى نهر مكدونيسوس . أسماه العرب نهر الهرمس وعند السريان نهر ماش ، يمر ببلدة القامشلي السورية ، ويصب في نهر الخابور عند مدينة الحسكة ، وهي اليوم في حدود الجمهورية التركية ، مجاورة لبلدة القامشلي السورية مركز منطقة القامشلي بمحافظة الحسكة ، وتقع البلدتان على الخط الحديدي الذاهب من حلب إلى الموصل ويفصل بينهما وهما متقابلتان ، البعد بينهما كيلومتر واحد ، ونصيبين اليوم تابعة لولاية ماردين التركية . لها أهمية عسكرية وتجارية منذ القديم مدينة بها إلى الطريق الرئيسية للمواصلات بين سورية وبلاد ما وراء نهر دجلة ، وهذه الطريق قديمة يعود عهدها إلى البابليين ، وكانت أشهر طريق في المملكة العباسية وصلة الوصل بين المناطق الجبلية شمالاً والسهول الخصبة جنوباً .

اشتهرت نصيبين قبل التاريخ المسيحي بقرون . وأطلق عليها خلال التاريخ اسماء كثيرة وأقدم نص ورد فيها اسمها لوحة مسمارية قديمة محفوظة في متحف لندن في سياق البحث عن حروب دارت سنة ٦١٢ قبل الميلاد، بين الاشوريين من جهة والبابليين والمادييين من جهة اخرى فكانت في العصر الاشوري نصيبينا، وكان اهلها يسمى : أبنيلا ووجد على عمله صيغ : نصيبى . وتسمى المنطقة التي بين نصيبين وبين نهر دجلة عند السريان : (بيت ارابيا) وعند الأرمن : (أرواستان). وفي سنة ٩٠٠ ق.م كانت تذكر باسم : (أداد نيراري) .

أسكن فيها سلوقس الأول من خلفاء الاسكندر المقدوني الكبير جالية يونانية واتضح من احدى الكتابات الأثرية أن نيكاتور احد الحكام المقدونيين جدد بنائها . وكان فيها مقدونيون مع سكانها القدماء . وفي النصوص الرومانية في عهد الامبراطور أوغسطس ورد اسمها بصيغة (نيتيبى) و (نينيبوني) و (نيزيبى) وغير ذلك .

وفي النصوص الأرمنية يرد اسمها غالبا بصيغة : (مكبين اونصبن) . ولسهولة الخصلة وأهمية موقعها كانت على الدوام مطمع أنظار الفاتحين فاستولى عليها اليونان والرومان والفرس والأرمن والبارثيون والعرب والترك وغيرهم . استولى عليها البارثيون الفرس ، وانتزعها منهم (ديكران الاول) ملك أرمينيا . وفي سنة ٣٧ بعد الميلاد استولى عليها ارتبان الثالث ملك البارثيين . ثم تنقلت بين أيدي الرومان والبارثيين . وكانت بيد الفرس بعهد عاهلهم (أزدشير) أول الملوك الساسانيين ثم جاء أذينات ملك تدمر فانتزعها من الفرس ودمرها سنة ٢٦١ م .

ويزعم المؤرخون الأرمن ان المدينة كانت منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى ابتداء التاريخ المسيحي عاصمة ملوك الأرشقونيين ثم الملوك ستاتروك . وعادت المدينة إلى الرومان في عهد الامبراطور «دوكلسيان» منذ صلح سنة ٢٩٧

بعد الميلاد . وهذا جعلها مركزاً للتجارة بين امبراطورية الرومانية والمملكة الفارسية ، واحدى الحصون المهمة على خطوط الدفاع في بلاد ما بين النهرين ، فكانت بذلك مدينة التخوم ورئيسة بلاد ما بين النهرين مما غناها كثيراً .

دخلتها النصرانية في القرن الأول بتبشير مارادي ، ثم مارماري وبنيت فيها الكنائس الكثيرة الفاخرة ، وانشئت بضواحيها أديرة وصوامع عديدة . وقامت فيها المدارس النصرانية ، تأسست فيها مدرستها الشهيرة في النصف الاول من القرن الرابع أنشأها مار يعقوب اسقف نصيبين ، وكانت ارثوذكسية . أمها الطلاب من انحاء البلاد الشرقية أشهر أساتذتها كان مار أفرام السرياني تلميذ مار يعقوب النصيبى الذي فتح المدرسة سنة ٣٢٥ ، مكث فيها مار أفرام ٣٨ سنة معلماً حتى سنة ٣٦٣ ، غادرها لوقوع المدينة بيد الفرس ، وكانت اللغة الارامية هي لغة التدريس في هذه المدرسة .

بقيت نصيبين قروناً مركزاً روحياً للنسطوريين ، وكان بها كنيسة للقدس سرجيوس ، تقصدها القبائل العربية الضاربة في الجزيرة الفراتية من ربيعة . وقد سميت منطقة نصيبين لهذا السبب ديار ربيعة ، إلى جانب القسمين الآخرين من الجزيرة الفراتية وهما ديار بكر في أعالي الجزيرة ، وديار مضر وهي منطقة الرقة وحران ، وكانت جامعتها الشهيرة منارة للعلم والعرفان في بلاد الشرق مدى قرون وخاصة في القرن الرابع ولتحصين الرومان لها سميت ترس المدن ، ودعيت أنطاكية مقدونيا ولكثرة المتخرجين في مدرستها من العلماء والكتاب سميت ام العلوم ومدينة المعارف وام الملافة ، ولأهميتها سميت رئيسة بلاد ما بين النهرين .

وفي سنة ٥٢٩م توغل المنذر بن النعمان ملك الحيرة في بلاد الشام استولى على أرضين واسعة شملت كل منطقة الحدود ، ومنها أرض الخابور ونصيبين ، حتى بلغ حصص وانطاكية . وزعم ابن العبري ان المنذر قتل عدداً كبيراً من السكان وخرب اكثر تلك الأرصين واستاق اسرى عديدين ، واختار من بينهم اربع

مئة راهبة اخذهن لنفسه لكثرة ما كان فيها وفي ضواحيها من اديرة للرهبان واديرة للراهبات اشتهرت راهبات منهن بتأليفهن .

ولقد تعرضت نصيبين ومدارسها وأديرتها لكوارث الحروب الكثيرة التي تتابع وقوعها بين الروم والفرس . فكانت نصيبين بين المطرقة والسندان ، وكانت تقع تارة بيد هؤلاء واخرى بيد اولئك ، بعد ان يصيبها الخراب وبعد ان تنهب ويسبى أبناؤها . كل ذلك طمعاً بخيراتهما ، وكثيراً ما قاومت الطامعين بها ولكنها كانت تغلب على أمرها .

فتحها العرب على يد عياض بن غنم فاتح الجزيرة الفراتية بعهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سنة ١٨هـ = ٦٣٩م ، بعد فتح الرقة والرها وحران ، سار إلى نصيبين فقاتله أهلها ، وأقام عليها شهراً ثم صالحوه على مثل صلح الرها ، وفتح طور عابدين وماردين وسارونزل على آمد . استعمل علي بن ابي طالب الخليفة الرابع على نصيبين في سنة ٣٩هـ شبيب بن عامر ، وكان معاوية بن ابي سفيان والي الشام يسير قواتاً إلى بلاد الجزيرة الفراتية لاستخلاصها من عمال علي بن ابي طالب ، ولكن شبيب كان يهزمها ، ويلاحقها إلى الفرات ويعود إلى نصيبين ، وكان يغير على الرقة الموالية لمعاوية وينهب ماشيه العثمانية بها فنهاه الخليفة علي عن ذلك .

وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حدثت ثورة في نصيبين . ولما خرج الوليد بن طريف الشاري احد زعماء الخوارج في الجزيرة الفراتية على الرشيد في سنة ١٧٨هـ استولى على نصيبين وقتل بعامل الرشيد فيها وقويت شوكته في الجزيرة . فسير اليه الرشيد قائده يزيد بن مزيد الشيباني ، فاقتتلا في رمضان سنة ١٧٩ ، فقتل الوليد ، ولو كان انتصر لجعل من نصيبين عاصمة لدولته .

وفي سنة ٧١٧م حدثت هزة ارضية فيها خربت قسماً من دورها وعاث فيها القرامطة سنة ٣١٥هـ .

وكانت من املاك سيف الدولة الحمداني ملك حلب، وكان يتردد عليها، وفي سنة ٣٢٨هـ سافر منها في حملة إلى أرمينيا.

وفي سنة ٣٣١هـ حمل الصليبيون على بلاد ما بين النهرين واستولوا على ميفارقين وعلى نصيبين، وفي ذلك الوقت كانت نصيبين في املاك ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل وبعده صار ابنه ابو المظفر حاكماً عليها سنة ٣٥٨هـ.

ولما هرب الخليفة العباسي المتقي لله بن المعتمد (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) (٩٤٠ - ٩٤٤م) من بغداد خوفاً من امير الأمراء توزن التركي جاء مع الحمدانيين إلى الموصل ومنها سار إلى نصيبين حيث بقي فيها مدة ثم رحل عنها إلى الرقة.

قال ابن خالويه «كبس العدل بن مهدي بعساكره نصيبين وفيها خزائن سيف الدولة وامواله، فاحتوى عليها واستفحل امره، فسار إليه ابو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في غلمانه وجماعته من ديار ربيعة، فانكشف الناس عنه وثبت في غلمانه فآظفره الله به واسره وصدّره إلى ناصر الدولة ببغداد فمسل عينيه».

وفي سنة ٣٥٥هـ هرب اناس من نصيبين خوفاً من الروم الذين قصدوا آمد وقتلوا اهلها.

وفي سنة ٣٤٧هـ سار اليها معز الدولة احمد بن بويه السلطان ببغداد ملاحقاً لناصر الدولة الذي التجأ إلى نصيبين وخرج منها ثم تصالحا سنة ٣٤٨هـ.

وفي سنة ٣٦١هـ اغار ملك الروم نيقوفورس على الرها وسار في الجزيرة حتى بلغ نصيبين فغنم وسبى واحرق وخرب البلاد وقتل الكثيرين من الأهليين. ولم يكن من ابي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفع ملك الروم، ولكنه حمل اليه ملاً كُفّه به عن نفسه وسار جماعة من اهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين الخليفة والعراقيين وقاموا في الجوامع يستنفرون المسلمين.

كانت نصيبين إلى ابي الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل، ومنها سار إلى الموصل فملكها سنة ٣٨٠ من الحمدانيين، وكان نصر الدولة بن مروان

صاحب ديار بكر ينازع العقيليين على نصيبين، وكانت تنتقل بينهم ويقتل من اهلها اناس بسبب ذلك وينالها الضرر.

وفي سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) نهب طفر لبك ضواحي المدينة. وكان الفرنج يهددونها فارسل السلطان غياث الدين ابو شجاع محمود (٥١١ - ٥٢٢هـ) منصور الجوالي حاكم الموصل إلى نصيبين ضد الفرنج سنة ١١٠٦م، وقبل ذلك استولى عليها نجم الدين غازي بن أرتق التركماني احد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي وقائد من قواده، وفي سنة ٥١٥هـ اقطعها السلطان محمود السلجوقي إلى الأمير البرسقي.

وفي سنة ٥٢٣هـ = ١١٢٨م وصل الفرنج إلى آمد ونصيبين ورأس العين، وفي سنة ١١٣٤م قمع عماد الدين زنكي ثورة في نصيبين واقام بابك حاكماً عليها. وفي سنة ٥٦٣هـ = ١١٧١م احتل نور الدين المدينة وكنل بالنسطوريين وخرب ابنتهم ونهب اموالهم لمعاونتهم للفرنج.

وفي سنة ٥٧٨هـ = ١١٨٢م دخلت في املاك السلطان صلاح الدين الأيوبي وتقلت من بعده بين ايدي الأيوبيين، فكانت إلى الملك العادل سنة ٦٠٦هـ وإلى الملك الأشرف سنة ٦١٥هـ.

وبالرغم من تتابع الخطوب عليها في القرون الوسطى قاومت ما استطاعت وبقيت مقراً لحياة فكرية ناشطة في العهد الإسلامي، ولو أن سلاماً طويلاً أتيح لها لبلغت ذروة من الحضارة ولاستمرت تلك الحضارة نامية مزدهرة إلى اليوم، ولكنها الحروب لا تبقي ولا تذر، ليت الانسانية تتخلص منها إلى الأبد.

ولكي نتعرف على شؤون نصيبين واحوالها في العهد الاسلامي نورد فقرات مما كتبه المؤرخون والرحالون والجغرافيون العرب عنها في مختلف الأزمنة تؤلف صورة لها:

قال احمد اليعقوبي المؤرخ والجغرافي العباسي المتوفي سنة ٨٩٧م صاحب كتاب (البلدان) و(التاريخ):

«هي مدينة عظيمة كثيرة الأنهار والجات والبساتين، ولها نهر عليه قناطر رومية وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب، فتحها عياص بن غنم سنة ١٨ هـ. شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب وباطنها هرم، جميلة المنظر، امامها وخلفها بسيط أخضر، تحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار».

وزارها ابو القسام محمد بن حوقل البغدادي سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) والمتوفي عام ٩٩٠ م ووصع كتاب (المسالك والممالك)، قال: «وكان من أجل بقاع الجزيرة واحسن مدنها واكثرها فواكه ومياها ومنتهزات، وخضرة ونضرة إلى سعة غلات من قمح وشعير، نصيبين وهي مدينة كبيرة في مستواة من الأرض، ومخرج مائها على شعب جبل يعرف بيالوسا، وهو انزه مكان بها حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها ويدخل إلى الكثير من دورها ويغدق البرك في قصورها، وكان لهم ضياع كثيرة عظيمة السائمة دارة الغلات والنتاج، معروفة الفرسان مشهورة الشجعان. إلى ديارات النصارى وبيع وقلايات، ولم تزل على ما ذكرته من أول الإسلام معروفة بكثرة الأثثار ورخص الأسعار إلى سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م فأكب عليها بنو حمدان بصنوف الجور وتجديد الكلف بصروف الظلم والعدوان إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار إلى ان حمل ذلك بن حبيب وهم بنو عم بني حمدان إلى ان خرجوا بذرائعهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس وعبيدهم ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم في ما قصدوا به ونزلوا على بلد الروم وتنصروا باجمعهم، وأخذوا يغيرون على المنطقة التي جلوا منها، ويذكر ابن حوقل ان الحمدانيين عمدوا أخيراً إلى وضع أيديهم على اموال النازحين واجبروا من بقي على استبدال زراعة الأشجار، وهي المورد الأساسي للمنطقة بزراعة الحبوب فقضى ذلك على عمران نصيبين وازدهارها، وعادت المنطقة كلها برية جرداء وعدمت من يرد عنها غزوات العشائر الرحالة.

وتكلم شمس الدين ابو عبد الله محمد المقدسي البشاري الذي كان في سنة ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م عن نصيبين في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عن

بيوتها الجميلة وحماماتها العجيبة وسوقها، الجامع الجمعة والقلعة وذكر ان نصيبين كانت تصدر البلوط والشمار المجففة ومصنوعات كثرة، منها عربات النقل وأدوات الكتابة كالمحابر وغيرها.

وزارها الرحالة الأندلسي محمد بن جبير في مستهل ربيع الأول سنة ٥٨٠ الموافق ١٢ من شهر حزيران ووصفها في كتابه (رحلة ابن جبير) قال: «شهيرة العتاقة والقدم ظاهرها شباب وباطنها هرم جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد امهامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرّد في نواحيه وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلّاتها الوارفة عليه، فخارجها رياضي الشبائل اندلسي الخمائل يرف غضارة ونضارة ويتألق عليه رونق الحضارة وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر اليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال، وهذا النهر يتسرب اليها من عين معينة منيعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعيائرها وتتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في بعض ديارها ويصل إلى جامعها، منه سرب يخترق صحعنه، وينصب في سهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي منه، وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة، يتصل بباب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحد، وصاحبها معين الدين اخو معز الدين صاحب الموصل ابناء بابك ولعين الدين أيضا مدينة سنجار، ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها الشيخ ابو اليقظان الأسود الجسد الأبيض الكبد، أحد الأولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان. . . قد اكتفى بنسج يده. . . وكان نزولنا بها في خان خارجها وبتنا بها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول، ودخلنا في صبيحته في قافلة كبيرة من البغال والحمير حرائين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد وبلاد ديار بكر وما يليها وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال فتهادى سيرنا إلى اول الظهر ونحن

على أهبة وحذرون اغارة الأكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيسر، يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم، فهم ربما وصلوا في بعض الأحيان إلى باب نصيبين ولا دافع لهم ولا مانع الا الله».

لم يكف تلك المدن ما أصابها بسبب الحروب حتى ابتليت بقطاعي الطرق يغيرون عليها ويسلبونها أمنها وأموالها ويحولون بينها وبين تجارتها وزراعتها، ومع كل ذلك صمدت قروناً تقارع الخطوب، حتى نالت الخطوب منها وخربتها.

وقال ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م صاحب كتاب (معجم البلدان):

«نصيبين بالفتح ثم بالكسر، مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها، وفي قراها على ما يذكر أهلها اربعون بستاناً، عليها سور كانت الروم بنته، وأتمه انوشروان الملك عند فتحه اياها، بعد حصار. ونصيبين مدينة وبئة لكثرة بساتينها ومياهها، وقد روى في بعض الآثار ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: رفعت ليلة أسرى بي، فرأيت مدينة أعجبتني، فقلت يا جبرائيل ماهذه المدينة فقال هذه نصيبين، فقلت اللهم عجل في فتحها، واجعل فيها بركة للمسلمين».

ذكرها ابو الفداء عماد الدين اسماعيل المؤيد (١٢٧٢ - ١٣٣١م) صاحب حماء ومصنف كتاب (تقويم البلدان) وكتاب (المختصر في تاريخ البشر) فأوجز:

«قال ابن سعيد: ونصيبين قاعدة ديار ربيعة وهي مخصوصة بالورد الأبيض، ولا يوجد فيها وردة حمراء، وفي شالها جبل كبير منه ينزل نهرها ويمر على سور نصيبين والبساتين عليه».

وزارها الرحالة الشهير ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم المعروف بابن بطوطة

٧٠٢ - ٧٧٧ هـ = ١٣٠٤ - ١٣٨٥ م حوالي سنة ٧٢٢ قال يصفها في كتابه (تحفة النار في غرائب الأمصار):

«وصلنا إلى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة، قد خرب أكثرها، وهي في بسيط أفيع فسيح، فيه المياه الجارية، والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة، والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطار والطيب، ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها، وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ويدخل إلى المدينة فيجري في شوارعها ودورها، ويخترق صحن مسجدها الأعظم، وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي، وبهذه المدينة مارستان ومدرستان، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة».

شاركت نصيبين في الحركة الفكرية والأدبية في التاريخ العباسي بما نبغ فيها وانسب إليها من العلماء والادباء منهم:

١ - الحسن بن علي بن الوثاق النصيبى الحافظ قدم دمشق وحدث بها في سنة ٣٤٤ هـ.

٢ - بشر بن يحيى بن علي القيني النصيبى، شاعر مقل واديب كثير الأدب، ذكره له ابن النديم في فهرسه عدة مؤلفات.

٣ - الحسين بن علي بن أحمد النصيبى النديم، نديم المستنجد بالله، ولد سنة ٥٠٠ وتوفي سنة ٥٨٠، كان اديباً شاعراً كاتباً مشهوراً يحل الألغاز، ترجم له ياقوت في معجم الأدباء ج ١٠ ١٢٦ - ١٣٠.

٤ - أبو الفرج بن عبد الواحد اليغابن نصر المخزومي من أهل نصيبين قال الثعالبى عنه في (يتيمة الدهر): شامة الشام والعراق وظرف الظرف وينبوع اللطف، واحد افراد الدهر في النظم والنثر، اتصل في عنفوان شبابه بسيف الدولة الحمداني ثم تنقل بين دمشق والموصل وبغداد واتصل بالرؤساء وله رسائل مشهورة

إلى سيف الدولة والمهلبى الوزير، اختار له الثعالبي في (يتيمة الدهر) شعراً كثيراً حسناً.

ومن نزل بنصيبين من الأدباء المشهورين الشاعر العباسي ابونواس الحسن بن هاني ١٤٥ - ١٩٨ هـ = ٧٦٠ - ٨١٣ م، بعد عودته من مصر عن طريق الرقة عبر الجزيرة الفراتية متوجهاً إلى بغداد، وكان غادرها إلى مصر لمدح أميرها الخصب، ويؤثر له في نصيبين البيت التالي استشهد به الرحالون العرب القدامى عند كلامهم على نصيبين:

طابت نصيبين لي يوماً وطبت لها ياليت حظي من السدنا نصيبين
قد يكون ابونواس استطاب خمرها وافتتن بوردها واعجب ببساتينها وكان
يألف ذلك ببغداد.

ومن نزلها من الأدباء المشهورين الشاعر ابو عبدة الوليد بن يحيى البحرى ٢٠٦ - ٢٨٤ هـ = ٨٢٠ - ٩٨٧ م حوالي سنة ٢٧٢ هـ وعمره ٦٦٥ سنة وفيها نبت امواله الكثيرة وكان يرجي الأعيان لاعادة امواله اليه فما نفع الرجاء وما قال في ذلك:

مع الدهر ظلم ليس يقلع راتبه وحكم أبت الا اعرجاجاً جوانبه
أبيت وليلي في نصيبين ساهر لهم عناني في نصيبين ناصبه
وتزداد آلامه في نصيبين فيشكوها في قصيدة قالها لرجل من أهل نصيبين:
عدتني من نصيبين العوادي فقلبي أبله فيها بليد
أرى الحرمان أبعد قريبا والنجع اقربه بعيد
تقاذف بي بلاد عن بلاد كأني بينها جبل شرود
وخلفني الزمان على اناس وجوههم وأيديهم حديد
لهم حلل حسن فهن بيض وأخلاق سمجن فهن سود
لقد ذم البحرى مقامه بنصيبين لانتهاب امواله وضياع قدره، وقال قصيدة لرجل من أهل بلدة رأس العين كان صديقاً له بنصيبين فتغير عليه وجفاه منها:

يا سعيد والأمر فيك عجب
ما نصيبين لي بدار ومالي
فتجمل لنا قليلاً كما كنت
وقال بعضهم يذكر نصيبين:
وظاهرها مليح المخبر
وباطنها قبيح المنظر

وقال آخر يذم ولائها:

نصيب نصيبين من رها
فباطنها منهم في لظى
ولاية كل ظلوم غشوم
وظاهرها من جنان النعيم

استولى الغازي التتري هولاكوعلى المدينة في سنة ٦٥٧هـ ١٢٥٩م
ونحربها، وعندما زحف الغازي التتري الآخر تيمورلنك في سنة ١٣٩٥م على طور
عبدین، اختبأ أهل نصيبين وملحقاتها في الكهوف والمغر، فلاحقهم جنود التتر
بالدخان فاختنق الكثيرون.

وخرب الأكراد نصيبين بكثرة غاراتهم عليها، ووقعت المدينة بيد الأتراك
العثمانيين بعد استيلائهم على سورية سنة ١٥١٧ وقضائهم على دولة المماليك
بسورية ومصر، وما زالت بيد الأتراك مع انها عربية سورية، وكانوا جعلوا منها
مركز سنجق في باشوية آمد، ثم ألحقت بسنجق ماردين الذي كان تابعاً لباشوية
بغداد.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت قضاء تابعة لمصرفية
الفرات (دير الزور) وهي الآن تابعة لولاية ماردين، تعد نفوسها ٥٠٠٠٠ متأخرة
ال عمران فقيرة فيها جامع قديم مهجور شاهده عند زيارتي لها سنة ١٩٣٢.
واهلها فقراء فيها حامية تركية باعتبارها من مدن الحدود.

حران

مدينة الفلسفة والعلم الأدب

في العصور القديمة

تقع شمال شرقي بلدة تل أبيض السورية على بعد نحو ٣٠ كيلومتراً في الحدود التركية ، في منتصف الطريق بين بلدة تل أبيض ومدينة أورفة التركية . وهي اليوم قرية حقيرة فقيرة من قرى ولاية أورفة حولها تلال احتوت أنقاض وآثار مدينة حران التي كانت إحدى المراكز التجارية في بلاد الفرات الأعلى أنشأتها الأسفار التجارية البابلية والآشورية ، أطلقوا عليها اسم هران أو خران وهو مشتق من الكلمة البالية (خرانو) ومعناها رحلة .

لقد كانت الأسفار امراً عادياً في بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز عدة للتجارة على الطرق العامة كانت حران أحداها فهي مدينة عريقة في القدم ،

ذكرت في كتاب التوراة في سفر التكوين ، وعرفت بانها مسقط رأس ابراهيم الخليل (عليه السلام) هاجر منها إلى الحجاز، جاءت صيغة اسمها في الكتابات المسارية باسم «حارانو» ومعناها الطريق او الرحلة. ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى عهد ملوك آشور تغلات - فلاصر الأول، وسرجون الثاني (١١٠٠ ق.م) ذلك انها تقع على أهم ملتقى طرق في العالم القديم وهو طريق الموصل والشام والروم وهي في نظر الأخباريين أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، نسبوها إلى «هاران اخي ابراهيم الخليل، لأنه بزعمهم أول من بناها فعربت فقيل حران، وعرفت عند المسلمين بانها منازل الصابئة الحرائين وكان فيها معبد كبير لعبادة الاله سين (القمر)، ويعرف ببعل حران، ومنذ أيام الاسكندر الكبير سكنتها جالية كبيرة من المقدونيين، وقد ادخل المؤرخ الروماني بلينيوس (٢٤ - ٧٩ م) حران واورفة في جملة المدن العربية وسمى حران: كارهاً وذكر ان قسماً من عرب الجزيرة الفراتية نقلوا إلى حران، نقلهم نكرانه الكبير، وان قسماً منهم هاجر اليها واستوطن فيها، ذلك ان العرب كانوا في الجزيرة الفراتية قبل الميلاد. وقد انتهزت القبائل العربية في البادية الفراتية الفرص فأخذت تتقدم نحو الشمال كلما وجدت حالة مواتية.

وسماها آباء الكنيسة (نبولس) أي مدينة الوثنيين لأن سكانها الوثنيين بقوا فيها محافظين على ديانتهم الوثنية رغم انتشار النصرانية في الرها ونصيبين وتلك الجهات، ووفد على حران الوثنية وثنيون آراميون من بلاد الجزيرة الفراتية ورغم ضغط النصرانية على وثنيي حران لكي يتنصروا، فإنهم بقوا محافظين على ديانتهم القديمة. ومع ان آباء الكنيسة عينوا لحران اساقفة وبنوا فيها كنائس بقيت المدينة مركزاً للوثنية إلى ما بعد الفتح العربي بعدة قرون، وكان سكان حران خليطاً من البابليين والآشوريين والمقدونيين والأرمن والنصارى والعرب، والتقت ديانات وثقافات هذه الأقوام في حران وامتزجت ببعضها البعض. وفي بدء القرن السادس الميلادي كانت مركز أسقفية، وكانت لها علاقات تجارية واسعة، وبرغم

وجود كرسي اسقفية فيها كان كثير من سكانها وثنيين، وفي حران هاجم البارثيون حملة القائد الروماني كراسوس ابادوها وقتلوا قائدها.

كانت حران قبل الإسلام قصبة ديار مضر، احدى أقسام الجزيرة الفراتية، وقد سميت هذه الأقسام (ديار ربيعة وديار بكر وديار مضر) باسماء قبائل عربية عدنانية نزلتها منذ القديم. وكانت حران في معظم عهودها التاريخية من اعمال الرقة، وديار مضر جميعها تقع على الفرات ان حران فراتية محضة، فتحها القائد العربي عياض بن غنم سنة ١٨ هـ صلحاً بعهد الخليفة عمر بن الخطاب.

كانت حران المقام المفضل للخليفة الأموي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في المشرق ببيع بالخلافة سنة ١٢٧ هـ - ٧٤٤ م وقتل سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م وكان الناس يلقبونه بالجعدي لأنه تعلم على يد الجعدي بن درهم، وكان مروان والياً على الجزيرة الفراتية وارمينية قبل ان يولي الخلافة، وكانت مدة خلافته مملوءة بالفتن والاضطرابات، وكان قد قبض على ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس موجه الدعوة العباسية وكان يقيم بالحيمية في الشام وحبسه بحران مع جماعة آخرين حتى مات في سجنه ميتة غامضة. وقد التقى جيش العباسيين بجيش مروان بن محمد على نهر الزاب الأعلى من أرض الموصل وجرت موقعة عظمت في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ انتهت بهزيمة مروان بن محمد وقتله في مصر ومبايعة ابي العباس السفاج اول خلفاء بين العباس، وهذا ولى أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وارمينية فأنخذ من حران مركزاً له لتوسطها ولحسن مركزها العسكري. ووجه منها جيوشه لقمع فتن قامت ضد بني العباس فقمعها ووطد ركن الدولة العباسية، ولم يزل والياً على الجزيرة وارمينية حتى استخلف.

وفي سنة ١٤١ هـ خرج بحلب وحران قوم يقال لهم الراوندية من اهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح من انصار ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية الذي قتله ابو جعفر المنصور.

تسامح الخلفاء الأمويون والخلفاء العباسيون مع وثنية اهل حران غير انه

ابتدأ اضطهادهم بعهد المأمون . فعندما مر المأمون بحران سنة ٢١٥هـ - ٨٣٠م أجبرهم بان يعتنقوا الاسلام او اية ديانة اخرى يعترف بها الإسلام ، والا يبادوا ، ودفعاً للإبادة تسموا إذ ذاك بالصابئة احتفاء بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئة من اهل الكتاب ، وكان اسم الصابئة يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية كانوا يسكنون بين واسطن والبصرة في العراق .

كان دين الحرائين الأصليين : الاعتقاد في الكواكب والأفلاك وان كل ما يحدث في العالم الأرضي هو من تأثيرها ، وعندهم أن فعل النجوم وأدلتها صحيحة وان اخطأ بعض المنجمين فلا تبطل صناعة النجوم ولهم نبي هو هرمس . ان ديانة الحرائين هي ديانة البابليين والآشوريين لجأت إلى حران مع ما اصابها من تطور . ان عبادة الكواكب أوجدت عندهم ميلاً إلى الأبحاث الفلكية والرياضية كان لهم على الثقافة العربية فضل غير منكر ، فعلى ايديهم نقل عدد كبير من مؤلفات اليونان في هذه العلوم إلى العربية ، وفي طليعتهم ثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨٨هـ) الرياضي الحكيم الحراني ، برع في علم الطب والفلسفة وله مؤلفات كثيرة كانت له مكانة عالية عند المعتضد ، وسان بن ثابت بن قرة ابنه ، ثم ولدا سنان بن ثابت وابراهيم حفيدا ثابت بن قرة ، فتابعا الأعمال العلمية الكبيرة التي قام بها جدهما ، ومن كبار باحثيهم ، هلال بن المحسن (٣٥٩ - ٤٤٨هـ) وهو حفيد ابي اسحاق الصابئي كان اديباً فاضلاً صنف في الأخبار والحكايات ، وابوجعفر الخازن والبتاني الفلكي المشهور (٢٣٥ - ٣١٧هـ) امضى حياته في الرصد بمدينة الرقة الفراتية .

تمسك الحرائيون الوثنيون بديانتهم القديمة ابقاء على قوميتهم . ولا تزال طائفة الصابئة موجودة اليوم في العراق يعملون في صياغة الفضة واحياناً يأتي بعضهم إلى سوريا للعمل فيها . ولقد انتقل التعليم الأفلاطوني الحديث من الاسكندرية إلى انطاكية ومنها إلى حران ليختلط بمذهب التنجيم . ومن مدرة حران اقتبس بعض مفكري الإسلام اركان مذهبهم فيما وراء الطبيعة وأفادوا من العلوم التي رافقت هذه المدرسة كعلم الهيئة وعلم التنجيم وعلم الحساب والجبر

والهندسة ، وقد اخذ اخوان الصفا عن مدرسة حران ، وتردد عليها الفيلسوف الفارابي الذي اتصل بيوحنا بن حيلان بخران ، ورحل الطبيب ابو الحكم القرطبي الأندلسي إلى حران وهو ناقل رسائل اخوان الصفا إلى الاندلس ثم عاد إلى مدينة سرقسطة ، وقد عقد المسعودي في كتابه (مروج الذهب) فصلاً عن معتقدات صابئة حران . وجاء اليها الشاعر العباسي الكبير بشار بن برد حيث مدح اميرها سليمان بن هشام الأموي .

كانت حران من بلدان سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦هـ) ولما امارتها مع منبج وبالس ابا فراس الحمداني الشاعر المشهور ابن عمه . ثم أمر عليها ابن اخيه هبة الله بن ناصر الدولة صاحب الموصل وانتفضت عليه لأنه عسفها . وبعد موت سيف الدولة دخلت حران في املاك ابنه سعد الدولة ، ثم آلت إلى شبيب بن وثاب النميري ع الرقة وخطب على منابرهما للمستنصر بالله العلوي حاكم مصر ، ولما تأسست الدولة العقيلية بالموصل (٣٨٦ - ٤٨٩هـ) كانت حران من املاكها ، وثارت على العقيليين فأخضعوها وخربوا قسماً منها ، ثم آلت إلى السلجوقيين وتقلت من يد امير إلى يد امير منهم ، هاجمها صليبيوا أورفة سنة ١١٠٤م وهدموا اسوارها وكادوا يستولون عليها ولكن المسلمين هزموهم وتعقب اهالي حران الفارين وقتلوهم ، واستولى عليها جكريميش الأمير السلجوقي . ودعيت هزيمة الصليبيين هذه هزيمة حران ، وفي سنة ١١٤٣م تملكها عماد الدين زنكي ثم آلت إلى ابنه محمود نور الدين الشهيد ، ثم آلت إلى سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي ثم ملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٧هـ - ١١٨١م وبقيت بيد الأيوبيين إلى سنة ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م حيث استولى عليها هولاكودون ان يقتل اهلها وفي نهاية القرن العاشر وصفها المقدسي بانها مدينة جميلة وان لها حصناً من حجر مصقول ، وفي سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م زارها الرحالة المغربي ابن جبير ووصفها في رحلته ومما قاله «وبهذه البلدة كثير من اهل الخير وأهلها محبون للغرباء مؤثرون للفقراء ولهذه البلدة اسواق حافلة الانتظام عجيبة الترتيب

مسقفة كلها بالخشب فلا يزال اهلها في ظل محدود . . » وذكرها ياقوت في كتابه معجم البلدان قال انها مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة آقور . وهي قصبة ديار مضر » وذكرها الرحالة الاصطخري « المسالك والممالك » وهي مدينة الصابئين فيها سدنتهم السبعة عشر ، وبها تل عليه مصلى يعظمه الصابئون وهي قليلة الماء والشجر ولها مباحس . وفي زمن ابي الفداء « ٦٧٢ - ٧٣٢هـ » (١٢٧٥ - ١٣٣١م) كانت حران قد خمد سناها وسقطت اذ لم تزل عامرة إلى ان خربها تيمورلنك فجلا عنها اهلها ، وهي اليوم كومة من الأنقاض . إلى جانب شهرتها بالفلسفة كانت مشهورة بعسلها وبلغتها النقية الآرامية ومنذ القديم اشتهرت بخيراتها الوفيرة ذلك ان لها سهولاً غنية بمحصول الذرة والتبغ والقطن .

على ان مجد حران هو بالسلسلة الطويلة من الفلاسفة والعلماء والكتّاب والشعراء الأدباء والمترجمين والصناع والفقهاء الذين اخرجتهم في شتى عصورها ، وعلى الأخص في العصر العباسي المتوسط كانوا أداة لنشر الثقافة الحارانية واليونانية ، لهم فضل كبير على الفكر العربي واللغة العربية ، والثقافة العربية ، كانت حران جامعة يتخرج فيها الفلاسفة والعلماء ولم تخرج مدينة من النابيين على صغرها كما اخرجت حران ، فكانت مركزاً من مراكز العلم اسهمت في الثقافة العربية بنصيب غير قليل ، وما من بلدة في الشرق العربي انتسب علمائها اليها كما انتسب علماء حران اليها ، فكان هذه النسبة وحدها شرف عظيم ودليل نباهة وتفوق ، هذه النسبة هي الحراني تساوي الصابئي والمسلم العربي .

ومن أدبائها سعد بن الحسن بين سليمان الشاعر وكلاب بن حمزة العقيلي اللغوي المحدث . وابراهيم بن هلال بن زهرون أوحد العرب في انشاء الرسائل ، والمحسن بن ابراهيم بن زهرون ونصر بن الحسين الفقيه وعوف بن محلم الخزاعي العالم الأديب الراوية الظريف . وأبوعروبة الحافظ صاحب تاريخ الجزيرة . والامام ابن تيمية مفتي الامة وشيخ الاسلام ولد ببحران سنة ٦٦١هـ خرج مع

والده وعمره سبع سنوات إلى دمشق بسبب جور التتر، انتهت إليه الامامة في العلم والعمل والورع والشجاعة والكرم. ترجم له كثيرون قدماء ومحدثون.



الركة

قلب الجزيرة الفراتية

يقسم جغرافيو العرب الجزيرة الفراتية (بلاد ما بين النهرين) إلى ثلاثة ديار: ديار ربيعة قاعدتها الموصل، وديار بكر قاعدتها آمد، وديار مضر قاعدتها الرقة. ومضر من عرب الشمال عدنانيون نزحوا إلى الجزيرة الفراتية قبل الإسلام بعدة قرون واستوطنوها، فالرقة من صميم الجزيرة بل هي قلبها النابض منذ أقدم العصور إلى اليوم. وتاريخها هو تاريخ الرقة ولذا المنّا بلمحات عنها في التمهيد لهذه الرسالة. وفي تاريخ الرقة يتمثل تاريخ الجزيرة وصلة الرقة بالعرب وصلة العرب بها قديمة تعود إلى قرون قبل الإسلام وكان الكثيرون من قبيلة طي العربية من صميم سكان الرقة كالشاعر الأموي أبي زبيد الطائي الذي عاصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان وحضر مجالسه.

تقع مدينة الرقة على ضفة نهر الفرات الشرقية، وسط زاوية التقاء نهر البليخ

بنهر الفرات (أسفل الرقة) على بعد ١٣ كيلومتراً. إلى غربي نقطة التقاء النهرين. في بقعة تاريخية ملأى بآثار الحضارات القديمة آرامية وهيلانية ورومانية وإسلامية.

إلى شرقي مدينة حلب على بعد ١٨٠ كيلومتراً، وشمال غربي مدينة دير الزور على بعد ١٤٠ كيلومتراً. في منتصف الطريق العام بين دير الزور وحلب. وعند نقطة من هذا الطريق تسمى المقص، يذهب طريق بطول ستة كيلومترات إلى الشرق نحو الفرات ليتصل بجسر حديث يؤدي مباشرة إلى مدينة الرقة. يهب عليها نسيم النهر من الغرب والجنوب يعدل من الحرارة في فصل الصيف وإقليمها على كل حال مقبول.

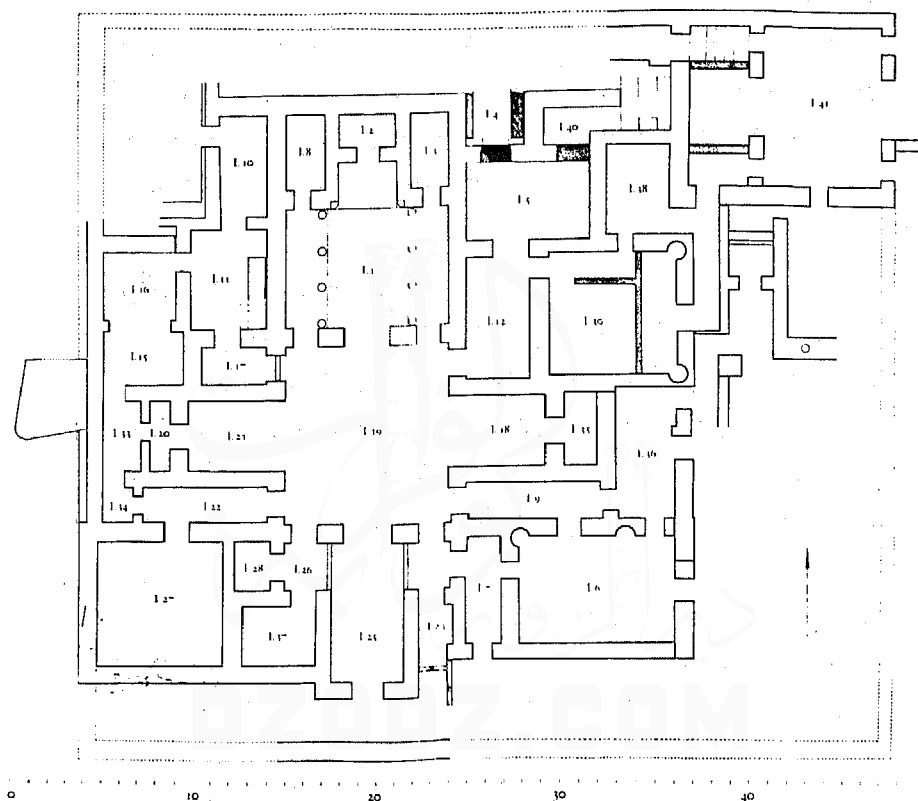
كانت الرقة من أهم مدن الجزيرة الفراتية، وأحدى المدن الهامة الشهيرة في وادي الفرات. والقاعدة القديمة أو العاصمة لديار مصر، أحرزت منذ القديم أهمية تدين بها إلى حسن موقعها الجغرافي على النهر العظيم، في نقطة متوسطة منه، وموضع تقاطع الطرق التجارية المتجهة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. جعل منها محطة تجارية هامة بين الجزيرة الفراتية والشام والعراق وأرمينية وآسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط. وتدين بأهميتها أيضاً إلى امتداد أراضيها الخصبة، وسهولة أروائها، ووفرة مياهها. بمرور نهر الفرات وجريان البليخ، وإلى انظمة الري التي كانت متبعة في سقي أراضيها منذ العصور القديمة، وخاصة في العصرين العربيين الأموي والعباسي ولا تزال آثارها بادية للعيان، ولكنها معطلة. واتساع مراعيها التي كانت تغذي أنعامها العديدة. تبلغ مساحة أراضي الرقة خمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. من أجود الأراضي. من هذه المساحة ما يسقى بالري ومنها ما يسقى بالمطر. وقد كانت هذه الأراضي تدر المحاصيل الزراعية المتنوعة والوفيرة من حبوب وثمار. وتربي مختلف الحيوانات الأهلية العديدة.

كانت الرقة لهذه الأسباب مركزاً لتجمع البشر منذ العصور الحجرية

القديمة (٦٠٠٠ سنة ق.م) وموطناً لتقدم الحضارة، ومركزاً لتبادل السلع وتجميع الحاصلات والمؤن وتصديرها إلى بلاد كثيرة عن الطريق المائي الذي هو الفرات والذي كان صالحاً للملاحة استخدمه الحثيون ونقلوا فيه سلعهم إلى بابل والخليج العربي وإلى الهند. واستخدمه من جاء بعدهم من الشعوب. وعن الطريق البري على ضفاف الفرات الذي كانت تسلكه القوافل. وذات حركة تجارية ناشطة وازدهار زراعي وعمراني. تراكمت في موقعها الحالي وضواحيها آثار سكانها القدماء بعضها فوق بعض، فمن آثار العصر الحجري القديم إلى آثار عصر البرونز وآثار الأغريق والرومان فالعرب على اختلاف دولهم وعصورهم.

لا يزال تاريخ الرقة في العصور القديمة مجهولاً. وأهم ما يميزه تاريخها انها كانت مركزاً عسكرياً ممتازاً غنياً بخيراته، وبعدد سكانه وبطرقه البرية والمائية. وتوسطه من أصقاع عدة، وقربه من البحر الأبيض المتوسط. وهي بالنظر لوفرة خيراتها تستطيع أن تمون الجيوش التي تبرزها. لقد اكتسبت أهميتها العسكرية من أهميتها الاقتصادية والجغرافية. فهي قاعدة لتجمع الجيوش وتوجيهها، أي نقطة انطلاق إلى الشرق والغرب. ولذا كانت مطمح أنظار الطامعين من الملوك والقواد. ولذا تعاقبت عليها الأيدي الكثيرة وذات ألواناً من النهب والتقتيل والتخريب بسبب الحروب والفتن في فترات كثيرة من تاريخها. فضلاً عما أصابها بالزلازل والطاعون والفتن. وإلى جانب ذلك عرفت فترات رخاء وغنى ورفاهية وازدهار استمرّ قروناً رغم الكوارث

كانت منطقة الرقة امانة آرامية تدعى بيت آدين (عدن) التي قامت بين الخليج والفرات وكانت عاصمتها تل برسيب. كانت إحدى امارات الآرامية التي كانت للآراميين على الفرات في سورية مثل امانة رحبوت النهر (الرحبة - الميادين) وامارة زوجي ولوقي (منطقة حلبية وزلبيّة) وكانت هذه الامارات على اتصال دائم مع بعضها تشكل حلفاً ضد الدول المجاورة والطامعة بها، وذلك في القرن الحادي عشر العاشر والتاسع قبل الميلاد بزعامة آرامي دمشق.



مخطط رقم (١٠) قصر البنات بالرقّة

وحوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد اكتشحت آشور الامارات الآرامية وسيطرت على بلاد ما بين النهرين إلى حدود بابل وفرضت عليها الجزية .
وهاجم ملك آشور ناصر بال بيت آدين واستولى عليها وأخذ منها الجزية ونقل من سكانها الآراميين (٢٤٠٠) نسمة إلى مدينة كالح إحدى عواصم الآشوريين على نهر دجلة ، كما كان شأن ملوك آشور ليأمنوا انتفاضات البلاد التي يخضعونها . ولكن بيت آدين انتفضت على آشور فاخضعوها وخربوها . تندر المصادر عن تلك الحقبة من تاريخ الرقة .

الرقة في العهد الاغريقي :

جاء في موسوعة لاروس الجديدة المصورة الفرنسية :

«عرفت الرقة باسم نيكفوروم . بناها الاسكندر الكبير حين اجتاز الفرات قبل اربيل وذكر الاستاذ سوفاجه أن بانيها الاسكندر الكبير . ولكن الاستاذ هوليجمان في الموسوعة الاسلامية يستبعد مجيء الاسكندر إلى هذه النقطة . وقيل ان الذي بنى نيكفوروم هو سلوقس الأول وهي تحت أنقاض المدينة الرومانية البيزنطية .

وسميت (قالينيقوس) باسم سلوقس الثاني قالينيقوس ، الذي أسس مدينة جديدة أوجدت المدينة القديمة في سنة ٢٤٤ - ٢٤٢ ق . م وهو أحد قواد الاسكندر المقدوني واحد خلفائه ، أكد هذه الرواية المؤرخون السريان . وقيل ان سلوقس هذا قتل فيها .

والواقع أن المؤرخين لم يتفقوا على اسم باني المدينة الأول ، ولا على تاريخ بنائها نظراً لقدم هذا التاريخ . وندرة من أرخ للمدن الفراتية . ومن المحتمل ان موقع الرقة لفت نظر خلفاء الاسكندر السلوقيين . فأسسوا فيه مركزاً على طريق مواصلاتهم بين بابل وآسيا الصغرى أو سورية .

ويقول ابن العبري بكتابه (مختصر الدول) : «ان بطليموس من ملوك

الدولة اليونانية ملك ستا وعشرين سنة، وفي زمانه بنيت قالينوس وهي مدينة الرقة». وكانت الثقافة اليونانية موجودة في الرقة إلى جانب السريانية والعربية.

الرقة في العهد الروماني :

يعطي الاستاذ كرزويل اسماً للمدينة في العهد الروماني : كالنيكيوم نسبها إلى الامبراطور غلينوس المتوفي سنة ٢٦٦ ب. م. ويرجح الاستاذ دونان ان تكون المدينة بيزنطية. بينما يعتبرها الاستاذ هونيغمان هيلينية وينسبها إلى سلوقس الثاني قالينيقوس. ويأتي الاستاذ هونيغمان برأي آخر اعتماداً على الكاتب ليبانيوس المدينة إلى صوفي مدينة البتراء الوثني المسمى كالنيكوس. ثم يستبعد هونيغمان هذا الرأي.

وتقع المدينة الرومانية شرقي باب بغداد القائم حالياً في الرقة. ولم يبق لها أثر.

وفي عهد الامبراطور جوليان كانت قالينيقوس حصناً منيعاً في وجه الفرس ومركزاً تجارياً هاماً.

وفي سنة ٣٩٣ احترق فيها كنيس يهودي. فأمر الامبراطور ثيودس على الأثر أسقف المدينة بأن يعيد بناءه. ويشير ذلك إلى وجود جالية يهودية فيها. وكانت الجاليات اليهودية توجد في مدينة الصالحية على الفرات (دورا أوروبوس).

وكان الرومان أطلقوا عليها اسم قسطنطينيو بوليس نسبة إلى الامبراطور قسطنطين.

وخربتها هزة أرضية فجدها الامبراطور ليون الثاني الذي حكم الشرق في سنة ٤٧٣ - ٤٧٤ م وسماها باسمه ليونتوبوليس وجعل منها مدينة متر وبوليتية، ونصب فيها أسقفاً.

وفي سنة ٥٠٣ دافع تيموستر اتوس بحماسة عن المدينة ضد الفرس.

وفي سنة ٥٢٩ منحها الامبراطور جوستنيان منحة تجارية تريح منها عندما قرر حصر التجارة في مدن الحدود مع الفرس بمدينة نصيبين وقالينقوس وارثكساتا.

وقد استولى كسرى الأول عاهل الفرس على المدينة بسهولة، لأن أسوارها كانت في حالة التصليح وخرب اسوارها ودمرها. ولكن جوستنيان أنهضها من خرابها بعد ذهاب الفرس وشيد فيها أسواراً منيعة قوية بسبب توالي الحروب بين الروم والفرس. وكانت تؤول تارة إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك. واستقرت بيد الروم بعد انتصارهم الأخير على الفرس قبل ظهور الاسلام. وأخذت الرقة دوراً هاماً في هذه الحروب.

وقد غلب اسمها القديم قالينقوس على بقية الأسماء الاخرى. وعرفت به في المصادر السريانية وبعض المصادر العربية.

كان أهلها مسيحيين يعقوبيين أي من القائلين أن للمسيح طبيعة واحدة واقنوماً واحداً. فقبل لهم من أجل ذلك اصحاب الطبيعة الواحدة، أحد مذاهب الكنيسة الشرقية نسبوا إلى يعقوب البرادعي المولود في حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد في مدينة الأجمة من أعمال نصيبين من مدن الجزيرة الفراتية من أخوات الرقة. والمتوفي في سنة ٥٧٨ للميلاد. ذهب الى القسطنطينية في حوالي سنة ٥٢٨ لحمل القيصرية تيودورة على التأثير في الكنيسة ولتكف عن اضطهاد اخوانه القائلين برأيه في طبيعة المسيح. ومكث في القسطنطينية ١٥ عاماً.

كانت الرقة مركز أسقفية. وكان بجوارها دير عظيم مشهور هو دير زكي. كان مكانه على الراجح شرقي باب بغداد الموجود حالياً في الرقة على بعد نحو ثلاثة كيلومترات. في موقع يعرف اليوم بتل البيعة. وقد تكون البيعة هذه كنيسة الدير. وقد جاء ذكر التل بشعر الشاعر الصنوبري من شعراء سيف الدولة الحمداني مقروناً بذكر دير زكي. وكان الدير عامراً في زمن الصنوبري الذي تفنن في ذكره ووصف طبيعته ورياضه أبدع والطف وصف، وكان ينعم بقربه. وكان

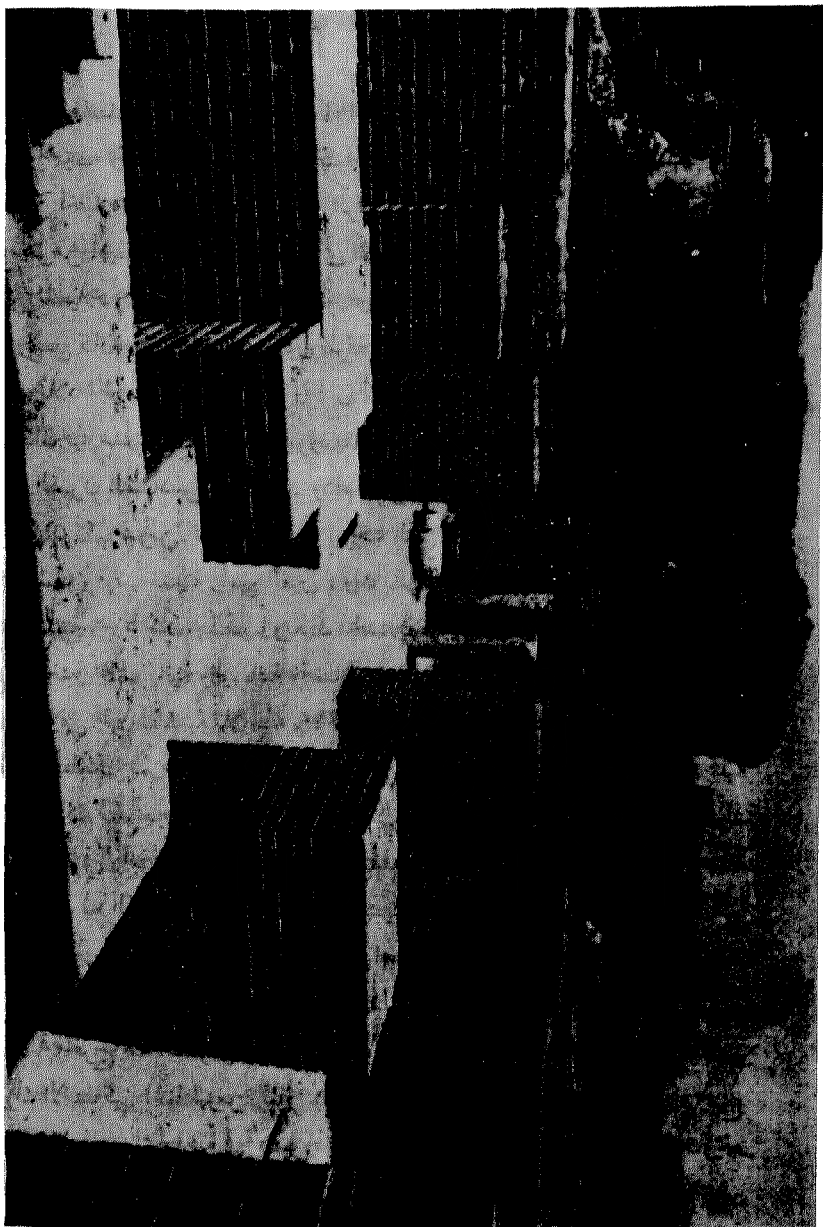
المسيحيون يقصدون دير زكى من أنحاء الجزيرة الفراتية للزيارة ونظراً لشهرة هذا الدير وأهميته وكونه ضاحية من ضواحي الرقة، لا بد لنا من أن نلم ببعض ما وصلنا من أخباره وهي جزء من تاريخ الرقة.

هو من أديار السريان الكبرى المشهورة. شيد على الأرجح في القرن الخامس للميلاد. قريباً من نهر الفرات. وعلى جنبه نهر البليخ وكان شرب الدير منه. وقيل كان يقع في الطريق بين الرقة وحران وتقع شمال غربي تل أبيض ذاع صيته في بلاد الجزيرة الفراتية.

كان فيه مدرسة لاهوتية مشهورة يقصدها الرهبان للتعلم، بدأ التعليم فيها في صدر القرن السادس الميلادي. ودام حتى القرن العاشر. من مشاهير رهبانه مار يوحنا ابن قورسوس الرقي المشهور بيوحنا التلي لأنه سيم مطرانا على مدينة تلا (ويران) شهر) قرب مدينة رأس العين. ولد بالرقة سنة ٤٨٣ من أسرة نبيلة ثرية. وترهب سنة ٥٠٦ كان جندياً وبعد الجندية ترهب في دير زكى، واجتهد حتى تضلّع باللغتين السريانية واليونانية وأصاب حظاً كبيراً من العلوم اللاهوتية ورسم قسيساً. ورقي إلى أسقفية تلا سنة ٥١٩. كان من كبار الاحبار زار القدس ورحل إلى القسطنطينية ثم عاد إلى الجزيرة وتمكن خصومه في الرأي من القبض عليه بواسطة حاكم نصيبين الفارسي. والمجوسي. وعقد له افريم الأمدي البطريك الملكي مجلساً في رأس العين سنة ٥٣٧ واعتقله في دير على باب انطاكية مات سنة ٥٣٨ جعلت له الكنيسة عيداً وله تأليف كتبها لرهبان دير.

وذكر دير زكى في التاريخ الكنسي في احداث القرن السادس. وكان رهبانه يدرسون اللاهوت. ومن أشهر اساتذته الملقان الربان تادورا. وفيه سيم قسس عديدون. وتخرج فيه البطريك الانطاكي يوحنا الرابع (٨٤٧ - ٨٧٨). وفيه سيم البطريك الانطاكي اغناطيوس الثاني (٨٧٨ - ٨٨٧) ولم يحفظ التاريخ أسماء جميع الاساقفة الذين نشأوا فيه في عصوره الأولى. وانما ذكر ميخائيل الكبير في تاريخه السرياني عشرين مطراناً وأسقفاً ظهوراً منه منذ سنة ٧٩٣ حتى سنة ٩٥٤. أورد

« آثار قصر البسات في الرقة »



بعض أسمائهم : منهم ثلاثة جلسوا على كرسي مطرانية الرقة . ولم يعرف له ذكر بعد سنة ٩٥٤م .

ومن مشاهير رهبان دير زكي مار قرقياقس مطران آمد (٥٧٨ - ٦٢٣) وكان عامراً بزمان أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي صاحب كتاب (الديارات) المتوفى سنة ٣٨٨هـ = ٩٩٨م على رواية وفي زمن ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٦م فتكون مدة ازدهاره نحو خمسة قرون وجملة مدته زهاء ثمانية قرون .

وكانت الملوك إذا اجتازت به نزلته أياماً لما اجتمع فيه من حسن العمارة وطيب الموقع ووفر الشراب الجيد والمأكّل المتقن والراحة والخدمة . ومن أجل من نزله أيام مجده هارون الرشيد الخليفة العباسي فاستطابه وبر أهله .

قال البكري في صدد وصفه لدير زكي بكتابه (معجم ما استعجم) : «ومر بهذا الدير عبد الله بن طاهر، ومعه أخ له فنزلا فيه وشربا أياماً، وخرجا إلى مصر، فمات أخوه بمصر، وعاد فنزل بهذا الدير فقال :

أيا سروتي بستان زكي سلمتما ومن لكما أن تسلميا بضمان
ويا سروتي بستان زكي سلمتما وغال ابن أمني نائب الحدشان

قال الشابشتي في كتابه (الديارات) نزلته ، وأقامت فيه ، لأنه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارة ونفاسة أبنيته وطيب المواضع التي به ، ونزهة ظاهرة ، لأن له بقايا عجيبة وبناحيته من الغزلان والأرانب وما شاكل ذلك . مما يصطاد بالجراح من طير الماء والخباري وأصناف الطير وفي الفرات بين يديه مطارح الشباك للمسك فهو جامع لكل ما تريده الملوك والسوقة . وليس يخلو من المتطربين لطيه ، سيما أيام الربيع . فان له في ذلك الوقت منظرأ عجيباً .

قال الشاعر أبو الهيثم يصف خروج الزائرين إلى دير زكي ومهرجاناتهم التي يقيمونها حول الدير في مواسم أعيادهم ، وأقبال المسلمين على الدير يشهدون

هذه المهرجانات ويصف الشاعر عبثه في ذلك اليوم الذي أتيح له فيه ذلك المشهد .
وكان اقبال الزائرين الموصوفين من مدينة حران ومن ديار مضر:

سقيا لحران انه بلد	أصبح للهو وهو مضار
في يوم باعوئهم وقد نشروا	الصلبان والمسلمون نظار
فمن مهاة هناك مقبلة	ومن غزال عليه زنار
أزحم هذه وتلك تزحمي	وفي الحشا والفؤاد أسعار
فعارضتني هناك شاطرة	منهم بها في الذراع أسوار
تقول لي، والدلال يصرعها	أنحن يا مسلمون كفار
فقلت يا غايقي ويا أملي	بل انتم المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك تقربة	والشعراء الخباث فجار
فرق لي قلبها وملت بها	في ديرزكى ونعمت الدار
تقول لي عند وقت منصرفي	انك من بعدها لغدار
حللت عقد الأمان منك لنا	فما لعقد لديك أمرار
فقلت قد كان ذاك عن خطأ	لا قود عندنا ولا ثار
استغفر الله ثم أسأله التوب	فلي بالذنوب اقرار

وحكى الشاعر الصنوبري الذي أقام ببلدان الجزيرة قصة طريفة بل مأساة
حول ديرزكى أوردها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ج ١١ ملخصها:

«انه كان بالرها وراق يقال له سعد شاعر رقيق . كانت دكانه مجلس كل
أديب فما كنا نفارق دكانه أنا وأبوبكر المعوج الشاعر الشامي وغيرنا من شعراء
الشام وديار مضر وكان لتاجر نصراني بالرها ابن اسمه عيسى من أحسن الناس
وجهاً وأحلام قداً، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً . وكان يجلس الينا ويكتب من أشعارنا
وجميعنا يحبه ويميل اليه ، فعشقه سعد الوراق عشقاً مبرحاً وكان يعمل فيه الأشعار
فخرج به أهله إلى ديرزكى بنواحي الرقة ، وهو في نهاية الحسن حيث ترهب
عيسى . وجاء سعد الوراق ولزم الدير . وهو في ذلك يعمل الأشعار في عيسى .

والرهبان ينكرون منه ذلك ويغلقون باب الدير في وجهه . ومروا بالصنوبري به في ظل الدير فسلم عليه وعذله وعنفه . فقال له سعد أترى ذل الطائر الذي على هيكل الدير وأوماً بيده إلى طائر هناك فقال نعم فقال أنا وحقق أناشده منذ الغداة أن يسقط فاحمله رسالة إلى عيسى ثم التفت إلي وقال يا صنوبري ؟ أمعك الواحك ؟ قلت نعم . قال اكتب :

بحقك يا حمامة دير زكي	وبالانجيل عندك والصليب
قفي وتحملي مني سلاماً	إلى قمر على غصن رطيب
عليه مسوحة وأضاء فيها	فكان البدر في حال المغيب
حماء جماعة الرهبان عني	فقلبي ما يقر من الوجيب
وقالوا رابنا المام سعد	ولا والله ما أنا بالمريب
وقولي سعدك المسكين يشكو	لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعيد	إذا ما كنت تمنع من قريب
وان أنا مت فاكتب حول قبري	محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيشي	فكيف بمن له مثني رقيب

ثم وجد في بعض الأيام إلى جانب الدير ميتاً . وقال أهل الرها ما قتله غير الرهبان وتضعب أمير الرها الياس بن كيغلغ مع الرهبان فافتدوا أنفسهم وديهم بمائة الف درهم . وكان عيسى إذا دخل الرها لزيارة أهله ، صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق وشدوا عليه بالحجارة يرمونه ، فانتقل إلى دير سمعان .

ووثيقة أخرى تصف حياة سكان منطقة الرقة وتصف هيئة زوار الدير في النص الآتي رواه ابن الفضل الله العمري . بكتابه «مسالك الأبصار» ص ٢٦٥ قال : حكى الحسن بن يعقوب (يصف موكب نصارى بطريقهم إلى عيد دير زكى) : «صرت إلى الرها فبت فيها وخرجت قبل عيد الصليب بيوم . فإذا الدنيا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهن ، عليهن جيد الثياب وفاخر الجواهر . وإذا روائح المسك والعنبر قد طيب الهواء منها . وقد فرش هن على العجل ، وهي

تجري بهن وأخريات على الشهاري الخراسانية والبغلات المصرية والحمرة الفره
ومشاة . وفي خلال ذلك صبيان مارأيت أحسن وجوها وقدوداً وثياباً منهم .
فتأملت منظراً لم أر أحسن منه قط . وإذا هم يطلبون دير زكى ليعيدوا فيه » .

وللشاعر أبو بكر أحمد الصنوبري من شعراء سيف الدولة الحمداني ملك
حلب عدة قصائد ومقطوعات في دير زكى أوحى بها إليه مفاتن هذا الدير ورياضه
وبساتينه وأنهاره وأدب أهله وكان الصنوبري يقضي وقتاً طويلاً في الرقة ينعم
بمباهجها وخيراتاها ويتردد على الدير منها :

حبذا المرج حبذا العمر لا بل	حبذا الدير حبذا السروتان
قد تجلى الربيع من حلال الزهر	وصاغ الحمام طيب الأغاني
زينت أوجه الرياض فاضحت	وهي تزهى على الوجوه الحسان
سقياني بكل لون من الرا	ح على كل هذه الألوان

ويقول فيه :

أراق سجاله بالرقتين	جنوبي صخوب الجانبين
تضاحكها الفرات بكل فيج	فتضحك عن نضار أولجين
كأن عناق نهري دير زكى	إذا اعتنقا عناق متيمين
أقاما كالسوارين استدارا	على كفيه او كالدملجين
ويا سفن الفرات بحيث تهوى	هوى الطير بين الجلهتين
تطارد مقبلات مدبرات	على عجل تطارد عسكرين

وقال فيه من مقطوعة :

كم غدا نحو دير زكى من قلب صحيح فعاد وهو حزين	لو على الدير عجت يوماً
لأهتك فنون وأطربتك فنون	لا تلمي ان الملام جنون
لا تلمي في صبايتي قدك مهلاً	ولأبي بكر المعوج فيه من قصيدة :

ما ترى الدير؟ ما ترى اسفل الدير وقد صار وردة كالدهان

لو رآه النعمان شق عليه ما يرى من شقائق النعمان
والى جانب دير زكى كانت قرية تعرف بالصالحية ذات قصور ودور. وفيها
يقول بعض الشعراء:

قصور الصالحية كالعداري لبسن حليهن ليوم عرس
تقنعها الرياض بكل نور وتضحكها مطالع كل شمس
وفي الصالحية هذه يقول الصنوبري:

اني طربت إلى زيتون بطياس فالصالحية ذات الورد والآس
وصف الرياض كفاني أن أقيم على وصف الطلول فهل في ذاك من باس
وقائل لي: أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب أو من سكرة الكاس
قل للذي لام فيه هل ترى كلفاً بأملح الروض إلا أملح الناس
وقال فيها:

الصالحية موطني ابدا وبطياس قراري
من فوق غدران تفيض وبين انهار جواري
ومدامة بزلت فأشبهه قتلها قتل السوار
يا لائمي ما العار عا رك فامض عني العار عاري
لهفي على ملوكة الأص داغ مسبلة الأزار
قد فضضت بالياسمين وذهبت بالجلنار

فتح العرب لمدينة الرقة:

اختلف المؤرخون في تعيين تاريخ فتح الرقة. وأكثر من مال إلى أن الفتح
تم في سنة ١٨هـ اعتمد على الواقدي صاحب فتوح الشام ومنهم البلاذري
صاحب فتوح البلدان، إلا أن الطبري صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك)
وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان يؤكد أن الفتح تم سنة ١٧هـ ويبين
الطبري السبب المباشر لفتح الرقة وهو أن أهل الجزيرة المسيحيين استثاروا الروم

على أهل حمص بعد أن فتحها ابو عبيدة بن الجراح ، فتجمع الروم لاستعادتها من المسلمين وتخرج الموقف على ابن الجراح فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالأمر . فكتب عمر إلى والي الكوفة سعد بن مالك يقول له سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند . وليأت الرقة وسرح عياضاً فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم» . وجهاز ابن الخطاب جيشاً قاده بنفسه واتجه نحو الشام حتى وصل إلى الجابية وقد أراد بذلك أن يقعد عرب الشمال النصارى عن مؤازرة الروم لاستخلاص حمص ثم ذهب بنفسه لنجدة أبي عبيدة .

انتهى سهيل بن عدي إلى الرقة ، وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة فنزل عليهم فأقام محاصرتهم حتى صالحوه ، فبعثوا بذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة هذه هي الرواية التي يرجحها الطبري .

أما البلاذري فقد ذكر عن الواقدي : « . . . سار عياض إلى الجزيرة سنة ١٨هـ انتهت طليعته إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب ، وعلى قوم الفلاحين ، فأصابوا مغنماً ، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة . وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرها (وهو أحد أبوابها) في تعبشة . فرمى المسلمون حتى جرح بعضهم ثم انه تأخر عنهم لثلاث بلغة حجارتهم وسهامهم . وركب فطاف حول المدينة ، ووضع على أبوابها روابط ، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة . وكانت الزروع مستحصدة ، فلما مضت خمسة أيام وهم على ذلك أرسل بطريق المدينة إلى عياض بطلب الأمان . فصالحه عياض على أن يأمن جميع أهلها على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم ومدينتهم . وقال عياض : الأرض لنا قد وطنناها ، وأحرزناها ، فأقرها في أيديهم على الخراج . ووضع الجزيرة على رقابهم فالزم كل رجل منهم ديناراً في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ، ووظف عليهم مع الدينار أقدرة من قمح وشيئاً من زيت

وخل وعسل (فلما ولي معاوية جعل ذلك جزية عليهم) . ثم انهم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها» .

وكتب عياض لأهل الرقة عهداً هو: «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن، إذا أعطوا الجزية التي عليهم، ولم يحدث مغيلة، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة، ولا يظهرُوا ناقوساً ولا باعوثاً (الاحتفال الديني) ولا صليباً . شهد الله - وكفى بالله شهيداً - وختم عياض بخاتمه» .

وقد سجل سهيل بن عدي القائد الذي كان في جيش عياض فتح الرقة بهذه الأبيات :

وصادفنا الفرات غداة سرنا	إلى أهل الجزيرة بالعوالي
أخذنا الرقة البيضاء لما	رأينا الشهر لوح بالهلال
وازعجت الجزيرة بعد خفض	وقد كانت تخوف بالزوال
وصار الخرج صاحبة السنا	بأكناف الجزيرة عن تقال

وكان مجيء عياض إلى الرقة في جيشه على الأرجح عن طريق بالس (مسكنة) ، ونزل عياض على بالس وكان القائد خالد بن الوليد قد فتحها صلحاً بعد فتحه لقنسرين . فأقام عياض على بالس، وشرح سهيل بن عدي كطليعة إلى الرقة . فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا، كان من قبل صاحب رأس العين . وكان قد استعد للحرب وعبأ آلة الحصار .

ولقد اتخذ عياض من الرقة قاعدة لفتوحاته في الجزيرة الفراتية .

قال الواقيدي : «ولما فتح عياض الرقة صلحاً عول على السير إلى رأس العين» وكانت سراياه فتحت قرقيسيا ليكون ظهره آمناً إذا سار إلى رأس العين من الرقة . وقال البلاذري : ان عياض فتح الرقة ثم الرها ثم حران ثم سيمساط على صلح واحد . وأتى من الرها ففتح منبج ثم عين الوردة وهي رأس العين . وبعد أن

أتم عياض فتوحات الجزيرة سنة ١٩ رجع إلى الرقة ومنها سار إلى حمص وكان الخليفة عمر بن الخطاب ولاه إياها فمات سنة عشرين .

وقد سهل فتوح الجزيرة على المسلمين وجود الجيوش الإسلامية في العراق . ومناوشاتها لأهل الجزيرة حسب ما كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والي الكوفة سعد بن مالك . وفي رواية إلى سعد بن أبي وقاص فاتح العراق لتحويل أهل الجزيرة الذين كانوا يحاربون مع جيوش هرقل في حمص إلى بلادهم للتخفيف عن جيش أبي عبيدة في حمص . ونجحت خطة الخليفة عمر وعززها بمجيئه بنفسه إلى الجابية نجدة لأبي عبيدة في حمص .

كانت الرقة عند فتح العرب المسلمين لها ذات سور وأبواب وغلات متنوعة وسوق عامة . ولم يؤدها العرب وأبقوا لها الحرية بالاعتقاد ، وأبقوا الأراضي بيد أهلها ورتبوا عليهم تكاليف الأمن فقط (الخراج والجزية) . واستمرت الرقة في حياتها الاعتيادية تفيد من خصوبة أرضها ووفرة مياهها وموقعها الجغرافي بين الجزيرة والشام مما أعطاه أهمية تجارية .

وبعد وفاة عياض بن غنم فاتح الرقة وولي الجزيرة ، ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن خديم سنة ٢٠ هـ فبنى بها جامعاً من الحجر ، استعمل في بنائه أنقاض الرخام القديم في المدينة القديمة التي كانت شرقي الرافقة والتي ضاعت معالمها منذ ربع قرن وهي الرقة البيضاء المذكورة في الكتب التاريخية والجغرافية القديمة . ويعين المقدسي بكتابه (أحسن التقاسيم) جامعها في محلة البزازين ويقول انه كان فيه شجرتا عنب وشجرتا توت وبالقرب مسجد معلق على عامود . انفرد المقدسي بذكر هذا المسجد ، ويبدو انه هو دير العواميد الذي ذكرته المصادر السريانية واحترق سنة ١٩٧ هـ أثناء ثورة نصر بن شث بعهد المأمون .

ولم يلبث سعيد بن عامر إلا قليلاً حتى مات . فولى عمر بن الخطاب على الرقة عمير بن سعيد الأنصاري ، ففتح عين الورد (رأس العين) بعد قتال شديد وقيل أن عياض هو الذي وجه عمير بن سعيد إلى عين الورد .

لا نعرف سبب تسمية العرب للمدينة بالرقعة البيضاء منذ الفتح الاسلامي كما جاء في أبيات سهيل بن عدي الذي سجل بها فتح الرقة ومر ذكرها. ومن المؤكد ان العرب عرفوها بهذا الاسم الرقيق اللطيف قبل الفتح. والعرب يستقلون أسماء المدن الرومانية القديمة فيحورونها ويختصرونها، كما فعلوا في اسم مدينة بار باليوس، فأسموها بالس بكل اختصار. وقد يسمون المدينة الأعجمية بأحدى صفاتها. أما البيضاء فقد تكون للون جدران بيوتها الخارجي، ولعلها كانت تطلّى بالكلس أو الجص الأبيض، كما هو شأن بيوت مدن الجزيرة. أما تخريجات ياقوت الحموي في معجم البلدان من انها (كل أرض إلى جانب واد ينسبط عليها الماء وجمعها رفاق. وان الرقاق الأرض اللينة.) فلست أراها مقبولة.

وكانت الرقة منذ أن فتحها العرب عدة رقات متقاربة، هي الرقة البيضاء وهي أكبرها والمقصودة بهذه الرسالة. والرقعة السوداء على فرسخ منها إلى الشرق وتسمى الرقة المحترقة والرقعة المعوجة، وتوجد محلها اليوم قرية رقة سمرا على ضفة الفرات الشرقية.

وقد ذكر الشاعر الأموي عبيد الله بن قيس الرقيات الذي كان ينزل الرقة في سنة ٧٠هـ الرقتين في بيت له من قصيدة يمدح بها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

ذكرتك ان فاض الفرات بأرضنا وجاش بأعلى الرقتين بحارها وعلى الضفة الغربية مقابل الرقة توجد رقة واسط بناها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك المتوفي سنة ١٢٥هـ والذي أقام بالخلافة تسع عشرة سنة. واستحدث فيها قصرين كان ينزلهما في طريقه إلى مدينة الرصافة قادماً من الجزيرة الفراتية. وقد يكون لرقعة واسط وجود قديم، ونسبت إلى هشام لأنه كان ينزلها أو لمجرد انه بني فيها قصرين. كما نسبت إليه الرصافة التي سميت باسمه رصافة هشام مع تقدم وجودها في الزمن. وكان ينزلها.

وفي الشاهنامه ملحمة أبي القاسم الفردوسي الشاعر الفارسي والتي ترجمها الفتح بن علي البنداري ونشرها الدكتور عبد الوهاب عزام ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ رواية طويلة تحكى هروب كسرى برويز (٥٩٠ م - ٦٢٨ م) من المدائن وسيره على ضفة الفرات الشرقية متوجهاً نحو الحدود الرومانية قاصداً قيصر ليلتجىء عنده، وانه وصل مدينة وريغ . فاستقبله رسول قيصر مرحباً به ثم سار إلى الرها . ويظهر مما في الترجمة الفارسية لتاريخ الطبري ان وريغ هي الرقة . وقد تكون وريغ هي التسمية الفارسية للمدينة فقد كان الفرس يستولون على المدينة . ولعل لفظة الرقة التي عرفها العرب قبل الفتح مأخوذة من وريغ أو وريق الفارسية .

الخليفة الرابع علي بن أبي طالب في الرقة :

اتصل ذكر الرقة بالأحداث الاسلامية منذ العصور الأولى للإسلام ولقد صاحبت بصورة خاصة أحداثاً عسكرية طوال الأزمنة الاسلامية ، لقرها من بلاد الروم ومتاخمتها لحدود الشام وتوالي نشوء الدول الاسلامية ، لقرها من بلاد الروم ومتاخمتها لحدود الشام وتوالي نشوء الدول الاسلامية والعربية وبسبب طمع القواد والأمراء والطامعين بموقعها وخيراتها .

هذا هو الخليفة الرابع علي بن أبي طالب بعد انتصاره على خصومه بموقعة الجمل في البصرة ، اعتبر معاوية بن أبي سفيان والي الشام بعد مفاوضات منشقاً متمرداً على حكمه ، فأراد أن يحاربه ويخضعه وينتزع منه الشام ليضمها إلى بلاد خلافته . وكانت الرقة بحكم انها جزء من بلاد الشام تحت نفوذ معاوية ابن أبي سفيان . وكانت مشايعة للخليفة المقتول عثمان . نزها كثير من وجهاء العراق كزفر بن الحارث الكلابي والجحاف بن حكيم ، وعبد الله بن الحر ومالك بن مسمع ، هجروا البصرة بعد وقعة الجمل ونزلوا الرقة لأنهم لا يريدون أن يقيموا في بلد يشتم فيه عثمان ، ولأنهم كانوا من خصوم علي فأثروا في أهلها ونشروا فيها «العثنانية» وكان أميرها قبل قدوم علي ، سهاك بن مخزومة الأسدي في طاعة معاوية ،

وكان قد فارق علياً في نحو مائة رجل من بني أسد ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق بهم منهم سبعمائة رجل فكان الأمر في الرقة إلى شيعة معاوية . سار علي إلى الشام من الكوفة بطريق الجزيرة الفراتية وأتى إلى قرقيسيا على الخابور سنة ٣٦هـ = ٦٥٧م وفي طريقه إلى الرقة أتاه وفد من بني تغلب فصالحوه على أن يقرهم على دينهم ، وكانوا نصارى قبل منهم الخليفة عمر أن يدفعوا الجزية وأن تعتبر زكاة . وأسلم بعضهم . ولما دخل علي بلاد تغلب في الجزيرة الفراتية استقبلته مسلمة لهم كثيرة فسرباً رأى من ذلك . ثم سار حتى أتى الرقة . ونزل بمكان على البليخ على جانب الفرات وعلي يعلم أن جل أهل الرقة مشايعة لعثمان ومواليه لمعاوية فروا إليها من الكوفة فضلاً عما فيها من أبناء الشام من قبل وانها جزء من الشام . فطلب علي من أهلها أن يجسروا له جسراً على الفرات من السفن لكي يعبر من هذا المكان إلى الشام فأبوا ، وقد كانوا ضموا السفن عندهم ، ولم يشأ علي أن يستعمل القوة معهم ويبطش بهم وأثر أن يتجاوزهم ، ونهض من عندهم ليعبر على جسر منبج ، وخلف الاشترا النخعي مدير شرطته على مؤخرته فعز عليه موقف أهل الرقة من الخليفة علي بن أبي طالب . فنادى أهل الرقة قائلاً : يا أهل هذا الحصن اني اقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لا جردن فيكم السيف ولأقتلن مقاتلتكم ولاخربن أرضكم ولاخذن أموالكم فلقي بعضهم بعضاً فقالوا ان الأشر يفي بما يقول ، وان عليا خلفه علينا ليأتينا منه الشر ، فبعثوا اليه : إنا ناصبون لكم جسراً فأقبلوا . فأرسل الاشترا إلى علي فجاء ونصبوا له الجسر فعبر ثم أمر الأشر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر . وان الخيل ازدحمت حين عبرت ، وزحم بعضها بعضاً وهي تعبر ، وبعد أن عبر علي الفرات بجيشه من الرقة التقى بمعاوية وجيشه في سهل صفين (مقابل الرقة بين قرية العكيرشي وقرية الحجام) حيث جرت وقعات صفين واستمرت ١١٠ يوماً . سميت جميع وقعات صفين بموقعة صفين . أرخ لها نصر بن مزاحم المنقري المتوفي سنة ٢١٢ بكتابه (وقعة صفين) حققه ونشره عبد

السلام محمد هارون طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ. وكانت أعظم تلك الوقعات ليلة الهزير في ٢٨ تموز سنة ٦٥٧ م حمل فيها الاشر النخعي فزعزع جيوش الشام عن مراكزها، وكانت الفتتان قد ملت القتال وكرهه الكثيرون في المعسكرين وخاصة القراء، وإذا بالمصاحف ترفع على رؤوس الرماح في جيش معاوية، فلا يقرها علي وترتفع الأصوات في معسكره بوقف القتال والنزول على حكم القرآن فيذعن علي بتهديد رؤساء جيشه له ويسقط بيده، ويقر التحكيم، ويوقف القتال ويعتبر وقف القتال نصراً حاسماً لمعاوية وقرار ملكه وأساساً لاقامة الدولة الأموية. ومن وقعة صفين نبدأ نلاحظ الدور العظيم الذي قامت به بلدان وادي الفرات السوري في الأحداث الإسلامية والتاريخ الاسلامي والعربي. فمن فتح الرقة إلى وقعة صفين إلى قدوم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى قرقيسيا على الفرات ومصالحته أميرها زفر بن الحارث الكلابي ومسيره منها إلى العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير، وإلى اتخاذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقراً له ثانياً بعد دمشق. واتخاذ الخليفة الأموي مروان بن محمد حران مقراً له واتخاذ الرشيد الرقة مقراً له. واتخاذ البساسيري مدينة الرحبة «الميادين» قاعدة انطلاق لاحتلال العراق واستيلائه على بغداد فعلاً في سنة ٤٥٠ للهجرة.

الرقة في العهد الأموي :

يبدأ العهد الأموي من اليوم الذي ببيع فيه معاوية بن أبي سفيان في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١ هـ وينتهي بمقتل مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢ هـ لثلاث بقين من ذي الحجة، وهو ٩١ سنة وتسعة أشهر.

ترجع علاقة الرقة بالأمويين إلى أيام ولاية معاوية على الشام فقد ولاه إياها الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي ببيع في سنة ٢٤ هـ = ٦٤٤ م وقتل في سنة ٣٥ هـ = ٦٥٦ م. وكان عمر بن الخطاب ولي معاوية على دمشق. وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاية أمصارها تحت أمره. وكانت لمعاوية وهو وال

على الشام غزوات مع الروم فبلغ عمورية، وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى قاليقيا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس وكان معاوية قد بويع بالخلافة سنة ٤١هـ وتوفي سنة ٦٠هـ = ٦٨٠ م.

عني الأمويون بالرقّة واتصل تاريخهم بها كل مدة عهدهم في الشرق. فقد كانت محطتهم إلى أرمينية التي اهتموا بها اهتماماً زائداً، وكان منهم بعض ولائها. وكانت الرقة محطتهم إلى غزو حدود الروم فكانت الرقة تمون جيوشهم إلى أرمينية وحدود الروم. وكانت تشرف على القبائل العربية في الجزيرة الفراتية والتي كانت مركزاً من مراكز الخوارج منذ تاريخ خروجهم على عليّ في صفين. وكانت تشرف على الجزيرة الفراتية كلها التي كانت درعاً للشام، وقاعدة لانطلاق الجيوش إلى الشمال والشرق فنرى الخليفة الأموي مروان بن الحكم في سنة ٦٥ للهجرة قد جهز جيشاً في ثلاثين ألفاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لغرضين الأول محاربة زفر بن الحارث الكلابي الذي كان فر من موقعه من مرج راهط والتجأ إلى قرقيسيا على الخابور (البصرة اليوم) مع قومه قيس أعداء الأمويين وأنصار ابن الزبير والثاني لمحاربة التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي. ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذاك الجرم إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته. وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صدر الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا من الكوفة، وساروا بطريق الجزيرة الفراتية، فانتهاوا إلى قرقيسيا وبها زفر بن الحارث الكلابي فأخرج اليهم الانزال وساروا من قرقيسيا ليسبقوا إلى عين الورد (رأس العين) ليقصدوا منها الشام لينتقموا من أهلها ومن الأمويين الذين قتلوا الحسين وكان عبيد الله بن زياد قائد مروان بن الحكم قد توجه من الشام إلى حرمهم في ثلاثين ألفاً ووصل الرقة وانفصل على مقدمة من الرقة خمسة أمراء، منهم الحصين بن نمير السلولي وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري، وأدهم بن

محرز الباهلي وربيعة بن المخرق الفنوي ، وجبله بن عبد الله الختيمي حتى إذا صاروا إلى عين الوردية وقعت موقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه . ولما كان عبيد الله بالجزيرة بطريقه إلى عين الوردية بلغه موت مروان بن الحكم . وأتاه كتاب عبد الملك بن مروان بن الحكم يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق لمحاربة مصعب . وقيل إن موقعة عين الوردية كانت في سنة ست وستين .

كان عدة أمراء من الأمويين يغزون الحدود البيزنطية منطلقين من الرقة التي كانت تمون جيوشهم ومن هؤلاء عبد الله بن عبد الملك غزا حدود الروم سنة ٨٣هـ وأسكن جنداً من الجزيرة في ملطية وطرنندة ومنهم أخوه مسلمة بن عبد الملك غزا حدود الروم مراراً . وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة ٩٩هـ ومات سنة ١٠١هـ مؤنت الرقة جيش مسلمة بن عبد الملك في طريقه لمحاربة الخوارج الحرورية في العراق . وكان ولاية الجزيرة ينزلون الرقة .

عين الأمويين على الرقة الولاية - وصار كثير من رجال بني أمية ينزلون فيها . وكان لبعضهم قصور في ضواحيها ، ومزارع على البليخ وفي نواحي أخرى ، وكانت عامرة مزدهرة في عهدهم ، ونزلها بعض الصحابة وبعض التابعين وكثير من المحدثين . فكانت حركة الحديث في الرقة ناشطة لهذا السبب ، يضاف إلى هذا السبب سبب آخر هو ملائمة بيئة الرقة لحياة العلماء والفقهاء والأدباء بسبب وفرة خيراتها ورخص أسعارها وطيب مناخها ، وأخذ الطابع العربي يغلب عليها لكثرة من نزل فيها من العرب في ذلك العهد . بالإضافة إلى من كان فيها من العرب وفي ضواحيها وسهولها .

فمن نزلها من التابعين زفر بن الحارث الكلابي . جاء عنه في تاريخ ابن عساکر ج ٤ ص ٣٧٦ : « زفر بن الحارث بن معاوية ، واسمه خويلد بن نفيل ينتهي نسبه إلى هوازن الكلابي سمع الحديث من عائشة أم المؤمنين ومن معاوية ، وروى عنه ثابت بن الحجاج ، وسكن البصرة وانتقل إلى الشام ، وكان في جيش

البصرة الذي خرج لاغاثة عثمان بن عفان لما كان في الحصر، وشهد وقعة صفين، فلما قدم على عائشة قالت له: من قتل من الناس؟ فقال: عمار بن ياسر. فقالت ذاك الرجل يتبعه الناس في دينه، ثم قالت ومن؟ فقال لها: هاشم الأعمور، فقالت ذاك الرجل ما كادت أن ترد رايته. أهـ. » وزفر من التابعين.

وبجانب دير زكي كان يوجد تل سمي تل زفر بن الحارث الكلبي، لأن زفر نزل عليه. وكانت عنده ضيعة يقال لها الصالحية، اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي.

وكان زفر والياً على قنسرين لابن الزبير واشترك بموقعة مرج راهط الذي انتصر فيها مروان بن الحكم على أنصار ابن الزبير. وفر زفر إلى قرقيسيا واعتصم بها مع رهطه، وكان سيدها وشاعراً جزل الألفاظ متين النسج، صالحه عبد الملك بن مروان في قرقيسيا ليتفرغ لمحاربة مصعب في العراق.

ومن نزل الرقة الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد الشمس ويكنى أبا وهب وأمه أروى بنت كرز من عبد شمس وهي أم عثمان بن عفان. عينه الخليفة عمر بن الخطاب على عرب الجزيرة عاملاً وهو من فتيان قريش وشعرائها وشجعانها وأجوادها. وكان عثمان جعله والياً على الكوفة. ولكنه كان مدمناً لشرب الخمر، فجلده عثمان، ثم عزله، وصار إلى الرقة، معتزلاً لا لعل لا معاوية. ولكنه في خلافة معاوية كان يذهب إلى دمشق يطلب رفد معاوية. وكانت للوليد عين الرومية من أراضي الرقة وهي اليوم عين عيسى على بعد ٤٠ كم شمال الرقة، ومياهها غزيرة تسقى نحو ٩٠ هكتاراً أعطاها إلى صديقه الشاعر أبي زيد الطائي ثم آلت فيما بعد للرشيد وورثته كما أفاد ياقوت الحموي. والوليد بن عقبة من الصحابة.

كان أبو زيد الطائي الشاعر من أهل الرقة ينادم الوليد عندما كان والياً على الكوفة. ولما عزل وصار إلى الرقة لحق به أبو زيد. ولم يزل ينادمه في الرقة. وكان

الوليد يجل أبا زبيد ولا يقدم عليه أحداً . ولأبي زبيد في مدح الوليد بن عقبة شعر كثير لاحسانه اليه . منه :

ان الوليد له عندي وحق له ود الخليل ونصح غير مذخور
لقد رعاني وأدناي وأظهرني على الأعادي بنصر غير تقدير
فشذب القوم عني غير مكترث حتى تناءوا على رغم وتصغير
نفسي فداء أبي وهب وقل له يا أم عمر فحلي اليوم أوسيري
وفي الأغاني : أوصى الوليد بن عقبة أن يدفن على البليخ إلى جانب أبي زبيد الشاعر النصراني المعمر .

وذكر القشيري ان الوليد « مات في ضيعة له في السبخة وقبره بها » والسبخة هي السبخة الحالية على طريق دير الزور - حلب شرقي الرقة تبعد عنها ٤٠ كم ومن قراها .

الشاعر أبو زبيد الطائي :

لهذا الشاعر العربي المولد بالرقعة والمتوفى فيها أهمية خاصة لفهم صلة العرب بالرقعة قبل فتحهم لها ولادراك تاريخ الأدب العربي في الرقة والجزيرة الفراتية . فهو أول شاعر عربي من أبناء الرقة يطالعنا في صدر الاسلام ويطالعنا منه اتصاله بالبيئات العربية . اتصل بالخليفة عثمان بن عفان بالمدينة في الحجاز وبالخليفة معاوية بن أبي سفيان بدمشق وبالوليد ابن عقبة أمير الكوفة . وأبو زبيد نصراني لم ير في اقتحام هذه البيئات أية صعوبة ولم يرها غريبة عليه ، وإنما كان يرى فيها بيئة ، يفهمها وتفهمه يحبها وتقدره ولذا اعترفت بموهبته وأدبه وقربته وعاش في هذه البيئات وفي مدينة الرقة مكرماً كل عمره المديد .

واعترف تاريخ الأدب العربي بقيمته فروى أخباره ، وأسلكه بين أدباء العربية .

وهو حرمة بين المنذر بن معدي كرب من قبيلة طي الراقية إلى زيد بن

كهلان من عرب اليمن شاعر أدرك الجاهلية والاسلام فعد في المخضرمين . كان نصرانياً وعلى دينه مات ، كان مقامه بالرقعة وبها مات . كان أخواله بني تغلب وكان يقيم فيهم أكثر أيامه . وكان من زوار الملوك . وكان عالماً بسيرها . أتى النعمان بن المنذر ملك الحيرة وجالسه ونال صلته .

كان عثمان بن عفان يدني مجلسه لمعرفته بسير الملوك الأعاجم . ومما اشتهر به أبو زبيد وصفه للأسد ، قيل انه لقيه في بعض أسفاره بالنجف . أنشد عثمان قصيدته العينية التي يصف بها الأسد ، وأخذ يصفه نثراً . وكان عند عثمان المهاجرون والأنصار . فقال له : اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين .

وأنشد معاوية وابنه يزيد شعره ونال جوائزهما . وكان ينادم الوليد بن عقبة أيام ولايته في الكوفة وفي الرقة بعد أن عزل وله في الوليد عدة مدائح وكان الوليد يحمله ويجزل له العطاء .

مات أبو زبيد فجأة ودفن على نهر البليخ قرب الرقة ، وجد عليه الوليد وجداً شديداً . ولما حضرت الوفاة الوليد أوصى أن يدفن إلى جانب أبي زبيد . وهو ممن يحتج أهل اللغة بكلامه لفصاحته . جعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الشعراء الاسلاميين . واختار له البحري أبياتاً كثيرة في حماسه . وهو جزل اللفظ بدوي الطبع .

ان شخصية مثل شخصية أبي زبيد وشاعرية عربية متمكنة مثل شاعرية ابي زبيد لا تتكون وتنمو وتقوى إلا في وسط عربي ذي جذور ممتدة في تاريخ الوسط الذي نشأ فيه : وسط الرقة .

ومما لا شك فيه أن وسط أبي زبيد في الرقة أو في منطقتها كان وسطاً عربياً عريقاً له أدبه العربي الذي نشأ فيه وصاحبه . إلى جانب ما عرفت الرقة من أوساط : الوسط السرياني والوسط اليوناني والوسط الفارسي والوسط البيزنطي .

الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

ابن شريح بن مالك بن ربيعة . قريشي ولد في المدينة أو مكة في السنة الرابعة عشرة للهجرة وتوفي سنة ٧٥ . عاش في مرحلة من أعظم مراحل التاريخ للأمة العربية واحفلها بالحوادث . من شعراء السياسة والغزل المشهورين . وغلب عليه لقب الرقيات لأنه كان يشبب برقية وسلمة ابنتي عبد الواحد بن أبي سعد . أقام مدة في الجزيرة الفراتية ونزل الرقة ، وكان فيها حين وقعت وقعة الحرة في المدينة بالحجاز لليلتين من ذي الحجة سنة ٦٣هـ حيث اقتتل أهل المدينة الذين كانوا خلعوا ابن معاوية ، وجيش يزيد الذي يقوده مسلم بن عقبة المري . فانهمز أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثاً لجنده يقتلون ويأخذون المتاع . وقتل في الحرة نفر من أهل الشاعر فرثاهم وبكاهم بقصيدة محزنة ، ونقم على بني أمية ، ووالى بني الزبير ، ولزم مصعب بن الزبير ، وقال فيه مدائح ومراثي سنية .

وبعد زوال دولة بني الزبير استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب عند عبد الملك بن مروان فأمنه فقال وهو بالرقة يخاطب عبد الله بن جعفر ويمدحه من قصيدة :

أتيانك ثني بالذي أنت أهله	عليك كما أثنى على الروض جارها
تقدت بني الشهباء نحو ابن جعفر	سواء عليها ليلها ونهارها
تزور فتى قد يعلم الله أنه	تجود له كف بعيد غرارها
ذكرتك ان فاض الفرات بأرضنا	وجاش بأعلى الرقتين بحارها
وعندي مما خول الله هجمة	عطائك منها شولها وعشارها
مباركة كانت عطاء مبارك	تمانح كبرها وتتمي صغارها
ومدح عبد العزيز بن مروان بقصيدة جاء فيها :	
لم يصح هذا الفؤاد من طربه	وميله في الهوى وفي لعبه

اهلاً وسهلاً بمن أتاك من الرقة يسري اليك في سخبه
والسخاب : ضرب من الثياب ومن الحلي جميعا
وجاء اسم الرقة والبليخ وأماكن أخرى من الجزيرة الفراتية في شعره ومن
ذلك قوله :

أقفرت الرقتان فالقلس فهو كأن لم يكن به أنس
فالدير أقوى إلى البليخ كما أقوت محارب أمة درسوا
أمسى بحوماتها العدو وفي أعلى أعالي حصونها حرس

حصن مسلمة بن عبد الملك :

ومن كان لهم من الأمويين قصور وحصون في ضواحي الرقة وعلى البليخ
مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، عظيم بني أمية . واحد أربعة قواد
عظام اشتهروا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة سنة ٨٦
هـ = ٧٠٥ م وتوفي سنة ٩٦ هـ = ٧١٥ م وهؤلاء القواد هم : محمد بن القاسم
الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي وموسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك كان لهم
أجل الأثر في الفتح الاسلامي .

وأما مسلمة فان عزيمته ظهرت في حروب الروم ، فكان في كل سنة يسير
اليهم الجنود ، فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم ، لحفظ
بلادهم ، وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك .

توفي مسلمة بموضع يقال له الحانوت في سنة احدى وعشرين ومائة .
وكانت له دار في دمشق عند الجامع الأموي . وكان قد حاصر القسطنطينة سنة ٩٨
هـ يقول ياقوت في معجم البلدان : « حصن مسلمة بالجزيرة بين رأس العين والرقة
بناه مسلمة بن عبد الملك بن مروان بينه وبين البليخ ميل ونصف وشرب أهله من
مصنع فيه طوله مائتا ذراع في عرض مثله ، وعمقه نحو عشرين ذراعاً معقوداً
بالحجارة ، وكان مسلمة قد أصلحه ، والماء يجري فيه من البليخ في نهر مفرد في كل

سنة ومرة، حتى يمتلىء فيكفي أهله عامهم ويسقي هذا النهر بساتين مسلمة، وفوخته من البليخ على خمسة أميال، وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على طريق القاصد للرقعة من حران».

وكان حصن مسلمة فيما يظهر قرية فيها برج شاهق لمسلمة كان يستريح فيه بطريق ذهابه إلى حدود الروم وبطريق عودته منها هو وجيشه الذي كان يسير من الرقة. وروى القشيري عن عدة أشخاص من أهل حصن مسلمة.

وروى أحمد بن يوسف الكاتب المتوفي سنة ٣٤٠ بكتاب المكافأة ما يلي: «أقام أبو عبد الله محمد ابن علي - أبو الخلفاء العباسيين برصافة هشام ثلاثة أشهر، لا يأذن له هشام عليه. إلى أن بلغ أبا عبد الله اجماع مسلمة القدوم على هشام، فتلقاه على أميال من الرصافة. وشكا اليه جفوة هشام، وتأخيره الاذن عليه. فقال له مسلمة: أرجو أن يزول هذا بقدمي، وأمره أن يقيم بباب هشام إذا دخل عليه مسلمة. ولا يريم ما أقام مسلمة عنده: فأقام أبو عبد الله إلى زوال الشمس، فخرج مسلمة اليه، فقال له: قوض رحالك أبا عبد الله فمالك عند الرجل من خير لأنني خاطبته في أمرك - بعدما تقضي سلامي عليه ثم عانق مسلمة أبا عبد الله، وقال: رسولي اليك صائر، فرجع أبو عبد الله إلى رحله فقوضه وبقي في حيرة لعجزه عما ينهضه، ووافاه رسول مسلمة يقول: «لم أقدر في سفري هذا طول اللبث وأشهد الله أني ما حلت معي إلا ألفاً وثلاثمائة دينار، وقد وجهت اليك بالآلف وخلفت الثلاثمائة لنفقتي».

فحدث بهذا الحديث الرشيد في حديثه الموصل، فبكى وقال: «وصلت أبا سعيد «كنية مسلمة رحم، والله لا دخلت الرقة حتى أقضي عارفته عندنا» فلما وافى حصن مسلمة، أحصى من فيه من ولده الذكور والإناث فوجد أربعين، فأمر بأربعين الف دينار». اهـ.

وقد تهدم حصن مسلمة ويبعد عن البليخ ٦ كم. كان يجري اليه الماء من البليخ ويسمى أهالي قرية التركمان المجاورين للحصن مكانه اليوم «مدينة الغار».

آثار الخليفة هشام بن عبد الملك في الرقة :

هشام بن عبد الملك بن مروان عاش الخلفاء الأمويين ولد سنة ٩٢ هـ بوبع بالخلافة في ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ وتوفي ٦ ربيع الأول ١٢٥ هـ فكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوماً .
كان مشهوراً بالحلم والعفة

قال القائد العباسي عبد الله بن علي الذي انتصر على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق سنة ١٣٢ هـ : « جمعت دواوين بني أمية فلم أُرديواناً أصح ولا أصلح للعامة السلطان من ديوان هشام » والمراد بالديوان هنا هو ميزانية الدولة التي تعرف بها وارداتها ونفقاتها . وصلاح الميزانية من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض . ولعل نظمه للميزانية هو الذي جعل الناس يصمونهم بوصمة البخل ، وكان ادارياً حازماً ، يعمر الأرض ويجمع الأموال . وكان يستجيد الكسي والفراس وعدد الحرب ولأمتها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة غير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي الوالي العباسي في صدر الدولة العباسية .

عني هشام بالرقة فوصلها بمجموعة من الحصون والقصور لتأمين الأمن ولتكون محطات لراحته وراحة حاشيته في تنقله بين الشام والجزيرة والحدود البيزنطية التي كان يغزوها بنفسه ، وعني بزراعة الرقة . ويري أراضيها ، بها فجّر من الترع من نهر الفرات لسقي الأراضي . وتوفير الغلات لتأمين حاجة جيوشه إلى الغذاء ولتأمين قوت سكان المنطقة . بنى في الجانِب الغربي من الفرات مقابل الرقة ، في مكان يسمى رقة واسط أسفل من الرقة بفرسخ على طريق الرصافة قصرين كان ينزلهما عندما يأتي من الرقة في طريقه إلى الرصافة جنوبي الرقة . كانت رقة واسط ضاحية تحيط بها قناتان هما المري والمهني فجّرهما هشام من الفرات . وقد كانتا تسقيان بساتين وأشجاراً مثمرة كثير متنوعة . وإلى مدة قريبة

كانت تبدو آثار المهني والمري في الفضاء الممتد بين نقطة المقص على الطريق العام بين دير الزور وحلب وبين الطرف الغربي لجسر الرقة على الفرات .

وقد سجل الشاعر الأموي جرير عناية هشام بالري وبالأعمال الزراعية بعدة قصائد يمدح بها هشاماً وهو مقيم في الرصافة جاء في احداها :

شققت من الفرات مباركات	جواني قد بلغن كما تريد
بها الزيتون في غلل ومالت	عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في المهني جنان دنيا	فقال الحاسدون هي الخلود
يعضون الأنامل ان رأوها	بساتيناً يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل	يكون بحمله طلع نضيد

وجاء في ثانية :

ملكوا البلاد فسخرت أنهارها	في غير مظلمة ولا تبع الربا
أوتيت من جذب الفرات جواريا	فيها الهني وسابح في قرقرى

أحدث هشام في الرقة كثيراً من الإصلاحات والانشاءات ، واستزاد في أسواقها ، وبنى فيها سوقها الأكبر الذي سمي بسوق العطارين .

وقد أشار الشاعر الأموي الكبير الأخطل إلى كثرة العطارين في زمانه بسوق الرقة بقوله :

إذا الرقة البيضاء لاحت بروجها	فدى كل عطار بها أم مريم

وقد أصبحت لهذه السوق في العصر العباسي أهمية كبرى وصارت تسمى سوق هشام العتيق .

وكان من أسواقها في العهد الأموي سوق تسمى سوق الأحد ذكرها القشيري . ولربط الشام بالجزيرة وتسهيلاً لمرور الجيوش بينهما بنى هشام جسراً على الفرات عند الرقة من السفن . وكان هشام يستجيد الخيل ولا يفتقر عن بعث روح الفروسية في العرب . فكان يقيم من حين لآخر الحلبة (مسابقات الخيل)

ويقتني كرائم الخيل ، وأقام مرة الحلبة في الرقة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس . ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس .

الزهري محدث الشام والجزيرة الفراتية :

هو أبو سليمان وقيل أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب بن زهرة القرشي . أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين ، رأى عشرة من الصحابة جمع نحو ألفي حديث عنهم ، وعن الكثير من كبار وصغار من رجال ونساء من أشراف وموالي . قيل انه أول من دون الحديث ، كان مشهوراً عند الجميع في التقدم والعلم بالسنة . وكان إذا قعد في بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل أمر من أمور الدنيا . وكان يشرب العسل ويقول انه يورث الذكاء .

ولد سنة ٥٣ للهجرة في الحجاز « ٦٧٠م » وسكن الشام وحدث برصافة الشام أي رصافة هشام بن عبد الملك وأقام فيها عشرين سنة في زمن هشام وحمل الشاميون والجزيريون عن الزهري برصافة هشام ، وكان علمه بدواوين بني أمية . ومشهور عنه أنه كان من مذهب الإمام ، وذكروا أن الزهري لما قدم الرصافة واليا على الرقة حدث عنه من أهلها جعفر بن برقان وآخرون . هو معروف بابن شهاب ، توفي سنة ١٢٤ هـ وعمره ٧٢ سنة (٧٤١م) .

بعض من نزل الرقة من الصحابة والتابعين :

١ - وابصة بن معبد الأسدي . سكن الكوفة ، ثم تحول عنها فأقام بالرقة إلى أن توفي فيها . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث ، وقبره معروف بالرقة في وسط الجامع المتهدم في الرقة القديمة يزوره الناس .

٢ - ومن التابعين يزيد بن الأدهم أبو عوف سكن الرقة ، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي . كان ثقة كثير الحديث .

٣ - ومن التابعين سالم بن وابصة بن معبد الأسدي الرقي .
كان من أهل الحديث . وكان يخطب بالرقعة على المنبر سكن الكوفة وولي
أمرة الرقة ثلاثين سنة . وكان امام مسجد الرقة ، وقاضي أهلها ، وكان رجلاً
حليماً ، مات في آخر خلافة هشام . وكان شاباً في خلافة عثمان . ولسالم بن وابصة
شعر جيد .

٤ - ميمون بن مهران أبو أيوب نزل الرقة ، كان كثير الحديث .
٥ - جعفر بن يرقان من رواة الحديث الموثوق بروايتهم توفي في الرقة سنة

١٥٤ .

بعض من نشأ في الرقة من الكتاب :

عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، وفي رواية أن جده من سبى القادسية ،
وكان له في بني أمية ولاء ينسب اليهم . وقيل انه من أهل الأنبار سكن الرقة
الكتاب البليغ يضرب به المثل بالبلاغة . أطلق عليه ابن عبد ربه : اسم عبد
الحميد الأكبر ، وعده ممن نبه بالكتابة ، تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى
هشام بن عبد الملك وكاتبه في الرصافة . وكان سالم زوج اخت عبد الحميد . وسالم
هذا أحد الفصحاء البلغاء . قال ابن هلال العسكري ان عبد الحميد كان يحسن
الفارسية وبأدب هذه اللغة تأدب والف تطويل الرسائل واختصارها بحسب
الحال .

كتب عبد الحميد قليلاً عن هشام بن عبد الملك في الرصافة . وقيل كان
معلماً للصبيان في الكوفة ثم انتقل إلى الرقة يعلم الصبيان .

جاء في كتاب الوزراء والكتاب للجهمي : « كان أهل وأقارب عبد
الحميد الكاتب ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء » اهـ . فهو شامي
جزري . وتوجد اليوم شرقي الرقة على شاطئ الفرات عدة قرى . تدعى كل منها

حراً باضافة ميزة هي : حمرا بلاسم ، حمرا جماسة ، حمرا غنام ، حمرا بواقه حمرا ناصر تسكنها عشيرة العفادلة من عشائر الرقة .

اتصل عبد الحميد بمروان بن محمد وهو وال على ارمينية ، فكتب عنه وحظي عنده ، ولعل مكان اتصاله بمروان كان بالرقة . وكتب عن مروان بن محمد وهو خليفة في حران ولازمه إلى أن انهزم مروان إلى مصر وقتل فيها سنة ١٣٢ . جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة شرعها للكتاب . تعد رسائله من الأدب الفراتي .

وفي آخر العهد الأموي مشى على الرقة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصفري غلب على العراق ، ولم يغلب أحد من الخوارج قبله ولا بعده عليها . وسار للقضاء مروان بن محمد في جيوش عظيمة ومعه سليمان بن هشام ابن عبد الملك في جمع مواليه ورجاله سنة ١٢٨ ، فأرسل مروان بن محمد عسكرياً لمحاربته . فالتقى العسكران بكفرتوتا من بلاد الجزيرة وأقاموا أياماً يقتتلون إلى أن قتل الضحاك ، وتفرق الخوارج ورحلوا عن الرقة ، ولكن بعد أن تضررت بهذا القتال بسبب وصول فرق من جيش الضحاك اليهما . ولما استمرت الهزيمة بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق أقام عبد الله بن علي القائد العباسي بالرقة . وأنفذ أخاه عبد الصمد في طلب مروان الذي سار إلى دمشق ومنها إلى مصر ، وفيها قبض عليه وقطع رأسه وأرسل إلى عبد الله بن علي في الرقة . وأرسله عبد الله بن علي بدوره إلى أبي العباس السفاح في العراق أول الخلفاء العباسيين . وعندما ألقى أمامه تمثل في هذا البيت .

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيبظ ترويني

الرقة في العهد العباسي :

يبرز تاريخ الرقة في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي بتقديم الحضارة وانتشار الكتابة والتدوين وظهور المؤلفين ، فتتوافر فيه مادة صالحة للكتابة

والتاريخ . ولكنه مع ذلك غير واضح المعالم ولا متسلسل الحلقات وما تزال فيه ثغرات غامضة وحلقات مفقودة كثيرة وذلك بسبب كثرة ما نزل بالرقعة من الكوارث ، وما أصابها من النكبات بفعل الحروب والثورات والفتن ، وبسبب تخريب التتر لها تخريباً تاماً استمر قروناً ، وقد ضاعت بسبب مdahمة التتر للشرق العربي وتخريبه كثير من المصادر التي كان بإمكان المؤرخ أن يفيد منها في التاريخ للرقعة . وما بقي من المصادر متفرق في بطون الكتب . ولم يظهر إلى اليوم في العالم العربي كتاب في تاريخ الرقعة . على ما كان لها من الأهمية الكبرى في التاريخ السياسي العربي .

أعرض بنو العباس في بدء عهدهم عن الرقعة بعض الوقت فتأخرت هذه الأعراض وانحطت .

وكان أول حاكم عسكري للرقعة في العهد العباسي عبد الله بن علي العباس هازم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق . جاء بعد معركة الزاب الفاصلة متعقباً مروان بن محمد المنهزم وأقام بالرقعة . وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال هم أبو مسلم الخراساني بالمشرق ، وأبو جعفر المنصور في الجزيرة واربمينا والعراق وعبد الله بن علي بالشام ومصر ، فهؤلاء كانوا مؤسسي دولة أول الخلفاء العباسيين السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ببيع بالخلافة بالكوفة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ (٣٠ تشرين الأول سنة ٧٤٩) . وكان مروان بن محمد لا يزال حياً وقتل لثلاثة بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ (٥ آب سنة ٧٥٠) . ومن هذا اليوم يتبدى تاريخ خلافة أبي العباس الذي توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاثة عشر خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٨ حزيران سنة ٧٥٤) . فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر .

تبع عبد الله بن علي من كان بالشام من الأمويين من أولاد الخلفاء وغيرهم

فقتلهم وعمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحوا آثارهم وكذلك فعل بقية رجالات بني العباس بالبصرة وبمكة وبالمدينة .

وعبد الله بن علي كان يطمع في أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وأنه الذي قام بهزيمة مروان ، وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر فكانت مطامعه هذه سبباً في حوادث جسام وفي قتله بخلافة المنصور ، وهكذا كانت خاتمة حياة هذا البطل الذي اتصلت فترة من حياته بتاريخ الرقة .

الرقة في عهد المنصور :

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد علي ولد بالحميمة سنة ١٠١ هـ . ولما تولى أبو العباس الخلافة كان ساعده الأشد في تدبير الخلافة . وكان يلي الجزيرة واربينية والعراق . وكان من قبله على الرقة مقاتل بن حكيم ولما عصى العباس بن محمد السفياي في جهات منبج وجه أبو جعفر مقاتل بن حكيم من الرقة في خيل عظيمة لقتال السفياي فهزمه . وافتتح حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها إلى أبي جعفر وهو بحران وكانت من أعمال الرقة .

وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس . عقد لأخيه أبي جعفر المنصور ولاية العهد بوبيع بالحجاز سنة ١٣٦ هـ (حزيران ٧٥٤ م) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ١١٥٨ هـ ٨ تشرين الأول سنة ٧٧٥ م) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية .

تولى المنصور ولم تكن الخلافة قد توطدت دعائمها . وكان يخاف منافسة عمه عبد الله بن علي لما كان معه من جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة الذين أمر عليهم السفاح . وكان يخاف أبا مسلم الخراساني وخوفه من بني آل علي بن أبي طالب .

وكان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد المهمة الدهاء فضرب أعداؤه بعضهم

ببعض . فعزا الطائفة عمه صالح بن علي سنة ١٣٨ هـ . ولم تزل الصوائف تتوالى إلى سنة ١٥٥ هـ أدى فيها صاحب الروم الجزية .

كان المنصور أعظم رجل من العباسيين شدة وبأسا ويقظة وثباتاً ، شحن الثغور الأطراف وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه . ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته ينفق عن سعة . والمنصور هو الذي أسس مدينة بغداد . شرع في عمارتها سنة ١٤٥ هـ ونزلها سنة ١٤٩ هـ . وكان ينزل في الهاشمية انتقل منها إلى بغداد ، حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر مدينتهم وفخرهم . وجه المنصورى حشر الصناعات والفعلية من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط . وهي مدورة الشكل وجعل لها سورين وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة . وفي سنة ١٥١ بنى الرصافة (القسم الشرقي ن بغداد) للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء . ولما تم بناؤها حشد إليها المنصور العلماء من كل بلد وأقليم ، فأمرها الناس ولم تزل تتعظم . قال الخطيب البغدادي لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها .

ذكرت كل ذلك من حياة المنصور لأنه هو الذي أمر ببناء الرقة العربية على طراز خطة بغداد .

كان المنصور قد ولي الجزيرة ، وكان قد مر بمدينة الرقة فأعجبه موقعها وطيب هوائها وعدوية مائها وأقام فيها مدة وقدر أهميتها وتوسطها من مملكته وقربها من التخوم الشمالية حيث الخطر الرومي يتربص بالعرب المسلمين وكان قد بنى بغداد . وتمرس ببناء المدن وأراد أن يبني مدناً أخرى ، وكان يستحسن سياسة هشام بن عبد الملك وإدارته ، وإذا كان لم ينفذ فكرته إلا في أواخر خلافته قبل ثلاث سنوات من موته فلأن الاهتمام ببغداد والاحداث قد شغلته .

أرسل ابنه المهدي ولي عهده إلى الرقة سنة ١٥٥ هـ = ٧٧٢ م وأمره بأن يبني الرفافة على طراز بناء بغداد إلى جانب الرقة البيزنطية على ٣٠٠ ذراع إلى الشمال

الغربي . فبنيت أسوارها على هيئة أسوار بغداد، سور داخلي وسور خارجي بينهما فصيل، وحفر حول السور الخارجي خندقاً سمك السور الرئيسي ٥/٨ وعرض الفصيل ٢٠/٨٠ م وسمك السور الخارجي ٤/٥٠ م وعرض أعلى الخندق ١٥/٩٠ م وأسفله ٩/٥٠ م. وأساس السور من الحجر الكلسي . وشابهت بغداد في بيوتها وأبوابها وجعل للمدينة بابين الأول في الزاوية الجنوبية الشرقية، لا يزال ماثلاً ويسمى باب بغداد، حفظته مديرية الآثار بمسانيد حجرية . والثاني في الزاوية الجنوبية الغربية يسميه ياقوت باب الجنان، وكان البابان من الآجر، وكان بجانب كل منهما برج مستدير نصف قطره (٧/٨٠ م) لا يزال برج الباب الأول، وقد زال برج الباب الثاني وكان قد رآه الاستاذ هرتزفلد سنة ١٩٠٨ .

وكان لها باب ثالث في الجهة الشمالية يسمى باب أورفة .

يذكر الرحالة ابن حوقل الذي تجول في البلاد في سنة ٣٣١ هـ في كتابه (المسالك والممالك عندما يصف مدينة المهديّة بتونس «ولها بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملاً» .

وجاء في تاريخ أبي الفرج الملقب في السنة ٧٧٢ م: «شاد أبو جعفر مدينة بناحية الرقة دعاها الرافقة . ولم يشاهد أحد مثل أبوابها . ولما كنت أنا الحخير متولياً أبرشية حلب (في القرن الثالث عشر) نقلوا منها مصراعين ضخمين من الرصاص وركبوا على باب قنسرين، ومصراعين آخرين أصغر منها لم يتيسر لهم وضعهما، لأن المغول باغتوا المدينة وقوضوا أسوارها وحطموا أبوابها» .

يقدر الاستاذ كرزويل أبعاد الرافقة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب بنحو ١٥٠٠ متر ويقدر السيد نسيب صليبي المساعد الفني بمديرية الآثار السورية والذي يتولى أعمال التنقيب في الرقة مساحتها بـ ٥٠ كم مربع .

وبعد بناء المدينة أقر فيها المنصور جند خراسان، وعهد بإدارتها إلى ولي عهده ابنه المهدي، ورأى هذا أن يعزز النفوذ العباسي على حدود سورية الموالية

للأمويين خلفاء الأمس ، فعنى بالرافقة ولم يلبث البناء أن اتصل بينها وبين الرقة ، وكان المكان الذي انشئت عليه الرافقة يسمى الربض ، وهو المكان التي تربض فيه الغنم أي تقيم . وكان سوقاً لبيع الغنم ، ولكثير من المدن في الجزيرة وغيرها ربض خارج المدينة تتجمع فيه الغنم .

ولما ولي على الجزيرة علي بن سليمان في النصف الثاني للقرن الثاني الهجري أقام في الرافقة ونقل إليها أسواق الرقة وفيها سوق هشام ، وكان يعرف بسوق هشام العتيق وأثرت الرافقة في الرقة وهو ما كان يخشاه أهلها عندما عرفوا بعزم المنصور على بناء الرافقة فعارضوه في البدء ثم رضخوا .

واستصلحت الأراضي حول الرافقة واصبحت حدائق بساتين تجري فيها جداول المياه من الفرات والبلخ . وبعد أن تم المهدي الرافقة عاد إلى بغداد .

الرقة في عهد المهدي بن المنصور :

ولد المهدي سنة ١٢٦ بالحميمية من أرض الشراة . جاء إلى الجزيرة مع أبيه سنة ١٤٤ لمراقبة ثغورها وفي سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد . وفي سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة وأشرف على بنائها بنفسه حيث أقام في الرقة مدة ببيع بالخلافة سنة ١٥٨هـ = ٧٧٥م ومكث في خلافته إلى أن توفي سنة ١٦٩هـ = ٧٨٥م كانت مدته عشر سنين .

كانت خلافته مرفهة عن الناس لما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور . وفي أول ولايته أمر باطلاق كثيرين ممن كانوا في سجن المنصور . وكان يجلس للمظالم وبين يديه القضاة ، ويميل إلى السنة ومحب ألا يخالفها . وله أعمال عمرانية وعناية بالمجدوميين وأهل السجون في جميع أنحاء مملكته .

وكانت الصوائف من طرف المسلمين لا تبطل ، كما كانت الغارات من الروم لا تبطل . وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون أيضاً .

وكان والي الرقة في عهده علي بن سليمان الذي وجه يزيد بن بدر البطلان في سورية إلى الروم في سنة ١٦٨ لأنهم نقضوا الصلح وغدروا فردوا الروم وغنموا .

الرقة في عهد هارون الرشيد :

هارون الرشيد بن محمد المهدي ولد بالرى سنة ١٤٥هـ، ولما شب كان ابوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ . وفي سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الانبار إلى اطراف افريقية فكانت الولاة ترسل من قبله . وفي سنة ١٦٦ جعله أبوه ولي عهده بعد الهادي .

بوع الرشيد بالخلافة في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٤ أيلول سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة . ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادي الآخرة سنة ١٩٣/هـ (٢٤ آذار ٨٠٨/م) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة . وصلت الخلافة في عهد الرشيد إلى أفخم درجاتها صولة وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً وارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والادبية والمادية إلى أرقى درجاتها . وكان في عهده من كبار ممن تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة في الداخل والخارج . كما كان فيه من كبار العلماء والأدباء . ساعد على هذا الرقي أخلاق الرشيد وبذله حتى ازدهرت الحضارة العربية . وكانت حضارة الرقة جزءاً من هذه الحضارة الراقية في عصر الرشيد رعاها وغذاها حتى ازدهرت وأثمرت علماً وأدباً وعمراً وثراء . بالرغم من أن عهده لم يكن يخلو من المتاعب والمشاكل والمشاكل . فكان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل . فانهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى الخلافة . وتأسست أول دولة للعلوين في المغرب الأقصى وهي دولة الأدارسة كان مؤسسها ادريس بن عبد الله هرب من الشرق أسس دولته سنة ١٧٢هـ . فكان الرشيد بسبب ذلك يخاف الطالبيين . وكان يخشى الخوارج الذين لم يستطع الأمويون والعباسيون افناء روحهم الثورية برغم ما كانوا يجردون لهم من الجيوش فكان لا يزال يخرج منهم خارجة حتى يظهر فيهم ذو مقدرة . وقد

اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس أعظمهم اثرأ الوليد بن طريف الشاري واتصل أمر الوليد هذا بالركة ومنطقتها ولذا نخصه بكلمة مفردة من هذا الفصل . وهناك الأخطار في المشرق في خراسان ، وهناك حادثة البرامكة وغير ذلك من المتاعب والمشاغل التي شغلت الرشيد واتصلت بالركة .

قال الجاحظ : « كان أشد الخلفاء بحثاً عن أسرار رعيته ، وأكثرهم عناية بها ، وأحزمهم أمراً » .

وقال الطبري : « غزا الروم سبع مرات ، وجهاز عشرين حملة لجهادهم في البر والبحر » .

وقال ابن خلكان : « حج في خلافته تسع حجج ، وكان يصلي في اليوم مائة ركعة » .

وقال الطقطقي : « كان من أرق الخلفاء وجهاً ، وأكثرهم حياء ، وأغزرهم دمعاً عند الموعظة الحسنة » .

وقال ابن عبد ربه : « يحب العلم ويطلبه ، ويجالس العلماء ، ويقربهم ويتواضع أمامهم » .

وقال الأصمعي : « يحفظ الشعر الجزل ، ويجيد نظمه ، ويحسن فهمه ونقده ويناقش الشعراء فيه » .

وقال الخطيب البغدادي : « اسخى الخلفاء عطية ، ابتداء وسؤلاً ، ولا تضيع عنده يد ولا عارفة » .

وقال ابن خلدون : « يجتنب المنكر ، ويتبعد عن الحرام ، ويتمتع بما أحل الله » .

وقال ابن قتيبة : « يسمع الغناء من وراء ستار ، ويتذوقه ، ويشرب النبيذ الذي أحله فقهاء العراق » .

كان اتصال هارون بالركة في صدر شبابه حيث كان أبوه المهدي يوليه بعض مهام الأمور عندما عقد له بالعهد بعد أخيه موسى الهادي ، وكان يغزو بالصائفة

عن طريق الرقة وهو ولي عهد. واتصل بها اتصالاً وثيقاً بعهد خلافته. وكان يجب من المنازاة الهني والمرى نهري واسطة الرقة. ويعلق بهما وهو ولي العهد، وكان للخليفة موسى الهادي. تعلق هارون بهذين النهريين من أماكن الرقة. وكان موسى الهادي طلب من أخيه هارون الرشيد أن يتنازل طائعاً عن ولاية العهد لابنه جعفر بن موسى الهادي ووعد به خير كثير وعطاء جليل فعزم هارون على اجابته، ولكن يحى البرمكي مستشاره منعه وشجعه على التمسك بحقه. وكان موسى يشدد على هارون ليتنازل. قيل ان هارون ضاق ذات يوم ذرعاً بالحصار الذي فرضه عليه الهادي بعد أن عرض عليه (الهني والمرى) أن يتنازل عن حقه في البيعة، فجاء إلى يحى وقال له: أريد أن أتنازل عن حقي فيها لاستريح من هذا العناء، فقال له يحى: لا تفعل. قال الرشيد: اذا حصلت على (الهني والمرى) وخلوت بابنة عمي - يعني زبيدة - فلا أريد شيئاً قال يحى: «وأين هذا من الخلافة؟ ولعل ما تقدر انه يبقى لك لا يبقى» وما زال به حتى أقنعه وثبت قدمه وعندما آلت إليه الخلافة آل إليه الهني والمرى.

اعتنى الرشيد الخليفة بأمر الزراعة وتوسيع نطاقها فبنت حكومته جسوراً وقناطر كثيرة، وحفرت الترغ والجداول الموصلة بين الأنهار. ووضع ديواناً خاصاً لتلك الأعمال الاصلاحية. واعتنى بتشجيع الصناعات في الأقاليم المختلفة وحرس طرق التجارة بين المدن وبنى قصوراً في عدة أماكن ولكن الرشيد اكتفى أخيراً بمدينة الرافقة التي بناها أبوه فعمر فيها قصراً عظيماً جديراً به سماه (قصر السلام) وأسموه القصر الأبيض بناه خارج سور الرقة. أنشد الشعراء في قاعاته وأبهائه أجمل الشعر وأجزله وأفخمه وأسنى المداخل في العاهل العربي العظيم الرشيد.

قال أحمد بن يسار الجرجاني الشاعر: دخلنا يوماً على الرشيد بالرقة وقد فرغ من قصره الأبيض أنا والتميمي بن محمد وابن رزين وأشجع (السلمي) فأنشد

التيمي قصيدة يذكر فيها نقفور ووقعته ببلاد الروم فكان كأنها ينثره درا . ثم أنشده أشجع :

قصر عليه تحية وسلام	نشرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتفت	للملك فيه سلامة ودوام
قصر سقوف المزن دون سقوفه	فيه لاعلام الهدى اعلام
نشرت عليه الأرض كسوتها التي	نسج الربيع وزخرف الأوهام
أدنتك من ظل النبي وصية	وقرابة وشجت بها الأرحام
وعلى عدوك يا بن عم محمد	رصدان ضوء الصبح والأظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا	سلّت عليه سيوفك الأحلام

وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً ودنوت أنا فأنشده بعد أشجع :

زمن بأعلى الرقتين قصير لم يشنه للحادثات غرير
لا تبعد الأيام إذ زمن الصبا غص وإذ غصن الشباب نضير
فأعجب بشعري وقال : قل للمغنين يعملوا ألحاناً في غزل هذه القصيدة
وخرجت لنا صلة فاقسمناها .

وأوعز لبعض رجال دولته أن يبنوا قصورهم بجانب قصره ، فبنوا وأمر بإنشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة والترف : كميادين سباق الخيل وملاعب الصولحان وحقول الصيد وموانئ السفن والحراقات ، والحداثق المزدهرة على ضفتي الفرات ، فأصبحت من المدن الجميلة .

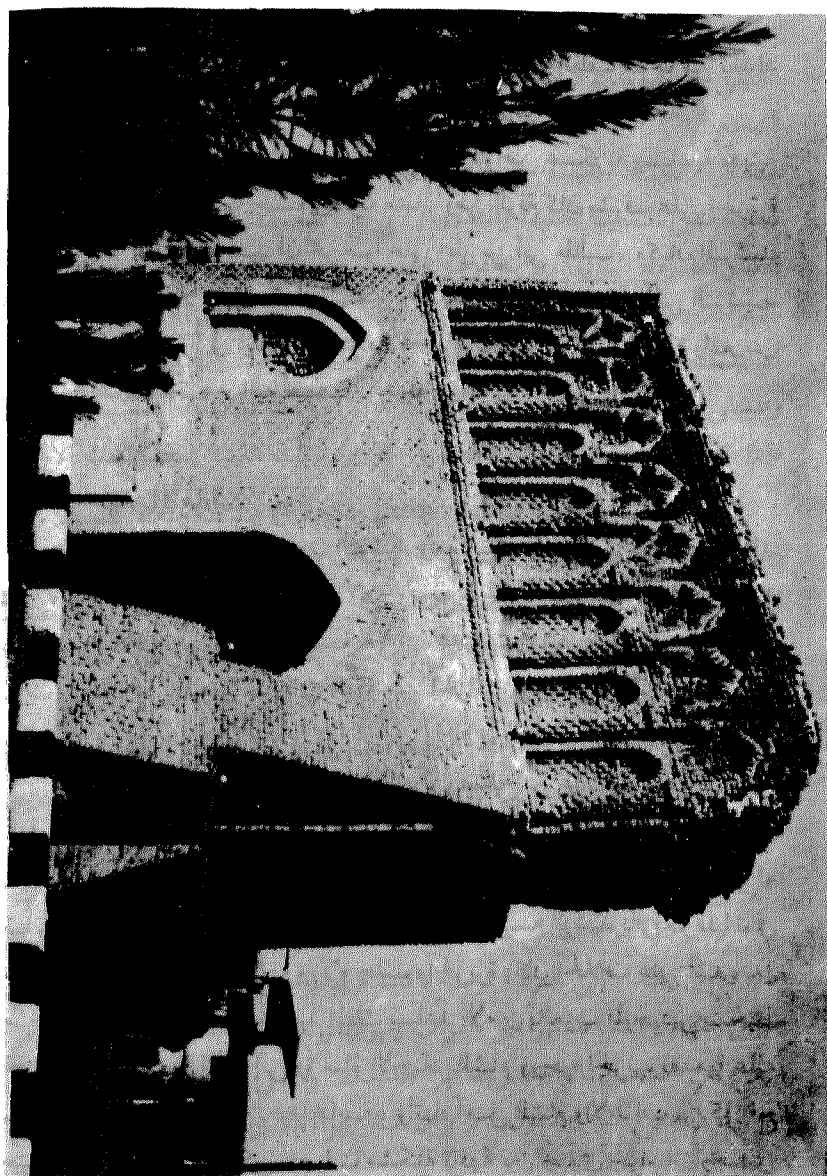
قال أبو الفرج الملقب بتاريخ الدول السرياني وفي القابل سنة ٧٩٠م « ارتحل هارون من بغداد إلى الرقة يريد الإقامة فيها فزاد في عمارتها وغرس في ضواحيها جنائن كثيرة وجلب لها نهراً من الفرات ونهراً ثانياً من سروج وقد اشترى مياه قرى سروج من أصحابها واحترف لها نهراً جديداً » . وسمي النهر الآتي من سروج بنهر النيل ، وتتفرع منه جداول - لا تزال آثار مجراه وآثار مجاري جداوله باقية شمال غربي الرقة في عدة أماكن .

كان الرشيد يستعذب هواء الرقة في الصيف . وهي الطف مناخاً من بغداد وأقل حرّاً . فكان يحب الاستراحة في الرقة في طريقه إلى غزوة أو حجة .
كان مجيء الرشيد منذ البدء إلى الرقة لأغراض عسكرية وسياسية ودينية وقومية ، وكان يريح فيها جيشه ويمونه منها . ومن الرقة كان يشرف على الجزيرة إحدى مراكز الخوارج منذ أن خرجوا على علي بن أبي طالب ، وكان الرشيد يخافهم ، وهدد فعلاً أحدهم الوليد بن طريف ملكه . وجاء بطش الرشيد بالبرامكة عاملاً أخيراً في إثاره للإقامة بالرقة نهائياً ، لولا أن تضطره ثورة رافع بن الليث بخراسان للخروج اليه لقمعها . وموته هناك .

الرقة في عهد الأمين :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ولد سنة ١٧٠ هـ وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ هـ . بويح بالخلافة بعد موت أبيه سنة ١٩٣ واستمر بالخلافة إلى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ - ٥ أيلول ٨١٣ فكانت مدته أربع سنوات . وقد حمل اليه ما كان في الرقة من الخزائن والجواهر والسلاح مما خلفه الرشيد .

ولى الأمين حلب والجزيرة عبد الملك بن صالح بن علي عبد الله بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً ، وكان يعمل للرشيد والياً على الثغور وكان مقره منبج ، ورفع إلى الرشيد انه يطلب الخلافة ويطمع فيها وان البرامكة كانوا له عوناً ، سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قهامة . وحبسه الرشيد بالرقة ، فلما توفي الرشيد واستخلف الأمين أطلقه وولاه حلب والجزيرة وكان الخلاف على أشده بين الأمين وأخيه المأمون . وشمر عبد الملك يساعد الأمين بالعرب الموجودين بمحيط الرقة . وأنفذ كتبه من الرقة إلى رؤساء الأجناد بالشام وجوه الجزيرة فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة ، وأتاه أهل الشام والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده في الرقة ولكن حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي



آثار باب بغداد في الرقة

من أهل الشام فتعصب لكل جماعة مما أدى إلى التلاحم ، وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريضاً ويقيم بالرقّة مركز ولايته وأدى التلاحم إلى قتل أشخاص من الطرفين ففشل عبد الملك بن صالح ولم يستطع المضي لنجدة الأمين . واستمر عبد الملك في ولاية الرقة إلى أن مات سنة ١٩٦ بالرقّة ودفن في دار من دور الخلافة . وكان عبد الملك حلف ان مات الأمين لا يعطي المأمون طاعته ، فمات قبل الأمين . فبقيت بنفس المأمون إلى أن خرج إلى الغزاة ، فوجد قبر عبد الملك في دار الامارة ، فأرسل إلى ابن عبد الملك وقال له «حول أباك عن داري» فنبتت عظامه وحول .

وكان عبد الملك بن صالح أفصح ولد بني العباس .

الرقّة في عهد المأمون :

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، أمه أم ولد اسمها مراجل . ولد سنة ١٧٠ ببيع بالخلافة سنة ١٩٨هـ - ٨١٣م وتوفي غازياً بطرسوس بكيلىكيا في ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ - ١٠ آب سنة ٨٣٣م فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر . تم الأمر للمأمون على يد القائدين طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين . وكان الذي يدبر أمر المأمون محل اقامة المأمون بفارس الفضل بن سهل الفارسي الذي كتب على لسان المأمون إلى طاهر بأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن سيار بن شيبث من بني عقيل يسكن يكسوم وهي قرية من أعمال سميساط على الفرات شمال حلب وفيها حصن كبير على تلعة كان نصر يحتلها ، وكان نصر عربياً شهياً له في محمد الأمين هوى وفي عنقه له بيعة ، فلما قتل ، وكان الفضل بن سهل هو المتغلب على دولة المأمون . ولما رأى نصر أن العنصر العربي في دولة المأمون قد انحط شأنه وصار معظم القواد والأمرء من غيرهم . غضب وثار وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي ، وكثرت جموعه ، سار اليه طاهر فالتقيا

بنواحي يكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسناً فكان له النصر .
وعاد طاهر إلى الرقة منهزماً ، وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي وقوي أمر نصر
وكثر جموعه .

وكان جيش طاهر الذي جاء إلى الرقة أربعة آلاف من العجم . وقد
ضاعف طاهر الضرائب وأساء إلى أهل سرج والرها وكانت ولاية طاهر تشمل
الموصل والجزيرة والشام والمغرب عندما قدم إلى الرقة . التي كانت مركزاً لكل هذه
الأمصار .

جاء في تاريخ الدول السرياني لأبي الفرج الملقب «وشد نصر على العجم
أصحاب طاهر وجعل جنوده يقبضون على خمسين وخمسين وعلى مائة فإثاء
فينحرونهم نحر الخراف» وقال أما نصر فكتب (بتشديد التاء) العرب القيسيين
كافة وأقبل بهم إلى الرقة وحلوا في دور النصارى وضايقوهم في استنزاف ما يقوم
بنفقاتهم الوافرة . ثم زحفوا إلى الرافقة وحاصروها . وكان مقيماً هناك يومئذ
البطريك قرياقس (٧٩٣ - ٨١٧) وثنوتوسيوس مطران الرها . واشتد الغلاء حتى
أكل الناس خبز الرز والبقول ثم عقد نصر الصلح كيفما كان لأن عساكر الكوفة
احتلوا الرقة واستولى العجم على الرافقة» .

وقال : «وابتنى طاهر سوراً ما بين الرقة والرافقة وتحصن فيه وانقطع إلى
المطالعة والتفسير والتحدث مع الفلاسفة» .

وحاصر نصر حران وهي من أعمال الرقة بديار مضر واستولى على قلعة
بالس وزحف بجنوده إلى نهر الهنء بواسطة الرقة وقتل برؤ سائها وغزا القرى
وسبى أهلها ، فوجه إليه المأمون شبيباً القائد في سبعة آلاف عجمي من الممتازين
هزموا في البدء سرية من أصحاب نصر ونهبوا البيوت غير أن نصر كسرهم وفر
شبيب إلى بغداد .

وفي أثناء اشتداد أمر نصر أتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له : وترت بني
العباس ، وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك . فقال من أي

الناس - فقالوا تبائع لبعض آل علي بن أبي طالب . فقال : أبائع بعض أولاد السوداوات ، فيقول أنه خلقتني ورزقني . قالوا فتبائع لبعض بني أمية . قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمدير لا يقبل أبداً ، فلو سلم على رجل مدبر لاعداني أدباره ، وإنما هوأي في بني العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

كانت ثورة نصر هذه لاعزاز العنصر العربي ومحاولة جريئة لتأسيس دولة عربية صرفة تكون الرقة عاصمتها ، وكان نصر متأثراً بالخليفة العربي هارون الرشيد الذي هجر بغداد لتغلب الفرس على أمورها وفتك بالبرامكة القابضين على أمور الدولة واتخذ الرقة عاصمة منذ سنة ١٨٥ - ١٩٣ مدة تسع سنوات فجاء نصر لينهض مرة ثانية بها ويعيدها عاصمة لمملكته لوتتم له الأمر . ولم يمض على الرقة غير خمس سنوات ونيف منذ أعفاها المأمون من مهمة العاصمة إلى ثورة مصر . وكان المأمون نائباً فيها عهد والده الرشيد .

وفي سنة ١٩٩ قوى أمر نصر بالجزيرة ولما قدم المأمون إلى بغداد من مرو طلب من طاهر بن الحسين والي الرقة أن يلقاه ببغداد فترك طاهر الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره بقتال نصر فلما قدم طاهر إلى بغداد ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر في سنة ٢٠٦ وأمره بالجد في محاربة نصر .

وحين ذاك كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله وهو في الرقة ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج اليه الأمراء من الأدب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم . مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة . وقد تناقل الناس هذا الكتاب وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعى به وقرئ عليه ، فقال ما أبقي أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي . جدُّ عبد الله بن طاهر

في محاربة نصر عدة سنوات فلم يقو عليه وندب المأمون رسولاً خاصاً هو جعفر بن محمد العامري ليؤدي إلى نصر رسالة، فذهب اليه وهو بكفر عزون بسروج، فأبلغه رسالة المأمون. وبالطرق الدبلوماسية أجاب إلى التسليم، وكتب له المأمون كتاب أمان، وخرج إلى عبد الله بن طاهر فوجه به إلى المأمون فدخل في صفر سنة ٢١٠ بعد حرب مع عبد الله بن طاهر خمس سنوات ومن قبله سبع سنوات أي ١٢ سنة، وأنزل مدينة أبي جعفر.

لقد تضررت الرقة بثورة نصر بن شيث واحترق ربضها وبعض أبنيتها. وكان المأمون أمراً طاهر بن الحسين سنة ٢٠١ هـ ببناء جدار بين الرقة والرافقة لكي لا يقتتل الفرس وعرب الشام الذين كانوا يسكنونها.

ولى المأمون بعد عبد الله بن طاهر، ابنه العباس بن المأمون، الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ ثم ولاها اسحق بن ابراهيم بن مصعب الخزاعي. ثم عزل اسحق وأعاد العباس بن المأمون ثم ولى ورقة الطريفي مع العباس. وولى عيسى بن علي الهاشمي نيابة عن ولده العباس فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ما أراد فقدمه. وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن علي بالرقة، ولا يزال معه حتى يدخل الثغور ثم يرد عيسى إلى عمله.

وممن ولي الرقة بعهد المأمون عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح لما غزا الصائفة في سنة ٢١٨ العواصم. وفيها مات المأمون في أرض طرطوس سنة ٢١٨ وفي ولاية عبد الله بن طاهر على الرقة ذهب إلى مصر سنة ٢١١ هـ = ٨٢٧ م سيره إليها المأمون لاختاد فتنة عبد الله بن السري وفتنة الاندلسيين بالاسكندرية فذل ابن السري وأجلي الاندلسيين وأرسل منهم خمسين أسرة إلى الرقة وسرح البقية إلى بلادهم.

وممن انجد المأمون في بغداد القائد الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان قدم من الرقة إلى بغداد قبل وصول طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين في جيش كثيف، وكان مع عبد الملك بن صالح بن علي في الرقة فلما مات عبد الملك في الرقة

سنة ١٩٦ سار إلى مدينة السلام لثلاث خلون من رجب من هذه السنة ودعا إلى المأمون .

اتصال محنة خلق القرآن بالرقعة :

ومن الأحداث التي اتصلت بالرقعة في أواخر حياة المأمون مسألة خلق القرآن الذي أدى إلى أن يمتحن الناس به في عهد المأمون وخلفائه فقد بينه أبو الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ فيما يلي : « لم يزل الناس على قانون السلف وقولهم إن القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن . وكانوا يتسترون بذلك إلى زمن الرشيد ، حتى أن الرشيد قال يوماً : بلغني أن بشر المريسي (من أعلام المرجئة) يقول : القرآن مخلوق والله علي ، أن أظفرن الله به لاقتلته قتلة ما قتلها أحداً . ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة . فلما ولي المأمون خالطه قوم المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن » واجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام . وأراد المأمون انصياع الناس بالتسليم بخلق القرآن . وبينما كان متوجهاً إلى طرسوس لغزو بلاد الروم أرسل كتاباً إلى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم وهو ابن عم طاهر بن الحسين وقد أمره فيه أن يشخص اليه القضاة والمحدثين بموضوع خلق القرآن . وقد روت كتب التاريخ نص الكتاب . كتبه المأمون في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ وقبل وفاته بأربعة شهور . وكتب المأمون كتاباً ثانياً إلى اسحق بن ابراهيم يأمره فيه بأن يشخص اليه سبعة من وجوه المحدثين ببغداد حتى يتولى امتحانهم بنفسه . وقد نفذ اسحاق بن ابراهيم الأوامر التي تلقاها في كتاب المأمون ، فأحضر جماعة من الفقهاء والمحدثين ، فممن أحضرهم ، أحمد بن حنبل وبشر بن الوليد الكندي ، وأبو حسان الزياتي ، وعلي بن أبي مقاتل والحسن بن حماد السجادة والذبال بن الهيثم وقتيبة بن سعيد ، وشيخ من ولد عمر بن الخطاب كان قاضي الرقة وأرسلهم في الأقياد إلى المأمون حتى وصلوا أدنه فلما مات المأمون

ردوا في الاقياد إلى الرقة ، وأخرجوا من الرقة في سفينة مع قوم محبسين ومات بعضهم في الطريق ووصل الآخرون إلى بغداد مقيدين ومكثوا في الحبس .
وقيل بلغتهم وفاة المأمون وهم في الرقة فأمر عنبسة بن اسحاق والي الرقة باحتجازهم بها حتى يعودوا إلى بغداد في حراسة الرسول نفسه الذي كان قد توجه بهم إلى المأمون ، فلما صاروا إلى بغداد أمرهم حاكمها بأن يلزموا بيوتهم . وقيل أعيد أحمد بن حنبل ورفيقه بن نوح إلى الرقة حيث ظلا في السجن إلى أن أخذت البيعة للخليفة المعتصم فأحدر من الرقة مقيداً إلى بغداد حيث سجن وضيق عليه .
ولد الامام أحمد بن حنبل سنة ١٦٤ في بغداد من سلالة عربية وتوفي سنة ٢٤١ هـ .

ولاية الرقة وشعراؤها :

عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي ، كان أميراً على الرقة . وكان جواداً يثيب الشعراء انقطع إلى مدحه الشاعر أبو الشيص محمد بن رزين بن سليلان الخزاعي الأزدي ، وهو عم دعبل بن علي الخزاعي وقلما يروى له في غيره وأغناه عقبة . وأبو الشيص شاعر من شعراء عصره ، متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر ، لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس ، فحمل . قيل كان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان وكان من أوصاف الناس للشراب وأمدحهم للملوك .

ولأبي الشيص ابن يقال له عبد الله شاعر أيضاً صالح الشعر . كان منقطعاً إلى محمد بن طالب .

طاهر بن الحسين :

ابن مصعب بن رزيق الخزاعي ولد سنة ١٥٩ بقرية من أعمال مرو ، وكان جده مصعب والياً عليها وعلى هراة نشأ شهماً شجاعاً أديباً . وأول أعماله العظيمة قيادته الكتائب الخراسانية في حرب الأمين حيث انتصر . فاشتهر ذكره وأرسله

المأمون إلى الجزيرة والرقعة لحرب نصر بن شيت وبقي سنة ثم استدعاه المأمون إلى بغداد لما قدم اليها من مرو وعرف فضله وولاه الجزيرة والشرطة وجانيي بغداد. وولاه المأمون خراسان فساسها أحسن سياسة وكانت أحوالها مضطربة. وكان طاهر مستقلاً ادارياً بخراسان يؤدي الخراج عن عمله. ولي خراسان سنة ٢٠٥ ومات سنة ٢٠٧ وقد استمر ملك البيت الطاهري إلى سنة ٢٥٩ وكان لآل طاهر مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد.

عبد الله بن طاهر بن الحسين :

ولد سنة ١٨٢ في خلافة الرشيد، وكان عمره حين سطع نجم أبيه في حوادث المأمون والأمين ١٦ سنة فتربى في كنف المأمون فنشأ اديباً نبيلاً وكان المأمون يحبه كثيراً ولأه حرب نصر بعد انصراف أبيه فوق إلى ردد نصر إلى الطاعة بعد حرب خمس سنوات، وأقام والياً على الرقة خمس سنوات ولما فرغ من أمر نصر سيره المأمون إلى خراسان والجلال وارمينية واذربيجان لمحاربة بابك. استمر والياً إلى أن مات سنة ٢٣٠ هـ رعى عدة شعراء فحول وكفل لهم حياة راضية وعلى رأسهم الشاعر العتابي عندما كان عبد الله في الرقة (٢٠٦ - ٢١١) وعوف بن محلم الخزاعي ودعل الخزاعي.

ربيعة الرقي :

هو أبو أسام ربيعة بن ثابت بن لجأ الأسدي الرقي ولد بالرقعة ونشأ فيها وتعلم نظم الشعر حتى برع فيه وهو ضريبر. استقدمه أمير المؤمنين المهدي العباسي إلى بغداد فمدحه بعدة قصائد أجازته وأجزل صلته.

وهو من الشعراء المجيدين الكثيرين اخمل ذكره وأسقط عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء في الحواضر الاسلامية. ومع ذلك لم يعدم مفضلاً له. قصد يزيد بن أسيد السلمي والي ارمينية وكان سيداً عظيماً وقائداً

شجاعاً ولكنه قصر بحق الشاعر بعد أن أقام عنده حولاً فعاد إلى الرقة فقصد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب وكان والياً على مصر بعد أن عزل . فأحسن جائزته . ومدح العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بقصيدة جيدة ، ولكن العباس بعث إليه بدينارين فهجاه وسمع الرشيد بالخبر وطلب من ربيعة أن لا يعرض للعباس وخلع على الشاعر وكان الرشيد مزماً أن يصهر إلى العباس فعذل بعدما عرف بخله وتقصيره بحق الشاعر وقد مر ربيعة بقرقيسيا بطريقه إلى بغداد له فيها نكتة لطيفة رواها ياقوت . مما قاله في وصف بلده الرقة :

حبذا الرقة دارا وبلدٌ	بلد ساكنه ممن تود
ما رأينا بلدة تعدلها	لا ولا أخبرنا عنها أحد
انها برية بحرية	سورها بحر وسور في الجدد
تسمع الصلصل في أشجارها	هدهد البر ومكاء غرد
لم تُضْمَنَّ بلدة ما ضمنت	من جمال في قریش وأسد

اسحق بن سماعة المعيطي :

شاعر محسن كان ينزل الرقة وله ضياع . وكان سليمان بن أبي جعفر المنصور والياً على الرقة من قبل المأمون فلم يعرف لابن سماعة موضعه وردة عن حاجته فأخذ اسحاق بن سماعة يهجو سليمان بن أبي جعفر فاستأذن المأمون في حبسه فأذن له فحبسه وجلده إلى أن مات في الحبس .

الرقة في عهد المعتصم بالله :

ولما بويع المعتصم أقر العباس بن المأمون على ولايته للجزيرة ولكنه عاد فقبض عليه بمنبج وهو عائد من الغزاة بتهمة التآمر عليه ومات العباس بمنبج سنة ٢٢٣ ومركز الجزيرة دائماً هي الرقة .

وولى المعتصم الشام والجزيرة عبد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح بن علي الهاشمي . ثم انه ولى اشناس التركي الشام والجزيرة ومصر . وتوجه وألبسه وشاحين بالجواهر في سنة ٢٢٥ . وبقي في ولايته إلى أن مات سنة ٢٣٠ واشناس غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان معه في غزو عمررية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامراء .

الركة في عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧) هـ :

جعل لأكبر أولاده وولى هذه المنتصر المغرب وجند قنشرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا ، وكان هو الذي يولي ولاه الركة . واستمر بولايته هذه إلى أن قتل أبوه سنة ٢٤٧ . وفي عهد المستعين (أحمد بن محمد بن المعتصم ٢٤٨ هـ = ٢٥٢ هـ) كان والي الركة ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح مات بالركة سنة ٢٥٦ . وفي عهد المعتمد وهو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩) الذي لم يكن له من أمر الخلافة غير الاسم وكان الأمر إلى أخيه أبي أحمد الموفق . وكان الوالي على مصر أحمد بن طولون ولي سنة ٢٥٤ وفي سنة ٢٦٢ حصل خلاف بينه وبين الموفق . فسير اليه الموفق جيشاً بقيادة موسى بن بغا ، مكث بالركة عشرة أشهر ولم يمكنه المسير إلى مصر لقله الأموال فاضطر إلى أن يعود إلى العراق .

أبو تمام الشاعر في الركة :

جاء أبو تمام إلى الركة والخليفة المعتصم فيها . وكان الطائي من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً وذهب أبو تمام إلى العراق منحدراً في نهر الفرات في سفينة وكان معه في السفينة منجم . فكان الطائي قد أولع به يضربه ويخرق ثيابه ، فلامه أحد من كان في السفينة ، فكان من جواب أبي تمام أن قال : هذا العاض بظر أمه ، لو كان

منجماً، لما ركب معنا هذه السفينة وأنا أضربه هذا الضرب (طبقات الشعراء) لابن المعتز.

الرقعة في عهد الطولونيين :

كانت ولاية مصر بعهد المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩) مضافة إلى (بايكباك) وهو الذي يختار أميرها فاختر لها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ فدخلها في رمضان سنة ٢٥٤هـ. ولما قتل (بايكباك) حل محله (أماجور) وكان صهراً لأحمد بن طولون فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك. فأتسع ملك أحمد واستولى في سنة ٢٦٤ على حلب والشام والثغور وامتد ملكه إلى الفرات وولى مملوكه لؤلؤ حلب وديار مصر في سنة ٢٦٦ وفيها الرقعة. وفي سنة ٢٦٩ حاز لؤلؤ حلب وديار مصر لحسابه الخاص وقطع الدعاء لمولاه أحمد بن طولون في مدتها فسار إليه أحمد من مصر فهرب لؤلؤ إلى العراق ولحق بأبي أحمد الموفق. وكان قد تركز في الرقعة ثم انحدر منها بأموال طائلة إلى العراق أغرت الموفق بمصادرتها.

كان طولون مملوكاً تركياً أهدى إلى المأمون بمرور سنة ٢٠٠ وولد له أحمد بسامرا سنة ٢٢٠ فربي مع الجنود وكان أحمد شجاعاً شهياً عاقلاً مات سنة ٢٧٠ فخلفه في مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه أبو الجيش واستمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون إلى سنة ٢٩٢ ولي منهم خمسة أمراء وكان خمارويه جاء إلى الرقعة.

وكان محمد بن أبي الساج يلي ديار مصر. ثم انقلب على خمارويه ولحق بأبي أحمد الموفق سنة ٢٧٦ فولى أبو الجيش على حلب والرقعة غلام أبيه طغج بن جف والد الأخشيد أبي بكر محمد بن طغج. وكان ولاية مصر الطولونيون تحت نفوذ الخلفاء العباسيين يخطبون لهم على المنابر ثم لأنفسهم. وتزوج الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ابنة خماروية قطر الندى.

الركة في عهد المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥هـ):

كان بالركة فكتب اليه الوزير وأعيان الخلافة فركب من الرقة ودخل بغداد في يوم مشهود الاثنين ٨ جمادي ولم يزل خليفة إلى أن توفي سنة ٢٩٥ .

وفي عهده أخذ القرامطة يعيشون في البلاد العراقية والشامية قتلاً وسلباً وبابيعوا في سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه . ولكن الطولونيين وجهوا اليه الجيوش وقتلوه فولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه فتغلب على كثير من بلاد الشام وتسمى بأمره المؤمنين سنة (٢٨٩ - ٢٩٠) فتوالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد بالشكوى من القرامطة . فلم ير المكتفي بدأ من الخروج بنفسه إلى الشام وجعل طريقه على الموصل في سنة ٢٩١ وقدم بين يديه أبا الأغرخليفة بن المبارك السلمي فنزل قريباً من حلب فكبسه القرامطة وقتلوا من عسكره خلقاً كثيراً .

سار المكتفي حتى نزل الرقة . وسير الجيوش اليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان فالتقى بالقرامطة قرب حماة وهزمهم وقتل وأسر منهم كثيرين وتفرق الباقون في البوادي وسار الحسين بن زكرويه أمير القرامطة يريد الكوفة فقبض عليه متولي بلدة الدالية على الفرات أسفل الرحبة مالك بن طوق (المياذين) وعلى من معه وساروا به إلى المكتفي بالركة . وفي ستة وعشرين محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهوراً ثم حمل إلى بغداد ومن الرقة وجه المكتفي بمحمد بن سليمان لمحاربة الطولونيين وفتح مصر . فسار وافتتحها من يد الطولونيين بعد قتل هارون بن خمارويه وأخرج طغج بن جف عن مصر وولاه حلب وعاد محمد بن سليمان .

البتاني : العالم الفلكي :

محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الخرافي المعروف بالبتاني نسبة إلى قرية بتان التي ولد فيها في حدود مدينة حران ولد حوالي سنة ٢٣٥هـ هوى الرصد وأنفق

فيه أموالاً كثيرة وأمضى حياته في مدينتي الرقة وانطاكية . بدأ بتجاربه في مرصد الرقة سنة ٢٦٤ وأقام على عمله في الرقة ٤٢ سنة .

اكتشف في الفلك والرياضيات أموراً كثيرة . أثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة ٢٩٩ هـ توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة قال ابن العبري عنه في تاريخه (مختصر الدول) هو أحد المشهورين برصد الكواكب ولا يعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه . ترجم زيجه لللاتينية وطبع سنة ١٥٣٧ وطبع في روما سنة ١٧٩٩ .

قال عنه طوقان في كتابه (الخالدون العرب) المطبوع ببغداد سنة ١٩٥٤ : «البستاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثاً هامة وأضافوا بحوثاً مبتكرة في الفلك والجبر والمثلثات ونظرة إلى مؤلفاته والازياج التي عملها تبين خصب قريحته وترسم صورة عن عقلية الجبارة كان من أبرز علماء القرن العاشر الميلادي الذين أسدوا أجل الخدمات إلى العلوم وعلى الرغم من عدم وجود آلات دقيقة كالتي نستعملها الآن فقد تمكّن من اجراء أرصاد لا تزال محل دهشة العلماء ومحط اعجابهم . عدّه (كاجوري) من أقدر علماء الرصد . وقال عنه (سارطون) انه من أعظم علماء عصره وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات وقال عنه (لاندند) العالم الفرنسي انه من العشرين فلکیاً المشهورين في العالم كله ذكرته مصادر عدة عربية واجنبية .

الرقة في عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) :

كان جاهلاً فاسداً . كان الحكم في دولته للنساء والخدم ، وتُنازل الوزارة بالرشوة وقوى في عهده أمر القرامطة في العراق والحجاز . وفي عهده ابتدأت دولة بني حمدان في الموصل .

وكان القائد العام لجيوش المقتدر مؤنس الخادم ويقال له مؤنس الحاجب وكان هو الذي يولى ويعزل الولاة ، وكان تولى الشام ومصر نيابة عن أبي العباس بن المقتدر ، وكان أمر ديار مصر اليه وهو الذي يولي ولايتها ، واستولى على الموصل

من يد بني حمدان ، واجتمعت اليه عساكر كثيرة من بغداد والشام ومصر لاحتسان كان اليهم . ولما سار القرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي من الكوفة سنة ٣١٦ . إلى الرحبة ودخلوها واضعين السيف في أهلها وساروا منها إلى الرقة فدخل منهم جماعة إلى ربضها بادر أهل الرقة إلى اعانة أهل الربض فقتلوا من القرامطة ثلاثين رجلاً . استدعى المقتدر من الشام مؤنساً (وصار يلقب بمؤنس المظفر) إلى بغداد وأمره بالمسير إلى الرقة لقتال القرامطة ، فسار إليها بطريق الموصل وجد السير من الموصل إلى الرقة . فسار أبو طاهر عنها وعاد إلى الرحبة ، ووصل مؤنس المظفر إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها . وولى مؤنس على الرقة غلامه طريف بن عبد الله السبكري في سنة ٣١٩ وكان طريف شهماً شجاعاً .

وكان مؤنس شجاعاً فاتكاً مهيباً لقب بالمظفر لما عظم أمره وغزا بلاد الروم . وكان الخليفة القاهرة (٣٢٠ - ٣٢٢) الذي تلى المقتدر أحضر مؤنس من داره بالحيلة وكان استولى عليه الكبر والضعف وأمر بقتله لأنه لم يكن من أنصاره سنة ٣٢٠ .

الرقة في عهد المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) :

كان بحكم أمير الأمراء والتدبير كله إلى وزيره أبي عبد الله الكوفي ، وكان أبوبكر محمد بن رائق إلى جانب المتقي يزود عنه الديلم وغيرهم وخلع عليه المتقي وسماه أمير الأمراء . وكانت ديار مضر في حكم ابن رائق الذي كانت له الشام ثم اتفق مع محمد بن طنج الأخشيد صاحب مصر بعد حروب على أن تكون له حمص وحلب .

ولما استولى البريدي على بغداد هرب المتقي وابن رائق إلى الموصل وكانت بيد ناصر الدولة الحمداني الذي قتل ابن رائق بين يدي المتقي سنة ٣٣٠ ليحل محله في أمرة الأمراء . وسمى المتقي ناصر الدولة أمير الأمراء وكان معه أخوه علي

فلقبه سيف الدولة وجاء المتقي وبنو حمدان ودخلوا بغداد وهرب منها البريدي إلى واسط .

وسار ناصر الدولة من بغداد تاركاً أماره الأمراء إلى الموصل . فاختار المتقي بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الأمراء القائد الديلمي توزون الذي كان جلفاً خافه المتقي ، فسار إلى الموصل في نسائه وعبيده وتبعه توزون ، فرحل الخليفة إلى نصيبين ثم إلى الرقة وكانت من أملاك ناصر الدولة يتولاها مع حلب وديار مضر والعواصم له أبو بكر محمد بن مقاتل في سنة ٣٣٢ وكان المتقي استعمله على الخراج والضياح بديار مضر وقبله كان مؤنس الخادم يلي الرقة بالنيابة عن يأنس المؤنس الذي ولاه ناصر الدولة . وكان شاطيء الفرات بين حلب والرقة تحت نفوذ الأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والشام .

وجاء الأخشيد إلى حلب وأرسل مقدمته إلى بالس (مسكنة) على شاطيء الفرات الغربي وسار بعدها بعد أن سير المتقي من الرقة أبا الحسن أحمد بن عبد الله الخرقى إلى الأخشيد يسأله أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقه ويجدد به العهد ويستعين به . وجاء الأخشيد إلى مكان على شاطيء الفرات الغربي مقابل الرقة فعبر اليه الخليفة المتقي لثلاث عشرة ليلة خلت من محرم سنة ٣٣٣ . ووقف الأخشيد بين يدي المتقي بخشوع وكان قد حمل اليه الهدايا ومالاً كثيراً ولم يدع أحداً من أصحاب المتقي وحواشييه وكتابه إلا وبره ووصله .

واجتهد الأخشيد بالمتقي ليسير معه إلى الشام ومصر فيكون بين يديه فلم يجبه . فأشار اليه بالمقام مكانه بالرقه خشية عليه من توزون إذا هوسار إلى بغداد . وضمن له أن أقام في الرقة أن يمده بالأموال ، فلم يفعل . وكتب المتقي عهداً للأخشيد بل جدد ولايته على مصر وأعمالها والشامات والثغور وما والاها والخرمين وجعل ذلك له ولولده أبي القاسم أنوجور (عمود) إلى ثلاثين سنة .

وبقي المتقي في الرقة مع بني حمدان ، ولكنه ما لبث أن رأى منهم تضجراً

به . فاضطر إلى مراسلة توزون أمير الأتراك في بغداد في الصلح فأظهر الرغبة وحلف للمتقي وأشهد على حلفه الناس كتابة .

فانحدر المتقي من الرقة في الفرات إلى بغداد لأربع بقين من المحرم ٣٣٣ ووصل السندية على نهر عيسى بقرب بغداد، خرج اليه توزون يستقبله في الظاهر. وغدربه وقبض عليه وخلعه من الخلافة ثم سمل عينيه، فلما صاح المتقي وصاح من عنده من الحريم والخدم أمر توزون بضرب الطبول لثلاث سمع أصواتهم .

ثقافة أهل الرقة في العهد العباسي :

منذ أن صار الخلفاء والأمراء ينزلون الرقة، أخذ الرقيون يكونون لأنفسهم ثقافة عربية ويعدون أشخاصهم ليكونوا أهلاً لمجالسة الخلفاء والأمراء ومحادثتهم وابتناسهم وادخال السرور إلى قلوبهم وانتزاع اعجابهم وتقديرهم ونيل برهم . جاء بكتاب مروج الذهب ج ٤ للمسعودي :

«حدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال : لما نزل المتقي الرقة كنت فيمن بتصرف بين يديه، وأقرب منه في الخدمة، فقال لي في بعض الأيام في الرقة، وهو جالس في داره مشرفاً على الفرات اطلب لي رجلاً اخبارياً يحفظ أيام الناس أتفرج اليه في خلوتي، وأستريح به في الأوقات . فسألت بالرقة عن رجل بهذا الوصف فأرشدت إلى رجل بالرقّة كهّل لازم لمنزله فصرت اليه ورغبته في الدخول إلى المتقي، فقام معي كالمكره وصرنا إلى المتقي، فأعلمته احضاري للرجل الذي طلبه، فدعا به واستدناه، فوجد عنده ما أراد فكان معه أيام مقامه بالرقة، فلما انحدر في الفرات كان معه في الزورق . فلما صار إلى فم نهر سعيد - وذلك بين الرقة والرحبة (يمر هذا النهر بدير الزوروله فيها أثر) أرق المتقي ذات ليلة فقال للرجل . ما تحفظ من أشعار المبيضة وأخبارها؟ فمر الرجل في اخبار آل أبي طالب . . . فقال له المتقي : اتحفظ شعر أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني في

محمد بن زيد الحسيني الداعي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكن معي غلام لي قد حفظ بحدائثه سنه وحده مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والأدب ما لم أحفظ من الأخبار للناس وأيامهم وأشعارهم قال أحضره، ولم أخفيت عني خبر مثل هذا فيكون حضوره زيادة في أنسنا فأحضر الغلام من زورق آخر فوقف بين يديه فقال له صاحبه: أتحفظ قصيدة أبي المقاتل في ابن زيد؟ قال نعم قال المتقي: انشدنيها، فابتدأ ينشده أياها وهذا مطلعها:

لا تقل بشرى وقل لي بشريان غرة الداعي ويم المهرجان
وهي طويلة رواها المسعودي. فلم يزل المتقي كلما مر به بيت استعاده وأمر الغلام بالجلوس وما زال المتقي يقول: لا تقل بشرى..

قال الدمشقي: لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا إلى (عانة) دعا بالرقى وغلامه فحدّثه، وتسلسل بهم القول إلى فنون من الأخبار إلى أن صاروا إلى ذكر الخيل، ففاض الرقي وغلامه في أخبارها. وكان المتقي يأمر بتدوين وتثبيت ما يجري من الكلام، فلم يزالا معه في ذلك يحدد لهما البر إلى أن كان من أمره ما قد اشتهر.

ولو أن المتقي استمع إلى نصيحة محمد بن طنج الأخشيذ ملك مصر والشام، وبقي في الرقة لكانت المرة الثالثة التي تصبح الرقة عاصمة للمملكة العباسية ولسلم المتقي فلم تشمل عيناه ولم يخلع من الخلافة ليلقي ذلك المصير المحزن.

وذكر أبو حيان التوحيدي في الجزء الأول من كتابه «الامتناع والمؤانسة» ص ١٠٤ اسم فيلسوف رقي يهودي هو (وهب بن يعيش الرقي) وأورد فقرات من رسالة له.

الرقة في عهد الحمدانيين:

بنو حمدان هم امراء دويلة أسسها القائد أبو الهيثم عبد الله بن حمدان بن

حدون بن الحارس التغلبي ، من أمراء الخليفة العباسي المعتضد ، الذي ولاه الخليفة المكتفي أعمال الموصل ومات سنة (٣١٧هـ - ٩٢٩م) وخلفه ابنه حسن المسمى ناصر الدولة الذي ولاه المتقي حلب وديار مضر والعواصم ولما جاء الخليفة المتقي إلى الرقة كان سيف الدولة معه .

وكان ناصر الدولة وهو في بغداد يحارب معز الدولة قلد جمان قائد تركي في الرحبة وأخرجه إليها فعظم أمره فيها ، فأظهر العصيان على ناصر الدولة وعزم على التغلب على الرقة وديار مضر فسار إلى الرقة فحصرها سبعة عشر يوماً فحاربه أهلها وهزمه ، ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوه لشدة ظلمهم وسوء معاملتهم ، فلما عاد من الرقة وضع السيف في أهل الرحبة فقتل منهم مقتله عظيمة فأرسل إليه ناصر الدولة حاجبه ياروخ في جيش فاقتتلوا على شاطئ الفرات فانهمز جمان وغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى ياروخ .

وفي سنة ٣٣٣ سار سيف الدولة من سهول الرقة إلى حلب فملكها واستولى عليها وأسس فيها دولة الحمدانيين في حلب انتزعها من يد عمال الأخشيد صاحب مصر والشام وكان والي حلب له أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس الكلبي . وخرج أبو الفتح نفسه يستقبل سيف الدولة ودخل حلب في ربيع الأول سنة ٣٣٣ وولى قضاءها أبا الحصين علي بن عبد الملك الرقي . وجرت بين سيف الدولة والأخشيد حروب ووصل سيف الدولة إلى دمشق ثم خرج منها وهرب إلى الرقة . واستقر الصلح بين الاثنين وصارت ولاية حلب إلى سيف الدولة سنة ٣٣٦ وجرت بين سيف الدولة وبين الروم وقائع له وعليه . وحارب العشائر التي كانت تشور عليه في براري حلب . اجتمع في مجلسه عدد غير قليل من الشعراء فيهم المتنبي وأبوفراس الحمداني والصنوبري والخالديان وغيرهم توفي سنة ٣٥٦ في حلب ودفن في بلدة ميا فارقين في الجزيرة في تربته . وقد رأى سيف الدولة في الرقة العبارة وازدهار الصناعة والتجارة والزراعة ووفرة الخيرات فارهقها بالضرائب ليغذي حروبه ولينفق على بلاطه . وليمنح الأموال الكثيرة مادحيه من الشعراء .

ولم يكتف سيف الدولة بوضع الضرائب المهرقة على أهل الرقة ومصادرة أموالهم . بل عمل إلى نزع أبواب الرقة الحديدية الجميلة ، وأرسلها إلى خلفائه القرامطة في هجر عاصمة البحرين سنة ٩٦٤ كما قال مسكويه المؤرخ . وكان سيف الدولة يتردد على الرقة من وقت لآخر . ولما قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه ناصر الدولة في سنة (٣٥٨هـ) امتعض حمدان بن ناصر الدولة لذلك وعصى على أخيه بالرقة والرحبة .

فسار أبو تغلب إليه إلى الرقة وتحصن حمدان بها فحصره أبو تغلب فيها إلى أن صالحه على أن يقتصر على الرحبة ويسلم إليه الرقة والرافقة وكتب الخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) توفيقاً بتقليد أبي تغلب أعمال ناصر الدولة وسيف الدولة وكان أبو تغلب في الرقة .

وتنقلت الرقة في أيدي الحمدانيين طوال استمرار دولتهم التي انتهت سنة (٣٩٩هـ) ولقيت على أيديهم الضرر والتأخر، فكل أمير منهم كان يطمع بها وينهبها .

غلمان الحمدانيين بكجور يحكمون الرقة :

استولى الحاجب قرغويه غلام سيف الدولة على حلب سنة ٣٥٨هـ وأشرك معه غلامه بكجور وقطع الدعاء لابن سيف الدولة : سعد الدولة أبي المعالي ودام لقرغويه وبكجور الأمر حتى سنة ٣٦٤ وفي ذي الحجة من سنة ٣٦٤ استولى بكجور الحاجبي الكاسكي على حلب وحبس شريكه قرغويه . وكان سعد الدولة إذ ذاك بحمص فتوجه إلى حلب ومعه بنو كلاب وحاصرها فطلب بكجور الأمان في سنة ٣٦٧ فولاه سعد الدولة حمص ثم أخرجه فتغلب على دمشق وأخرجه منها المصريون سنة ٣٧٨ فمضى إلى الرقة وأقام فيها الدعوة للمصريين وكان سعد الدولة قد انحاز إلى المصريين (الفاطميين) وأقام لهم الدعوة بحلب سنة ٣٧٦

ووصلته خلع العزيز أبي منصور في شعبان من هذه السنة (بعهد القادر العباسي).

قوى أمر بكجور في الرقة واستمر فيها خمس سنوات وقصده سعد الدولة بجيش كبير بعد أن جمع اليه بني كلاب واستمال بني نمير ورغبهم في الاقطاع والعطاء الكثير ووعدهم بأن يعفونهم مساعدتهم لبكجور. فمالوا اليه وسار جيش سعد الدولة من حلب في الثاني والعشرين من محرم سنة ٣٨١ والتقى جيش سعد الدولة الحمداني وجيش بكجور على الناعورة قرب بالس (مسكنة) واشتد القتال فانهزم جيش بكجور وقبض سعد الدولة على بكجور وضرب عنقه وصلبه على أرض الناعورة وسار سعد الدولة إلى الرقة وفيها أولاد بكجور وحرمه وأمواله، فقبض سعد الدولة أموال بكجور وكانت ثمانمائة ألف دينار وصادر أموال نواب بكجور وقبض عليهم، بعد أن حلف لهم يميناً بأن لا يؤذيهم وأن يبقى لهم أموالهم. فنكت بعهده. ثم سار إلى حلب فأصابه الفالج في طريقه ومات في ٤ رمضان سنة ٣٨١ وحمل في تابوت إلى الرقة ودفن في المشهد ظاهرها (مشهد ويس القرني).

الرقة في عهد المرداسيين:

أسس الدولة المرداسية بحلب الأمير أبو علي صالح بن مرداس بن ادريس الكلابي سنة ٤١٦ وقتل سنة ٤٢٠.

كانت قبيلة كلاب إحدى القبائل العربية الضاربة في الجزيرة الفراتية والممتدة إلى نواحي حلب وبلاد بن ربيعة: بطن عظيم من عامر بن صعصعة من العدنانية أصلها من الحجاز وكانت حلب بيد لؤلؤ السيفي أحد غلمان الحمدانيين الذين كانوا تحت نفوذ الفاطميين بمصر.

خلف صالح بن مرداس في الحكم ابنه نصر الذي لقب شبل الدولة واستمر

حكمه من سنة ٤٢٠ - ٤٢٩ وخلفه معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح (٤٣٤ - ٤٤٩) ثم محمود شبل الدولة . ثم أبوفؤ ابة عطية بن صالح سنة ٤٥٤ هـ وقد انتهى أمر الدولة المرداسية على يد الدولة العقيلية سنة ٤٧٢ هـ . كانت الرقة في عهد هذه الدولة بيد شبيب بن وثاب النميري حليف المرداسيين وكان نصر بن صالح بن مرداس متزوجاً السيدة علوية بنت وثاب النميري أخت شبيب . وكان المرداسيون وشبيب في حرب مع أنوشتكين الدزبري أمير الجيوش المصرية والذي جاء من دمشق إلى حلب فهرب ثمال وشبيب والسيدة إلى الجزيرة . ومات شبيب بن وثاب في سنة ٤٣١ فاستولى أخواه مطاعن وقوام على ما كان في يده من الجزيرة . وكانت علوية امرأة نصر مقيمة بالرافقة ، وكان زوجها قد قتل ، فاحتلت على غلام أخويها الوالي بالرافقة وأخرجته واستولت على البلد لتقيم هيبتها به ويحفظ أمرها وحصل ثمال بن صالح على الرقة .

ونخشي الدزبري الموجود بحلب من قرب ثمال ، فاشترى قلعة دوسر على الفرات (قلعة جعبر) ليكون مطلقاً عليه . وشرع ثمال يعد العدة في الرقة للاستيلاء على حلب ، ولما مات فيها الدزبري في سنة ٤٣٣ تسلمها ثمال بن صالح بالتوقيع الذي سيره إليه المستنصر الفاطمي من مصر .

وفي سنة ٤٤٩ سلم ثمال بن صالح الرقة والرافقة إلى منيع بن شبيب بن وثاب النميري لأنها كانت لأبيه . وكان هذا وأبوه من قبل شبيب يخطبان للمستنصر بالله الفاطمي على منابر الرقة وحران .

وكانت الرقة قبل أن يستولي عليها بنونمير بيد سالم بن مالك العقيلي هي وقلعة جعبر ، ومنه انتزعها النميريون . ونمير قبيلة عربية قديمة بالرقة وآلت الرقة إلى جوشن النميري .

الرقة في عهد الدولة العقيلية :

أسس هذه الدولة العربي أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد

العقيلي بالموصل بعهد الخليفة العباسي احمد القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢) وتوفي مؤسسها سنة ٣٨٦، وامتدت حدودها إلى الفرات واستمرت بالموصل إلى سنة ٤٨٩. كانت تحت نفوذ الديلميّين ببغداد. انتهت هي والدولة الديلمية على يد السلجوقيين.

وفي سنة ٤٧٧ استولى شرف الدولة أبوالمكارم مسلم بن قرواش أحد أمراء الدولة العقيلية على الرقة.

وفي سنة ٥٠٢ جاء رسل سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر إلى جاويي سقاوا الأمير التركي المتغلب على الموصل والجزيرة والذي كان يعمل تارة لسلاجقة سورية وتارة لسلاجقة العراق والجزيرة وكان مقيماً بالرحبة (الميادين) استولى عليها بعد أن حاصرها سبعين يوماً يستغيثون به من بين نمير الذين استولوا على الرقة وقتلوا علي بن سالم العقيلي. ووعد العقيليون جاويي بوعود مقابل مساعدته لهم إذا هو أعاد لهم الرقة. فجاء جاويي من الرحبة إلى الرقة وحاصرها نحو شهرين فلم يقدر عليها، وضمن له بنونمير مالاً وخيلاً فعاد. وأرسل إلى العقيليين انه في أمر أهم من أخذ الرقة، وانه بإزاء عدو يجب التشاغل به دون غيره، (وكانت زوجة جاويي بالموصل لحفظها) وجاء جاويي إلى بالس ومنيج وخربها وعاد إلى الرحبة.

وهكذا تتوالى النكبات والمصائب على الرقة واخواتها مدن الفرات بسبب اضطراب الأحوال السياسية وتجزئة البلاد الذي أطمع الطامعين فكثرت المغزونات الطامعون بالاستيلاء على المدن الفراتية ونهبها وتخريبها.

الرقة في عهد الاتابكية :

اقطع السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي مدينة الرحبة إلى اقسنقر البرسقي، وكان مقيماً بها في سنة ٥١٢، وفي نفس السنة تقدم فنزل بأسفل الرقة

في عسكره محاولاً الاستيلاء عليها، ثم انحدر إلى العراق لمقابلة السلطان محمود بن ملكشاه ليوسع له اقطاعية الرجة ثم شغل مناصب أخرى.

وبعد موت آقسقر آلت الجزيرة الفراتية والركة إلى ابنه أتابك عماد الدين زنكي الذي استولى على الشام سنة ٥٢٢ و قتل سنة ٥٤١ وهو محاصر لقلعة جعبر غربي الركة على بعد ٦٥ كيلومتر على الضفة الشرقية للفرات ودفن في الركة وكان ابنه نور الدين محمود معه. فذهب من الركة إلى حلب. واستولى عليها وأسس الدولة الاتابكية سنة ٥٤١. ولقطة أتابك تركية تعني مربي الأمير، لأن السلاجقة كانوا يعهدون بأبنائهم إلى مربين من كبار رجال حاشيتهم يكونون لهم رواداً.

وكان عماد الدين زنكي أبلى بلاء محموداً في جهاد الصليبيين وفتح مدينة الرها واستولى عليها من الصليبيين سنة (٥٣٩هـ - ١١٤٢م) وكان لذلك وقع كبير حسن في نفوس المسلمين وكان الصليبيون يواصلون غاراتهم منها على الجزيرة الفراتية والركة. وفتح عماد الدين حصوناً أخرى من الجزيرة.

وبعد موت عماد الدين زنكي كانت الركة من أملاك آل زنكي بالموصل. وفي سنة ٥٥٧ سار نور الدين محمود بن زنكي من حلب إلى حران ثم إلى الركة وكان فيها أولاد أميرك الجاندار من أعيان الأمراء ومن عمال زنكي الموصل وقد توفي فيها وبقي أولاده في الركة. فنازلهم نور الدين وأخذ الركة منهم. وعاد إليها نور الدين في سنة ٥٦٣هـ وملك معها الخابور ونصيبين وسنجار. وفي عهد نور الدين انتعشت الركة واستعادت شيئاً من ازدهارها وشهرتها وبنى فيها سنة ١١٦٦م جامعاً ومنازة مستديرة لاتزال قائمة حتى اليوم داخل سور الركة ولا يزال جدار من جدران الجامع قائماً.

وفي هذا التاريخ قدم نور الدين الركة إلى أخيه مودود ملك الموصل. فأخذت شهرتها تتضاءل بسبب الحوادث وطمع الطامعين بها. وأصابها كثير من النهب والحريق والتخريب. والحق بها فيضان الفرات اضراً لعدم وجود سلطة قوية تتخذ الاجراءات لمكافحة فيضان الفرات.

وقد أضعفت الحروب الصليبية الكيان العربي كثيراً وأحدثت اضطراباً عظيماً في حياته الاقتصادية والاجتماعية فانحطت الرقة أكثر من غيرها لاتصالها بالعراق والشام ، ولما خرب التتر العراق واستولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م جفت معالم الحياة في الرقة وشل الرعب أهلها وأخذ القادرون يغادرونها إلى الشام ومصر.

وكانت في عهدها تحتال على الحياة بزراعتها وتجارتها وصناعتها الخزفية المزركشة بالأسود المذهب وذات الطلاء المعدني اللامع اشتهرت به الرقة في القرن الخامس والسادس الهجري .

وفي سنة ٥٦٩هـ استولى سيف الدين غازي بن قطب الدين زنكي على الرقة .

الرقة في عهد الايوبيين :

ظهرت الدولة الايوبية في خلافة الخليفة العباسي المستضيء بالله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ) وفي عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الايوبية على يد صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب الذي ظهر في كنف نور الدين زنكي ، وذلك في محرم سنة ٥٦٧هـ . ولد يوسف بن نجم الدين أيوب في تكرنت حوالي سنة ٥٣٢هـ وكان أول بروزه بالعمل خروجه إلى مصر وفيها أصبح وزيراً وأميراً لجيوشها وقد خلع عليه الخليفة العباسي ولقبه سلطاناً . وكانت الجزيرة الفراتية بيد سيف الدين غازي أخي نور الدين وكذلك الموصل . وقاتل صلاح الدين جنود سيف الدين غازي قرب حماه وهزمهم وقاتل الصليبيين في الشام والاسماعيلية . ورأى صلاح الدين انه لا يستطيع التفريغ لمحاربة الشمال إلا بعد أن يستولي على حلب والجزيرة الفراتية والموصل . خرج صلاح الدين من القاهرة في سنة (٥٧٨هـ - ١١٨٢م) . وبعد غارات على الفرنج بالشام جاء وعبر الفرات سنة

٥٧٨هـ وملك الرها وحران والرقه وبلدان الخابور ونصيبين وآمد . وحاصر الموصل
ثم تركها وعاد .

الصناعات القديمة في الرقة :

برعت الرقة بصناعة الصابون ، لكثرة ما كان فيها من أشجار الزيتون وقد
كثرت فيها معاصر الزيت في العصر العباسي وما قبله ، وكان مما فرضه عياض بن
غنم فاتح الرقة على أهلها تأدية كميات معينة من الزيت إلى بيت مال المسلمين
كل سنة ، وكان فيها الصابون الجيد الذي يدخل في تركيبه الزيت كما ذكر الرحالة
شمس الدين أبو عبد الله البشاري في سنة ٣٧٥هـ في كتابه (أحسن التقاسيم) .
وكانت تضرب فيها النقود . فقد عثر في اثناء الحفريات التي قامت بها
مديرية الآثار في قصر من القصور بالرقه خارج السور على نقود برونزية ضربت في
الرافقة سنة ٢١٠هـ بعصر المأمون .

ويستدل من كثرة الأواني الخزفية والزجاجية المختلفة الأشكال والصحون
والأباريق والأكواب والدنان والكؤوس والجرار والمصابيح والشوابك وخلافها مما عثر
عليه في خرائب الرقة : ان الرقة كانت أيام العباسيين وحتى في العهدين الاتابكي
والأيوبي مركزاً لمعامل خزفية وزجاجية كانت تكفي حاجة سكان المدينة وتفيض
بحيث كانت تصدر إلى البلاد المجاورة ، التي كانت تفخر بمصنوعات الرقة المتقنة
الجميلة ، والتي هي نتيجة الخبرة المتواصلة . وكانت صناعة الفخار والخزف
والزجاج منتشرة ورائجة ، مما جعل صناعتها في الرقة يتزاحمون باتقانها والتفنن
برسومها وكتاباتها وألوانها وأشكالها .

والأواني الزجاجية والخزفية التي وجدت في حفريات الرقة ذات زخارف
خطية وهندسية وملونة . وبعضها ذو زخارف بارزة هندسية وخطية ونباتية .
ووجدت أباريق نحاسية مزينة بكتابات .

وقد داعت شهرة لمدينة الرقة بصناعة الخزف وكانت الرقة تقف بهذه الشهرة إلى

جانب شهرة مدينة الموصل التي كانت أعظم مركز لصناعة التحف المعدنية المنزلة بالفضة والذهب في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة - الثاني عشر والثالث عشر - ولا بد أن تكون الموصل قد أثرت في صناعة المعادن بالرقعة - للعلاقات الادارية والتجارية والسياسية التي كانت بين المدينتين الجزيرتين قروناً والمتأثرين كل منهما بالأخرى وبمعدن الجزيرة الفراتية .

واليك ما جاء عن خزف الرقة في كتاب (الفنون الاسلامية) تأليف م . س . ديهاند، ترجمة أحمد محمد عيسى - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ (ص ١٩٥ - ١٩٧) .

«من أنواع الخزف الاسلامي المعروف، نوع ينسب إلى مدينة الرقة على نهر الفرات، وقد تداولت أيدي التجار السوريين كميات كبيرة منه امتلأت بها الأسواق. وهي التي ترى اليوم في المتاحف والمجموعات الخاصة. وعلى الرغم من أنه لم تقم بمدينة الرقة حتى الآن حفريات علمية منظمة، إلا أن أبحاث زره وهرتزلد بتلك المنطقة - وما عثر عليه من خزف تالف هناك - يدلان على أن الرقة كانت مركزاً هاماً لصناعة الخزف واستمر خزف تلك المدينة ينسب خطأ إلى عصر هارون الرشيد بسبب اقامته هناك بعض الوقت .

غير أن زخارف آنياتها وأسلوب رسوم الأشخاص تدل على أنها في عصر متأخر. ومع أنه يمكن ارجاع بعض خزف الرقة إلى القرن الحادي عشر، إلا أن معظمه يرجع إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر، لاحتوائه على عناصر زخرفية هي من مميزات عصر اتابكية السلجوقيين في سوريا والعراق .

وهناك أنواع عديدة مختلفة من خزف الرقة ذي البريق المعدني وذي الزخارف وتشتمل الأواني ذات البريق المعدني على زهريات وأباريق وسلاطين وكاسات مختلفة الاحجام . أما ألوان البريق المعدني السائدة فهي : البني الداكن، وهو من الألوان النادر استعمالها في مراكز صناعة الخزف الأخرى . وتزين أواني الرقة زخارف نباتية وكتابات نسخية أو كوفية، وأحياناً رسوم طيور محورة تحويراً كبيراً،

ومرسومة بالبريق المعدني على طلاء شفاف محضر يزيد في بهجته أحياناً إضافة اللون الأزرق الزهري إليه . ورسوم بعض القطع على جانب كبير من الرشاقة والجمال ، ويرجع ابداعها إلى القرن الثاني عشر . أما زخارفها النباتية والكتابية فقد تركت بيضاء أو رسمت بالبريق المعدني البني اللون . وكان الموضوع الزخرفي يرسم على أرضية من الأشكال الحلزونية .

ومن الأنواع الأخرى المعروفة من خزف الرقة نوع رسمت زخارفه باللون الأسود تحت طلاء أزرق فيروز . وتتكون الحلقات الرئيسية في هذه المجموعة من الأواني ، من زخارف نباتية ، وزخارف متشابكة وحروف كوفية وطيور الحقت بها رسوم نقط وشولات ولوالب داخل مناطق منفصلة .

وكثيراً ما يختلط هذا النوع من خزف الرقة مع نوع آخر مشابه من الخزف الإيراني تزينه زخارف باللونين الأسود والأزرق .

ومع ذلك فإن طينة هذين النوعين يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، إذ أن النوع الإيراني أشد صلابة وأقل مسامية وأميل إلى اللون الأبيض المغبر منه إلى البرتقالي . وتعد بعض قطع الرقة المرسومة باللونين الأسود والأزرق من بين روائع منتجات الخزف الإسلامي وفي مجموعة هوارس هيماير بينيويورك : سلطانيان من هذا النوع يزينها رسم طاووس ، يؤلف الخط الذي يحدد جسميهما وذيلاهما المنفرجين على شكل دائرة ، موضوعاً زخرفياً جذاباً ، ومن القطع الأخرى المشهورة سلطانية بمتحف المتروبوليتان ، يحتمل أن تكون من القرن الثاني عشر . وزينها تينان متشابكان ، لهما جسد ثعباني منقط إلى جانب تفريعات نباتية تركت باللون الأبيض على أرضية سوداء .

ونلاحظ كثيراً في الأباريق الكبيرة بروز الزخرفة وتلوينها باللون الأسود . وتوجد إلى جانب خزف الرقة ذي اللونين الأزرق والأسود ، مجموعة ذات زخارف متعددة الألوان تذكرنا ببعض أنواع الخزف الإيراني في القرن الثالث عشر . وتشمل زخارف هذه المجموعة على رسوم حيوانات لها رؤوس آدمية ورسوم

محاربين وصيادين وحيوانات وتفرّيعات نباتية استخدمت فيها الألوان الأسود والأزرق والأخضر والبني الفاتح تحت طلاء شفاف مائل إلى الأخضرار. وأسلوب هذه المجموعة الشبيهة بخزف الرقة ذي البريق المعدني يمثل الأسلوب السلجوقي في اصدق تمثيل.

ويشبه ما عرفنا من خزف الرقة ما عثر عليه من خزف بمدينة الرصافة الواقعة في صحراء سورية على مقربة من الرقة.

وكانت صناعة الأجر قديمة وشائعة في الرقة، لعدم وجود مقالع حجر في محيطها. وكان انتاج مصانع الأجر فيها كثيراً لتلبي حاجة السكان المتزايدة إلى بناء الدور وخاصة لبناء قصور الأمراء والقواد العديدة الحجرات والأبهاء والمرتفعة الحيطان، وذات الأسوار للقصور وحدائقها.

ان جميع بناء الرقة كان من الأجر. وقد اتقنوا صنعه بحيث أن الأجر الموجود قاوم عوامل الطبيعة مئات السنين، وبلغ من جودة اتقانه أنه لا يزال يبدو وكأنه قد صنع من مدة قريبة. ولولم تعبت أيدي سكان الرقة بأطلالها لانتزاع الأجر منها لبناء دورهم لبقيت أطلال كثيرة دون أن تؤثر فيها العوامل الطبيعية وتطاول الزمن. وتهدمت أبنية كثيرة بفعل الهزات الأرضية والحريق.

ان جميع بناء الرقة منذ مائة عام إلى ما قبل بضع سنين انتزع من أنقاض الرقة القديمة وكان صالحاً للبناء.

واستعمل سكان الرقة القديمة اللبن أيضاً في بناء سور الرقة وأبراجه والبرج الكبير الذي كان في مدخل الرقة من عند الجسر والذي كان يسمى (القلة) وتلفظ القاف قافاً يمانية هومن اللبن ويدخل فيه عواميد خشب لتمسكه وقاعدته من الحجر وقد أزيل في سنة ١٩٥٥. وربما كان المرصد الذي عمل فيه العالم الفلكي البتاني.

ولا بد من انه كان في الرقة صناعات كثيرة كالنسيج وصنع أسرجة الخيل وأجتمتها وصنع السلاح لتلبي حاجة الجيوش التي كانت تنزل الرقة وتتمون منها.

إلى غير ذلك من الصناعات مما لم يصلنا شيء مكتوب عنها . ولعله يكشف في المستقبل عن مخطوطات تلقي بعض الضوء على هذه الناحية الخافية من تاريخ الصناعات في الرقة .

فارس الرقة الخزفي :

للتدليل على أهمية خزف الرقة نقدم تعريفاً بدمية منه هي (فارس الرقة) دخلت متحف دمشق في أواخر سنة ١٩٤٩ . وهو أثر منقطع النظر ، له أهمية كبيرة في تاريخ الفن الاسلامي ويعد من أعظم الآثار الاسلامية التي وصلت إلينا من أشهر محتويات متحف دمشق .

يزعم تاجر العاديات الذي ملكه أنه سرق من حفريات السيد دولورية بالرقة . وبيع بحلب ونقل إلى باريس قبل الحرب العالمية الثانية طمعاً ببيعه بسعر عال وأصلح هناك اصلاًحاً علمياً ، لأنه كان مكسوراً في حذاء قوائمه وفي مؤخرته . وفي رأسه وسيفه وترسه بعض الصدوع ، وكانت تنقصه قطع في عنق الجواد ، فأكملت ثم أعيد إلى سورية واشترته مديرية الآثار والمتاحف العامة بدمشق .

يبلغ ارتفاعه (٥, ٤٦سم) يمثل محارباً اسلامياً له لحية مثلثة وصفيرة طويلة تنحدر على ظهره ، وعلى رأسه خوذة مخروطية ، متسربل بدرع طويلة . وفي يده اليمنى سيف مسلول ذو نصل عريضة . وفي يسراه مجنة مستديرة . أما الجواد فصغير الرأس ضخيم الجسم والقوائم . وله لجام غليظ يتألف من ثلاثة حبال تحيط برأسه وله سرج وصدار . والفارس يهيم بضرب ثعبان يلتف على قائمة الجواد الأمامية اليمنى ثم على القائمة اليسرى .

هذا الشكل مصنوع ضمن قالب ، وتعلوه طبقة زجاجية رقيقة . ووجه الفارس ورأس الحصان وجسمه ملونة باللون الأبيض . والسيف ولحية الفارس

واللجام والخوافر والحبال باللون الأزرق . والمجنّة والدرع وقدا الفارس والشعبان
باللون البنفسجي وخوذة الفارس وعيناه باللون الأخضر .
وصفه سليم عادل مدير الآثار والمتاحف بدمشق في الجزء الأول من مجلة
الحوليات الأثرية السورية ص ١٧٥ و ١٧٦ القسم العربي . وله صورة في القسم
الغربي من الجزء .

مشاركة الرقة بالحركة العلمية العباسية :

كانت الرقة في كل عصورها مركزاً عسكرياً ممتازاً ومنطقة تجارية مزدهرة
كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار متوسطة الموقع ، وهذه الأسباب كانت من مراكز
العلم والأدب في بلاد ما بين النهرين قبل الاسلام في العهد الآرامي والبيزنطي
حيث كانت مركز أسقفية نبغ فيها أساقفة وكهنة علماء تولوا مناصب كهنوتية عالية
والفوا كتباً ونبغ فيها أدباء وعلماء وشعراء آراميون .
وفي العصور الاسلامية خرج منها شعراء وفقهاء وأدباء ولغويون وقضاة
ومؤدبون ورواة وفلاسفة وأطباء ومحدثون .

فهي قد عرفت في كل عصورها إلى أن خربت بغارات التتر في القرن
الثالث عشر للميلاد حركة علمية وأدبية لم تفتّر ، وشاركت في الحركة العلمية في
العصور الاسلامية مشاركة واسعة بمن خرج فيها من الأدباء والعلماء والفقهاء
وبمن نزلها من اضراهم .

فكانت في العصرين الأموي والعباسي من مراكز العلم والأدب في المملكة
العباسية . والغريب أن الذين يذكرون مراكز الأدب في العصر العباسي يعدون
الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة ودمشق فقط ويغفلون اسم مدينة يشرف التاريخ
الأدبي اسمها . ويحمل أبناؤها نسبته اليها الرقي الرقيون وأحياناً الجزري
الجزريون . وهذه أسماء بعضهم ولمحات عنهم مما تيسر لنا العثور عليه من أبنائها
ومن نزلها . فقد اجتذبت في مختلف عصورها أدباء وشعراء وكتاباً وعلماء وفقهاء من

مختلف الأصقاع الإسلامية أقاموا فيها مدداً مختلفة، فمنهم من طالت مدة إقامته سنين عديدة، ومنهم من قصرت عن ذلك. وما من شاعر أو كاتب أو أديب قدم الرقة إلا وذكرها في شعره وكتابه وأثنى عليها، وتغنى بعضهم برياضها وبساتينها وتغزل آخرون بنسائها ووصفوا ما تركت الرقة في نفوسهم من انطباعات. وافتخر بعضهم بإقامته بالرقة وعدوها وطناً لهم أثروه على غيره حتى على أوطانهم الأصلية.

ولقد شارك هؤلاء الأدباء الذين نزلوا الرقة في تغذية الحركة الفكرية فيها وفي توسعتها متعاونين مع أدباء الرقة. وكان من تلاقي أولئك وهؤلاء حركة علمية واسعة عرفت بها الرقة وشاركت فيها بالحركة العلمية العامة في العصور العباسية كافة وخاصة في زمن الرشيد وابنه المأمون منتصف القرن السابع للهجرة. وحسبك من أهمية من نزل الرقة أولئك الفحول من الأدباء الذين كانوا يرافقون الرشيد إلى الرقة ويؤلفون حاشيته أمثال العتابي الذي كان وحده مدرسة أدبية.

قل من بين أدباء العرب من لم يزر الرقة. ولورحنا نستقصي عدد من نزلوا الرقة من العلماء والأدباء فضلاً عما خرج فيها من الأدباء لبلغنا سفراً ضخماً.

عبد الله بن عمر محدث الجزيرة ومفتيها:

هو عبد الله بن عمر بن أبي الوليد الأسدي ولد سنة إحدى ومائة ومات سنة ثمانين ومائة، كان ثقة صدوقاً كثير الحديث، وكان أحفظ من روى عن عبد الكريم الجزر، ولم يكن أحد ينازعه في الفتوى في دهره مات بالرقة سنة ١٨٠ في خلافة هارون الرشيد. ذكر في طبقات ابن سعد. وفي الشذرات لابن العماد: أنه ابورهب عبيد الله بن عمرو الرقي الفقيه محدث الجزيرة ومفتيها، روى عن عبد الملك بن عمرو وطبقته. قال محمد بن سعد: كان ثقة لم يكن أحد ينازعه في الفتوى في دهره وذكره القشيري وذكر أسماؤه من أخذوا عنه.

خالد بن حيان الرقي :

ويكنى ابا يزيد الخراز، كان ثقة ثبتا حدث عنه جماعة من أهل الرقة مات بالركة في ذي القعدة سنة احدى وتسعين ومائة في خلافة هارون الرشيد، وكان يوم مات قد دخل في السبعين ولم يستكملها: من الطبقات لابن سعد. وقال صاحب ميزان الاعتدال: خالد الرقي هذا مولى كندة عن جعفر بن يرقان وسالم بن أبي المهاجر، وعنه أحمد بن حنبل وسجادة وجماعة، قال أحمد لم يكن به بأس، كتبنا عنه غرائب. وقال عبد الخالق بن منصور سمعت معين يوثقه وقال النسائي ليس به بأس. وذكره القشيري.

حكيم بن نافع الرقي :

حدث عنه أهل الرقة وأهل الجزيرة، يروي عن صغار التابعين، قال ابن معين: ليس به بأس سمع عطاء الخراساني وخصيفا. وفي تاريخ بغداد: حكيم بن نافع أبو جعفر القرشي الرقي نزل بغداد وحدث بها عن عطاء الخراساني وهشام بن عروة وسليمان الأعمش وخصيف بن عبد الرحمن وروى عنه محمد بن بكار. وحدث ابن الجنيد قال سألت يحيى بن معن عن حكيم بن نافع القرشي الرقي فقال: لا بأس به.

اسماعيل بن عبد الله الرقي :

هو اسماعيل بن عبد الله بن خالد العبدي الرقي ولى قضاء دمشق في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وتوفي بعد الأربعين ومائتين. كان صدوقاً روى عنه ابن ماجة. ذكر في ابن عساكر وفي ميزان الاعتدال.

فياض بن محمد :

ابن سنان كان يتولى قريشاً ومنزله ملاصق بمسجد الجامع مات بالرقعة بعد المائتين . كان عبيد الله بن الوليد الحراني يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ما مات بالرقعة افضل من فياض بن محمد (بزمان المأمون) .

الفيض بن اسحاق الرقي :

في طبقات ابن سعد «الفيض بن اسحاق ويكنى أبا يزيد من أهل الرقة وكان صاحب حديث وخبر وغزومات بالرقعة سنة ست عشرة ومائتين في خلافة عبد الله بن هارون» .

وقال القشيري ذكر بعض شيوخنا انه ضيَّب الحجر الأسود وشرط أن يأخذ نحائته ، وكان رجلاً صالحاً وهو صاحب الفضيل بن عياض مات بعد فياض بن محمد .

عمرو بن عثمان الكلابي الرقي :

ابن سيار يتولى بني كلاب ، كنيته أبو عمرو مات بالرقعة سنة سبع عشرة ومائتين . قال ابن عدي : روى عنه ثقات وهو ممن يكتب حديثه وروى عنه محمد بن يحيى . ذكر في ميزان الاعتدال وذكره القشيري .

موسى بن مروان البغدادي :

في تاريخ بغداد : موسى بن مروان أبو عمران نزل الرقة وحدث بها عن المعافي بن عمران الموصلي وأبي معاوية الضرير ، وروى عنه الحسين بن عبد الله بن يزيد الرقي وجنيد بن حكيم ، مات بالرقعة وبها ولده كان ينزل فندق حسين الخادم بربض الرافقة سنة ست وأربعين ومائتين» .

قد اندرس هذا الفندق مع ما اندرس من معالم الرقة .

عبد السلام بن عبد الرحمن :

في خلاصة تذهيب الكمال : «عبد السلام بن عبد الرحمن بن صخر الأسدي الوابسي أبو الفضل الرقي قاضيها وقاضي حران وحلب وبغداد حدث عن أبيه وكيع مات بالرقعة سنة تسع وأربعين ومائتين ، ولعبد السلام ترجمة وافرة في تاريخ بغداد .

عمر بن الصباح :

في تاريخ بغداد : «عمر بن الصباح بن عمر بن علي أبو حفص البغدادي نزل الرقة وحدث بها عن سفيان بن عيينة ، روى عنه الحسين بن عبد الله القطان الرقي مات بالرقعة سنة سبع وثلاثين ومائتين . وذكره القضيبي .

أبو شعيب السوسي :

صالح بن زياد مقرئ أهل الرقة وعالمهم . تصدر للآراء مات بالرقعة في المحرم سنة إحدى وستين ومائتين .

محمد بن عبيد الله بن العظيم :

الكريزي أبو عبد الله البصري قاضي مصر ، مات بالرقعة سنة ستين ومائتين .

محمد بن خالد بن جبلة الرافقي :

سكن الرافقة ومات سنة خمس وستين ومائتين ، يقال أن البخاري حدث عنه .

محمد بن علي بن ميمون الرقي العطار :

الحافظ، كان أمام أهل الجزيرة في عصره، ثقة مأموناً، ولد سنة ثلاث وتسعين ومائة. ومات سنة ثمان وستين ومائتين. وكنيته أبو العباس.

عبد الملك بن عبد الحميد الميموني:

الفقيه أبو الحسن الميموني الرقي صاحب الامام أحمد، روى عن اسحاق الازرق، ومحمد بن عبد وطائفة، وكان جليل القدر في أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، وكان أحمد يكرمه ويحله.

روى عنه مسائل كثيرة جداً في ستة عشر جزءاً وجزئين كبيرين.

قال الحافظ بن ناصر الدين في بديعة البيان: عبد الملك بن عبد الحميد بن ميمون بن مهران الميموني الجزري الرقي أبو الحسن، وثقة النسائي وأبو عوانة وغيرهم. روى علوم ديننا القديم توفي في ربيع الأول أربع وسبعين ومائتين، وكان سنه يوم مات دون المائة.

هلال بن العلاء أبو عمرو الرقي:

حدث أهل الرقة وشيخها توفي في ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين، وقد قارب التسعين، وله شعر رائق قاله في العبر. ولد في رجب سنة أربع وثمانين ومائة.

أحمد بن العلاء أبو عبد الرحمن:

القاضي الرقي، ولد سنة ١٩٢هـ، سمع الحديث من جماعة وروى عنه جماعته. وقدم دمشق في أيام أحمد بن طولون، وكان ممن خلع الموفق بن المتوكل بن المعتصم بها سنة ٢٦٩هـ ومات وهو قاضي مصر سنة ست وسبعين ومائتين وهو أخو خلال بن العلاء أبو عمر الرقي. ذكره ابن عساكر.

محمد بن علي الحسن بن حرب:

ابو الفضل القاضي من أهل الرقة قدم بغداد وحدث بها . قال الدارقطني عنه أنه ثقة . ولد سنة اثنتين وثلاثين ومات سنة أربع عشرة وثلاثمائة . ذكر في تاريخ بغداد وذكره القشيري . وله أخ هو الحسن بن علي بن الحسن بن حرب قاضي الثغور ولد سنة ثلاثين ومات سنة اثنتين وثلاثمائة بطرسوس التي كان المأمون مات بها في كليكية .

أحمد بن أبي عبد الله بن محمد الرقي :

ابن خالد أبو جعفر ، عالم وأديب ، ثقة في نفسه ، صنف كتباً كثيرة ، ذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء . منها كتاب التاريخ ، وكتاب اختلاف الحديث ، وكتاب الدواجن وكتاب الشعر والشعراء وكتاب النمو . توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين . وذكره حاجي خليفة بكشف الظنون وياقوت بمعجم الأدباء .

إبراهيم بن أحمد بن محمد :

ابن المولد ، أبو اسحاق الصوفي الواعظ الرقي من كبار مشايخ الرقة وفتيانها روى الحديث وصحب أبا عبد الله الدمشقي وإبراهيم بن داود القصار الرقي والجنيد وغير واحد . وروى عنه تمام بن محمد وأبو عبد الرحمن السلمي . كان يحدث بالركة وتروى أحاديثه وتتناقل أقواله . ومن أقواله المروية : عجت لمن عرف أن له طريقاً إلى ربه كيف يعيش مع غير الله تعالى . والله يقول : « وأنبيؤا إلى ربكم واسلموا له » . وقال : « الأدب في الأكل الا يمدوا أيديهم إلى الازفاق إلا في أوقات الضرورات ، ثم على قدر امساك الرمي » . وقد أورد ابن عساكر من شعره قوله :

لك مني على البعاد نصيب	لم ينله على الدنو حبيب
وعلى الطرف من سواك حجاب	وعلى القلب من هواك رقيب
زين في ناظري هواك وقلبي	والهوى فيه رائع ومشوب

كيف يغني قرب الطبيب عليلاً
توفي ابراهيم بن أحمد المولد، بفتح الواو سنة ثلاثمائة .
ترجم له أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه (طبقات الصوفية) وله ترجمة في
طبقات الشعرا وفي حلية الأولياء . وفي شذرات الذهب . وترجم له ابن كثير في
كتابه (البداية والنهاية) .

ابراهيم القصار:

من كبار الصوفية، وهو ابراهيم بن داود الرقي، أبو اسحاق، من جلة
مشايخ الشام، من أقران الجنيد وابن الجلاء، إلا أنه عمر. وصحبه أكثر مشايخ
الشام، وكان لازماً للفقير، مجرداً فيه، محباً لأهله .
ومن أقواله: «قيمة كل انسان بقدر همته . فان كانت همته الدنيا فلا قيمة
له، وان كانت همته رضاء الله تعالى فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف
عليها» .

«حسبك من الدنيا صحبة فقير وخدمة ولي» .
«أضعف الخلق من ضعف عن رد شهواته، وأقوى الخلق من قوى على
ردها» .

«من تعزز بشيء غير الله فقد ذل في عزه» .
توفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة . ترجم له في طبقات الصوفية لأبي عبد
الرحمن السلمي . وفي حلية الأولياء . وفي طبقات الشعرا .

عبد الرحمن بن جعفر النحوي الرقي:

قال صاحب يتيمة الدهر: أنشدني الخوارزمي لعبد الرحمن بن جعفر
النحوي الرقي :

قل لمن تاب ولم يقض من اللذات نحيبه
توبة الحشوى لا تعدد عند الله حبه
أم من تسبقه أمدت إلى الجنة قبحه.

عيسى بن المعلى بن مسلمة الرافقي :

قال عنه ياقوت في معجم الأدباء : «أحد أدباء عصرنا، أدخل من ذكره خول قطره كان مؤدياً (بكسر الدال) بمدينة الرقة التي على الفرات ، وله شعر كثير وفضائل جمة وعدة تصانيف منها : كتاب تبين الغموض في علم العروض وجدته بخطه وقد كتبه في سنة تسعين وخمسةائة . وعاش بعد ذلك . وله كتاب في اللغة حسن في مجلدين ضخمين رأيته بخطه أيضاً . كتاب ديوان شعره مجلدان» .

الحسين بن محمد جعفر الرافقي :

المعروف بالخالع ، أحد كبار النحاة ، كان اماماً في النحو واللغة والأدب وله شعر . أخذ عن أبي علي الفارسي وأبي الحسن البرافي وغيرهما . وله من التصانيف كتاب الأودية والجبال والرمال وكتاب الأمثال ، وكتاب تخيلات العرب ، وشرح شعر أبي تمام ، وكتاب صناعة الشعر . توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة . ومن شعره في الأخلاق :

لا تعبسن بوجه عاف سائل خير المواهب أن ترى مسئولاً
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً
يلقى الكريم فيستدل ببشره ويرى العبوس على اللئيم دليلاً
وأعلم بأنك لا محالة صائر خيراً فكن خيراً يروق جميلاً
أورد ياقوت في معجم الأدباء طرفاً من شعر الحسين الرافقي في الغزل وترجم له في بغية الوعاة .

علي بن عبد الرحيم بن الحسن الرقي اللغوي :

ابن عبد الملك بن ابراهيم السلمي المعروف بابن العصاد، اللغوي من أهل الرقة، ورد بغداد وقرأ العلم بها. مات في ثالث المحرم سنة ست وسبعين وخمسة. ومولده في سنة ثمان وخمسة انتهت اليه الرياسة في معرفة اللغة العربية. وتخرج به جماعة. وكان موسراً سافراً كثيراً إلى الديار المصرية، وأخذ عن أهلها وروى عنهم. وكان مليح الخط. ترجم له ياقوت في معجم الأدباء.

هبة الله بن حامد النحوي اللغوي الرقي :

ابن احمد بن ايوب ابو منصور، يعرف بعميد الرؤساء، أديب فاضل نحوي لغوي شاعر. شيخ وقته ومتصدر بلده (الرقة). أخذ عنه أهل تلك البلاد الأدب وأخذ هو عن ابن العصاد وغيره. وله نظم ونثرات سنة عشرة وستماية ترجم له ياقوت بمعجم الأدباء.

الحسن بن داوود الرقي :

له كتاب الحلي، وهو مؤدب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد.

أبو طالب الرقي :

قال صاحب يتيمة الدهر: «لم أجد ذكره إلا عند أبي بكر الخوارزمي، وسمعته يقول انه أحد المقلين المحسنين الذين يطبقون المفصل في اغراضهم وينظمون الدر في معانيهم وألفاظهم وروى له في اليتيمية مقطوعات شعرية».

أبو القاسم الرقي :

منجم سيف الدولة بن حمدان ملك حلب.

عبيد الله بن علي الرقي :
كان اماماً في اللغة العربية .

ابو الحصين علي بن عبد الملك الرقي :

من أهل الرقة ، ولاءه سيف الدولة الحمداني قضاء حلب يوم دخلها لثمان
خلون من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وكان ظالماً إذا مات
انسان قضى بتركته لسيف الدولة .

وكان ابو الحصين صديقاً للشاعر أبي فراس الحمداني حاكم منبج وبينهما
مراسلات ومساجلات شعرية وقد روى صاحب يتيمة الدهر طرفاً من هذه
المراسلات والمساجلات ، وكان أبو الحصين يتردد على بلدة الرقة من حين إلى
حين قادماً إليها من حلب عاصمة سيف الدولة .

قيل كان أبو الحصين مع سيف الدولة في غزوة مغارة الكحل سنة تسع
وأربعين وثلاثمائة في بلاد الروم فقتل سيف الدولة وسبى وعاد يريد درب مغارة
الكحل فوجد الروم قد سبقوه إليها فتحاربوا وتغلب الروم فارتجعوا ما أخذوه
المسلمون منهم . وأخذوا خزانة سيف الدولة وكراة وقتل فيها خلق كثير وأسر أبو
فراس الحمداني وترك بخرشنة . وقيل أن أبا الحصين قتل في المعركة فداسه سيف
الدولة بحصانه .

أطباء رقيون :

ذكر ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المتوفي سنة
٦٦٨ بكتابة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء الذي ألفه سنة ٦٤٣ بمدينة دمشق :
«ان الحكيم بدر الدين عبد الرحمن بن قاضي بعلبك قدم الرقة في البيارستان

الذي بها وصنف مقالة حسنة في مزاج الرقة وأحوال هوائها وأقام بها سنين» وبدر الدين توفي في سنة (٦٦٠هـ - ١٢٦٢م).
وترجم ابن أبي أصيبعة لطبيين رقيين هما:

أبو بكر محمد بن الخليل الرقي :

«كان فاضلاً في الصناعة الطبيعية، عارفاً بأحوالها وفروعها، جيد التعليم حسن المعالجة، وهو أول من وجدناه فسر مسائل حنين بن اسحاق في الطب، وكان تفسيره لهذه الكتابة في سنة ثلاثين وثلاثمائة وقيل أنه ما كان يفسر الا سكران. وللرقي من الكتب وشرح مسائل حنين في الطب» ص ٢٣٤ .

عيسى الرقي :

المعروف بالتفليسي ، كان طبيباً مشهوراً في أيامه عارفاً بالصناعة الطبية حق معرفتها وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة . وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان ومن جملة أطبائه الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين طبيباً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم وكان من جملتهم عيسى الرقي وكان مليح الطريقة له كتب في المذهب . وكان ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق . رزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين . ص ١٤٠ .

ابراهيم الرقي :

هو برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي الحنبلي ولد بالرقّة سنة سبع وأربعين وستائة . قرأ وسمع الحديث ببغداد، ودرس مذهب ابن حنبل ونبه شأنه فيه حتى صار قدوة .

عني بتفسير القرآن والحديث والفقه، واشتغل بوعظ الناس، وكانت له فيه مقدرة ممتازة. قدم دمشق فسكن بالمأذنة الشرقية في أسفلها بأهله وكان معظماً عند الخاص والعام. فصيح العبارة كثير العبادة خشن العيش. حسن المجالسة، لطيف الكلام. كثير التلاوة. له مصنفات وخطب وشعر حسن. واختصر جملة من كتب الزهد منها: احسان المحاسن. وصنف تفاسير للقرآن. مات بدمشق في ليلة ١٥ المحرم سنة ٧٠٣ هـ الموافقة لسنة ١٣٠٣ م. وكانت ولادته سنة ١٢٤٩ م ودفن بسفح جبل قاسيون. ذكر في الدرر. وشذرات الذهب. وطبقات السبكي والبداية والنهاية.

يحيى بن البحتري:

جاء في تاريخ بغداد: أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد المظفر الدقاق قال أخبرني بن يحيى قال: أملي على أبو الغوث يحيى بن البحتري نسب أبيه بالركة. وفي ابن عساكر بالرصافة سنة احدى وتسعين ومائتين فقال هو: الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شمال بن طيء بن قحطان.

بعض قرى الرقة القديمة:

نورد ذكرها للتدليل على عمران منطقة الرقة قديماً نقلاً عن معجم البلدان.

دامان:

(قرية قرب الرافقة، بينها خمسة فراسخ، وهي بازاء فوهة نهر النهبا واليهما ينسب التفاح الداماني الذي يضرب بحمرته المثل يكون ببغداد. ينسب اليها أحمد بن فهر بن بشير الداماني مولى بني سليم يقال له الرقي. روى عنه أهل الجزيرة، توفي بعد المائتين.

باجدا :

«قرية كبيرة بين رأس العين والرقعة، وكان مسلمة بن عبد الملك أقطع موقعها رجلاً من أصحابه يقال له أسيد السلمي، فبنها وسورها. وفيها بساتين وتسقيها عين تنبع من وسطها يشرب منها الناس وما فضل يسقي زروعها وهي قرب حصن مسلمة بن عبد الملك. منها محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد الحراني يعرف بابن تيمية وهو اسم لجدته، وكانت واعظة البلد، يعرف بالباجدي. وكان شيخاً معظماً بحران وخطيبها وواعظها ولأهل حران فيه اعتقاد ظاهر، وكان نافذ الأمر فيهم، مطاعاً سمع الحديث ورواه مات سنة ٦٢١».

باجروان :

قرية من ديار مضر بالجزيرة من أعمال البليخ.

الرقعة في عهد الأتراك العثمانيين :

كان وادي الفرات السوري (الفرات الأوسط جزءاً من مملكة أيوبي حلب، إلى تاريخ استيلاء التتر على هذه البلاد سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م) وبعد فترة التتر القصيرة انتقل الحكم إلى المماليك الذين حكموا مصر والشام إلى سنة (٩٢٣هـ - ١٥١٦م). حيث فتح السلطان العثماني سليم سورية بعد أن انتصر على آخر المماليك قانصوه الغوري في مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ آب ١٥١٦ وقتله وتابع سبيله إلى دمشق فدخلها في ٢٦ أيلول ١٥١٦ ودخل القاهرة بعدها. واستولت الدولة العثمانية على العراق عام (٩٤١هـ - ١٥٣٥م) في عهد السلطان سليمان القانوني فكانت الجزيرة الفراتية كلها داخلة في حدود مملكتهم. وكانت كمعها في السابق موطن قبائل عربية وكردية. وكانت هذه القبائل مصدر اقلق للأمن وتعديات على حدود المدن العثمانية وعلى الجيوش والقوافل السالكة

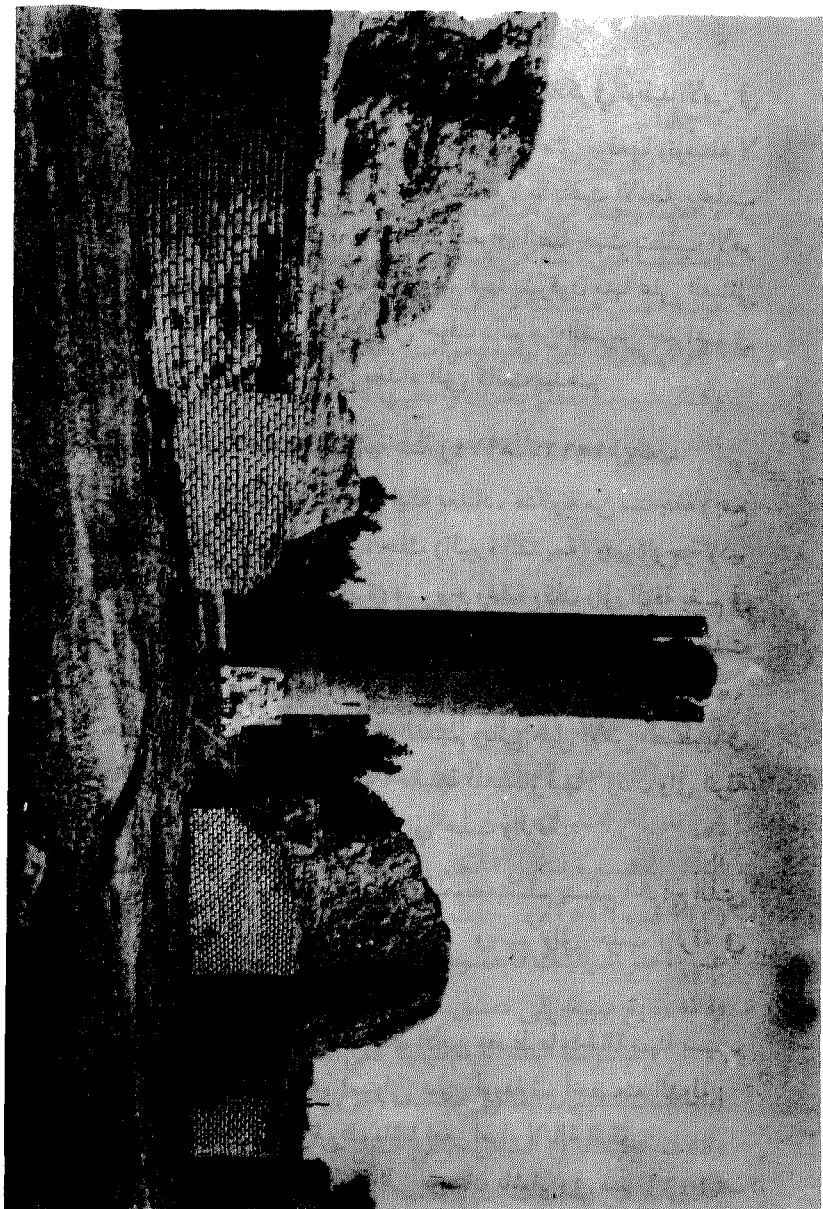
بين العراق والشام والأناضول . فلم يكن بد للدولة من أن تفكر في توطيد الأمن في الجزيرة الفراتية . وكانت الرقة خراباً . غير أن موقعاً متميزاً مثل موقعها وتوسطه لا يطول خرابه وإهماله . ولها من سحر اسمها القديم ، ما يلفت الأنظار ويجذب الاهتمام . فقد تنبه اليها العثمانيون بعد فتحهم للعراق أيضاً حيث يتطلب الأمر بوضع العراق الاهتمام بالجزيرة وبإيجاد مراكز لهم فيها يشرفون منها على القبائل ويؤمنون مواصلاتهم إلى العراق وهم في خوف دائم من الفرس جيرانهم في العراق والذين يطمعون بالاستيلاء على بغداد التي كانت بيدهم .

ولما صدرت تشكيلات الولايات العثمانية سنة (٩٧٤هـ - ١٥٦٦م) بعهد السلطان سليمان كانت الرقة إيالة مثل إيالة بغداد، متكونة من سناجقة (جمع سنجق) أي منطقة الرقة، وأورفة، وبيرة جك (البيرة القديمة) ودير الرحبة (دير الزور والخابور، وبني ربيعة) (أعلى الجزيرة) وسروج وعانة وكان والي الرقة يقيم في أورفة، بالنظر لخراب الرقة، وصار يسمى والي الرقة وأورفة (الرها)، وانتشلت الحكومة العثمانية بمشاكلها وبحروبها في أوروبا وبفساد سلاطينها عن تعمير الرقة، واكتفت من الاهتمام بالرقة بإحياء اسمها القديم وبقي حبل الأمن مضطرباً في منطقة الرقة والجزيرة الفراتية، والسلطة الحقيقية للعشائر فيها . وكان والي الرقة يسمى والي الرقة وديار بكر. ثم صار يسمى والي حلب والرقة .

وكان يأتي إلى الرقة موظف من أورفة يسمونه متسلم يتسلم الخراج الذي يتفق عليه رضاء مع رؤساء عشائر منطقة الرقة . ويقيم والي حلب والرقة في حلب .

وفي عهد السلطان محمد الثالث كان الأمن مضطرباً والحالة سيئة بسبب ثورة (قره يوزيد جي عبد الحليم) الذي استولى على أورفة ثم أخضعته الدولة . وفي سنة ١٠١٥هـ تعين المير شرف باشا أمير أمراء لايالة الرقة . وفي سنة ١٠٣١ هـ وجهت إيالة الرقة إلى بوستان باشا . وفي سنة ١٠٦٩ هـ

أبراج السور وماذا في الرقة



قتل أمير أمراء الرقة ابن الصدر طيار محمد باشا في جملة من قتل من الأمراء الذين اشتركوا في العصيان مع ابازة حسن باشا .

وفي سنة ١١١٦ هـ تولى محمد باشا الجركسي ايالة الرقة . وفي سنة ١١٢٥ هـ ولي حلب والرقة معاً طوبال يوسف باشا (وطوبال تعني الأعرج) .

وفي سنة ١١٣٣ هـ عين علي باشا مقتول زادة والياً على الرقة . وفي سنة ١١٦٤ هـ عين الوزير راغب باشا والياً على الرقة . وفي سنة ١١٧٥ هـ ولي ايالة الرقة سعد الدين باشا العظم ، الذي عين والياً لبغداد في نفس السنة بدلاً من والي بغداد من المهاليك . ولكن الاستانة لم تستطع تنفيذ أمرها بتعيين والياً من غير المهاليك لأن هؤلاء رشحوا أحد زعمائهم علي بك فعينه السلطان وأنعم عليه برتبة الوزارة ودخل سعد الدين باشا العظم الرقة في ربيع الأول من سنة ١١٧٥ هـ وكان بها الطاعون فتوفي مطعوناً بعد ١١ ذي القعدة من سنة ١١٧٥ هـ ودفن بجامعها الكبير .

وفي سنة ١١٧٨ هـ تولى محمد باشا العظم ولاية الرقة .

وفي سنة ١١٩٠ هـ تولى ايالة الرقة (اسبناقجي حافظ مصطفى باشا) .

وتولاها بعده الوزير محمد باشا وعهد بها إلى عبدي باشا سنة ١١٩٥ هـ ومن بعده إلى محمد باشا ابن مير الحاج عثمان باشا .

وفي ١٣ شوال ١١٩٦ هـ وليها الوزير مصطفى باشا آل الكاتب .

ووليها الوزير سليمان باشا بن عبد الجليل باشا سنة ١١٩٧ هـ من الموصل .

وفي سنة ١٢٠٢ هـ عين لها أحمد باشا الجزار ثم عزل عنها . وعين لها فيروز

باشا وعزل . وعين بدله ابراهيم باشا النابلسي .

وفي سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠ هـ ثار تيمور باشا المي رئيس قبيلة الملية الكردية

الكثيرة العدد، وكانت تعيش على تربية المواشي وتتنجول في الأراضي الواقعة ضمن ايلات الرقة وديار بكر وحلب ، وكان نفوذ تيمور قد ازداد وفرض سيطرته على القرى والقبائل ، وأخذ يجبي الضرائب من السكان لنفسه واستولى على

جميع المراكز الواقعة ضمن ايالتي حلب وديار بكر والرقّة وامتد نفوذه إلى اية حلب لعدم وجود مقاومة له . وأخذ يسلب القوافل ويشن الغارات على السكان ويصادر ممتلكاتهم . ولذلك قررت الاستانة امر تصفيته ، وأناطت ذلك بوالي بغداد سليمان باشا ، على أن يساعده والي ديار بكر والرقّة وغادر سليمان باشا بغداد على رأس جيش يزيد على ٣٠ ألف بطريق الموصل وأتى إلى ماردين ومنها توجه إلى أورفة لمحاربة تيمور باشا الملي . ولما علم تيمور بسير هذه الحملة عليه هرب ، وكان والي الرقة يدعى مصطفى باشا الكوسا وهو الذي قرّر قتال العشيرة مباشرة وقد هزمها وغنم منها مواشي واغناماً .

ونشب خلاف بين والي الرقة ووالي بغداد من جراء الغنائم وكيفية توزيعها . فارسل والي بغداد إلى الباب العالي بالاستانة يشكو تصرفات والي الرقة وهو ابراهيم باشا الذي خلف مصطفى الكوسا . فأمر السلطان بعزل ابراهيم باشا واقامة والي بغداد مكانه مؤقتاً للإشراف بنفسه على مطاردة الثوار وأمر بسجن الوالي المعزول ، ومصادرة أمواله التي بلغت خمسة وعشرين ألف قرش . وعين سليمان آغا الجوقدار والياً على الرقة سنة ١٢٠٩ هـ . وفي سنة ١٢١١ هـ نصب السيد ابراهيم آغا آل شيخ من ديار بكر متسلماً لخراج الرقة . ثم عين والياً ليها .

وفي سنة ١٢١٥ هـ عين تيمور بك الملي رئيس عشيرة الملية والثائر السابق والياً على الرقة بعد أن صدر عفو السلطان عنه ومنح رتبة الوزارة .

وفي سنة ١٢١٨ هـ عين ولي الدين باشا ومن بعده سوريجي محمود باشا سنة ١٢٢١ . وفي سنة ١٢٢٤ كان محمد حمود باشا بن المحصل ابراهيم باشا والياً لها . من بعده تولى بابا باشا .

وفي سنة ١٢٣٤ جاء أحد شيوخ عنزة المدعو خليف من نجد مجتازاً الشام وعبر الفرات إلى الجزيرة من أنحاء بيرة جك مع أفراد عشيرته وآخرين وأخذ يسلب وينهب السكان ما بين الرقة إلى الخابور فالموصل فأورفة . وكان والي الرقة

بهرام باشا في أول عهد السلطان محمود الثاني . وأوعز الباب العالي إلى والي بغداد بالقضاء على خليف ، واستعان والي بغداد بالشيخ الجربا (عشيرة شمر الجزيرة) وهرب خليف ولما صار بقرب الرها سار اليه والي الرقة على رأس قوة عسكرية وألقى القبض عليه وعلى أفراد من أقاربه وثلاثة عشر شخصاً من المتقدمين في جماعته وقتل نحو مائتين وثمانين شخصاً من أصحابه وأرسل بهرام باشا برؤ وسهم المقطوعة إلى الاستانة كما هي العادة في ذلك الوقت واستأذن بهرام باشا الاستانة في ارسال الغنائم من الخيل والابل إلى أضنة . ولكن السلطان أمر ببيعها بمحلها وأرسل موظفاً خاصاً للإشراف على البيع واستلام اثمانها والاتيان بها .

وتعاقب على ااية الرقة من سنة ١٢٣٥هـ إلى سنة ١٢٤٧ لطف الله باشا وبهرام باشا مرة ثانية ، واحمد باشا آل عبد الجليل وحسن باشا وحافظ باشا وبوليود باشا وجلال باشا وصالح باشا ومحمد باشا .

وكثرة توالي تعيين الولاة يدل على اضطراب الأمن وسوء وضع حالة البلاد فكان الوالي ما يكاد يعين حتى يعزل إما بسبب سوء تصرفاته وإما بسبب تزاحم الولاة على منصب الولاية ، فقد كانت المناصب كثيراً ما تنال بالرشوة .

وصار والي حلب يسمى والي حلب والرقة للفت الأنظار إلى الرقة وان العثمانيين لا يزالون مهتمين بها . ولكن اهتمامهم لم يتجاوز ذكر اسمها ولم يحدث فيها إلى ذلك التاريخ عمران يذكر .

وقد توقف عهد الاتراك العثمانيين في الرقة فترة قصيرة ليحل محله العهد المصري في زمن محمد علي الكبير بسورية من سنة ١٢٤٧هـ - ١٢٥٦هـ (١٨٣٣ - ١٨٤٠م) .

الرصافة

حاضرة البادية الفراتية

الرصافة حصن البادية السورية التدمرية ، تقع جنوب غربي الرقة على بعد ٣٥ كم من الطريق العام المعبد بين حلب - دير الزور، اعتباراً من نقطة المقص (مفرق الرقة) على الطريق المذكورة، ويذهب إليها القادم من حلب من نقطة مخفر الحمام على نفس الطريق والمسافة بينها وبين الحمام ٢٥ كم، ويوجد بينها وبين تدمر طريق مسلوكة.

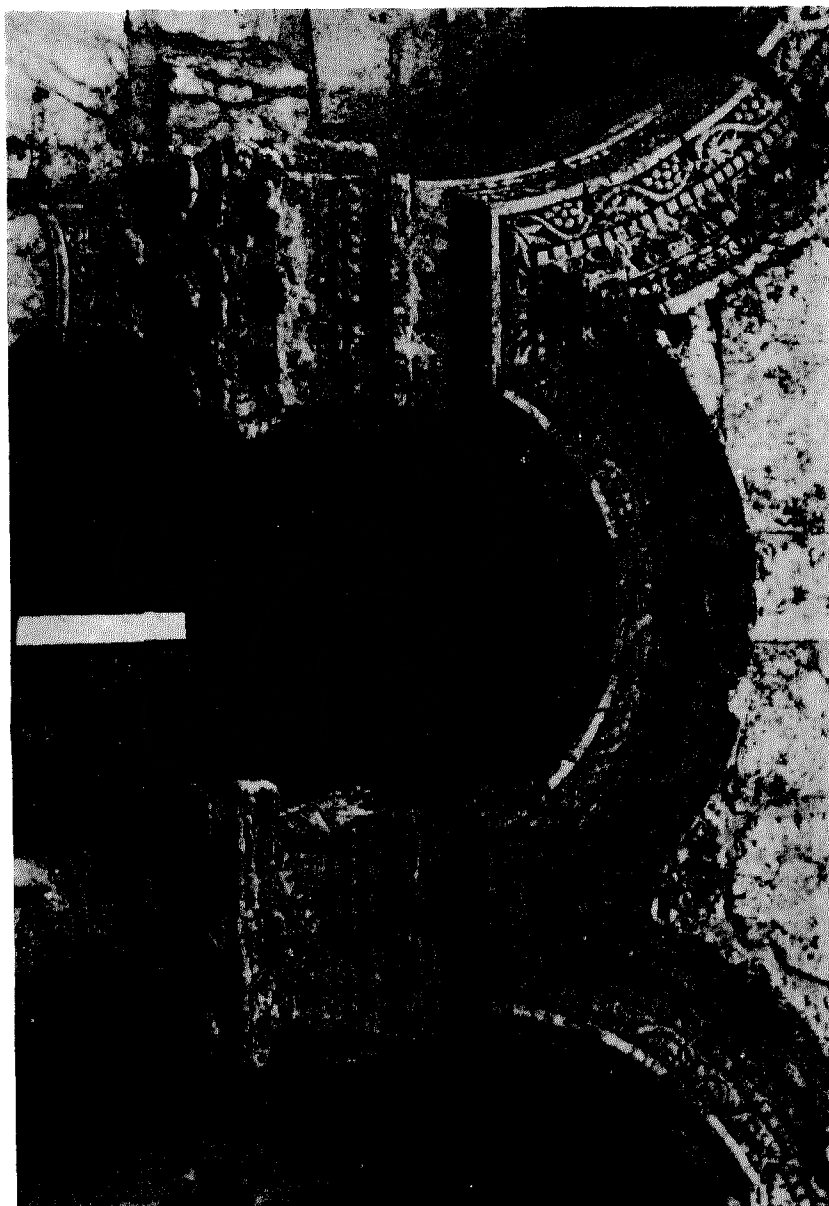
تبرز اطلال الرصافة وسط برية مستوية السطح لا يحدها البصر، يشاهد المسافرون في البادية آثارها من مسافات بعيدة. ويثير قيام الرصافة وسط هذه البادية المترامية الأطراف عجب المشاهد لها ودهشته.

كانت مفرزة من جنود قوات البادية بعهد الانتداب الفرنسي تحميم بالقرب من الرصافة لحماية الأمن في باديتها حيث منتجعات عشيرة الولدة وغيرها لرعي

اغنامها في فصل الربيع ، وحيث توجد زراعة بعلية للسكان ، وقبل التوسع بالزراعة كان الغزال يوجد بكثيرة في بركة الرصافة ، انقطع لكثرة مطاردة الصيادين له بالسيارات . ويكثر القطا معظم السنة حول الرصافة . وكانت مصلحة الري قد حفرت بئراً قرب باب الرصافة الغربي لسقاية اغنام العشائر لخلو المنطقة من المياه الظاهرة وأراضي المنطقة خصبة إذا توفرت لها الأمطار بفصل الشتاء وتوجد في المنطقة عدة آبار لسقاية السكان والأغنام .

يرجع تاريخ الرصافة إلى عهود بعيدة ، فقد ورد ذكرها في النصوص الآشورية في القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد ، وكانت مركز حاكم آشوري ، تؤلف مع الخابور الأسفل وحدة . وجاء ذكرها في التوراة بصيغة « راصف » في سفر الملوك . ولفظة رصف سامية تعني الطريق المرصوف ، لأنها شيدت على الطريق الذاهب من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط والذي يمر بمدينة الطيبة « اوريزا » والسخنة وتدمر . وتعود أهميتها لوقوعها على الطريق المستقيمة بين دول شمالي سوريا وجنوبها ، ولوقوعها على طرف بادية الشام من الشرق وهي تخوم للمملكة الفارسية قديماً . فهي محطة للقوافل وحصن عسكري لحماية الطرق والحدود ، ولهذا ازدهرت في العهدين البيزنطي والأموي ، واستفاضت شهرتها ولم تخمد رغم ما أصابها من تخريب وهجران أهلها لها بسبب غارات التتر والبدو واضطراب حبل الأمن في البادية .

ان بقاء اثارها إلى اليوم برغم عوادي الزمن والطبيعة كل تلك القرون شاهد على ما كان لها من أهمية وازدهار كحصن ومدينة في بادية الشام الفراتية في العهدين البيزنطي والأموي . ولقد أخذت الحفريات التي تجريها البعثة الألمانية في الرصافة منذ سنة ١٩٥٢ لأول مرة تكشف عن عظمة عمران المدينة ودقة تنظيمها ورفي أهلها وسموتذوقهم لفن البناء والنحت والزخرف بحيث لم يدخروا جهداً ولا مالاً في سبيل تجميل مدينته وتنظيمها والاهتمام بها . مما جعل علماء الآثار يعجبون بها ويهتمون بالحفر فيها اهتماماً زائداً .



والرصافة من مدن سورية التدمرية، تحرف اسمها من راصف إلى راسابه وإلى الرصافا. وفي سنة ٤٣٤م أصبحت مركز أسقفية. ودُعيت في القرن الخامس الميلادي باسم «سرجيوبوليس» أي مدينة سرجيس تخليداً لأسم القديس سرجيس وهو ضابط روماني تنصّر واستشهد من أجل نصرانيته بقرب الرصافة في عهد الاضطهاد الكبير للنصرانية من قبل أباطرة الرومان في أوائل القرن الرابع الميلادي، وبعد ان هدأت الاضطهادات اقام النصارى هيكلاً للقديس سرجيس في الرصافة ونقلوا جثمانه باحتفال كبير إلى الهيكل واقيم دير على قبره اشتهر باسم دير الرصافة وصارت المدينة كلها في العهد الأموي تعرف باسم دير الرصافة وهو الذي أشار اليه الشاعر ابونواس بشعره حيث حل فيه بعد رجوعه من مصر إلى العراق. وحظى مقام سرجيس بتعظيم كبير في انحاء البلاد السورية حتى دُعيت المدينة باسمه، فكانت تدعى رصافة سرجيوبوليس، ثم عاد اسمها الرصافة مجرداً من الاضافات - وفي منتصف القرن الخامس للميلاد شيدت فيها كنيسة عظيمة باسم القديس سرجيس كانت من الكنائس المشهورة، وهي احدى خمس كنائس بنيت داخل سور الرصافة، قيل بنيت خمس كنائس اخرى خارج السور، ولا تزال آثار الكنائس باقية داخل السور. حتى ان احدها تنفرد ببناء لا يوجد منه في سوريا غير كنيسة قديمة واحدة في جبل سمعان بضواحي حلب.

وكان للعرب الغساسنة والتغلبين خاصة فضل في نشر تكريم القديس سرجيس، وفي دفع القبائل العربية قبل الاسلام في انحاء الفرات والجزيرة الفراتية إلى زيارة قبره وتعظيمه وتقديم النذور اليه والاستشفاع به. ومنذ سنة ٣٥٤ للميلاد وجدت الكنائس والأديرة العديدة التي تحمل اسم سرجيس. ومن اشهرها المقامة على اسمه التي شيدها الاعراب في الرصافة في عهد الامبراطور انستاس (٤٩١ - ٥١٨م) وهي احدث واكبر الكنائس الموجودة في الرصافة، ولا تزال آثارها وهيكلها وعماميدها الضخمة واقواسها المرتفعة باقية الآن.

وقد كان الرصافة إلى مركزها الديني ذي الشهرة مركز حمامية رومانية وبيزنطية كبيرة لحفظ الأمن والطرق في البادية الشامية الفراتية ولحماية حدودها . وكانت مساحة المدينة عشرين هكتاراً . ولما توفرت العطايا والنذور من العرب لمعابد الرصافة اقام الامبراطور جوستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) سوراً منيعاً محصناً على المدينة خوفاً على ثروتها وحاميتها من الغارات . ولا تزال آثار هذا السور العظيم باقية .

ولما لم تكن الرصافة على جدول ولا على عين ماء فقد اهتم الرومان بتوفير المياه لها كما هو شأنهم بمسألة المياه في البراري . ان المياه الموجودة في جوف اراضي الرصافة على عمق ٤٧ متراً ملحة غير صالحة للشرب ، فلاجل تأمين الماء العذب للمدينة حفروا أربعة صهاريج داخل السور في بطن الأرض ، شيدت جدرانها بسمك مترين من الأحجار والآجر ، وعقدت سقفوها بالآجر . وقد حولت إليها مجاري المياه المتجمعة من الأمطار بواسطة سدود في غرب المدينة حيث تجري جداول ربعية متجهة نحو وادي الفرات . وكان يوجد سد طوله ٥٠٠ م يحجز المياه وتنتجه إلى حوض رئيسي مربع طول ضلعه مائة متر ، ومن هذا الحوض تذهب المياه إلى ثلاثة احواض اخرى كل منها في ٥٠ ضرب ٦٠ متراً للتصفية . ومن هذه الأحواض تذهب المياه بقناة إلى الصهاريج الأربعة داخل السور لتكون مياهاً احتياطية . واكبر هذه الصهاريج طوله ٥٧ ضرب ٢١ متراً وعمقه ١٥ متراً وسعته ١٦٠٠٠ متراً مكعباً وان الآخرين كل منها في ٢٧ متراً طول ٨ و امتار عرض ١٠ و عمق وسعة كل منها ٢٠٠٠ مم ، ومجموع سعة الصهاريج ٢٠٠٠٠ مم وهو ماء احتياطي كافٍ لتأمين شرب الفي شخص من السكان . ومن الصهاريج . توزع المياه في مجاري تحت الابنية إلى قصور المدينة داخل السور ولهذا المجاري فوهات ولا تزال هذه الصهاريج باقية وطرارز بناءها فريد من نوعه ، وكانت موضع عناية القائمين على امر المدينة مدى عصور ، ولا عجب فان الماء عنصر لا غناء عنه في وجود الانسان . وقدمت لنا الصهاريج المذكورة مثلاً رائعاً في الاعمال العظيمة التي

قامت في الرصافة . ولما ملك النعمان بن الحارث الأمير الغساني وهو نصراني اصلح صهاريج الرصافة .

أولى اباطرة البيزنطيين مدينة الرصافة عناية وافرة منذ أواسط القرن الرابع الميلادي . ومن سنة ٥٢٤م إلى سنة ١٠٩٣م عرفت الرصافة أساقفة تعاقبوا على كنيستها، ترجم لهم مؤرخوا الكنيسة .

ان الامبراطور جوستنيان اول من احاطها بأسوار مبطنة ، وذلك قبل سنة ٥٤٢ ، وأنشأ فيها أسواقاً وأبنية رائعة واقنية وصهاريج لاختزان الماء ، وكان وزوجته الامبراطورة تيودورا قدما إلى ضريح سرجيس في الرصافة صليباً مرصعاً بالجواهر . وفي القرنين السادس وأوائل السابع م نهب الفرس الرصافة ودخلها كسرى الثاني سنة ٦١٦م . وعلى هذا الحال وجدها العرب على الأرجح ، فلم يهتموا بها في بادئ الأمر . ولكنهم ما لبثوا ان اهتموا بها في العهد الأموي لحسن مركزها في بادية الشام الموالية لهم ولأهميتها الاستراتيجية . وقد كان هشام بن عبد الملك أقام فيها وهو امير وولى العهد فعرفها ، وأتته الخلافة وهو مقيم فيها وعمره ٣٤ سنة في سنة ١٠٥ هـ و ٧٢٤م ، وكان عندما يعود من الجزيرة الفراتية لا ينام في الرقة بسبب كثرة بعوضها وينام في الرصافة لأنها اكثر ارتفاعاً من الرقة واحسن موقعاً والطف هواء ولأنها في بادية الشام . ولما وقع الطاعون في دمشق كان الخليفة هشام يقيم في الرصافة في الصيف وكان طراً خلل على أسوارها فرمها وأصلح صهاريجها وبنى ابنية وقصوراً له ولحاشيته خارجها ، وكانت المواد الغذائية تحمل اليها من الرقة ، وقد عني هشام بالزراعة والري على ضفة الفرات الغربية مما يلي الرصافة ، وجعل منها عاصمة ثانية لدولته يدير منها شؤون المملكة اثناء اقامته فيها التي كانت تمتد اشهرأ من كل سنة . ولذا ازدهرت الرصافة في عهده واشتهرت باسم رصافة هشام ، وقصدها التجار واصحاب الحاجات من انحاء المملكة الأموية . وقصد الشعراء هشاماً فيها وانشدوه شعرهم في مدحه . وكانت الرصافة تتلقاهم

وتستضيفهم وتستمتع إلى شرعهم وتستمتع به وبذلك شهدت نشاطاً ادبياً في عهد هشام وكثر سكانها وراجت اسواقها . وفيها مات هشام ودفن سنة ١٢٥هـ ٧٤٣م . وكانت تعتبر من الناحية الادارية من أرض قنسرين ، كما ذكر المسعودي في كتاب التنبيه ، وكان في داخلها حي اسلامي وجامع ملاصق لكنيستها الكبرى . لم يهمل الأمويون بعد هشام الرصافة ، فكانوا يولونها عنايتهم واهتمامهم ، وكانت تسمى بدير الرصافة ، وبقصر الرصافة ، واقرن ذكرها بحوادث كثيرة في التاريخ الأموي بفضل مركزها الاستراتيجي في بادية الشام مواطن القبائل العربية الموالية للأمويين . ولما حكم العباسيون صرفوا عنها انظارهم شأنهم في سائر المدن السورية ، فتضاءلت اهميتها ، وكان القائد عبد الله بن علي العباسي مهزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين جاء اليها سنة ١٣٢هـ عقب انتصاره على جيش مروان في موقعة الزاب في اثم مروان واخرج جثة هشام وأحرقها . ومروان الخليفة العباسي جعفر المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧) عندما خرج من الشام إلى العراق .

كان الفقراء في ضواحي المدينة يشربون من الآبار . أما أهل الثروة فيرسلون عبيدهم يستقون على الحمير من ماء نهر الفرات الذي يبعد عنهم ثلاثين كم إلى الشمال وماء الفرات اعذب من ماء الصهاريج . وكان هؤلاء المشرين تجاراً ومالكين ، وكان مصدر ثروتهم من حماية القوافل وايوائها ، ومن نقل البضائع ومن مشاركة اللصوص . وكان سكان المدينة في الغالب نصارى ، وكان الرجال يغزلون الصوف ، وتشتغل نساؤهم بالنسيج ، فيصنعن كسبة جميلة مشهورة . وكانت صناعة الأقمشة الكتانية مزدهرة فيها ، وكانوا يصنعون مختلف انواع الأكياس لأن التجارة والعمل في القوافل تتطلبها ، وكان الخزف يصنع فيها وهو من نوع خزف الرقة المشهور . وقد تداولت ايدي تجار العاديات كميات كبيرة منه تسربت إلى اوربا وأميركا . كان افراد من أهالي قرية السخنة جنوب غربي الرصافة ينقبون في اطلالها للتحري عن الأواني الخزفية لحساب تجار العاديات بحلب ، وكانوا يعثرون على آنية خزفية اسلامية من ذات البريق المعدني ، ومن ذوات الزخارف المرسومة .

وكان تجار الرصافة عرضة لاذى البدو وحوها، فكانوا يدفعون لهم خفارة لكي يتخلصوا من اذاهم . قال الأصمعي : «وليني خفاجة على أهل الرصافة خفارة لكي يحموهم من البدو» ولا يزال لخفاجة بقايا في الفرات بجهات مسكنة (بالس القديمة) ويدعي البوخريص احدى فرق دير الزور الحالية انهم من خفاجة ، ويوجد خفاجة في العراق .

ان اسوار الرصافة من الأحجار الجصية المتبلورة قطعت من مقلع يقع على بعد عشرة كم الى شهاها . وتمتد هذه الأسوار على شكل مستطيل باتجاه الجهات الأصلية، ويبلغ طوله ٥٠٠ متراً، ولها في منتصف كل ضلع من اضلاع المستطيل باب، والبابان الرئيسيان هما الشمالي والجنوبي . ويبلغ ثخن الأسوار ثلاثة امتار، ولها ابراج متعددة مستطيلة على الأضلاع، وابراج مستديرة على الزوايا وكان يوجد امام الأسوار خندق متسع طمرته الأتربة ولا يزال قسم منه بادياً .

ولقد هاجم القرامطة الرصافة سنة ٢٨٩هـ - ٩٠٢م في عهد الخليفة العباسي المعتضد، وذبحوا السكان وأحرقوا الجامع، ومع ذلك فان ابن الفقيه يسمى من جديد في سنة ٢٩٥هـ - ٩٠٨م الرصافة مدينة مزدهرة . وفي سنة ٣٤٤هـ - ٩٥٥م اجتاز بها سيف الدولة الحمداني قادماً إليها من تدمر متوجهاً إلى الرقة، حيث كان يقاتل عرب نمير وكلاب وقشير وعقيل وعجلان من بني عامر بن صعصعة وهم من رعايا سيف الدولة وكانوا خالفوا فانتصر عليهم، وكانت منازلهم بشاطئ الفرات ونواحيه .

ومرَّ بها المتطرب النصراني ابن بطلان سنة ٤٤٠هـ - ٩٠٤م قادماً من بغداد بطريق الرحبة (الميادين) متوجهاً إلى حلب . قال في وصفها : «وهذا القصر مبني بالحجارة وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب جدها هشام وسكنها . . .» .

وذكر الادريسي (١١٥٤م) ان في الرصافة سوقاً مزدهرة وذكر الطريق الجديد السلوك الذي يؤدي منها إلى السلمية وحصن عبر البادية . ووصفها ياقوت

الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ بمعجم البلدان وعدّ دبرها احد عجائب الدنيا ويقول ابو الفداء ان المسافة بين الرصافة والفرات اقل من يوم على الماشي .

ومنذ أول القرن الثالث عشر الميلادي زالت أهميتها وتناقص سكانها . وقد مشى اليها الخوارزمية في سنة ١٢٤٠م من سلمية في تراجعهم من سوريا ، وتبعتهم جيوش حلب وقتلتهم قرب صفين ودخل الرصافة السلطان بيبرس ١٢٦٠ - ١٢٧٧ فنقل ما بقي من سكانها إلى سلمية وحماه خوفاً عليهم من المغول الذين كانوا يعاودون الغارة على البلاد ، ومن ذلك الوقت هجرت المدينة المزدهرة إلى اليوم .

وكان تعرف الاوربيين عليها ، ان جماعة من تجار الانكليز سافرت في تشرين الأول سنة ١٦٩١ من حلب إلى تدمر عن طريق الفرات ، وفي طريقها بين الفرات وتدمر عثرت على أطلال الرصافة . وقد كتب احد افراد هذه الجماعة تقريراً إلى احدى المجلات الانكليزية يذكر فيه اسم الرصافة . رغم ذلك انقضت مدة طويلة دون ان ينتبه احد إلى الأمر ، حتى اثار الموضوع من جديد (ف . شابو) في سنة ١٩٠٣م .

ان معرفتنا للرصافة تستند اليوم في الأكثر إلى ما كتبه الأوروبيون عنها . أما الحفريات التي تجري فيها فيعود الفضل فيها إلى الاستاذ الدكتور الفونس ماري شنيدر الألماني الذي توفي في طريقه إلى حلب قبل البدء بأعمال الحفر وكان تعرف على الرصافة سنة ١٩٥١ فادرك الأهمية الخاصة لاطلاع هذا المكان من الوجهة الأثرية سواء المسيحية القديمة او الاسلامية . واسفرت الحفريات عن نتائج مهمة برغم المدة الصغيرة التي كانت تعمل فيها البعثة ، وقد رسمت بعد تحريات مخططاً لكنيسة القديس سرجيس عرض في قسم الرصافة بالمتحف الوطني بدمشق ، وكان على رأس الحفريات في المدينة البيزنطية الدكتور يوهانس كولويتز . وكان من اولى مهام البعثة الألمانية الاهتمام إلى قصور هشام وقد دلت التحريات على ان المدينة

الاسلامية تمتد حول المدينة البيزنطية على مسافة قطرها ٣ كم . وادت الحفريات
في تل قريب .



رأس العين

مدينة الينابيع

من امهات مدن الجزيرة الفراتية السورية ، إلى الشمال الغربي من مدينة الحسكة تبعد عنها تسعين كم ، تقع في اعالي نهر الخابور ، احد روافد نهر الفرات ، على الخط الحديدي بين الموصل وحلب ، المار عبر الحدود التركية ، تنبع فيها اهم الينابيع التي تؤلف نهر الخابور ومن كثرة عيون الماء فيها اتى اسمها منذ القديم . مدينة عريقة في القدم ، يرجع تاريخها إلى العهدين البابلي والأشوري كانت محطة على الطريق التجاري القديم بين (نينوى) الموصل ، وبين حلب والشام ، وذكرها المؤرخون والبلدانيون في عصور مختلفة ، وافاضوا بما كان لها من حضارة . زهت فيها دولة الميتانيين ، ومن بعدها ملكة كبارا الآرامية ، اسمها بالسريانية «رشن عينا» وكانت تسمى في العهد الروماني : (رزان تودويوبوليس ، ورزان تعني الرأس او العنب ، والتركيب الآخر نسبة إلى الامبراطور ثيودوس الأول او ثيودوس

الثاني، ذلك انها تلقت حقوق المدينة على يده . أي مدينة ثيودوس ، ومضت تحمل اسمها الروماني ثيودوبوليس) عدة قرون . وكانت من مدن الحدود بين الرومان والفرس ، ومن مراكز الثقافة الآرامية في الجزيرة الفراتية ، نبغ فيها علماء آراميون وسريان في العهد الروماني والعهد البيزنطي وكانت مركز أسقفية يعقوبية إلى ما بعد العهد الاسلامي كان لها ١١ أسقفاً بين سنة (٧٩٢ - ١١٩٩م) .

ذكر مؤرخو السريان ان كسرى الثاني العاهل الفارسي ، كان قد تنازل للرومان عن رأس العين ودارا للمرة الثانية ، وبعد ذلك غزاها القائد الفارسي ادهار ماهان مرتين في سنة ٥٧٨م وسنة ٥٨٠م . وفي عهد الامبراطور فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠) انتزع الفرس رأس العين من الرومان ، فكانت المدينة بسبب الحروب بين الدولتين تقع تارة بيد الفرس واخرى بيد الرومان ، وكانت تتضرر من جراء هذا التنقل .

ان منطقة رأس العين منطقة عيون ماء غزيرة ، بعضها عذب وبعضها كبريتية ، والنبع الرئيسي في وسط المدينة ، ومنه معظم مياه نهر الخابور ومن عيونها المشهورة عين الكبريت ، وهي على مسافة كيلومتر من العين الكبيرة إلى الشرق ، ويستخرج من قاعها الكبريت بشكل طين ، والحكومة السورية تلزمه بالمزايدة كل خمس سنوات . ويرسو منذ ثلاثين سنة على مواطنين ديريين كانا مصطفى الحرويل ومحمد سعيد هنيدي .

وفي المدينة عشرات العيون ، ذكر المؤرخون والجغرافيون اسماء بعضها ، ومن كثرة عيونها اتت أهمية المدينة وقدم حضارتها وشهرتها ، وقد جعلت هذه العيون من المدينة مدينة للبهاتين والحمامات في القديم ، وكانت قبل الاسلام من مراكز ديار ربيعة .

فتحها القائد العربي عياض بن غنم فاتح الجزيرة الفراتية في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، بعد فتح الرقة وجران والرها ، وكانت رأس العين محصنة وفيها قوة كبيرة للروم ، تجمعت فيها بعد فتوحات عياض في الجزيرة ، وقيل كان

فيها مائة ألف جندي فيهم نحو ثلاثين ألفاً من العرب المنتصرة، وكانت سرايا عياض قبل مسيره إلى رأس العين من الرقة فتحت مدينة قرقيسيا عند مصب نهر الخابور بنهر الفرات، ليكون ظهره آمناً إذا سار إلى رأس العين، وجرى قتال شديد بين جيش المسلمين وجيش الروم من أجل رأس العين فخربت، ولم يأخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين، وكان بها بيع ورهبان، وبعد فتح رأس العين عزم عياض على فتح مدن ديار بكر ففتحت كفر توتا ودارا ونصيبين وأمد وغيرها. وكان قسم كبير من سكان رأس العين نزع عنها، فجعل المسلمون اراضيها املاكاً عامة.

إن اخبار رأس العين بعد الفتح غامضة جداً، وكل ما هناك ورود ذكرها عند ذكر بعض المواقع أو عند ذكر بعض الشخصيات. وأطلق بعض العرب عليها اسم عين الوردة أيضاً وقد تكون عين الورد. هذه إحدى العيون الكبيرة برأس العين.

ومما فصل بعين الوردة من الحوادث: أن الخليفة الأموي مروان بن الحكم كان قد جهّز جيشاً في ثلاثين ألفاً في سنة ٦٥ أو ٦٦ يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لمحاربة زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا (البصيرة) ومصعب بن الزبير، فلما كان في الجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب ابنه عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على السير إلى العراق، فسار حتى إذا كان بين الوردة (رأس العين) قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكن خرجوا للمطالبة بدم الحسين بن علي وسموا أنفسهم التوابين، وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الذنب إلا إذا قاموا بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن جرد الخزاعي، فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس إلى ما عزموا عليه حتى تمّ لهم ما أرادوا، فخرجوا من الكوفة وساروا بطريق الجزيرة الفراتية فانتهوا إلى قرقيسيا وبها زفر بن الحارث الكلابي فأخرج إليهم الانزال وساروا ليسبقوا إلى (عين الوردة) ليقصدوا منها

الشام لينتقموا من أهلها ومن الأمويين الذين قتلوا الحسين حتى إذا صاروا إلى عين الوردة وقعت موقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من كان معه وكانوا نحواً من ستة آلاف .

وكان عمر بن الحباب من زعماء قبيلة قيس أحد الذين خرجوا على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من رأس العين (سنة ٧٠٠ م) وفي سنة ٨١٤ م في عهد الخليفة العباسي المأمون استولى على رأس العين أحد أبناء عمر بن الحباب . ومات بطريق اليعاقبة يوحنا الثالث فيها في ٣ أيلول سنة ٨٧٣ م . وذكر ابن الأثير أن الروم كانوا غزوا دارا ونصيبين ثم استولوا على رأس العين سنة ٩٤٣ م ونهبوها واستاقوا منها عدداً كبيراً من الأسرى . وفي سنة ٤٣٩ هـ ظهر الأصغر التغلبي برأس العين وادعى أنه من المذكورين في الكتب واستغوى قوماً كثيرين وغزا نواحي الروم فظفر وأعاد الكرة وغنم أضعاف ما غنمه أولاً وكثر جمعه فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان الكردي (حاكم ديار بكر) وكان بينها مودة ، يطلب منه أن يكفيه الأصغر ، فاستعان نصر ببني نمر الذين أظهروا المودة للأصغر ثم أخذه وحملوه إلى نصر الدولة فاعتقله . (ابن الأثير ج ٦) . وفي سنة ٥٢٣ هـ - ١١٢٢٩ م استولى صليبيو الرها بقيادة جوسلين على رأس العين وذبحوا قسماً كبيراً من السكان العرب وسجنوا الآخرين ولكنهم لم يبقوا طويلاً وساروا عنها وتوالت عليها الغزوات والحروب .

وفي سنة ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م وقعت المدينة بيد السلطان صلاح الدين الأيوبي وبعد ذلك حاصرها أتابكة الموصل فلم يستولوا عليها ثم آلت إلى الملك الأفضل الأيوبي . مع سميساط وقلعة النجم ، وفي سنة ٦٢٦ هـ - ١١٢٧ م ، آلت إلى الملك الناصر الأيوبي مع حران والرها والرقه والبلاد الشرقية واصابها خراب بسبب تعدي الجوارزمية عليها وعلى مدن الجزيرة الفراتية . وجاءها التتر ، وما كادت تنتعش حتى اجتاحتها تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، فاستباحها ودمرها مع قراها .

كانت رأس العين طيلة القرون الوسطى مزدهرة بفضل وقوعها على الطريق التجاري الهام «عن طريق الموصل المار الى الشام ماراً بنصيبين فرعان يقطع الفرات عند قلعة النجم ليذهب إلى منبج ومنها إلى حلب بطريق بزاعة من قرى منطقة الباب بمحافظة حلب». وكانت من مراكز الفكر والعلم، اسهمت في الحركة العلمية في العهد العباسي بما انجبت من علماء وباحثين وشعراء وفقهاء، والمشهور في النسبة اليها الرسعني، وقد نسب اليها الراسي، ويمكن ان نقول ممن اشتهر بذلك أبو الفضل جعفر بن محمد بن الفضل الراسي، محدث مشهور والفقيه الامام ابو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمي الضرير كان اديباً مجيداً، وله مصنفات في مذهب الشافعي وشعر جيد، قدم مصر وبها توفي سنة ٣٠٦، ولم يكن في زمانه مثله في مصر. ترجم له ياقوت الحموي وابن خلكان.

ومن أبناء رأس العين تقي الدين الرسعني املعروف بابن الخطاب طبيب مشهور ترجم له ابو الفرج اللطفي في مختصر الدول في حوادث عام ٦٤٦هـ ومن جهات رأس العين الشاعر العباسي المشهور منصور النيمري وهو تلميذ الشاعر الجزري العتابي وراويته، ومن جهات رأس العين الشاعر العباسي العتابي التغلبي والعالم والخطيب. اتصل بالبرامكة وبالرشيد وبالمأمون، ومن رأس العين الوالي والقائد ابو السرايا السري بن منصور الشيباني خرج على المأمون واستولى على الكوفة وهزم جيوش المأمون، ثم هزمه القائد هرثمة بن اعين وقبض عليه وهو متجه إلى رأس العين فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد.

ومن نزل برأس العين الشاعر الكبير البحتري حوالي سنة ٢٧٢ وكان عمره ٦٦ سنة وكان فيها محزوناً كثيراً بسبب انتهاب امواله عندما كان في نصيبين، قال وهو برأس العين قصيدة في ٣٨ بيتاً يرثي بها غلامه قيصر:

لقد سر الاعادي في اني برأس العين محزون كئيب
اشاد ياقوت الحموي بذكرها في معجم البلدان، ومما قاله: «وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية» . . .

ويقول الاصطخري في مسالك الممالك «ورأس عين الغالب عليها القطن، ويخرج منها زيادة على ثلاثمائة عين كلها صافية، فتجتمع مياهها حتى يصير منها نهر الخابور الذي يقع إلى قرقيسيا».

ويقول الإدريسي في (نزهة المشتاق): ورأس العين مدينة كبيرة فيها مياه نحو ثلاثمائة عين. . ومن هذه المياه ينشأ معظم نهر الخابور وعليه لأهل رأس العين مدن كثيرة. . وقال الرحالة ابن جبير، بقيت خراباً إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى وقد دب فيها العمران منذ ١٩٢٢ وكانت منطقتها في أواخر العهد العثماني قضاء مركزها قرية الغرة في جبل عبد العزيز ثم نقل إلى قرية السفح القريبة منها على الخابور عمرها الجاهل وسكنوها بعد هجرتهم من بلادهم في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة.

ورأس العين اليوم بلدة تعد نحو خمسة آلاف نسمة يتألفون من عرب وارمن واكراد وجاجان وقد اخذت تجتذب الغرباء للعمل في الزراعة واصلاح الآلات الزراعية وفي التجارة وهي مركز ناحية رأس العين بمحافظة الحسكة. ووسط لعدة عشائر بمنطقتها. تذهب منها عدة طرق إلى الرقة وعين العرب وتل أبيض والقامشلي ودير الزور والحسكة. وجميعها غير معبد وتتبع رأس العين نحو ٧٠ قرية.

وهي منطقة اثرية في جنوبها الغربي على بعد كيلومترين ونصف يقع تل حلف بين نهر الخابور ونهر حلف الآتي من تركيا. حين نقب المستشرق الألماني المعروف ماكس فون اوينهايم منذ سنة ١٨٩٩ وعاد إلى رأس العين سنة ١٩١١ يحمل اجازة قانونية بالتنقيب من الحكومة العثمانية. وكان معه طبيبه وبضعة اخصائيين وعمال كان يصل عددهم احياناً إلى خمسمائة. وانهى حملته الأولى في صيف ١٩١٣ وحالت الحرب دون مواصلة عمله. وبدأ حملته الثانية سنة ١٩٢٩ وانتهت بنهاية السنة المذكورة واصابت نجاحاً كبيراً وعثر على اقدم قصر وهو قصر (كابارا) واسفرت الاكتشافات عن حضارة متميزة اطلقوا عليها اسم حضارة تل

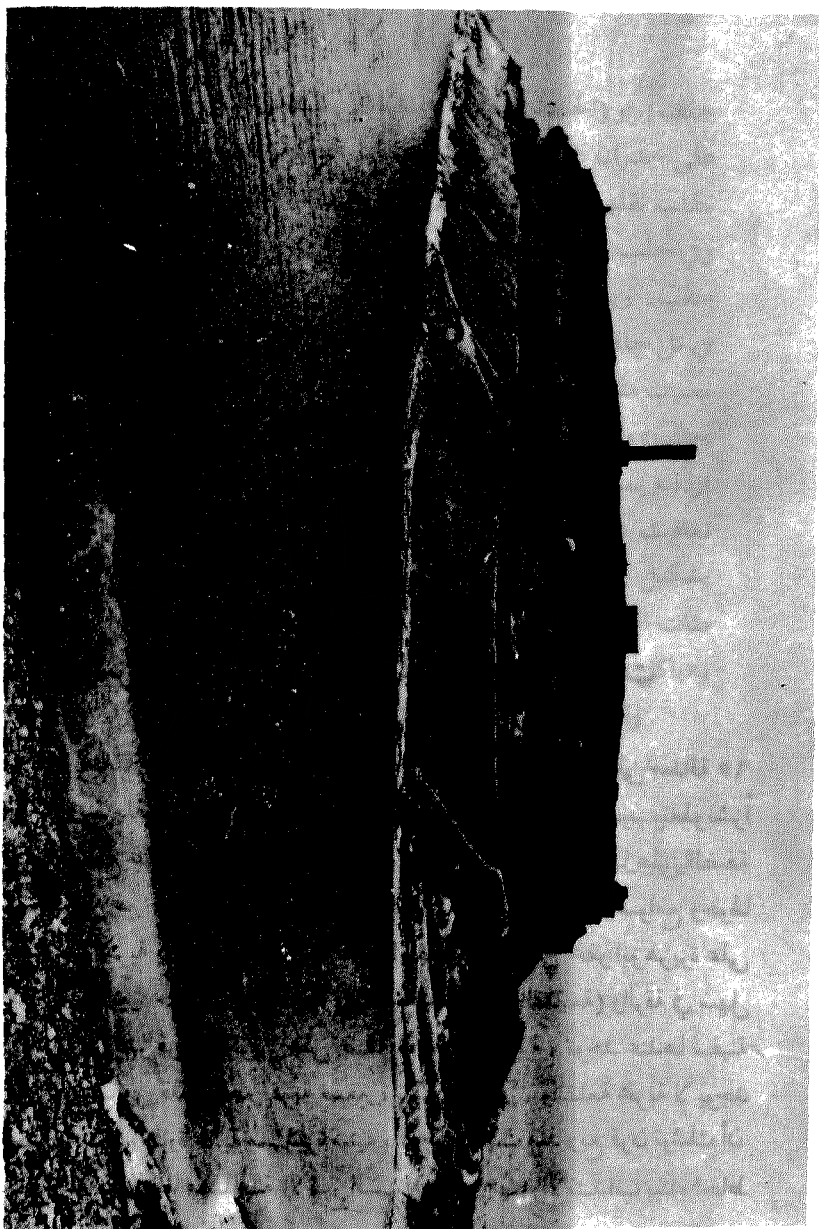
حلف : او (الحضارة الميتانية) نسبة إلى الشعب الميتاني وإبرزها الفخار الملون وعثر على جدران هياكل منقوشة وتمائيل كبيرة وتحف فنية . وكانت من الكثرة بحيث تطلب نقلها من رأس العين إلى حلب ١٣ شاحنة من شاحنات الخط الحديدي وفي حلب تم اقتسام هذه العاديات بين دائرة الآثار السورية وقد اودعت متحف حلب . وبين القائم بالتنقيب ، وقد أسس متحفاً في برلين جمع فيه الآثار المكتشفة في تل حلف التي بقيت في حوزته مضافاً إليها قوالب من الجص تمثل تلك التي من نصيب متحف حلب وكانت واجهة المتحف تحمل باحرف كبيرة عبارة (متحف تل حلف) وقد وضع المنقب كتاباً كبيراً بالألمانية بسط فيه مراحل اكتشاف تل حلف ثم اردفه بمؤلف آخر في مجلدين احاط فيه بجغرافية المنطقة وتاريخها والشعوب التي تعاقبت عليها ودرس بشكل مستفيض الآثار التي عثر عليها في تل حلف ، ودرس بشكل جيد ، وضم إلى كتابة (٢٤٠) لوحاً فوتوغرافياً معروفاً بأهم تلك الآثار ، عدا مئات الرسوم الايضاحية المنبثة في متن الكتاب وعشرون مخططاً للمدينة وشوارعها وهياكل وقصورها وكتبه مترجمة إلى الفرنسية والانكليزية .

وقامت في السنين الأخيرة مؤسسة تحمل اسم فون اوينهايم في برلين واوفدت بعثة إلى رأس بقيت في تل فخرية في سنة ١٩٥٥ للحصول على معلومات اوسع عن حضارة تل حلف وكيفية نشأتها والبحث عن عاصمة الميتانيين ، وقد عثرت على لقي من العهد الآشوري . . .

قلعة جعبر

حصن البلاد المصرية والشامية على الفرات

تقع قلعة جعبر على ضفة الفرات الشرقية غربي الرقة على مسافة ٦٥ كيلومتراً بين قرية سويدية كبير من الشرق، وقرية شهر من الغرب تعلو شراً صخرياً يرتفع عن السهل الذي يحيط بها نحو خمسين متراً ويقابلها على الضفة الغربية سهل غير عريض ترتفع في جنوبيه هضبة عالية تقوم فوقها صوامع وحولها منارة مستديرة مخربة يصعد إليها، وتقع هذه الهضبة في أراضي مخفر ابوهريرة على الطريق العام بين حلب ودير الزور بين مسكنة (بالس القديمة) والرقة في سهل صفين، وعلى النهر قرية الكرّين على ضفة الفرات الغربية، توجد عندها سفينة للعبور. وبالقرب من قلعة جعبر قرية صغيرة تسمى جعبر، والقلعة مخربة لا يوجد على سطحها سوى منارة عالية مستديرة مبنية بالآجر، كانت منذ ربع قرن توشك أن تسقط. وقد دعمتها مصلحة الآثار السورية في عهد الانتداب ببناء احاط



منظر عام لقاعة جبر

بقاعدتها، ولا تزال المنارة قائمة تشاهد من مسافة بعيدة خصوصاً للقادم من حلب إلى الرقة ودير الزور بعد ان يجتاز مسكنة (بالس) وقد بقيت اكثر اجزاء سورها وعليه ابراج بعضها سالم وبعضها متهدم وكان حولها خندق، وبناء السور والأبراج من الحجر الجصي المحلي من القطع الكبير المنحوت، وشكلها مستدير وحجمها متوسط. وهي متأخرة البناء عن تاريخ بناء الحصون الفراتية القديمة باستثناء قلعة النجم، الواقعة على ضفة الفرات الغربية في منطقة منبج وعلى بعد ٤٠ كم منها، فإنها متأخرة البناء لا يعود تاريخها إلى اكثر من العهد الأيوبي ولذا تبدو سليمة. أما قلعة جعبر فقديمة يعود تاريخ بنائها إلى ما قبل الإسلام. وفي رواية ياقوت الحموي وابن خلكان وغيرهما ان اسمها القديم دوسراو الدوسرية، نسبة إلى غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو الذي بناها أولاً لما جعله النعمان على افواه الشام، وفي ذلك اشارة إلى قدم القلعة، على انها تعود إلى ما قبل المنذر بقرون.

كان نهر الفرات يمر من تحتها، غير انه ابتعد عنها وحل محل مجراه القديم سهل يزرع بالحبوب وعندما يفيض الفرات فيضاً أكثر منسوباً من المنسوب الاعتيادي بشهر نيسان يصل إلى اسفل القلعة ويغمر السهل أمامها. ومنارة القلعة متأخرة كثيراً عن تاريخ بناء القلعة. وتدلنا المنارة على ان سكان الحصن كانوا غير مقتصرين على الجند، وانما كان معهم اهلون وكان في الحصن جامع، وربما كانت هذه المنارة التي أقدر أنها من عهد الناصر بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١هـ) كانت مرقباً بالاضافة إلى كونها منارة لمراقبة زحوف التتران منور جمع مناوّر لرفع

النار عليها في الليل والدخان في النهار، مما كان متبعاً في دولة المماليك للتنبيه إلى زحف التتر من العراق، وكانت جعبر من املاك دولة الناصر بن قلاوون في القرن الثامن للهجرة.

كانت قلعة فخمة فسيحة الرقعة قوية الأسوار. وكان يحيط بها خندق لا

تزال بقية من آثاره، والأرض حولها من جهة الشرق وعرة المسالك، وإلى جوار القلعة توجد أبراج متهدمة كانت مخافر دفاع أولية للقلعة.

لم يرد ذكرها في العهد الاسلامي الأموي والعهد العباسي الأول لا باسم دوسر ولا باسم جعبر على قدم بنائها، وإنما جاء ذكرها في عهد المرداسيين امراء حلب في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة.

وكانت منذ أول القرن الخامس للهجرة بيد النميريين المتولين على الرقة، ولا بد انها كانت من اعمال الرقة لأنها منطقة واحدة، يسيطر عليها شبيب بن وثاب النميري حليف المرداسيين، وكان نصر بن صالح ابن مرداس (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) متزوجاً السيدة علوية اخت شبيب بن وثاب النميري.

كان شبيب هذا مع نصر بن صالح في حرب مع انوشتكين الدزبري امير الجيوش المصرية الذي كان في دمشق، وقدم منها إلى حلب لمحاربة نصر بن صالح بن مرداس فالتقى جيش الدزبري وجيش نصر غربي سلمية فانهمز جيش نصر، وقتل نصر واحتز رأسه في نصف شعبان سنة ٤٢٩ هـ وحمل إلى الدزبري.

وكان ثمال بن صالح اخو نصر معه ومعها شبيب بن وثاب فهربا إلى حلب، فسير امير الجيوش الدزبري جيشاً في اثرهما إلى حلب، فخاف ثمال من المقام بحلب، فولّى بقلعتها أحد اقاربه وسار هو وشبيب واولاد اخيه والسيدة علوية إلى الجزيرة ونزلوا في الرقة، ومات شبيب بن وثاب سنة ٤٣١ هـ، وخشي الدزبري الذي أتى إلى حلب من وجود ثمال بن صالح في الرقة (٤٣٤ - ٤٤٩ هـ) فاشترى قلعة دوسر على الفرات (جعبر) ليكون مطلاً على ثمال، وشرع ثمال يستعد في الرقة لمنازلة الدزبري والاستيلاء على حلب وتلقى مساعدة من الوزير المصري الجرجائي خصم الدزبري، ومات الدزبري في حلب سنة ٤٣٣ هـ، وتسلم ثمال بن صالح حلب بالتوقيع الذي سيره إليه المستنصر الفاطمي بمصر. وفي سنة ٤٤٩ هـ سلم ثمال بن صالح الرقة ومنطقتها إلى منيع بن شبيب بن وثاب النميري. وكانت قلعة جعبر بالرقة بيد سالم بن مالك العقيلي. وكان العقيليون اسسوا الدولة

العقيلية في الموصل تحت نفوذ حكام العراق دامت في الموصل من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٤٨٩ هـ، انقضت على يد السلجوقيين هي والدولة البويهية .

وفي أيام الملوك السلجوقيين تملك القلعة الأمير جعبر الملقب سابق الدين القشيري مدة طويلة، وقيل انه توفي سنة ٤٧٠، ثم ان هذا الأمير كبر وعمي . يقول ابن خلكان لم اقف على شيء من احواله «الأمير جعبر» .

وقشير عشيرة عربية، وعدة عشائر في البلاد العربية تحمل هذا الاسم، وقد بقيت القلعة بيد أولاد جعبر إلى ان سار السلطان ملكشاه السلجوقي من أصبهان سنة ٤٧٩ إلى حلب فملك البلاد بينهما، وكان السلطان قد ارسل سابق بن جعبر في تسليمها فامتنع، فحاصره ونصب عليها المناجيق ففتحها وامر بقتل سابق بالقائه من أعلى القلعة، وقيل ان زوجة سابق القت بنفسها وراء زوجها فسلمت، وقيل ان الهوء رفع ثوبها فلامها البعض فقالت: كرهت ان يصل إلي تركي فيبقى ذلك عاراً علي . وقيل ان السلطان نفى عن القلعة بنى قشير وسار إلى حلب واستناب على منطقة الرقة وسروج والخابور والرحبة محمد بن شرف الدولة مسلم وزوجه بأخته زليخا خاتون، وعزل فخر الدين بن جهير عن ديار بكر، وكانت جعبر تعد في منطقتها وبقيت جعبر بيد العقيلين، وكان صاحبها في سنة ٤٩٠ الأمير شهاب الدين بن مالك بن سالم العقيلي وكان صديقاً للأمير مرشد بن قسيم الدولة بن علي بن مقلد والد الأمي اسامة وقد تحدث عنه في كتابه الاعتبار .

وفي سنة ٤٩٧ اغار صليبيو الرها على الرقة وجعبر، كانت بيد سالم بن مالك العقيلي الذي كان يمتلك الرقة أيضاً فانتزع الرقة منه جوشن النميري وكان عليها علي بن سالم فقتل .

وفي سنة ٥٠٢ جاء رسل سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر إلى الأمير جاولي سقاو التركي من امراء السلاجقة، وكان مقيماً في الرحبة (الميادين) وكانت له الموصل يستغيثون به من بني نمير الذين استولوا على الرقة وقتلوا علياً بن سالم، وضمنوا لجاولي مالاً ان هو أعاد اليهم الرقة فسار إليها وحاصرها سبعين يوماً

فضمن له بنونمير مالا وخيلا لكي يرجع فرجع وارسل إلى سالم يقول له انني في أمر أهم من محاصرة الرقة .

وكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي فوّض إلى عماد الدين زنكي ولاية بغداد سنة ٥٢١ وكان من الأمراء المقدمين ، وتقلد الموصل وسلم اليه السلطان ولديه الب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ، ليربيهما ، فلذا قيل له اتابك وهو الذي يربي أولاد الملوك .

واستولى زنكي على الجزيرة الفراتية وفتح الرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م من يد الصليبيين بعد ان سيطروا نحو من نصف قرن عليها ، وكانوا يغيرون منها على جعبر والرقة ، وكان لفتح الرها وقع حسن عظيم عند المسلمين .

وقصد عماد الدين زنكي قلعة جعبر لأنه لا يقبل ان يكون مثل هذا الحصن بيد غيره بعد ان فتح بلدان الجزيرة الفراتية وهويتها لأعمال عظيمة . وكان على الحصن يوم ذاك سيف الدولة ابو الحسن علي بن سالم العقيلي فحاصرها ، واشرف على اخذها ، ولكن جماعة من خدمه اغتالوه ليلاً في ١٥ ايلول سنة ٥٤١هـ = ١١٤٦م وهو في خيمته أثناء الحصار . وكان ابنه نور الدين معه ففك الحصار وذهب إلى حلب واستولى عليها ونظم امورها . ودفن عماد الدين زنكي في القرة ، وقيل صفين في السهل المقابل لقلعة جعبر .

وكان نور الدين عزم على الاستيلاء على جعبر ، وفي سنة ٥٦٤هـ بينما كان شهاب الدين بن مالك بن علي العقيلي صاحب جعبر يتصيد أخذه بنو كلاب الذين كانوا يقيمون في تلك الجهات وحملوه إلى نور الدين فاعتقله ، ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة ، فلم يفعل ، ثم ارسل عسكرياً كثيفاً إلى القلعة فحاصرها فلم يفز منها بطائل ، فعاد إلى الرفق مع مالك فرضي ان يسلمها إلى نور الدين ويأخذ عوضها سروج واعمالها وملاحة الجبول وعشرين ألف دينار معجلة ، وقيل لصاحبها : أيما احب القلعة أم هذا العوض ؟ فقال : هذا اكثر مالا ، وأما العز ففقدناه بمفارقة القلعة .

وفي سنة ٥٦٩ بعد موت نور الدين سار الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين من دمشق إلى حلب وتملك قلعة جعبر في المحرم سنة ٥٧٠ وحاول سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الذي ملك نصيبين وحران والرها والرقعة ان يستولي على جعبر فلم يستطع لأنها كانت منيعة . وكانت من املاك الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين .

ان الدولة الأتابكية التي ابتدأت عام ٥٤١ انتهت عام ٥٧٧ هـ على ايدي الايوبيين ، فدخلت جعبر ضمن حدود دولة صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية بعد ان سار بنفسه إلى الجزيرة الفراتية وعبر الفرات عام ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م وسلك الرها وحران والرقعة وبلاد الخابور ، ولما توفي صلاح الدين في ١٦ فرعام ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م وقسم مملكته بين اولاده واخوته كانت جعبر من قسمة اخيه العادل مع بلدان اخرى كثيرة قاطع الفرات ، وكانت في أيام ياقوت الحموي المتوفي عام ٦٢٦ هـ للملك الحافظ بن العادل ابي بكر بن ايوب ، وقد انتهت الدولة الايوبية في جهات حلب عام ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م بغارة التتر على هذه البلاد وقتلهم السلطان يوسف بن ايوب في بلاد العجم قتله هولاكو وكان اخذه معه على اثر انتصارات البلاد الشامية على جيوش هولاكو .

وبعد الأيوبيين تسكت المصادر العربية عن ذكر جعبر . ومن المؤكد ان اهلها هجروها خوفاً من التتر في البدء ، ولا بد انهم عادوا اليهم بعد هزيمة التتر في عين جالوت وهزائمهم في البلاد الشامية لأن اساء بعض الجعبريين تطالعنا بانهم ولدوا بجعبر في الربع الأول من القرن الثامن وقبله وبعده ، مما يدل على أن اهل جعبر لم يهجروها طويلاً ، وانه لم يصبها كبير خراب مما نزل بالرقعة ومنج بسبب التتر .

جاء في صبح الأعشى : قال القاضي جمال الدين بن واصل عمرت جعبر بعد ذلك في أواخر الدولة الناصرية او بعدها بقليل . أي الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ هـ ٧٤١ وقد أشار إلى ذلك في «التعريف» حين تعرض لذكرها في آخر

مضافات الشام . قال وهي مجددة البنيان مستجدة الآن ، لأنها جددت منذ سنوات ، بعد ان طال عليها الأمد . كانت من اعمال حلب ثم صارت من اعمال دمشق ثم صارت من اعمال حلب بذلك الوقت .

وقد عني بها الناصر بن قلاوون وحفر بقرىها نهراً من الفرات ، وكان يأتي بالفلاحين من جهات بعض قرى حلب يعملون في حفر النهر مدة اسبوع ويعيدهم إلى قراهم خوفاً عليهم من التتر ولكي يريحهم ، وهكذا كرر العملية ذكره ابو الفداء .

وكان السلاطين المماليك يعيّنون لها نائباً أي حاكماً بمرسوم يعني كاتب الديوان بصيغته وديباجته ، وقد اورد القلقشندي في صبح الأعشى نص توقيع بنياة قلعة جعبر الأول من انشاء ابن نباته كتب به لهبة الله بن النفيس نائب قلعة منشور في الجزء الثاني عشر ص ٤٠٨ - ٤٠٩ والثاني منشور في الجزء المذكور ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

ومن عبارة النصين نتيّن أهمية قلعة جعبر بنظر الدولة المملوكية وكانوا جعلوا منها قلعة على الفرات مع غيرها من المدن على حدودهم الشرقية . وعنوا بتنظيم البريد بينها وبين مدن الشام بجميع وسائله وطرقه . وذكر القلقشندي مراكز الطرق إليها من دمشق ومن حمص ومن حلب ومنها يذهب طريق إلى رأس العين ونصيبين .

فالتريق إليها من حمص يذهب إلى السلمية ثم إلى بغديد ثم إلى أسريا إلى الحصى إلى جعبر . ومن مركز حلب يذهب طريق إلى الجبول ثم إلى بالس ومنها إلى جعبر .

بقيت قلعة جعبر بيد المماليك إلى تاريخ انتهاء دولتهم «سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م» على يد السلطان العثماني سليم .

وتسكت المصادر عن ذكر قلعة جعبر في العهد العثماني ، ولا تطالعنا كتب التراجم والسير باسم أي اديب او عالم ولد فيها أو نشأ فيها ولا بأي خبر عنها .

واحسب ان العشائر قد جارت عليها وكان النفوذ الحقيقي لها طول مدة العهد العثماني، وانقطع الأمن، وصار الحكم للقوي ينهب ويسلب ويقتل . ولم يعد مجال للعلم والعمل فهجرها اهلها، وروى لي بعض الشيوخ اهل الرقة ان القلعة كانت مسكونة إلى ما قبل قرن ونصف، ولكن تعديت فخذ الابورسان رؤساء عشيرة ولدة الجزيرة على سكان القلعة ومن كان يسكن بجوارها من سكانها جعلهم ينزحون إلى جهات منبج، حيث يوجدون اليوم ويسمون جعابرة نسبة إلى قلعة جعبر ويشكلون عشيرة صغيرة هناك .

ومنذ ان هجر القلعة اهلها صار السكان ينزعون أجريوتها وينقلونه ليينوا به غرفاً لهم شأن السكان الذين سكنوا الرقة والرحبة وغيرها .

ولقد شاهدت في قرية كديران الواقعة غربي الرقة على بعد ٤٥ كم سيارة نقل كبير تنقل أجراً قديماً إلى القرية، فلما سألت سائقها من أين يأتي بالأجر قال ينقله من قلعة جعبر حيث يوجد عمال ينزعونه من الأنقاض ويحملونه في سيارة، ورأيت غرفة كبيرة مستطيلة تبنى من آجر قلعة جعبر يبننها المدعو عابد الضيف لتكون غرفة لضيوفه على حساب تخريب قلعة أثرية عظيمة، ولم تكن السلطات تعني بالمحافظة على الآثار فضلاً عن عدم صيانتها .

وقد خرج من قلعة جعبر بعض الأدباء والعلماء، فكان لها نصيب بالنسبة لها بالمشاركة في الحركة العلمية في عصر المهاليك، دون نصيب اخواتها المدن الفراتية الرقة والرحبة ويعادل نصيب جارتها وأختها بالس والرصافة وهذه أسماء من وقع لنا من علمائها وادبائها :

١ - برهان الدين الجعبري هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن خليل الجعبري الربيعي الخليلي ويقال له ابن السراج ويعرف بشيخ الخليل ولد بجعبر سنة ٦٤٠هـ - ١٢٤٢م وعاش مدة في بغداد وسمع الحديث وتفقه، واتقن القراءات، وتلا بالسبع ومهر في الأحوال العربية، وسكن دمشق مدة، وأقام ببلد الخليل نحو أربعين سنة يقرئ الناس، وشرح الشاطبية برسم الحديث، وصنف

بالعربية والعروض والقراءات نظماً ونثراً، وكان من المشايخ المشهورين بالفضائل والرياضة والخير والديانة والعفة، وتوفي يوم الأحد خامس شهر رمضان «سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣٢م» ودفن ببلد الخليل وله ٩٢ سنة، ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٤ وذكره عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ج ١ وذكر في مصادر أخرى.

٢ - ابراهيم بن معضاد بن شداد الجعبري الشادلي، شاعر صوفي له مشاركته في اشيء من العلم والطب توفي سنة ٦٨٧هـ = ١٢٨٨ م له ديوان شعر كبير، ذكره الصفدي في الوافي وذكره عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ج ١.

٣ - الشيخ الصالح ناصر الدين ابراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري ثم الحصري، ولد سنة خمسين وستائة بقلعة جعبر وسمع صحيح مسلم وغيره وكان يعظ الناس ويستحضر اشيء كثيرة من التفسير وغيره. كان فيه صلاح وعبادة توفي في سنة ٧٣٧ ودفن بزاويتهم خارج باب النصر بمصر ذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

٤ - بلغ من اهتمام الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلعة جعبر ان قرب اليه بعض ابنائها ولما حضرته الوفاة في سنة ٧٤١ في صبيحة يوم الأربعاء. السابع والعشرين من ذي الحجة كان اخذ العهد لابنه سيف الدين ابي بكر ولقبه بالملك المنصور، فلما دفن حضره من الأمراء قليل وكان قد ولي عليه الأمير علم الدين الجلولي، ورجل آخر منسوب إلى الصلاح يقال له الشيخ عمر بن محمد بن ابراهيم الجعبري، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج ٤.

وإلى غرب قلعة جعبر على مسافة نصف كيلومتر مشهد صغير مؤلف من بنائين صغيرين يحيط بهما سياج من الحجر، الأول إلى الجنوب تعلوه قبة يضم قبر سليمان شاه أحد امراء العثمانيين، وقيل جد الأسرة العثمانية، فارق بلاده ما هان جافلاً من التتر مع جماعة مقبلاً إلى السلجوقيين قصد جهة حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر فعبروا النهر فغرق سليمان مع ولدين من

اولاده سنة ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م فاخرجوهم ودفنوهم عند القلعة ، ولما ولى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٨٤٢م أمر بتجديد القبر فجدد ، وكان ان اعطيت تركية مكان هذا القبر في الأراضي السورية وفقاً لمعاهدة انقرة وان تبقى بجواره حامية تركية من بضعة جنود تقيم في البناء الثاني وهو عبارة عن ثلاثة غرف وتبدل الحامية كل ثلاثة أشهر . ويبدو البناء من بعيد بلونه الأبيض ، وحول هذا المشهد يوجد مخفر شرطة سوري .



الرها (اورفة)

آثينة الآراميين

تقع مدينة اورفة في اعالي الجزيرة الفراتية شمال غربي الرقة ، على بعد ١٥٠ كم ، في الحدود التركية ، وتبعد عن بلدة تل ابيض السورية ٥٥ كم إلى الشمال الغربي ، وعن مدينة حلب ١٩٠ إلى الشمال الشرقي ، شرقي نهر الفرات ، وقسم اراضيها الغربي يسقى من نهر الفرات ، وهي منذ القديم من كبريات مدن ديار مضر العربية احدى ثلاث ديارات اواقسام الجزيرة الفراتية ، والقسمان الاخران هما ديار ربيعة وديار بكر ، واورفة فراتية مثل الرقة وحران ومن اخواتها ، وكانت دير الزور والرقة والرحبة (الميادين) من اعمالها في العهد العثماني مدى قرنين ، تقع على مرتفع امامها سهل خصب كثيرة الأمطار وترتفع عن سطح البحر ٥٥٠ متراً يحيط بها من الغرب والجنوب جبل يعرف بتل فدر . مدينة قديمة وشهيرة يرتقي تاريخها إلى العهد الآشوري ، لها أهمية تجارية منذ القديم لوقوعها على

الطريق التجاري بين الموصل والشام وتشكل كورة كبيرة وأدخلها المؤرخ بلينيوس في جملة المدن العربية واسماها عدة اسماء فهي آدسا والرهاء وأورفة وأوهائي ، وأورهو في السريانية ، وآور الكلدانية ، وأور سرهوثين ، وأور هين ، من جملة الأرضين الداخلة في العربية ، ومن المدن التي جدد بناءها سلوقس الأول اليوناني وسميت آدسا وعرفت أيضاً باسم «انطوخية» نسبة إلى انطيوخس الرابع . ولا يكاد يعرف من أمرها قبل سنة ١٣٩ قبل الميلاد شيئاً يذكر وما يعرف عنها ، يعود إلى ما بعد هذا التاريخ .

وقد تكونت في القرن الثاني قبل الميلاد مملكة في هذه المقاطعة باسم أوسرهوثين منذ سنة ١٣٢ ق . م . حتى سنة ٢١٦ للميلاد عدّ الكتبة الرومانيون ملوكها من العرب وعدوا سكانها عرباً كذلك ، وإن سبب تكونها الفوضى التي ظهرت في الجزيرة الفراتية على اثر احتلال الفرس لها ، ودعيت هذه المقاطعة بأوسروثين نسبة إلى ملك اسمه أوسروس كان يحكمها ، وكان حليفاً للفرس ، وقد وجدت اسماء ملوك الرها مرتبة ترتيباً زمنياً في حوليات وعلى نقود ضربت في أيامهم ، وقد حكموا ٣٥٢ عاماً ، وقيل ان اول من حكم منهم هو آريو ، وبين اسمائهم اسماء نبطية عربية ، وعرف ملوكها باسم الأباجرة ، مفردها أبجر ، تعاقبوا على حكمها حتى سنة ٢١٦ للميلاد حيث بسط الامبراطور الروماني كاركلا سلطانه عليها وأسر ملكها أبجر العاشر وهو آخر ملوكها المستقلين وقد ازدهرت في عهدهم حتى عرفت باسم مدينة الأباجرة العظام .

أما الأخباريون فنسبوا بناء الرهاء إلى رجل سموه الرهاء بن البلدي بن مالك بن دعر ، وقال الكلبي في انساب البلاد : الرهاء بن سبند بن مالك بن دعر بن لحم ، وقال قوم انها سميت بالرهاء بن الروم بن لنطي بن سام بن نوح . وبعد سقوط مملكة آدسا بيد الرومان نصبوا عليها ملكاً اسماً هو عبدو كاركان يقيم في روما .

وفي سنة ٢٤١ أغار الفرس على الجزيرة الفراتية بقيادة الملك أزدشير

واستولوا على نصيبين وحران والرها، ولكن الإمبراطور غوردريان الثالث حمل عليهم سنة ٢٤٢ واسترجع المدن المذكورة ونصب على الرها ملكاً يدين له بالطاعة هو أبجر عبد كار الحادي عشر ملك حتى سنة ٢٤٤ م وهو تاريخ موت غوردريان . وبموته انتهت مملكة الرها الصغيرة .

وحاصرها ملك الفرس سابور الأول سنة ٢٦٠ وأسر بقرها الإمبراطور الروماني فاليران . واقتاده الفرس إلى بلادهم وقتلوه هناك .

وجاءت فترة ضمت فيها الرها ومقاطعتها إلى مملكة تدمر في عهد ملكها اذينات وملكتها زنوبيا من بعده في الربع الثالث من القرن الثالث للميلاد .

وكانت عبادة الكواكب دين أهلها قبل انتشار النصرانية فيها، ومن آلهتها الألهان أيزوس ومونيوموس، ويرى موردقن ان هذين الالهين عربيان اصليان الأول عزيز والآخر منعم، وهما من آلهة عرب منطقة آدسا، وان أضافهما بعض الكتاب إلى آلهة الأراميين، والاله بلع وبنو، وفنوس، وكانت تسمى فيها بات نيكال ومعناها ابنة نانكال .

دخلت النصرانية الرها بعهد ملكها أبجر الخامس وتنسب اليه رسالة قيل انه بعثها إلى المسيح، ومراسلات مع الحواريين الأولين، وأضحت الرها ابنة الكنيسة المتميزة في الجزيرة الفراتية وينبوع المعارف والعلوم . انشئت فيها كنائس عظيمة وانتشرت حولها وفي جبلها الأديرة العديدة وقد عني افرام سيروس (السوري ٣٠٦ - ٣٧٣) بمدرستها، وكان اول اللاهوتيين العظام في الكنيسة المسيحية، كما كان شاعراً دينياً ساعد في ادخال الرهبنة . ولد في نصيبين واتى إلى الرها حيث أعاد تنظيم مدرسة اللاهوت فيها التي أصبحت جامعة عظيمة للسوريين . أمها كثير من الطلبة السوريين، فكانت الرها أهم مركز ثقافي للنساطرة ولا سيما في عهد اسقفها إيباس «٤٣٦ - ٤٥٧ م»، وبعد وفاته انتخب نونوس اسقفاً للمدينة وكان كارهاً للنسطورية، فارتحل النساطرة عنها إلى بلاد الفرس اعداء الروم، ومنحهم ملوك الفرس الحرية الدينية وحرية التبشير

بمذهبيهم وصاروا يعلمون الفلسفة اليونانية والطب، وغدت مدينة «سلوقية على نهر دجلة» مركزاً ثقافياً ينافس مدينة نصيبين، ومن هؤلاء النساطرة تعلم أهل الحيرة النسطورية وكانت اللغة الآرامية هي لغة الرها.

وقد ازدهرت هذه المدينة خاصة في أواسط القرن الرابع وفي القرن الخامس للميلاد، وكان لها مركز خير في الأدب السرياني وفي الأدب النصراني وفي تاريخ النسطورية.

والأدب السرياني أدب مسيحي تقريباً ويشتمل على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية، ولذا اعتبرت الرها أثينة العالم الآرامي وقد ازدهرت مدرسة الرها حتى عام ٤٨٩، عندما هدمت بأمر الامبراطور زينون فانقل الاساتذة إلى نصيبين التي أصبحت وريثة الرها كمركز علمي سرياني يوناني.

وكانت آدسا في القرن الخامس قاعدة كبرى من قواعد المسيحية في الشرق ومركز أبرشية كبرى ترتبط بها سبع أبرشيات، منها حران وبيريجيك وطي وسروج وتلمحرا وقلعة جعبر على الفرات، ومن اساقفتها المشهورين يعقوب البرادعي الذي رسم اسقفاً للرها حوالي عام ٥٤٣ وتوفي عام ٥٧٨، وهو الذي نظم الكنيسة المونوفيزية في سورية (المذهب القائل بالطبيعة الواحدة) في المسيح، وسمى اصحاب هذا المذهب باليعاقبة، وهذا المذهب انما هورد على مذهب النسطوريين القائلين بمذهب الطبيعة (الإلهية والبشرية) في المسيح، وهم الذين شكلوا الكنيسة الشرقية او «كنيسة الشرق» كما تسمى نفسها.

وكانت الرها تقع تارة بيد الرومان وتارة اخرى بيد الفرس وقد اضطهد الاثنان مسيحي الرها في فترات متعددة ونال المدينة خراب من جراء ذلك.

وفي الحرب ٥٠٢ - ٥٠٦ بعهد الامبراطور انستاس وضع الحصار عليها، ونهبتها جنود الدولتين، فأقفرت، فجدد الامبراطور جوستنيان الأول بنائها، وعسكر أمامها كسرى الأول عند تراجعه من سوريا وسار عنها لقاء مبلغ قدمته له المدينة. واستولى عليها كسرى الثاني سنة ٦٠٩.

وقد تعرضت في تاريخها لفيضانات طاغية من النهر المعروف باسم قره كوبون أو نهر القوط، انزلت كوارث في المدينة، وكان الامبراطور جوستنيان قد أقام قناة كبيرة شمال المدينة لتحويل مياه الفيضان، ودفع أذاها، وعلى الرغم من ذلك، عادت فاجتاحتها في سنة ٦٦٨ و ٧٤٣.

استولى عليها العرب المسلمون في سنة ١٨ للهجرة ٦٣٩م من ايدي الروم بعهد الخليفة عمر بن الخطاب وبقيادة عياض بن غنم الذي اتخذ منها مركزاً لحركاته العسكرية في الجزيرة الفراتية حيث فتح جميع مدنها وسموها الرها من اسمها اليوناني آدسا.

ولما مات عياض ولى الجزيرة الفراتية سعيد ابن عامر، فبنى مسجد الرقة ومسجد الرها، ثم توفي فبنى المساجد بديار مضر وربيعه عمير بن سعيد. واتصلت احداثها بالتاريخ الاسلامي منذ ذلك الوقت، واصابها اذى كثير بسبب الفتن والثورات التي وقعت في العهود الاسلامية.

وقد فقدت المدينة اهميتها السياسية والدينية، وأغار عليها الروم عدة مرات فنهبوا وقتلوا وخربوا، وكانت من املاك الحمدانيين، وملكها نصر الدولة بن مروان الكردي صاحب ديار بكر، وفي القرن الخامس الهجري تعرضت لنهب بني نمير، واستولى عليها السلجوقيون، ودارت بينهم وبين الفرنج عدة معارك من أجلها، وتسلمها السلطان ملكشاه السلجوقي في سنة ١٠٨٦ حتى سنة ١٠٩٤، وكان عليها في فترة حاكم ارمني من قبل السلجوقيين.

واستولى الصليبيون على الرها سنة ١٠٩٨ واسسوا فيها امارة عرفت في التاريخ باسم كونتية آدسا، دام حكمهم فيها نحو خمسين سنة.

وفي جمادي الآخرة سنة ٥٣٩ - ١١٤٤م استولى عليه السلطان عماد الدين زنكي صاحب الموصل، بعد أن حاصرها ٢٨ يوماً، وجرى فيها القتل والنهب، وعاد الفرنج اليها غير ان السلطان نور الدين بن عماد الدين زنكي استردها في سنة ٥٤١ - ١١٤٦م بعد معركة كانت آخر ايام الفرنج في تلك الديار، وبقيت الرها

من املاك نور الدين إلى ان توفي سنة ٥٦٩ هـ آلت بعده إلى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل ، ثم ملكها الايوبيون حتى سنة ٦٥٦ .

واجتاحها التتر سنة ١٢٥٢ ، وغزتها جيوش تيمورلنك سنة ١٣٩٥ ، وفي زمن ابي الفداء (٦٧٢ هـ - ٧٣٢ م) (١٢٧٥ - ١٣٣١ م) كانت الرها خراباً . وبحسب القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى كانت المدينة في زمنه (١٤٠٠ م) جدد بناؤها ومأهولة وفي رخاء .

استولى عليها العثمانيون في سنة ١٦٣٧ م خلال حروب السلطان التركي مراد الرابع مع الفرس وسموها اورفة .

وفي حدود سنة ١١٧٤ هـ كانت اورفة أمانة تتبعها الدير «دير الزور» والرجبة «الميادين» والركة والخابور وحران وجلاب وقيس ، وقد جعل الأتراك الرقة ولاية مركزها في اورفة وكانت تسمى أحياناً ولاية الرقة واورفة ، وكانت دير الزور تابعة لها ، ولا تزال علاقات كثيرة بين الرها وبين دير الزور والرقة . وقود تملك اراضي الرقة ما زالت موجودة في اورفة يذهب الرقيون لاستخراج صور عنها ، ويوجد ديريون من فخذ البعاجين في اورفة حتى اليوم .

وفي أيام الدولة العثمانية امر السلطان وزيره حسين باشا بن القاضي ان يأتي بشمانين الف تركماني ويسكنهم بمنطقة اورفة قرب عين العروس في اعالي نهر البليخ على نهر الجلاب ، ولا يزالون حيث اسكنهم حسين باشا يعيشون عيشة العشائر العربية المجاورة لهم ، وكان ذلك الاسكان لاسباب سياسية .

وفي جنوبها وشالها وشرقها بساتين وحدائق غناء تشرب من عيون تتفجر من جبلها وتسقي بساتينها وتنبت فيها عينان عين الخليل وعين زليخة .

كانت نفوسها في الحرب العامة الأولى نحو مائة الف فيهم ٤٠ ألف أرمني قتلت الدولة معظمهم للعصيان الذي قاموا به في اورفة ، والآخرون عرب واكراد وأهلها العرب مشهورون بالكرم ، وهم من قبيلة قيس «جيس» وافخاذ أخرى من

بني عجل ونمير وحمدان وأسد وطى وكلاب وبقارة «وشهور» وغول ، كثير منهم في ناحية حران ، وكان لأورفة أربعة ابواب منها باب الرقة وباب حران . حاصلاتها القمح والشعير والعدس والرز والعسل والزبيب والدبس وثروة حيوانية من الغنم والبقر والابل والخيول . وتتألف ولايتها من قضاء سروج وقضاء براجيك وناحية حران ، وكانت سنجقا تؤلف مع حلب ومرعش ولاية حلب .



بالس (مسكنة)

مرفأ حلب على نهر الفرات

مسكنة قرية صغيرة في سفح آكام وروابي طباشيرية بيضاء، على بعد كيلومتر ونصف من ضفة الفرات الغربية، على الطريق العام المعبدة بين حلب - دير الزور، شرقي حلب تبعد عنها ٩٠ كم وغربي الرقة تبعد عنها ٩٠ كم. احدى محطات القوافل والعربات والسيارات على هذا الطريق بينها وبين حلب محطة واحدة، هي قرية دير حافر التي تبعد عن حلب ٥٠ كم، فيها مخفر للشرطة فوق الرابية، وقهوة صغيرة وبضعة حوانيت ومطعم ومركز لبيع وقود السيارات التي تقف عندها للاستراحة ونقل المحاصيل الزراعية. وهي احدى نواحي منطقة منبج، احدى مناطق محافظة حلب، ومركز ناحية مسكنة قرية الحفصة. تتبعها عدة قرى ومزارع.

لا يعرف سبب تسمية مسكنة وتاريخها، بعد ان كان اسمها في العهد

الروماني بارباليسوس وفي العبرية بيتابليش ، وعرفها العرب باسم بالس منذ الفتوحات الاسلامية . ولا يعرفها سكان منطقة الفرات إلا باسم مسكنة . سكانها اعراب متحضرون ينتسبون إلى عشيرة خفاجة القديمة التي كانت لها خفارة الرصافة وبريتها ، ولا يزال قسم منها في العراق وإلى عشيرة الولدة احدى عشائر البوشعبان الموجودة في منطقة الرقة ومنبج وعين العرب .

كانت مسكنة وعشرات القرى الممتدة بينها وبين بلدتي الباب ومنبج من الجفتلك ، وهي الأراضي التي كانت للسلطان العثماني عبد الحميد ، و بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ دورت إلى الخزانة العامة وسميت الأملاك المدورة ثم أملاك الدولة في العهد السوري ، كان السلطان المذكور يعني بشؤون سكان هذه القرى ويحميهم من تعديات البدو ، ومن تسلط موظفي الحكومة ، بواسطة جباة تابعين لادارة خاصة باملاكه مركزها حلب ، ويفضل هذه الحماية عمرت القرى ، وكانت منذ تخريب التتر لهذه البلاد باثرة .

وحول مسكنة توجد عشيرة الفدعان العنزية البدوية ، ولبعض شيوخها أراض واسعة في ناحية مسكنة منتجع لعشائر الولدة والبوخيس والكيار والوهب وغيرهم . تمتد نجعتهم إلى نواحي الرصافة وجبل البشري في الربيع . لمسكنة موقع جغرافي هام ، فهي اقرب نقطة على الفرات إلى حلب تمرّ بها القوارب الخشبية ذات القعر المسطح من بلدة براجيك التركية (قلعة البيرة) ، وتمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقة ودير الزور ، وتنتهي ببلدة الفلوجة في العراق ، وهي مرفأ بغداد على ضفة الفرات الغربية ، حلّت محل بلدة الأنباء القديمة والقريبة منها ، والتي كانت في العصر العباسي مرفأ بغداد على ضفة الفرات الشرقية .

نقلت هذه القوارب اثناء الحرب العالمية الأولى المؤن والذخائر والمدافع والبنادق والطائرات إلى الجيش العثماني في العراق لصد الانكليز الزاحفين من البصرة . واستخدم الفرنسيون في عهد الانتداب الفرنسي بسوريا هذه القوارب

لنقل المؤن من مسكنة إلى دير الزور وما برحت توجد في الفرات لنقل الحاصلات الزراعية والاحطاب ونقل السكان من ضفة إلى ضفة لعدم وجود الجسور على الفرات باستثناء جسري دير الزور والرقعة .

على سبعة كم من مسكنة إلى الجنوب الشرقي توجد خرائب بالس القديمة ، والأسم غير معروف في المنطقة حتى من المتعلمين ، على هضبة تعلو عن مستوى سهل الفرات نحو عشرين متراً . تبرز للمسافر على طريق حلب . دير الزور من مسافة بعيدة بمنارتها الباسقة وبقايا جدران قصورها ، وهي على بعد مائة متر من الطريق العام غربيه ، ولها درب منه إليها .

ورد ذكر بارباليسوس في الحروب بين الفرس والرومان ، واقدم رواية عنها هي التي رواها المؤرخ الاغريقي اكزانوفون الذي تكلم عن قلعة وحديقة حاكم سوريا (بلسيس) كانت واقعة في هذا المكان ، وعلم بطليموس الموقع الحقيقي لمدينة بارباليسوس على أنها محطة على طريق الفرات ، قد يعود تاريخ الموقع إلى ما قبل العهد الروماني قال العالم الأثري «دوسان» الذي اشتغل بقراءة رقم ماري «تل الحريري» ان موقع بالس ينطبق على اسم مدينة ايار القديمة ، التي ورد ذكرها في الواح ماري . فهي منذ العصور القديمة وخلال العهدين الروماني والعربي كانت ثغراً نهرياً تجارياً ، ومركز مناقلات (ترانسييت) ، كان الفرات يجري من جانب شرقيها ، ويغمر الأراضي الواسعة التي يمر منها طريق السيارات حتى قرية ردة الصغيرة .

كانت مرفأ هاماً تنزلها القوافل القادمة من انحاء حلب وانطاكية وميناء السويدية ومن غيرها من مدن الشام وموانئها ، تفرغ حمولتها من مصنوعات البلاد الرومية والشامية لتسلمها إلى عشرات السفن الراسية في باريس لتتجسسها إلى العراق وايران والهند والصين .

كانت هذه القوافل القادمة إلى بالس تترك الطريق البرية وتفرغ حمولتها في بالس الميناء على الفرات الذي كان طريقاً مائياً صالحاً للملاحة وكانت جوانبه

حافلة بالمدن والقلاع لحماية الطريقين المائي والبري منذ عهد الحثيين الذين كانوا يتاجرون مع بابل ناقلين سلعهم ومصنوعاتهم المعدنية بالسفن منحدرين في الفرات من عند عاصمتهم كركميش (جربلس) ، وكانت السفن الآتية من العراق إلى الشام ترسي ببالس فتفرغ فيها حمولتها لتنقلها القوافل بطريق البر إلى حلب والشام والبحر الأبيض المتوسط ، وبالس اقرب المدن الفراتية إلى هذا البحر ، وهي في نفس الوقت واقعة على سيف بادية الشام التي كانت عامرة في العصور القديمة بفضل العناية بتنظيم الري فيها ، كانت بالس سوقاً لها ، وهي منذ القديم مركز مواصلات لوقوعها على طريق الفرات القديم البري وأول مدن الشام على هذا الطريق بعد مدينة الرحبة التي تفصل بين الشام والعراق .

تقع بالس على حد مناخي هام ، فان رطوبة الفرات تخفف منها وطأة المناخ الجاف المتصفة به بادية حلب ويستبدل باقليم الجزيرة الفراتية المعتدل ، ولذا صار في نباتها وحيواناتها ميزات تميزها عن نبات البادية وحيواناتها ، وكانت تسمى باب سوريا على الفرات .

كانت بالس بلدة رومانية بيزنطية كالرقة والرصافة والبصرة والصالحية وغيرها من المدن الفراتية القديمة على ضفتي الفرات . عرفت ازدهاراً في التجارة والزراعة العمران والصناعة ، بفضل حسن موقعها على الفرات مما جعل منها مرفأ ومركز ترانسييت وكانت اسقفية تابعة لمتر وبولية الرصافة .

وحوالي سنة ٤٢٥م كانت من اعمال مقاطعة الفرات الرومانية في عهد الامبراطور اغسطوس ، وكان فيها قلعة محصنة تقيم فيها حامية رومانية . وكانت من جملة قلاع الرومان وخطوطهم الدفاعية ضد الفرس وكان لها سور فيه عدة أبواب .

اصابتها كوارث عديدة في العهد الروماني من زلازل ومحاصرات وتخريب كسرى الثاني انوشروان العاهل الفارسي نحو سنة ٥٤٠ في حملته التخريبية على سوريا . فاعاد الامبراطور جوستنيان بناؤها ، ولا تزال من آثاره بقايا ساحة ،

وأطلال برج ومعبد . وبينما كان الرومان ينعمون بالحياة فيها فاجأهم الفتح الاسلامي .

قال البلاذري : «سار ابو عبيدة حتى نزل عراجين وقدم مقدمته إلى بالس ، وبعث جيشاً عليه حبيب بن مسلمة إلى قاصرين . وكانت بالس وقاصرين لآخوين من اشراف الروم . فصالحهم اهلها على الجزية أو الجلاء فجلا اكثرهم إلى بلاد الروم وارض الجزيرة وقرية جسر منبج ، ولم يكن الجسر يومئذ ، وانما اتخذ في زمن عثمان بن عفان للطوائف ، واسكن بالس وقاصرين قوماً من العرب والبوادي . . وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل اعداء عشيرة فلما كان مسلمة بن عبد الملك توجه غازيا إلى الروم ، من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس فاتاه اهلها واهل بوبلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرى منسوبة اليها ، فسألوه ان يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي ارضهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان ، فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ، ووفاه بالشرط ، ورسم سور المدينة وأحكمه فلما مات مسلمة صارت بالس وقراها لورثته ، فلم تزل في ايديهم حتى جاءت الدولة العباسية فقبضت على اموال بني امية فدخلت بالس فيها وآلت إلى الرشيد ثم إلى ابنه المأمون . . » .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان بن عفان ، كانت بالس في عداد القلاع المعدة لحماية الحدود الشمالية ضد الروم . وكانت حران مركز هذه الحصون والعواصم : لمنبج وانطاكية وبالس والرصافة . ثم الحقت بالس بجند قنسرين .

وفي العهد العباسي اهتمت بالس كشأن بلاد الشام الأخرى ، وتداولت عليها ايدي المتغلبين .

وفي سنة ٢٤٥ هـ خربت هزة ارضية بالس شعروا بها في الرقة وحران وغيرهما . وفي سهول بالس (خساف والناعورة) جرى قتال بين مجزأة بن كوثربن

زفر الكلابي ، وكان يقيم في هذه السهول وبين جيوش العباسيين بعد هزيمة مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ .

وفي سنة ٢٦٥ دخلت بالس تحت سلطة احمد بن طولون صاحب مصر ، وكان يخطب له على منبرها ، وكان عليها من قبله محمد بن العباس بن سعيد الكلابي واخوه سعيد ، واستولى عليها لؤلؤ مولى ابن طولون الذي عصي مولاه سنة ٢٦٩ وقطع الخطبة لابن طولون في حلب وقنسرين وبالس ثم مضى عنها إلى الرقة ، ومنها انحدر في الفرات إلى بغداد ، واجتازها الخليفة المعتضد سنة ٢٨٧ والأخشيذ محمد بن طغج صاحب مصر والشام سنة ٣٣٢ قادماً من حلب متوجهاً نحو الرقة حيث التقى بالخليفة العباسي المتقي على شاطئ الفرات الغربي مقابل الرقة .

وملكها سيف الدولة الحمداني ، وكانت المدينة غنية لمرور القوافل بها ، ولكونها سوق البادية وكان التجار الشوام يجتمعون فيها ليوصلوا بسلعهم اما إلى الشرق الى العراق والخليج العربي ، واما الى الغرب الى البحر الأبيض المتوسط عبر حلب مركز تجارة الشمال .

وفي القرن الرابع للهجرة كان الفرات ودجلة الشريانين الرئيسيين للتجارة وكان على ضفتي الفرات فرضتان هامتان هما الرقة وبالس ، ويسمى الرحالة ابو اسحق الاصطخري سنة ٣٠٩ بالس مرفأ الشوام ، وسماها مدينة صغيرة .

وفرض سيف الدولة الضرائب الباهظة على القوافل المارة ببالس وعلى التجار المقيمين فيها ، واكل بجبايتها قاضيه ابا الحصين الرقي ، وهو معروف بظلمه فارهاها بالضرائب فم تعد القوافل تمر بها ، وابتدأ عهد انحطاطها من ذلك الوقت .

ولى سيف الدولة على بالس وحران ومنبج ابن عمه الشاعر ابا فراس الحمداني . ورد ذكرها في عدة ابيات من شعره منشورة في ديوانه الذي حققه الدكتور سامي الدهان وكان ينزل في بواديه قبائل بني كلاب وغيرهم من

الآعارب، وكانوا من رعايا سيف الدولة. وكانوا يخرجون عليه من وقت لآخر، فيسير إليهم يبطش بهم ويشردهم، وكان الشاعر المتنبّي معه في بعض حروبه هذه فوصفها في شعره. وقصدت بنوكلاب أبا فراس وهو في بالس تشفع به إلى سيف الدولة فشفع لهم.

وفي سنة ٣٨١ استولى بكجور على الرحبة والرقّة وسار إلى بالس ليستولي عليها فحاصرها خمسة أيام فلم يظفر بها فسارعنها مهزوماً أمام سعد الدولة الحمداني ملك حلب، الذي جاء إلى بالس وقام بها أربعة أيام وفيها التقى داعي الدعاة الداعية الفاطمي بالقائد التركي البساسيري صنيعة الفاطميين سنة ٤٥٠هـ، والذي استولى على بغداد بعد تلك المواجهة وخطب فيها لخليفة مصر المستنصر ولبثت بيده مدة سنة. وكانت بيد المرادسيين ملوك حلب كل مدة حكمهم في حلب وتحت نفوذ الفاطميين وكان الصليبيون قد امتدوا شمالاً واسسوا إمارة في أورفة وفي سنة ٥٠٥ و١١١١م وقعت بالس في أيدي صليبي أورفة، فاخلى أهلها وأهل منبج بلدهما. ولكن لم يلبث المسلمون أن استعادوها. وكانت من أملاك عماد الدين زنكي ومن بعده آلت إلى ابنه نور الدين، وقبل أن المنارة الموجودة فيها من عمله، ثم آلت إلى الملك غازي بن أيوب ملك حلب المتوفي سنة ٦١٣. ثم آلت إلى الملك العادل أبو بكر بن أيوب ٥٤٠ - ٦١٥ وهو البذي شيد المنارة القائمة فيها.

ومن أقام ببالس مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين من اتابكية دمشق حوالي سنة ٥٣٥هـ بأمر نور الدين زنكي. ثم توجه إلى بغداد، وأقبل عليه الخليفة المقتفي، ويظهر أن الأمير بدر الدين بن يوسف الجعبري الذي كان والياً بقلعة دمشق في أواخر القرن السادس الهجري كان من أهل بالس، لأنه بعد موته نقله أهله ودفنوه في بالس، ورثاه الشاعر ابن عنين (٥٤٩ - ٦٣٠) بقصيدة منشورة في ديوانه الذي حققه المرحوم خليل مردم بك وطبعه المجمع العلمي العربي بدمشق.

ومن اكبر الاسباب التي عملت في انحطاط بالس في القرنين الرابع والخامس الهجري ان نهر الفرات الذي كان يجري من تحتها اخذ يغير مجراه ويشرق عنها قليلاً حتى صار بينهما في زمن ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ اربعة اميال ولذا لم يعن بها في معجمه إلا أنها بلدة في الشام بين حلب والرقّة كانت على ضفة الفرات الغربية ثم يذكر بعض أسماء من نسب اليها من العلماء .

ولم يكن السلطان والاهلون من القوة والغنى بحيث يجهدون في اعادة النهر إلى مجراه القديم ، وذلك ممكن لو كان ثمة استقرار وغنى ولكن ضعف واضطراب .

بقيت بالس بيد الأيوبيين تلملم شعنها إلى ان استولى التتر على بغداد سنة ٦٥٦ هـ واجتازوا الجزيرة الفراتية سنة ٦٥٧ هـ وعبروا الفرات من عدة اماكن من قرب قرقيسيا ومنبج فاجتازوا ببالس ، واجهزوا عليها واكتسحوا حلب ودمشق وما بينهما ، وكان يحل القتل والحراب والدمار حيث حلوا ، وخربوا انظمة الري في وادي الفرات فخلا من السكان والعمران ومن الأشجار والحيوان ، بعد أن كان جناناً متصلة ومدناً وقرى عامرة نضرة .

ولقد شاركت بالس في الحركة العلمية في العصر العباسي عدة قرون إلى جانب اخواتها المدن الفراتية الرقة والرحبة وجعبر ، ومدن الجزيرة الفراتية ، رأس العين وحران ونصيبين ، بمن نبغ فيها من الفقهاء والعلماء والأدباء وبمن نشأ فيها من العلماء . وهذه أسماء بعض من وقع لنا من ابنائها والناشئين فيها ولمحات من حياتهم :

١ - ابوالمجد معدان بن كثير بن علي البالسي ، الفقيه الشافعي ، كان له معرفة جيدة بالأدب واللغة .

٢ - الحسن بن عبد الله بن منصور بن حبيب بن ابراهيم ابو علي الانطاكي يعرف بالبالسي ، حدث بدمشق ومصر عن الهيثم بن جميل واسحاق بن ابراهيم

أخنيي وغيرهم، وروى عنه جماعة منهم ابو العباس بن ملاس ومكحول البيروني .

٣ - اسماعيل بن احمد بن ايوب بن الوليد بن هارون ابوالحسن البالسي .

٤ - وابو العباس احمد بن ابراهيم بن محمد بن بكر البالسي . ذكرهم ياقوت في معجم البلدان .

٥ - ترجم محمد بن شاكر الكشي المتوفي سنة ٧٦٤ في كتابه (فوات الوفيات) العالم بالسي هو: «ابو بكر بن قوام بن علي بن قوام بن منصور بن معلى البالسي . احد مشايخ الشام . كان شيخاً زاهداً عابداً عديم النظر، كثير المحاسن وافر النصيب من العلم والعمل ولد بصفين^(١) . سنة أربع وثمانين وخمسمائة ونشأ ببالس، وكان حسن الأخلاق لطيف الصفات وافر الأدب والعقل، دائم البشر، كثير التواضع، شديد الحياء متمسكاً بالأداب الشرعية، تخرج به غير واحد من العلماء والمشايخ وتلمذ له خلق كثير، وقصد بالزيارة وبعث اليه الملك العادل على بد فخر الدين خمسة عشر ألف درهم، فما قبلها، وقال لا حاجة لنا بها، انفقها في جند المسلمين، وجاءته امرأة وقالت له عندي دابة قد ماتت ومالي من يخرجها عني، قال امضي وحصلي حبلاً حتى أبعث من يجرها، فمضت فجاء الناس وجروها عنه، وكان لا يدع احداً يقبل يديه، ويقول من امكن من تقبيل يده نقص من حاله شيء . توفي بقرية علم سنة ثمان وخمسين وستمائة ودفن بها . نقل بعد اثنتي عشرة سنة إلى دمشق أي سنة ٥٧٠ ودفن بزاويته» .

٦ - وترجم ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ج ١٤ لعالم عامل بالسي نجتزي من الترجمة بما يلي: «الشيخ الصالح العابد الناسك الزاهد القدوة، بقية السلف ابو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح عمر بن الناسك الكبير ابي بكر بن قوام بن علي البالسي . ولد سنة خمسين وستمائة ببالس وكان شيخاً جليلاً بشوش

١ - صفين قرية فراتية بسهل صفين الذي يتصل بسهل بالس، وهي من قرى بالس .

الوجه، حسن السميت، وكان يوم قازان، في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان فحكى عن كلام شيخ الاسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجراته عليه، وأنه قال لترجمانه قل للقازان انت تزعم انك مسلم ومعك مؤذن وقاض وامام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا على ماذا؟ وابوك وجدك هولاء كونا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا وانت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، قال وجرت له مع قازان وقطلو شاه وبولاي امور قام بها ابن تيمية كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل، قال وقرب إلى الجماعة طعاماً فاكلوا إلا ابن تيمية، فقل ألا تأكل فقال: كيف أكل من طعامكم وكله مما نهبتهم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس، قال فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة وغيره كدت تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصحبك من هنا، فقال وأنا والله لا أصحبكم، وكنت أنا من جملة من ان معه أما اولئك الذين أبوأن يصحبوه فخرج عليهم جماعة التتر فقتلوههم.

توفي الشيخ محمد بن قوام ليلة الاثنين الثاني عشر من صفر بالزاوية المعروفة بهم غربي الصالحية والناصرية سنة ٧١٨، حضر جنازته خلق كثير، وكان في جملة الجميع الشيخ تقي الدين بن تيمية لأنه كان يحبه كثيراً وكان يزار، وكان لديه علم وفضائل جمة وكان فهمه صحيحاً، وصنف جزءاً فيه اخبار جيدة.

٧ - ذكر أبو الفرج الاصبهاني بكتابه الاغانى شاعراً من بالس في أخبار سليمان بن وهب وهو اخو الحسن بن وهب. قال لما استوزر الخليفة العباس المهتدي بالله (٢٥٥ و ٨٦٩م) سليمان بن وهب ولقبه الوزير، جلس للناس، فدخل اليه شاعريقال له هرون بن محمد الباسي فذكر مظلمة له ببلده ثم انشده:

زيد في قدرك العلي علو	يا ابن وهب من كاتب ووزير
اسفر الشرق منك والغرب عن ضو	من العدل فاق ضوء البدر
أنشر الناس غيثكم بعد ما كا	نوا رفاقاً من قبل يوم النشور

شرد الجوع رعد لكم فسرحننا بينكم وبين روضة وسرور

فوقع في ظلامته ووصله بهائي دينار.

أما معالمها الأثرية : فمنارة باسقة مئمنة الأضلاع جميلة متاسكة البينان فوق قاعدة مربعة ، مبنية بالأجر المشوى الأصفر، بابها من الجهة الغربية يبلغ ارتفاعها ٢٢ متراً، يصعد إليها بسلم داخلي ذي ١٠٧ درجات وذات سبع طبقات في كل منها قوس جميل يختلف الواحد عن الآخر. وبعض مدا ميكها من الخارج مزخرفة بكتابة كوفية، لم نستطع قراءتها تماماً، ولكننا تبينا منها اسم احد الملوك الأيوبيين، وقسمها الأعلى خراب، يصعد إليها بسهولة، ولقد صعدت فيها سنة ١٩٥٧ واطللت من اعلاها على خرائب بالس وعلى نهر الفرات والقرى القريبة على ضفته والسهول الممتدة حول بالس وتشاهد منها قلعة جعبر ومنارتها، وهي كائنة فوق تل على ضفة الفرات الشرقية، وداخل المدينة اطلال المسجد الذي كان حول المنارة، واطلال بناء فخم لعله كان قصر امير المدينة، واطلال بناء آخر شاهق لعله كان حصناً، واطلال كثير من الدور العربية الطراز مبنية بالأجر، ولكنها نبشت من قبل لصوص العاديات، فلا ترى سوى جورواكوام من التراب المستخرجة، وقطع لا تعد من كسور الأواني الخزفية الملونة. كان النباشون يتحرون على هذه الأواني السليمة، وبقايا الخزف يشهد بازدهار صناعته في بالس، فقد اشتهرت جاراتها بصناعته وإلى مدة قريبة كانت تبدو آثار سورها. ولقد نقب فيها الأثري الفرنسي دولوريه تنقيباً سريعاً خفيفاً، وتوجد في متحف دمشق من آثارها قطع نقوش جصية.

منبج

عاصمة سورية الفراتية ومدينة العواصم

تقع شمال شرقي حلب على بعد ٨٠ كيلومتراً، في فضاء واسع مرتفع عما حوله قليلاً، ينحدر نحو الفرات في الشرق، وتبعد عن ضفته الغربية ١٥ كيلو متراً، وتمتد نحو نهر الساجور في الشمال ونهر ابوقلقل في الجنوب، وهما من روافد الفرات، وتتجه نحو أراضي منطقة الباب وقرية بزاعة في الغرب، وارتفاعها عن سطح البحر ٤٤٧ متراً.

وهي اليوم مركز منطقة منبج إحدى مناطق محافظة حلب، تتوسط منطقتي الباب وجرابلس (كركميش الحثية على ضفة الفرات الغربية) من مناطق محافظة حلب أيضاً.

منبج مدينة عريقة في القدم، كان لها شأن قبل الاسلام وبعده، يرجع تاريخها إلى ما قبل الحثيين في هذه البلاد، وكانت العاصمة الدينية لكل بلاد

الآراميين الذين كان لهم ممالك على شواطئ الفرات وفي بلاد ما بين النهرين وداخل سورية .

عرفها الآشوريون باسم «نابيجي» او «نانبيجي» في عهد الملك سالمانصر، وجاءت في الكتابة المسهارية باسم : «بامبوكي» . ويرجح ان اللفظة من اصل سامي إذ يمكن ارجاعها إلى اللفظة الارامية (مانبوك) ومعناها الماء المتفجر او المنبع او النبع سميت بهذا الاسم لوجود عين ماء عظيمة فيها تعرف باسم الرام تدين لها المدينة بوجودها وازدهارها لأنها على طريق تجاري .

ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها (هيرا بوليس)، ومعناه المدينة المقدسة لتقدیس سكان المنطقة لها، وكان لأسمها صيغ أخرى يونانية ولاتينية فيقال لها بامبيك (وهيرا بوليس) ومعناه المدينة المقدسة لتقدیس سكان المنطقة لها، او (يره بوليس) والأخير اسم مدينة كركمبش (جرا بلس) شقيقتها وجارتها . نقل هذا اللفظ من كركمبش بعد خرابها في الحروب بين الحثيين والآشوريين وبين الحثيين والمصريين منذ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد . إلى منبج . ثم رد إلى كركمبش بعد خراب منبج .

ومعنى (يره بوليس) مدينة الإله، أي المدينة المقدسة، ويسمىها الفرنج مينكز، و(ماييجوم) وجاء في تقويم البلدان وفي معجم البلدان ان بعض الأكاسرة ملوك الفرس الذي غلب على الشام بنى منبج وسمّاها «منبه» وبنى بها بيت نار، ووكل به رجلاً يسمى ابن دينار من ولد ارشير بن بابك . وهذا خطأ من البلدانيين المسلمين .

ولما استولى الرومان على سوريا تملكوا منبج، ومنذ القرن الثالث الميلادي كانت منبج مركزاً لتجمع الجيوش الرومانية في الشرق للدفاع عن سورية، ضد الفرس وصارت من اهم مراكز الجيش الروماني الذي كان يفد على ميناء السويدية ويمر بانطاكية ثم يأتي إلى منبج ليتوزع منها ويساق إلى المراكز في بلاد ما بين النهرين على الحدود الفارسية الرومانية ويتمركز في الحصون على الخابور .

الآراميين الذين كان لهم ممالك على شواطئ الفرات وفي بلاد ما بين النهرين وداخل سورية.

عرفها الآشوريون باسم «نابيجي» أو «نابيجي» في عهد الملك سالناصر، وجاءت في الكتابة المسارية باسم: «بامنبوكي». ويرجح ان اللفظة من اصل سامي إذ يمكن ارجاعها إلى اللفظة الآرامية (مانبوك) ومعناها الماء المتفجر او المنبع او النبع سميت بهذا الاسم لوجود عين ماء عظيمة فيها تعرف باسم الرام تدين لها المدينة بوجودها وازدهارها لأنها على طريق تجاري.

ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها (هيرا بوليس)، ومعناه المدينة المقدسة لتقديس سكان المنطقة لها، وكان لأسمها صيغ أخرى يونانية ولاتينية فيقال لها بامبيك (وهيرا بوليس) ومعناه المدينة المقدسة لتقديس سكان المنطقة لها، او (يره بوليس) والآخر اسم مدينة كركميش (جرا بلس) شقيقتها وجارتها. نقل هذا اللفظ من كركميش بعد خرابها في الحروب بين الحثيين والآشوريين وبين الحثيين والمصريين منذ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد. إلى منبج. ثم رد إلى كركميش بعد خراب منبج.

ومعنى (يره بوليس) مدينة الإله، أي المدينة المقدسة، ويسمى الفرنج مينكز، و(مابيجوم) وجاء في تقويم البلدان وفي معجم البلدان ان بعض الأكاسرة ملوك الفرس الذي غلب على الشام بنى منبج وسماها «منبه» وبنى بها بيت نار، ووكل به رجلاً يسمى ابن دينار من ولد ارشير بن بابك. وهذا خطأ من البلدانين المسلمين.

ولما استولى الرومان على سوريا تملكوا منبج، ومنذ القرن الثالث الميلادي كانت منبج مركزاً لتجمع الجيوش الرومانية في الشرق للدفاع عن سورية، ضد الفرس وصارت من أهم مراكز الجيش الروماني الذي كان يفد على ميناء السويدية ويمر بانطاكية ثم يأتي إلى منبج ليتوزع منها ويساق إلى المراكز في بلاد ما بين النهرين على الحدود الفارسية الرومانية ويتمركز في الحصون على الخابور.

وكان الامبراطور قسطنطين رفع مكانة منبج فاصبحت عاصمة سورية الفراتية، وكانت مدينة محصنة شاد فيها الامبراطور يوستنيان اسواراً منيعة عجز عن اقتحامها كسرى الأول انوشروان في عام ٥٤٠ لما زحف على رأس جيش من ثلاثين ألف جندي على سورية بطريق هيرا بوليس (منبج) فاكثف بمطابقتها بثلاثة آلاف دينار دفعتها واشترت بها سلامتها، وسار منها إلى حلب حيث اشعل فيها النار لأنها لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضها عليها، هو ضعف المقدار الذي دفعته منبج. وقيل هو ٤٠٠٠ رطل من الفضة انكليزي.

وفي العهد البيزنطي كانت منبج احد المراكز المهمة لأصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة في المسيح.

ويقال ان الامبراطور يوستنيان جاء في سنة ٥٢٧ ففي اول حكمه الذي استمر حتى سنة ٥٤٨ لمحاربة الفرس ومربطه على مدينة منبج. فسمع باخبار جمال تيودورا التي كانت من ضواحي المدينة، وكان ابوها قسيساً آرامياً ارثوذكسياً وكانت فتاة رائعة الجمال بهية الطلعة على جانب عظيم من جمال الأخلاق، وقيل بل هي مبتذلة، وتزوج بها. وعظفت تيودورا على الكنيسة الارثوذكسية وبنّت كنائس واديرة بمنبج ومنطقتها.

وعدا المكانة العسكرية التي كانت تتمتع بها منبج، فقد كانت لها مكانة دينية قبل النصرانية حيث كانت مركزاً لعبادات وثنية للآراميين سكان البلاد وغيرهم من الآسيويين، وكان فيها هيكل فخم وغني هو أعظم هيكل الآراميين في بلاد سورية في ذلك العهد. كان يعبد فيه رب العواصف هادادورية المياه «آتراكاتيس» التي كانت تعد ايضاً ربة البلاد السورية وكان تمثال هذه الربة يمثلها معتلية مركبة تجرها الأسود وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها تاج.

وقد أسهب المؤرخ لوسيان الفراتي المولود في مدينة سميساط الفراتية في القرن الثاني الميلادي في وصف ما كان عليه هيكل هيرا بوليس من الفخامة والغنى. وكان الوف الحجاج يتوافدون في أيام الأعياد لزيارة هذه الأرباب، حتى

كانوا يضحون لها الأطفال . وكان هيكلها وسط بحيرة بالمدينة ، وكان حول كاهن الهيكل كهان صغار يتقبلون النذور من الزوار ويتنقلون في البلاد لجمع الصدقات لهيكل هيرابوليس . وكان هيكلها من المرمر الناصع ، كانت الحجاج تصله سباحة لتقدم نذورها .

وقد انتشرت عبادة الربة / آترا كاتيس / عند اليونانيين المتطوعين في جيش ملوك سورية وفي اوربا على يد التجار اليونانيين والسوريين الذين كانوا يصلون إلى أوربا .

وكان فيها هيكل لعبادة / كيوس / أو / كيوان / إحدى العبادات الوثنية . وبعد انتصار النصرانية وانتشارها تلاشت عبادة الأوثان في منبج . وحلت مكانها تقديس آثار القديسين لاستعداد أهل منبج لذلك وتواصل الروح الدينية فيهم ، وجلبت آثار القديسين لمنبج مؤننين كثيرين وثروة وبنت فيها كنائس عديدة ، وكان بها أجمل كنيسة من الخشب كما كان بها كنيسة للقديسة ماري وكنيسة للقدیس توما ، وكانت أسقفية يعرف لها اساقفة منها ومن الفرنج قبل الاسلام وبعده .

وقد اسهمت منبج في النشاط الفكري في العهد الروماني ببلوغ يدعى « أنتيباتر » من ابنائها كان من تلامذة البليغ اديانس الفيلسوف والبليغ هو الذي يحسن المرافعة أمام المحاكم ويحاضر في مختلف الأماكن كخطيب . وقد حظى انتيباتر بعطف الامبراطور (ماركوس اوريليوس) وامتاز بكتابة الرسائل مما دعا الامبراطور سفير وس لاختياره سكرتيراً خاصاً له وعينه معلماً لولديه كاراكلا وغينا سنة ٢١٢م ورفعته إلى مقام قنصل أي والي على بنينا .

ولما جاء المسلمون قدم القائد العام ابو عبيدة في خلافة عمر بن الخطاب بعد فتح حلب وانطاكية عياض بن غنم إلى منبج ثم لحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح انطاكية وانفذ الصلح ، وكان ابو عبيدة جعل حمص وقنسرين جنداً واحداً ، قال البلاذري في فتوح البلدان : « ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص

حتى كان يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها (كذا) جندا ، فلما استخلف هارون الرشيد الخليفة العباسي افراد قنسرين بكورها فصور ذلك جندا واحداً وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس^١ وانطاكية وتيزن وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وجعل مدينة العواصم منبج . وقال ياقوت في معجمه وسمى الجند جنداً لأنه جمع كسرة والتجنيد التجميع وقيل سميت كل ناحية جندا لأنهم كانوا يقبضون فيه اعطياتهم .

وفي عهد يزيد الأول بن معاوية كان لمنبج شيء من الاستقلال الاداري وكان سكانها سألوا الخليفة عمر بن الخطاب ان يأذن لهم بالتجار في بلاد الخلافة الاسلامية وكانت منبج على الطريق الهام الآتي من الموصل والمارب نصبيين ورأس العين يقطع الفرات عند موقع قريب من منبج يسمى جسر منبج ويمر الطريق منها متجهاً نحو حلب فبلاد الشام ومن حلب إلى انطاكية والبحر الأبيض المتوسط . وكانت عدة طرق تلتقي بهذا الطريق آتية من اورفة (الرها) وحران وشمال الجزيرة الفراتية لتقطع الفرات عند جسر منبج ولتجتاز بها ، وإلى هذا الطريق تدين منبج بغناها فهي محطة مهمة على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام والبحر الأبيض المتوسط ، وتدين إلى عيون الماء العذبة وإلى القنوات التي نظمت فيها الري لسقاية أراضيها الخصبة حتى سميت في كل العهود السابقة مدينة القنوات أو الأقنية .

وعندما فتحها العرب كان بجوارها عرب من اليمن ومن طي وتغلب وغيرهم ، كانوا منذ مئات السنين قبل الفتح الاسلامي وغيرهم ، كانوا منذ مئات السنين قبل الفتح الاسلامي هاجروا اليها من الجزيرة العربية وإلى ريف الفرات

١ - دلوك ورعبان وقورس حصون كانت قرب مدينة عنتاب في الحدود التركية .

وارجاء الجزيرة الفراتية حتى سميت باسماء قبائلهم الكبيرة ديار ربيعة وديار بكر وديار مضر.

وفي العهود الاسلامية تقلبت بمنيج الأحوال وتنقلت من يد ملك وقائد إلى آخر ولم يذكر مؤرخو العرب من اخبارها إلا نتفاً لا يمكن ان تؤلف تاريخاً للمدينة .
ففي سنة ١٣٢ جاءها مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في الشرق منهزماً عقب الموقعة الفاصلة بين جيشه وجيش عبد الله بن علي بن عبد الله العباسي على نهر الزاب بجهات الموصل ، وعبر الفرات من جسر منبج الذي كان عند قلعة النجم فاحرقه ، وتبعه عبد الله بن علي حتى اتى منبج فنزلها ، وراسل منها اهل حلب بالبيعة للعباسيين ، فبعثوا اليه بالبيعة مع ابي امية التغلي ، وقدم اليه وهو في منبج اخوه عبد الصمد بن علي فقلده حلب وقنسرين .

وفي خلافة ابي العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦) كان اخوه ابو جعفر المنصور يلي الجزيرة وأرمينية ، وكان من قبله على الرقة مقاتل بن حكيم العكي فوجهه المنصور من الرقة لمحاربة العباس بن محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي عصى في جهات منبج فسار العكي ونزل منبج متخذاً منها قاعدة عسكرية لجيشه ، وقد واقع السفياي وهزمه واستباح عسكره وافتتح حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها إلى أبي جعفر المنصور وهو بحران .

وفي سنة ١٧٣ جعل الرشيد من منبج عاصمة للعوام في الجزيرة الفراتية وفك ارتباطها من جند قنسرين ، وعين والياً عليها عبد الملك بن صالح بن علي العباسي وكان قد ولد فيها ، وكان من أجل قريش ولسان بني العباس ، ويضرب به المثل في البلاغة ، وكان والد عبد الملك والياً على حلب وقنسرين .

ابتنى عبد الملك بمنبج قصراً لنفسه وبستاناً إلى جانبه ، وظل البستان يعرف ببستان القصر إلى زمن مؤرخ حلب ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠هـ) وقد شجع عبد الملك العمران في منبج ، وكان عمرانها قد تخرب بسبب هزة ارضية وقعت فيها سنة ١٣١هـ وخربت فيها خربت كنيسة اليعاقبة .

ومرّ الرشيد بمنبج وعليها عبد الملك بن صالح ونزل بمنزله . فقال له الرشيد : هذا منزلك؟ قال هـولك ولي بك قال فكيف هو؟ قال دون منازل اهلي وفوق منازل الناس قال كيف صفتها «منبج»؟ قال : طيبة الهواء عذبة الماء قليلة الأدواء قال فكيف ليلها؟ قال سحر كله . قال صدقت انها لطيفة الهواء . قال بل طابت بامير المؤمنين وأين يذهب بها عن الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فياف فيح ، بين قيصوم وشيح» هـ .

وكان عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح يغزو الصائفة حتى وصل سنة ١٧٥ إلى اقريطية ، وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقره .

ولم يزل عبد الملك والياً على منبج ويرى الثغور حتى عزله الرشيد وحبسه في الرقة بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ بسبب وشاية نقلت إلى الرشيد بأنه يطمع بالخلافة ، وبقي في الحبس إلى ان تولى الخلافة الأمين فاطلقه ، وعينه والياً على الرقة وبقي والياً عليها إلى ان توفي سنة ١٩٦ وفيها قبره .

وفي سنة ٢١٥ سار الخليفة المأمون من بغداد لغزو الروم في المحرم مارس سنة ٨٣٠ سالكاً طريق الموصل فنصيبين ومنها اتى إلى منبج ثم إلى انطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرطوس وهي الثغر الاسلامي في (كيليكيا) ومنها دخل إلى بلاد الروم فغزا وعاد .

وعين المأمون على منبج عيسى بن علي بن صالح نيابة عن العباس بن المأمون . ثم ولى على العواصم ومركزها منبج عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح نيابة عن العباس بن المأمون إلى أن توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ .

وفي سنة ٢٢٣ هـ كان المعتصم في غزو بلاد الروم ، ولما عاد إلى منبج نمي اليه ان العباس بن المأمون يريد اغتياله ليأخذ الخلافة ، فقبض المعتصم على العباس ودبر موته فمات بمنبج في ذي القعدة من سنة ٢٢٣ ودفن فيها . وولى المعتصم في سنة ٢٢٥ هـ الشام والجزيرة ومصر أشناس التركي وتوجه وألبسه

وشاحين بالجوهر، وهذا ولى على العواصم وقنسرين عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح، فتدخل منبج في ولاية هؤلاء الولاة ونوابهم. ولما جاء الخليفة الواثق أقر ولاية عبيد الله بن عبد العزيز. وولى بعده عليها وعلى قنسرين وحلب والعواصم محمد بن صالح ويقال انه استعمل الرشوة (البرطيل).

وولى الواثق الثغور والعواصم دون حلب احمد بن سعيد بن قتيبة فامضى الفداء سنة ٢٣١ مع ميخائيل صاحب الروم، وغزا في الشتاء تحت الثلج والمطر فمات من جيشه أناس فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي. ولما جاء المتوكل عين على العواصم علي بن اسماعيل من أولاد علي ابن ابي طالب فكانت سيرته حسنة. وتولى بعده بغا الكبير وموسى بن بغا سنة ٢٣٥ هـ. وجاء بعده محمد ابن أبي الساج الافشين سنة ٢٥٤. وولى أبواحمد الموفق العواصم القائد سيما الطويل ومدحه البحري، قتله عسكر أحمد بن طولون في حصارهم لانطاكية، وكان سيما انحاز اليها في سنة ٢٦٤ واستولى ابن طولون على الشام وحلب ودخلت منبج تحت حكمه أي تحت حكم المصريين. وآلت إلى الأخشيديين حكام مصر والشام سنة ٣٢٨ هـ.

وكانت منبج وديار مضر إلى ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل في سنة ٣٣٠ وفي منبج التقى جيش ناصر الدولة الحمداني وعلى رأسه يأنس المؤنسي، وجيش أحمد بن مقاتل وكان من جهة ابي بكر بن رائق عند جسر منبج واقتتلوا. ولما استولى سيف الدولة الحمداني اخوانا ناصر الدولة على حلب سنة ٣٣٣ من يد عمال الدولة الاخشيديين قادمًا اليها من الجزيرة الفراتية، وبعد ان استقر بحلب قلد ابن عمه ابا فراس الحمداني الشاعر منبج وحران وبالس وما حوفا من القلاع، وكانت منبج حصناً لحلب وفي سنة ٣٥١ عندما هاجم الدمستق نيسافور فوكاس سوريا سنة ٩٦٢م أسر الأمير ابا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وكان خارج منبج يتصيد، وحمل إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية. وظل في الأسر أربع

سنوات ، وكان يرأسل سيف الدولة بغرر القصائد يطلب فكاكه حتى افتكه ، وفي الأسر نظم قصائده الشهيرة المعروفة بالروميات يتشوق فيها الى منبج وإلى والدته التي خلفها فيها ، ولما اصبح نيسفور امبراطوراً عسكر بنفسه أمام منبج سنة ٩٦٦ . وجرت له احتفالات من النصارى الذين بمنبج .

وفي سنة ٤١٥ هـ استولى الأمير صالح بن مرداس الكلابي على منبج قادماً من الرحبة ودخلت في حدود دولة المرداسيين التي اسسوها وامتدت إلى عانة على الفرات ، وتنقلت بين ايدي المرداسيين . وفي سنة ٤٦٢ هـ استولى الروم عليها وكانت بحوزة محمود بن نصر بن مرداس وقتلوا أهلها ونهبوها وخرّبوا اسوارها ثم رحلوا عنها لجوعهم . وكانت اسوار المدينة محاطة بخندق عريض لا تزال آثاره . وفي سنة ٤٦٨ هـ تسلم نصر بن محمود المرداسي صاحب قلعة حلب منبج من الروم .

وفي سنة ٤٧٢ هـ استولى عليها الروم وحصنوها . وفي ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م جاء السلطان ملكشاه السلجوقي إلى شمال سوريا وقصد منبج فملكها وكانت في حوزة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسار منها إلى حلب ولى عليها وعلى حلب وحماه واللاذقية أفسنقر .

وفي سنة (٥٠٤ هـ = ١١١٠ - ١١١١ م) سار الافرنج بقيادة تنكرد صاحب انطاكية وملكوا الاثارب وزردنا وقتلوا أهلها ، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوها قد اخلاهما اهلها فعادوا عنها واحرقوا بالس .

وحدثت معركة حول اسوار منبج في سنة ١١٤٢ بين جوسلين الافرنجي صاحب الرها وبلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب ، وقتل من الافرنج وأسر جوسلين وجماعة من فرسانه إلى ان فكهم في سنة ٥١٧ الافرنج من المكان الذي كانوا محبوسين فيه وكان بدوين الثاني غزاها في سنة ٥١٣ وكذا جوسلين .

وفي سنة ٥١٧ هـ كانت بيد الامير حسان البعلبكي ، وفي سنة ٥١٨ حاصره فيها بلك بن بهرام بن ارتق ، وقتل بسهم وهو محاصر لقلعتها فعاد عنها جيشه ،

وعادت إلى حسان البعلبكي ، المنبجي الذي اشتهر بحروبه ضد الصليبيين ، وبقي اولاده بمنبج نحو نصف قرن .

واستولى عليها عماد الدين زنكي عام ٥٢١ وعاد اليها في عام ٥٢٢ ومنها سار إلى حلب بطريق بزاعة ، ولم تقع منبج بيد الروم منذ القرن الحادي عشر للميلاد . وكانت بيد غازي بن حسان المنبجي وقد ثار على نور الدين محمود بن زنكي الذي اقطعه منبج فبعث نور الدين محمود بن زنكي الذي اقطعه منبج ، فبعث نور الدين جيشاً إلى منبج وعزل غازي ونصب أخاه قطب الدين بن حسان .

وفي عام ٥٧١ سار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى منبج فحصرها وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ففتحها عنوة وأسر ينال وصادر أمواله ثم أطلقه . وآلت إلى الملك غازي الأبن الثالث لصلاح الدين .

وفي عام ٥٨٦ أقطعها صلاح الدين مع قلعة النجم إلى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده في حماة والمعة وسلمية وغيرها . وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه الملك المنصور ملك حماة إلى ان تنازل عنها في عام ٥٩٦ هـ بأمر الملك العادل الى ابن المقدم الأمير عز الدين ابراهيم وبعد سنة مات فانتقلت إلى أخيه شمس الدين عبد الملك . وماكاد هذا يستقر في منبج حتى سار إليه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب وحاصرها وملكها وفي عام ٥٩٨ هـ حرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من ان ينتزعها منه عمه الملك العادل . واقطعها عماد الدين احمد بن سيف الدين المشطوب . وفي ربيع الثاني عام ٦٣٨ استولى عليها الخوارزمية بعد حصار لها وبعد ان كسروا عندها عسكر حلب مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين واعملوا فيها القتل والنهب وهدم المنازل ، والتجأت النساء إلى الجوامع فلاحقهن الخوارزمية وسلبوهن حليهن وارتكبوا الفحش مثلما فعل التتر بعدهم الذين جاءوا إلى بلاد الشام عام ثمان وخمسين وستاية في اربعماية الف مقاتل .

ونزل هولاكو على حران وقتل اهل سروج ونصب جسراً على الفرات قريباً من ملطية ، وآخر عند قلعة الروم (منبج) وآخر عند قرقيسيا (البصرة) وعبرت عساكره الفرات وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة ، وسارت جيوشه إلى حلب فخرج اليهم الملك المعظم بن صلاح الدين فالتقاهم ولكنه انكسر. ونزل هولاكو بنفسه على حلب وقتل فيها خمسين ألفاً وملك قلعتها.

وفي المعاهدة التي عقدت بين السلطان قلاوون وبين ليون الأرمني في الواحد من شهر ربيع الثاني عام ٦٨٤ (٦ حزيران ١٢٨٥م ذكرت منبج على أنها من المدن المصرية وبحسب ابن الشحنة كانت منبج تحمل إلى السلطان «٥١٠٠٠٠ درهم» من الضرائب في السنة.

ويقول ابو الفداء (٧٣١هـ) انه في عصره كانت المدينة وحصونها مخربة تماماً ويخبرنا انه كان فيها اقية كبيرة وأشجار مثمرة وعلى الأخص التوت لربية دود الحرير، وحتى لو عادت فلملمت شيئاً من حالها بعد زمن ابي الفداء وبعد كل ما صابها من كوارث فان زلزلة عظيمة في عام ٧٤٤ خربت بحلب ومنبج اماكن كثيرة ووقع عليها طاعون قضى على أهلها. وجاء تيمورلنك عام ٨٠٤هـ فأجهز عليها، وجلا عنها من سلم من سكانها، وبقيت خراباً يأوي اليها رحالة الأعراب إلى عام ١٢٩٥هـ.

كانت منبج متقدمة في تربية دود الحرير وزراعة شجر التوت وكانت تنسج فيها الأكسية المعروفة عند العرب بالمنبجية. قال ابن قتيبة في ادب الكاتب: كساء منبجاني، ومن اسم المدينة بابيك في القرون الوسطى اشتقوا اسم قماش القطن. ومنذ القديم كانت منبج من المدن المشهورة في سورية: واليك وصف بعض الرحالين المسلمين لها في اوقات مختلفة.

قال الرحالة ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الذي تجول في البلاد عام ٣٣١هـ ووضع كتابه المسالك والممالك: «هي في برية الغالب على مزارعها

الأعذاء (الزراع لا يسقيه إلا المطر) وهي خصبة كثيرة القنى السارحة والبساتين وغالب شجرها التوت لأجل القز» .

وجاءها الرحالة الفارسي ناصر خسرو عن طريق ديار بكر وحران قال : (وفي يوم السبت الثاني من رجب عام ٤٣٨ هـ ٢ يناير ١٠٤٧ أبلغنا مدينة سروج واجتازنا الفرات ونزلنا في منبج وهي أول مدن الشام ، والطقس هناك معتدل جداً ، ولم يكن خارج المدينة عمارات قط وقد سرت منها إلى حلب) .

ومرَّ بها الرحالة الأندلسي ابو الحسين محمد بن احمد جبير في ١١ ربيع الأول والثاني والعشرين من شهر حزيران عام ٥٨٠ هـ فوصفها بكتابه (رحلة ابن جبير) (منبج بلدة فسيحة الأرجاء صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانهاء ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسيمها أريج النشريعليل ، نهارها يندي ظلّه ، وليلها كما قيل فيه سحر كله تحف بغريبها وبشريقها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفه الثمار، والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها ، وخصها الله داخلها بآبار معينة شهيدة العذوبة سلسبيلة المذاق تكون في كل دار منها بئر والبثران ، وأرضها ارض كريمة تستنبط مياهاً كلها واسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعلى سوقها مسقوفة وعلى هذا الترتيب اسواق اكثر مدن هذه الجهات لكن هذه بلدة تعاقبت عليها الأحقاب حتى أخذ منها الخراب ، كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ولها قلعة حصينة ، ثم وصلنا نصف الليل ووصلنا بزاعة) .

وقال ياقوت الحموي في عام ٦٢١ هـ يصفها في كتابه معجم البلدان (منبج بلد قديم وماأظنه إلا رومياً . وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعة في فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ، وشرهم من قتي تسيح على وجه الأرض وفي دورهم آبار أكثر شرهم منها لأنها عذبة صحيحة وهي لصاحب

حلب في وقتنا. . ومنها البحري وله بها أملاك وقد خرج منها جماعة من الشعراء. .».

وردت في شعرابي فراس الحمداني باسم منبج السوداء، وكان عندما يغيب عنها يتشوق اليها ويذكر أيامه ومنازله فيها. وقد ذكرها الشعراء من ابنائها وغيرهم بشعرهم منهم ابراهيم بن المدبر، ولقد خرج منها جماعة من الشعراء والكتاب والفقهاء والمحدثين في مختلف العصور منهم عبد الملك بن صالح الهاشمي واليها بعهد الرشيد يضرب به المثل بالبلاغة. وأبو عبادة الوليد بن عبد الله البحري من قبيلة طي ولد سنة ٢٠٦ ومات في منبج سنة ٢٨٤ شاعر الدولة العباسية وشاعر العرب.

ويعتبر الشاعر حبيب بن أوس الطائي منبجياً كما روى ابو الفرج الأصفهاني في الأغاني خلافاً لرواية ياقوت والمسعودي المتأخرتين ولد سنة ١٩٠ ومات سنة ٢٣١ ومن المحدثين سنان بن بكر الطائي وهشام بن خالد. وابوبكر محمد بن عيسى الطوسي، وابو القاسم عبد الله بن احمد الطائي وابو العباس عبد الله بن عبد الملك المنبجي.

وفي عام ١٢٩٥هـ = ١٨٧٣م قدم على حلب مهاجرون جراكسه من القفقاس فأقطعتهم الحكومة العثمانية خربة منبج فبنوا فوقها بيوتاً لهم من انقاضها، ولذا اختفت بقايا آثار الأبنية القديمة التي كان رآها السائحون في القرن السابع عشر والثامن عشر فيها.

وفي سنة ١٣٠٢هـ أمر السلطان عبد الحميد بترميم جامعها القديم وهو من آثار نور الدين محمود الزنكي بني سنة ٥٥١هـ كما هو مرقوم على حجر في مأذنته. وأمر ببناء مدرسة على نفقته. ثم تهافت عليها السكان من حلب والباب وغيرهما للعمل في التجارة والصناعة والزراعة.

ومنبج منذ العهد السوري مركز منطقة منبج، يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب منطقة الباب ومن الشمال منطقة جرابلس، ومن الجنوب طريق حلب

دير الزور والبادية . نفوس المنطقة نحو سبعين ألفاً منهم ٢٠٠٠ جراكسة يقيمون في بلدة منبج التي تعد نحو سبعة آلاف ونحو ١٠٠٠ من الأكراد والباقي عرب من منابت مختلفة بشكل عشائر ١ - ابلاديش . ٢ - النعيم ، ٣ - ولد علي بدوعزة ، ٤ - الأبونا من عشيرة البوشعبان ، ٥ - التوامات من الحديددين ، ٦ - بنو سعد : عشيرة كبيرة أصلها من انحاء دير الزور زبيدية ، ٧ - الأبوسلطان : فرقة كبيرة أصلها من عشيرة البقارة من دير الزور وهم احلاف عشيرة بني سعد ٨ - العون من بني سعد وقيل من قيس ، ٩ - الجلاد ، ١٠ - العميرات من الأبوشعبان ، ١١ - بنو عصيد ، ١٢ - الأبوطوش من عشيرة العبيد بالعراق ، ١٣ - ابو خميس ، ١٤ - ولدة .

تتألف المنطقة من نحو اربعماية قرية ، كان العدد الأكبر منها في العهد العثماني من املاك السلطان عبد الحميد الخاصة (جفتلك) . عادت إلى خزانة الدولة بعد الانقلاب العثماني ١٩٠٨ .

مساحة المنطقة ستة آلاف كم مربع يمر نهر الفرات شرقيها ويحترقها نهر الساجور وطوله فيها ٧٠ كم من الحدود التركية إلى مصبه في الفرات الهوشرية ، تزرع على شواطئه الخضار واشجار الحور والقطن . وللمنطقة ناحية واحدة هي ناحية مسكنة مركزها قرية الخفسة . وفي المنطقة فصيل للشرطة يتألف من ثمانية مخافر في انحاءها . وفيها ٤٠ مدرسة ونحو الف مضخة على الفرات وعلى الآبار ، ونحو مائة الف راس غنم و ٢٧ ألف ماعز و ١٥٠٠ جل . وفي بلدة منبج دار للحكومة بنيت سنة ١٩٢٧ ومستوصف انشيء سنة ١٩٥٣ وثلاث مدارس ابتدائية وواحدة للإناث ومتوسطة انشئت حديثاً ، وسوق للبضائع وسوق للحيوانات شرقي المدينة ينعقد كل يوم اربعاء ويقصد من انحاء المنطقة .

وفي جنوبها مسجد آخر فيه قبر الشيخ عقيل المنبجي ، وفي غربها بحيرة صغيرة مياهها من رشح القنوات القديمة الكثير في منبج ، كان سوق الحيوانات المذكور يقام على شاطئها كل يوم جمعة .

يصلها بمدينة حلب طريق عام معبد يتجه نحو الشمال إلى بلدة جرابلس السورية على ضفة الفرات الغربية ، وتبعد عن منبج ٣٨ كم ، وتجارة منبج مع حلب تستورد منها البضائع وتصدر اليها حاصلاتها من القمح والذرة والشعير والقطن والماشية .

وتزرع الخضار والفاكهة في منبج وفي بعض قرأها ، ولقرية ابو قلقل شهرة ببستانها الكبير الذي تملكه الدولة وبنهرها الصغير ، كان لمنطقتها نائبان في البرلمان السوري .

وزراعة المنطقة منها سقي بواسطة المضخات على الفرات والساجور وعلى الآبار وزراعة بعلية على الأمطار ومعظم المشاريع الزراعية فيها لأهالي حلب .

وبلدة منبج منورة بشبكة كهربائية انشئت سنة ١٩٥٢ وفيها مشروع مياه للشرب تؤخذ مياهه من نبع غزير عذب داخل المدينة وهوؤها جيد ، تهب عليها رياح غربية في الربيع والصيف تثير الغبار ولو عمرت ضاحيتها وزادت مغارسها لخفض ضرر هذه العواصف ، ويتقدم فيها العمران وتحسن احوالها ، على ان نسبة الأمية ما زالت مرتفعة كثيراً في المنطقة في الوسط العشائري تبلغ ٩٠٪ .

لم يبق من اطلال منبج القديمة وآثارها سوى كسور احجار واعمدة وقواعد وتيجان أعمدة تقع عليها عين الزائر بكثرة عند دخوله البلدة وتجواله في احيائها وبعضها داخلة ضمن جدران البيوت . ورؤوس وتمائيل أمام دار الحكومة ، وفي متحف حلب بعض آثارها من ذلك تمثال من الحجر الأسود لكاهن منبج الأكبر . وكان الأثري الفرنسي كيليوم راي زار منبج سنة ١٨٦٠ ووجد قرب البحيرة انقاض تعود للهيكل ، عشرينها على تمثال صغير للآلهة اتراكاتيس وعثر النباشون فيها على بعض العاديات نقلوها إلى الخارج . وفي غرب البلدة اطلال قصرين قديمين ينسبان للبنات يملك احدهما الجركس ويملك الثاني العرب ، وكان احسن الأطلال سور منبج ، وفي خارج منبج مقبرة رومانية ، وبمنطقتها توجد قلعة النجم على ضفة الفرات الغربية . زرت منبج عام ١٩٤٢ قادماً اليها من حلب

وجئتها من دير الزور عام ١٩٥٦ بطريق مسكنة التحتاني ذهبت منها إلى قلعة
النجم.



قلعة النجم

حصن الأيوبيين على الفرات

تقع على ضفة الفرات الغربية شرقي بلدة منبج . تبعد عنها ثلاثين كيلومترا . في مكان هام من الناحية الجغرافية والاقتصادية والعسكرية ولذا قامت عنده هذه القلعة الحصينة المنيعة ، لا تزال على كثير من جدتها وروعة بنياتها واتقان عمارتها ، رابضة فوق اكمة من اكمت الفرات ذات الصخور البيضاء الهشة تطل من الشرق على نهر الفرات الذي يجري من تحتها ، وامامها عبر النهر سلسلة اكام في منطقة عين العرب من مناطق حلب . وتشرف من جهة الشمال على اكام صخرية بيضاء ، ومن جهة الجنوب على عدوتي الفرات وفيها قرى عديدة ، وإلى شمال قلعة النجم بلدة جرابلس السورية (قرقيش) الحثية على بعد ١٨ كم وإلى جنوبها موقع سد يوسف باشا ، حيث كان يراد اقامة سد عنده على الفرات من قبل الحكومة السورية .

كانت القوافل والجحافل القادمة من الجزيرة الفراتية من حران او الرها او من ماردين او من الموصل مارة بنصيبين ورأس العين متجهة إلى الشام تمر منها من فوق جسر كان عند اقدام القلعة . وكذلك الجحافل والقوافل الآتية من الشام تمر من فوق الجسر، وقد خرب . وروى بعض سكان المنطقة انه كانت آثار من ركائز الجسر باقية إلى مدة قريبة وكان الأهليون ينتزعون الرصاص من بين صخور هذه الركائز . ويجري اليوم العبور بين الضفتين بواسطة زورق خشبي بدائي الصنعة . وتوجد عندها اليوم قرية صغيرة باسم النجم من قرى منطقة منبج بمحافظة حلب .

كانت القلعة لحماية الطريق التجاري بين الشام والجزيرة الفراتية واهمية القلعة في كونها مدخل لبلاد الشام للقادمين من شمال العراق ومن بلاد الجزيرة الفراتية ، وكان صاحبها يتقاضى رسوماً من العابرين فوق جسرهما او من عند معبرها بالزوارق بعد خراب الجسر . والعبور اليوم من عندها بزورق خشبي لقاء رسم يأخذه ملتزم يلتزمه من بلدية منبج ، ويقدم الزورق .

كانت القلعة تتحكم بهذا المرور وتحميها ، وقد حفر حولها خندق في قلب الصخر عمقه خمسة امتار وعرضه خمسة وعشرون متراً . قسم منه ما زال ظاهراً . وأقسامه مملوءة بالتراب وانقاض القلعة وحجارتها المتدحرجة من بنائها والقلعة مستطيلة الشكل في الجملة ، طولها من الشرق إلى الغرب ١٧٠ متراً ومن الشمال إلى الجنوب ١٣٠ متراً ذات طابقين ولها ثلاثة جدران ضخمة عالية ، فالأول الخارجي الراكب على طرف الأكمة المنحدر علوه ١٨ متراً ، وعلو الثاني ثمانية امتار ، وعلو الثالث خمسة امتار وهو بشكل مدرج .

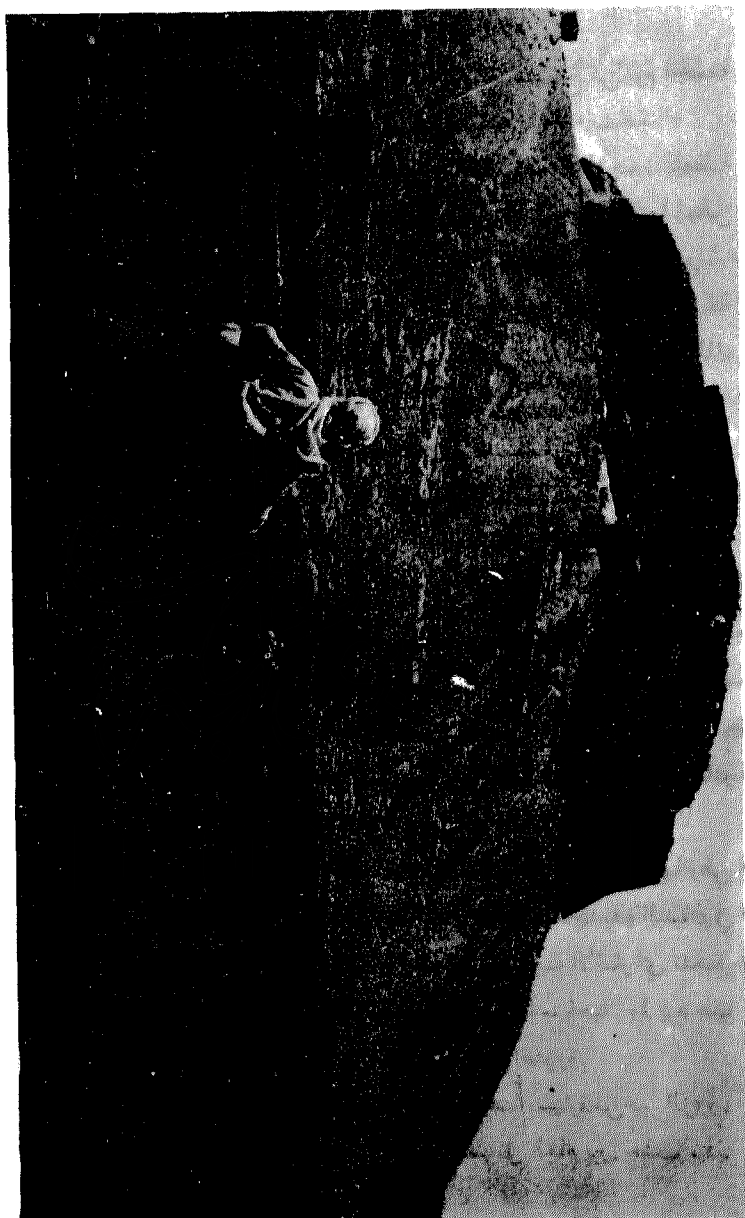
مدخل القلعة متجه إلى الشرق ، لا يزال سليماً ، والباب مرتفع نحو مترين . غير ان الدرج قد دثر ولم يبق له أثر . ويصعد إلى القلعة من جهة الشمال من خلال فجوة في الجدار ، وقد كتب على طبقة الباب بالخط النسخي سطران : «تجددت في دولة مولانا السلطان الملك الظاهر لمدة ولها بسنة خمس وستائة ،

وآخرها سنة اثنى عشرة وستماية» وبعد الباب بخمسة امتار دهليز قام في طرفيه جداران متقابلان علوهما نحو عشرة امتار، في الشمال الأيمن منها باب ذو قوس شاقو جميل البناء ينفذ إلى غرفة خفراء الباب، وفي خارج هذا القوس كتابة على الجدار هذا شكلها: «بلعه المنصور. صنعها ابراهيم بن نان المنبجي الملك الظاهري رحمه الله» اهـ.

ويقابل هذه الكتابة في الجدار المقابل كتابة اخرى لم تتمكن من قراءتها لعلوها. وما زالت دهاليز وممرات القلعة سالمة، وكلها معقودة بالحجارة المنحوتة، وينفذ من هذه الدهاليز إلى قاعات وغر مظلمة، كلها معقودة بالحجارة المنحوتة، وقد سقطت بعض العقود، وفي وسط عقودها كوات النور، وفي وسطها: باحة سماوية، وفي جهتها الشرقي جامع داخل القلعة، جدرانه الثلاثة سالمة، وفيه محراب وعلى يمينه دائرة فيها اسم الجلالة، والجدار الرابع الشرقي، وسقف الجامع متهدم، ما عدا غرفة متصلة بالجامع سالمة وعلى باب الجامع كتابة مطموسة، وقد سقطت مأذنته وفي بعض الجدران منافذ تنفذ من الطابق الأعلى إلى الأسفل كانت ابارا.

مر بقلعة النجم الرحالة العربي ابن جبير في العاشر لربيع الأول سنة ٥٧٩هـ قادماً إليها بطريق الموصل، بعد ان اجتاز بنصيبين وبحران، قال. «كان وصولنا إلى الفرات وعبرنا في الزواريق المقلّة المعدة للعبور إلى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها المهر من علف وخبز، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور، وإذا عبرت الفرات إلى الشام وسرت في طاعة صلاح الدين (الأيوبي) إلى دمشق، والفرات حد بين ديار ربيعة وبكر، وعن يسار الطريق في استقبالك الفرات إلى الشام مدينة الرقة، وهي على الفرات وتليها رحبة مالك بن طوق، وتعرف برحبة الشام، وهي من المدن الشهيرة، ثم رحنا منها (قلعة النجم) عند

قلعة النجم (٣٠ كم شرقي بلدة منبج)



مضي ثلث الليل الأول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور والثاني والعشرين ليونيه» اهـ.

وذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان قال: «قلعة النجم: بلفظة النجم من الكواكب، وهي قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ريش عامر، وعندها جسر يعبر عليه، وهي معروفة بجسر منبج في الاقليم الرابع. . ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران إلى الشام، وبينها وبين منبج اربعة فراسخ، وهي الآن (سنة ٦٢١) في حكم صاحب حلب الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن الملك الناصر يوسف بن ايوب» اهـ.

ذكر مؤرخو الافرنج ان مكان قلعة النجم كان يدعى في عهد الرومان (كاسيليانا) وان هذه القلعة قديمة. ملكها بنو حمدان، ثم بنو مرداس، ثم بنو نمير. وآلت إلى الايوبيين، ورمعها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي، وتعاورتها الأيدي إلى ان خربها التتار بقدمهم إلى منبج من الجزيرة الفراتية. كانت خراباً في القرن الثامن الهجري وقد زاد خرابها في سنة ١٢٣٧هـ عندما تحصنت فيها فرقة من الأعراب كانت عاصية على الدولة وتمتنعة عن اداء الضرائب، فجاء الجند العثماني واطلق مدافعه على القلعة.

وفي بعض المصادر ان الذي عمرها نجم غلام الصفواني. تسكت المصادر عن هوية نجم هذا وزمنه.

ان هذه القلعة الحصينة الجميلة قديمة لا نعرف تاريخ بنائها ولا بانيها وهي احدث قلعة على شاطئ الفرات، تبدو بالنسبة لقلاع الفرات جديدة البنيان في الجملة. وقد أهملت في الأزمنة الماضية، ولم تتخذ مديرية الآثار أي تدبير للمحافظة عليها وصيانتها، ولفت الانظار اليها وجعلها مكاناً سياحياً. ولم يرد عنها شيء في مجلة الحوليات الأثرية السورية، ولم تنشر لها حتى صورة.

اتيح لي زيارتها في صيف عام ١٩٥٦ جئتها خصيصاً بسيارة من دير الزور، أخذت طريقي من مسكنة (بالس) إلى منبج شرق الطريق العام بين حلب - دير

الزور ومن منيج ذهبت إليها، وفي عودتي بت بمنيج لأزور معالمها الأثرية في اليوم التالي. والتقطت صوراً للقلعة وأقسامها.

ولقد زارها المهندس الزراعي وصفي زكريا في صيف عام ١٣٤٥ هـ ووصفها في كتابه «جولة جثرية في بعض البلاد الشامية» المطبوع في المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٣٤ وهو الوحيد الذي كتب عنها بكتاب مطبوع فيما أعلم.

قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (١١٣٥ - ١٢٠٠م) من مشاهير وزراء صلاح الدين الايوبي، من رسالة يصف بها قلعة النجم، جاءت في كتاب «هاية الأرب» للنويري ج ١.

«هي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة وأنملة إذا خضبها الاصلي كان الهلال لها قلامه، عاقدة صبوة صالحها الدهر ان لا يحلها بقرعة، بادية عصمة، صافحها الزمن على ان لا يروعها بخلعة، فاكتفت بها عقارب منجنيقات لم تطيع طبع حمص في العقارب وضربتها بحجارة اظهرت فيها العداوة المعلومة في الأقارب، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة، ولم يصل إلى السابعة الا والبحر مؤذن بنقها، فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدة عن الطالع، إلى من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج، فكانت ابواباً، وسيرت الجبال فكانت سرايا» اهـ.

لأنعلم الظروف التي كتب فيها القاضي الفاضل رسالته هذه. ولا بد ان تكون عى أثر محاصرة السلطان صلاح الدين لها بطريق قدومه من الشام إلى الجزيرة الفراتية، وكان القاضي الفاضل يرافقه في رحلاته في مصر والشام والجزيرة الفراتية.

قرقميش (جرابلس)

عاصمة الحثيين على الفرات

بلدة جرابلس مركز منطقة جرابلس ، احدى مناطق محافظة حلب ، تعد نحو أربعة آلاف نسمة ، يتألفون من ارمن وعرب مسلمين ومسيحيين . تقع على ضفة الفرات الغربية شمال شرقي مدينة حلب على بعد ١١٨ كم وشمال بلدة منبج على بعد ٣٨ كم ، وشمالها بلدة بيره جك (البيرة القديمة) على ضفة الفرات الشرقية على بعد عشرين كيلومتراً في الحدود التركية .

كانت منذ عهد قريب قرية صغيرة مقسومة إلى قسمين أحدهما في الحدود التركية على ضفة الفرات الشرقية ، والثاني ضمن الحدود السورية وهو جرابلس . أول من نبه على وجود بقايا أثرية فيها الرحالة الانكليزي (هنري مندرال) سنة ١٧١٤ في كتابه «رحلة من حلب إلى اورشليم» ، وذكرها بعده المستشرق

بوكوك عام ١٧٣٧ ، وأول من حدد وضعها الجغرافي ورسم مخططها قنصل انكلترا في حلب (الكسندر درموند) في كتابه «رحلات . . حتى شواطئ الفرات» .

وأول من حقق ان جرابلس هي قرقميش عاصمة الحثيين جورج سميث بمساعدة قنصل انكلترا في حلب و. هـ. سكيبي في آذار سنة ١٨٧٦ ، وهذا التحقيق حدا بالمتحف البريطاني ان يرسل حملة للبحث والتنقيب فيها، ابتدأت سنة ١٨٧٩ ، بعد جهود عديدة لشراء الأراضي التي تقع فيها المدينة القديمة من اصحابها، وانتهت في سنة ١٨٨١ بموت جورج سميث، ثم ابتدأت ثانية في عام ١٩١١ برئاسة (د. هـ. هوجارت) ثم برئاسة (ت. ل. فالي) (وت. ي. لورنس) . وكان الاعتقاد السائد حتى عام ١٨٧٠ ان قرقميش هي «سريزوم» /قرقسيا/ القديمة ، بلدة البصرة حالياً على ضفة الفرات الشرقية عند مصب نهر الخابور في الفرات تبعد عن دير الزور ٤٢ كم ، إلى الشرق الجنوبي مركز ناحية البصرة بمنطقة الميادين بمحافظة دير الزور، أو أنها منبع وان اسم جرابلس هو من كلمة هيرابوليس ، وهو اسم منبع القديم ، انتقل إليها بعد خراب قرقميش ، عندما سقط عن منبع . وعاد اسم هيرابوليس إلى جرابلس وقيل ان كلمة جرابلس هي من آروبوس ، وهذا الاسم اطلق عليها في العهد الروماني ، ومن ثم تحول إلى جرابيس او جريبيس . وهي اليوم قرية صغيرة جنوبيها ، وبقاء الاسم يطلق على القلعة يؤكد ان البقايا الرومانية - السورية - هناك هي بقايا آروبوس ، وقد أضيف إلى القسم الأول من الكلمة بلوس التي هي تحريف بوليس ، وعلى الاستعمال اصبحت جرابلس ، والأرجح ان هذا الاسم انتقل إليها من اسم قبيلة قديمة .

تمتد اطلال المدينة القديمة في أراضي جرابلس الحالية وتشكل هضبة حوارية على شاطئ الفرات الغربي ، وترتفع أراضي جرابلس عن سطح البحر ٣٢٥ م ، وعندها يدخل نهر الفرات حدود أراضي الجمهورية العربية المتحدة مقبلاً من الأراضي التركية .

يرتقي عهد المدينة القديمة إلى ازمة ما قبل التاريخ ، ويظهر أن شعباً لا

يزال مجهولاً اختطها في العصر الصواني العريق في القدم، ثم انتقلت إلى ايدي شعوب عديدة شأن المدن القديمة على شواطئ الفرات.

تبين بنتائج الحفريات ان الحثيين أتوا إليها نحو عام / ٢٠٠٠ ق. م، وبنوا فيها قلعة ذات شكل بيضوي تهيمن على الفرات، لها منحدرات من الجانبين، ولقد اتسعت المدينة التي كانت في داخلها خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، فتجاوزت حدودها السور، فاضطر سكانها لبناء سور ثانٍ خارج السور الأول، وجعلوا له ثلاثة أبواب، حول كل منها برجان، بينها الواح منحوتة ومزينة بمواضيع ميثولوجية وحيوانية ومشاهد صيد، وكان لسور المدينة نحو مائة برج متوزعة على اطرافه. واخذت المدينة تتقدم بسرعة في طريق الحضارة، وبلغت اوج عظمتها في النصف الأول من الألف الأول. واتسعت كثيراً حتى اندفع اهلها الى بناء سور ثالث أكثر اتساعاً من الثاني، بفضل موقعها من نهر الفرات على ملتقى طرق القوافل، حتى تفوقت على سائر الحواضر الحثية رقياً وعمراً، واصبحت تعد من اكبر العواصم الحثية، ومن اهم مراكزهم الحربية في مناجزة الآشوريين، لأنها كانت على ضفة الفرات بمثابة مفتاح من جهة الشرق. ولذلك بالغ الحثيون في تحصينها وسموها قرقيش وهو مؤلف من كلمتين قر ومعناها قرية. وقرقيش اسم إله عند الموآبيين يقرب في المنزلة من البعل عند الكنعانيين، فيكون معنى قرقيش الإله اوحسن الإله. ولقد تطورت اسوار المدينة من الشكل البيضوي إلى الشكل الربع.

ان الشعب الحثي من الجنس الآري، له لغة ومدينة خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن الساميين الذين خرجوا من جزيرة العرب.

كان الحثيون في أول امرهم قبائل تحالفت تحت زعامة ملك حثي واسسوا دولة شملت بلاد الأناضول، وكانت عواصمهم بوغازكوي، وزنجري في الأناضول وقرقيش على الفرات الأوسط او الفرات السوري.

اخذت الدولة الحثية بالتقدم نحو الجنوب، فاصطدمت بدول سورية

وبالمصريين وتوسع الحثيون على حساب الدولة الأمورية الثانية التي كان مركزها مدينة حلب، وكانت دولة مستقلة يرعاها ملوك الحثيين، وقد قويت حتى ناصبت الحثيين العداء فزحف عليها الملك الحثي مورسيل الأول ودمرها، ثم زحف على بابل في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فاكتمسح مدينة بابل ونهبها وعاد إلى العاصمة حاتوشا بكنوز كثيرة، فازدادت حاتوشا غنى وعمراً، وأصبحت قاعدة الحثيين الكبرى حتى اضمحلل أثرهم من آسيا الصغرى.

كان سويلوليوما (١٤٤٧ - ١٣٨٧) ق.م أكبر ملك في سلالة الملوك الحثيين، وآخرهم شأنًا. حرر مقاطعة غربي الفرات من حكم الميتانيين الذين أسسوا دولة في أعالي نهر الخابور، وأقام أحد أبنائه ملكاً على قرقيش وأخر على حلب، وذاع صيته وخطبب مصروده. وما لبث الحثيون حتى اشتبكوا مع المصريين بحروب عنيفة، اضطرت الحثيين إلى مولاة الدول المجاورة ومخالفتها ليتفرغوا للمصريين. وقد نشبت معظم المعارك بين الطرفين عند مدينة قادش قرب بحيرة قطينا وتسمى بحيرة حمص. وكانت قادش في حيازة الحثيين بمثابة حصن لصد المصريين عن التقدم شمالاً. وعندها دحر رمسيس الثاني العاهل المصري الحثيين.

وكانت مملكة آشور قد قويت وبدأ ملكها (سلمناصر الأول) ١٢٦٠ - ١٢٨٠ يطمع بالاستيلاء على البلاد الحثية العامة. وخشيته الحثيون وعقدوا مع المصريين معاهدة تحالف. ومكّن أوامر التحالف بين الطرفين زواج الملك رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي حاتوشيل الكبير عام ١٢٦١ ق.م واتخذ المصريون الحثيين حاجزاً بينهم وبين الآشوريين. وفي عام ١٢٠٠ ق.م قامت شعوب أخرى بالغارة على سورية وهي المسماة بشعوب البحر، فأضعفوا الدولة الحثية. فاختذت تقوم هنا وهناك دويلات حثية تشبه دويلات المدن السومرية في الجنوب، ومن هذا الدويلات الجديدة: قرقيش. وحماة. وغوزانا (تل حلف) في أعالي الخابور عند رأس العين.

أنشأ الحثيون عدة مدن ، بلغت بعضها شأواً رفيعاً من العمران والرقى مما اطمع بها آشور فهاجمتها في سنة ١١٠٧ ق.م . حملت على عاصمة الحثيين فاستسلمت وسلبوها كنوزها وقصورها وخربوها . وسنحت الفرصة للشعوب الخاضعة للحثيين فثارت وتحمرت . فتمزقت المملكة الحثية في آسيا الصغرى .

وسأم الآشوريون الحثيين صنوف الذل والعذاب مما جعلهم يهاجرون إلى الجنوب ويتخذون من مدينة قرقيش قاعدة لهم وحصناً فازدادت ازدهاراً واصبحت مدينة منيعة ومركزاً تجارياً هاماً بين الأناضول وسورية وبلاد الرافدين والبحر الأبيض المتوسط وبقيت محتفظة بمركزها حتى بعد ضعف الحثيين .

تسرب الآشوريون إلى المملكة الجديدة قصد الاستيلاء عليها بالسياسة بعد ان تغلبوا على معظم البلاد السورية . واعترفت مصر في عام ١١١٠ ق.م . بسيادة الملك الآشوري تفلأ تفلأسر على سورية وفلسطين وما بين النهرين ، وسكنها الآشوريون والبابليون في أيام الملك البابلي نبوخذ نصر بعد معركة جربت بينه وبين المصريين ، واصبحت قرقيش ملتقى التجار من مختلف الشعوب . وكانت آخر مدينة أقامها الحثيون في جنوب بلادهم هي مدينة قادش .

ظلت قرقيش تقاوم النفوذ الآشوري عدة اجيال إلى أن هاجمها الملك آشور ناصر بال الثاني عام ٨٧٦ ق.م واذلها وفرض جزية ثقيلة عليها وكذلك فعل الملك سلمناصر الذي حارب الدول السورية مجتمعة .

كانت نهاية قرقيش على يد الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٤٤ - ٧٥٠) حين تحالف ملكها بسيرس مع الميكائيين وهم إحدى القبائل الحثية الكبرى ، للوقوف في وجه آشور التي كانت متفرقة بالعدة والعدد ، ولم يكن الحثيون على وفاق بعضهم مع بعض فغلبوا على امرهم سنة ٧١٧ ق.م واصبحت قرقيش ولاية آشورية .

وكما قضى الآشوريون على الحثيين ، قضى البابليون على الآشوريين ودمروا عاصمتهم نينوى نهائياً ، ووقعت بلاد غربي الفرات بيد البابليين وكانت شعوب

سورية تطمع باستعادة استقلالها، وكانت مصر استيقظت وقام عليها ملوك ذوو همم عالية وفيهم فرعون نخو طمع في استعادة نفوذ اسلافه في سوريا والاستيلاء على قرقميش، وانحازت اليه شعوب سورية فجاء إلى قرقميش فسير الملك البابلي نبوبلاسر ابنه نبوخذ نصر على رأس جيش كبير إلى قرقميش حيث الجنود المصريين وجرت بين الفريقين معركة كبيرة في نفس قرقميش انتصر فيها نبوخذ نصر نصراً مبيناً، وارتد نخو مهزوماً، ووضع نبوخذ نصر يده على قرقميش وجعل فيها حامية من قبله وتعبّ المهزمين، وأذعنت شعوب سورية وفلسطين لطاعته بعد وقعة قرقميش، وكانت أهميتها التجارية قد تضاعفت وازدهرت واستولى عليها بعد البابليين الماديون الفرس، ولكنهم لم يعيشوا فيها لبعدها عن بلادهم. ثم صارت إلى الاسكندر المقدوني الكبير ومن بعده إلى خلفائه السلوقيين.

وجدد اليونان بنائها لحسن موقعها الجغرافي والتجاري وللاعتبار الذي كان لها. وسادت فيها اللغة اليونانية وسكنتها جالية يونانية وسموها اسماً جديداً هو ترجمة لأسمها القديم او مناسب له: «هيرا بوليس» وهو اسم مؤلف من كلمتين: هيرا وهو اسم اله عند اليونان، وبوليس معناه مدينة.

وتقلبت بقرقميش الأيام فصارت إلى الرومان ثم إلى العرب، وكان فتحهم لها مع فتح تمنبج، وعرفت عند المسلمين في ذلك الوقت باسم قرية الجسر، ولم يكن الجسر يومئذ موجوداً، وإنما احدث في خلافة: عثمان للصوائف، وربما سماها العرب منبج القديمة، او منبج العليا، وكانت قرية. ولعلها هي التي سماها ياقوت الموي في معجم البلدان (جرباس) عند كلامه على دير قنسرين الذي كان على الفرات في تلك الجهات.

كانت في أيام الدولة الآشورية مدينة عظيمة كثيرة الأشجار والبقول. وكانت دورها وسورها بالحجارة.

وبقي اسمها قرقميش «مدينة الاله» وكان فيها معبد لقدماء السوريين،

وكان يأتي اليها المسافرين من مدينة البيرة (بيرة جك) على الزوارق والأطواف في
الفرات .

وجد في خراباتها عاديات كثيرة عليها كتابات بالقلم الهير وغلوفي وذكرت في
الواح العائلة البابلية الأولى «قرقميسو» مما يدل على قدمها وذكرت في النقوش
المصرية التي سجلها تحتمس الثالث (١٤٧١ ق.م) لتخليد حملاته على سورية
والتي وصل في احداها إلى جوار قرقميش . وفي أيام الملك المصري امنحوتب
الثالث ذكرت كاحدى المدن التي احتلتها القوات المصرية . وهذا غير مؤكد . ولا
يوجد لها ذكر في رسائل تل العمارنة بينما نرى في نقوش احاص - نراري الثاني
الموجودة في آشور ان هذا الملك اغار على قرقميش . وكذلك سجل خليفته
سلمناصر الأول غارة عليها .

كانت قرقميش في زمن الحثيين مدينة تجارية كبرى ، قامت بنشاط تجاري
مع بلاد الرافدين وبلاد البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، وكان
الحثيون منذ أقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الأولى وعلى اتصال وثيق بسائر ارم
الشرق ، يتجارون معها بشتى الأصناف ، وأهمها الأصواف والماشية والمعادن .
وكان عندهم شبه مصارف تجارية لتر وبيع معاملاتهم وتداول نقودهم على عقود
بيع وشراء وتسليف ومؤسسات اشبه بالغرف التجارية تعين فوائد القروض ،
وتحسم الخلافات بين التجار ، وكانت قيودهم تختم بالرصااص خاتم الغرفة
التجارية او المؤسسة التجارية .

وعندما تقدموا في الحضارة مهروا في تنقية المعادن وصياغتها ، واتفقوا صنع
الأسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد في ذلك الوقت .

وكانت صناعاتهم مؤمة (ملكاً للدولة) . وصار بعض ملوك الدول الأخرى
يوصون على صنع حلي وسلاح في معامل قرقميش الحثية . وكان الأمن مستتباً
على طرق مواصلاتهم التجارية ، وشادوا المخافر والحصون على هذه الطرق .
كانت قرقميش منفذهم على نهر الفرات ، وعقدة مواصلاتهم مع بلاد الرافدين .

وكان الفرات طريقاً مائياً وتجارياً من هم طرقهم . وكانت لهم عليه معاقل وقلاع كثيرة على ضفتيه لحماية تجارتهم فيه ، ولا يزال على التلال المطلة على الفرات آثار قلاع ، من المؤكد انها حثية في الغالب ، إلا ما عرفت نسبته إلى دول معينة جاءت بعدهم .

ان اكتشاف الحضارة الحثية أوضح فضل قرميش واخواتها الحثية على المدينة ، والقى نوراً على تاريخ الحضارات قبل أربعة آلاف سنة . يضم متحف حلب عدداً من آثار قرميش والدويلات الحثية .

كانت قرميش قبل سنة ١٣٢٩هـ من جملة الخرائب القديمة التي يقصدها هواة الآثار ، وقد استخرج السكان من خرائبها اواني خزفية وزجاجية ونحاسية وتمائيل حجرية باعوها من تجار العاديات بحلب وبيروت ، وقد وضعت الحكومة السورية حداً لذلك عندما سنت قانون الآثار ، وكانت إلى السنة المذكورة قرية صغيرة شاد عندها الألمان على الفرات سنة ١٩١١ جسراً حديدياً لمرور قطار بغداد ، واتخذت محطة لهذا القطار ، وتقع المحطة اليوم في الحدود التركية على بعد كيلومتر شمال جرابلس السورية . ويملك الأتراك هذا الجسر ولهم عنده جنود لحراسته ولا يستعمل إلا لمرور القطار ، وعند بلدة جرابلس السورية إلى الجنوب على الفرات سفينة خشبية عادية للعبر بين شفتي النهر يلتزمها شخص من بلدية البلدة ، ويتقاضى رسماً معيناً على نقل الأشخاص والدواب والسيارات .

ابنية جرابلس من الحجر وشوارعها مستقيمة على شكل مربعات وفيها سوق تتوفر في حوانيته السلع المستوردة من حلب ، وفيها معمل للدقيق ومعمل للجليد وحديقة عامة صغيرة ودار للحكومة بنيت عام ١٩٣٠ ، ومدرسة ابتدائية للذكور واخرى للإناث ومدرستان ابتدائيتان للأرمن .

يشرب الأهليون من عين ماء في المدينة تشرف عليها البلدية ، والبلدة منارة بالكهرباء منذ عدة سنوات ، يصله بحلب طريق معبد طوله ١١٨ كم يمر بمنطقتي

الباب ومنبج، وفيها بساتين وبقول واشجار مشمرة وبطيخ اصفر له شهرة بتلك النواحي ومحلة الخط الحديدي التركي تسمى قرقميش باسم المدينة القديمة. ولمركز المنطقة ٦٥ قرية. وفيها ناحية واحدة هي ناحية الراعي كانت تسمى (جوبان بيك) ومركز الناحية قرية الراعي نفوسها ١٥٠٠ وبيوتها من اللبن والحجر سكان عرب ولها ٤٤ قرية. وفي المنطقة اربعة مخافر للشرطة عدا مخافر الحدود. تقع منطقة جرابلس كله على ضفة الفرات الغربية، وهي آخر منطقة للجمهورية العربية المتحدة في الشمال على الحدود التركية على الفرات، وتعد نحو أربعين الف نسمة معظمهم من العرب من العشائر التي اصولها في منطقة منبج. وهم قسم من عشيرة بني سعيد ومن الغنאים المتمين لعشيرة الولدة. ومن ابوسلطان، ومن الخراج المتمين إلى بني سعيد، ومن عشيرة الرق، ومن البوططرش، والعون وحسان، ومن العكيدات، والمجادمه، والعجيل، والعماري، وغزة والمغار.

ان طول الفرات في المنطقة نحو ٢٥ كم وعليه مضخات لسقاية المزارعات من القطن والقمح والشعير.

ويجري نهر الساجور في المنطقة في الجهة الجنوبية بين منطقتي جرابلس ومنبج وطوله في حدودها ٤٨ كم ينبع في اراضي مدينة عينتاب التركية، ويصب في الفرات جنوبي بلدة جرابلس، وعليه جسر يمر فوقه الطريق الآتي من حلب إلى جرابلس. على ضفافه القرى، يستفاد منه في زراعة القطن والخور والأرز وعليه طواحين مائية، ورد ذكره في شعر الشاعر العربي الكبير البحتري المولود في منبج عام ٢٠٦هـ وتوجد في المنطقة ينابيع عذبة للشرب وآبار لسقاية المزارعات من حنطة وشعير وذرة وقطن وعدس.

كما توجد فيها زراعة بعلية، أما المواشي فقليلة وهي الماعز والغنم، ويوجد عدد من الدواجن والدجاج. وكان للمنطقة نائب في البرلمان السوري، وتجارتها مع مدينة حلب، وهي بتقدم عام مستمر.

الأديرة في وادي الفرات

في العصور القديمة

نهر الفرات ودجلة توأمان جنييان يؤلفان (بلاد ما بين النهرين) الشهيرة بالخصب والحضارات القديمة كان فيها قبل التاريخ الميلادي وحتى أواخر القرن الثاني للميلاد ديانات شتى؟ بابلية، وفارسية، ويهودية، ووثنية عربية، وتدمرية، واغريقية، ورومانية وثنية.

وكان سكان مدن بلاد ما بين النهرين خليطاً من شعوب مختلفة العناصر والأرومات على رأسها الأراميون.

وكانت في بوادي هذه البلاد قبائل عربية نزحت من موطنها في الجزيرة العربية قبل الميلاد بعدة قرون، واجدة في بواديهما وسهولها وجبالها ما يصلح لمعاشها ولرعي مواشيهما.

وكانت القبائل العربية هذه تتنقل بحرية في براري بلاد ما بين النهرين

وأريافها وتختلط بسكان مدنها وقراها تتأثر بهم وتؤثر فيهم . وقد حافظت على لغتها العربية وتقاليدها التي جاءت معها من الجزيرة العربية إلى اليوم .
وقد سميت أقسام بلاد ما بين النهرين باسم كبرى هذه القبائل وهي ديار ربيعة ، وديار بكر ، وديار مضر .

انتشرت النصرانية في بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي ونشأت فيها عدة كنائس مسيحية ، وكان لهذه البلاد شهداء في سبيل النصرانية ذكرهم مؤرخو السريان في القرن الثالث للميلاد .
وفي القرن الرابع كثر النصارى في المملكة الفارسية وكان قسم كبير من بلاد ما بين النهرين جزءاً من هذه المملكة ، وصار للنصرانية عدة اسقفيات ومدارس وعلماء فيها ، وكانت بعض بلدان ما بين النهرين تنقل بين ايدي الروم والفرس بسبب الحروب .

وأما طريقة الانفراد في البراري والقفار ، وعلى ضفاف الأنهار للتعبد من قبل النصارى أي السيرة الرهبانية ؟ فقد نشأت في مصر أولاً موطن الرهبانية في القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، ومنها امتدت إلى سوريا ولبنان . ولم تكن الرهبانية منظمة في قوانين مكتوبة تسير بموجبها الرهبان كما هي في أيامنا ، بل كان الأفراد يعتزلون في مكان يعيشون من كد أيديهم ، أو من صدقات المؤمنين ، حتى ظهر القديس انطونيوس فنظم الرهبان في جماعات يسكنون الأديرة .

وكان مولده سنة ٢٥٢ ووفاته ٣٣٧ وهو مصري الأصل ، تتلمذ له كثيرون صاروا يسكنون الديارات ويلبسون لباساً واحداً تقريباً ويخضعون لنظام واحد ، وشاعت الحياة الرهبانية وظلت تنمو وظهر رؤساء من الرهبان بنوا الديارات وسنوا لها انظمة اضافية . يقوم نظام الرهبان الداخلي على تقسيم ساعات النهار للصلاة والعمل اليدوي داخل الدير كالخياطة والحياكة والطبخ والنجارة ، وخارجه كالزراعة كما تقوم الرهبنة على ترتيب الصلوات في اوقات معينة ، والرهبان يندرون لله تعالى الطاعة والعفة والفقر وهذا هو ركن الرهبانية ولهم كتب قوانين وفرائض

يتمشون عليها . وغاية الرهبانية الانقطاع عن العالم وقهر الذات بالتقشف والصيام والسهر والعمل . ولكل دير رئيس ونائب وامين صندوق وطباخ وموظفون آخرون ، وليديات الطائفة الواحدة رئيس عام يشرف على جميع الديارات يعاونه مديرون ، ويعيش الرهبان عيشة مشتركة واحدة في الطعام والشراب واللباس . كما انتشرت النصرانية ونظام الرهبانية في مدن بلاد ما بين النهرين انتشرت في القبائل العربية التي وجدت في هذه البلاد منذ تاريخ انتشار النصرانية فيها . وتنصر خلق كثير من العرب لاختلاطهم بالكهنة والرهبان العائشين بجوارهم وبنيت لهم كنائس وكان رهبان النساطرة ورهبان اليعاقبة يتسابقون إلى عرب البادية ينشر تعاليمهم بينهم في القرن السادس ميلادي .

ونسبت الرهبانية إلى العرب فيما بين النهرين ، فبنوا الأديرة في الحيرة وعلى ضفاف الفرات وفي اطراف بادية الفرات وبادية الشام ، وكان من أشهر القبائل العربية واعلاها كعباً وأشدها شكيمة في الجزيرة الفراتية قبيلة تغلب من ربيعة عدنانية ، وقد تنصرت في القرن الرابع بتبشير اساقفة ما بين النهرين . وكان من تغلب اساقفة وكذلك تنصرت قبائل اخرى كالنمر وبني شيبان وطى واياذ .

وكان ليعقوب البرادعي اتباع من العرب في الجزيرة الفراتية في القرن السادس واشتهر منهم جرجس اسقف العرب ، وكان من علماء عصره وكان كرسية في عاقولة بمنطقة الكوفة توفي سنة ٧٢٤هـ .

ومع سيادة الاسلام واسلام كثير من نصارى بلاد ما بين النهرين ، بقيت النصرانية بين فريق من عرب سهول الفرات الشرقية والغربية في عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بني أمية وبني العباس ، وفيما يلي ذلك من العهود ، وفي أخبار الشعراء ابي زيد الطائي ، والأخطل التغلبي ، شواهد تبين وجود النصرانية في القبائل العربية بعد الاسلام .

والدير مكان وجود الرهبان وتعبدهم وسكنهم وعملهم ، منها الصغير

والمتوسط والكبير وتجمع على اديار واديرة، وديور، وديارات، ويسمى الدير أيضاً العُمر، بضم العين جمعه أعمار. وقد اشتهرت بهذه التسمية عدة أديار، والعمر في لغة العرب نوع من النخل ويقال عمرت ربي أي عبدته، وفلان عامر لربه أي عابد.

وقد يكون مأخوذ من الاعتمار، والعمره هي الزيادة. والديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره. ديار وديراني. نسب على غير قياس.

منذ تاريخ انتشار النصرانية في بلاد ما بين النهرين تتابع تأسيس الأديرة فيها وعلى ضفاف الفرات، وشفاف روافده: الخابور، والبلخ والساجور. لوقوع هذه المنطقة على طرف البادية ولتوفر الماء فيها ولوجود مدن كبيرة فيها اشتهرت بمدارسها النصرانية وكنائسها قبل الاسلام وبعده، وهي: الرقة، والرها ونصيبين، ورأس العين، وحران، وقرقيسيا. وبسبب خصوبة الأرض ويسرة المعاش.

وقد تحمّس الأباطرة المستنصرون للنصرانية وأقاموا الكنائس والأديرة في مدن ونواحي بلاد ما بين النهرين، فقد تأسس في الرصافة وحدها خمس كنائس عد الأديرة، وأكثر ما كان يفد الرهبان لتأسيس الديارات على الفرات من: الرها ونصيبين، وحلب، وماردين وغيرها.

وكانت الأديرة غالباً ما تكون في أجمل المواقع بين الرياض والحدائق وعلى قمم الجبال والروابي. كانت الأديرة تشتمل على الكنيسة والهيكل والقلالي وبيوت المائدة والمخادع للمستودعات ودور الضيافة وصهاريج الماء والحدائق والبساتين والحانات لبيع خمر الدير للزوار.

وكما كانت الديارات تبنى بناءً بالأحجار والمواد تنقر في الصخر الأصم، وكثيراً ما كانت الأديرة تحصن بالاسوار العالية وأبواب الحديد خوفاً من اللصوص. ولم تكن حتى هذه ترد عنها اعتداءات اللصوص، وكان لبعض الأديرة طائفة بنفاة

البناء وأحكام الصنعة كدير الرصافة في بادية الفرات ، وكان في بعض الأديرة عجائب من بدائع التصوير .

وكانت القلايا جمع قلية وهي غرف الرهبان تقوم في جوار الأديرة ولكل راهب من المنتسبين إلى الدير قلية خاصة تفصلها عن الدير وعمماً جاورها بستان صغير يهتم الراهب بزراعته ويرتق من بيع غلته ، يزاو الرهبان في القلايا ما يحتاجون اليه من الصناعات ويقرأون فيه ، وكان للأساقفة والبطارقة قلايهم الخاصة ، وإلى جانب الفواكه والخضار يزرع الرهبان الرياض والأزهار لبيعها للزوار ورواد الحانات .

وكان يقوم إلى جانب بعض الأديرة مرقب أو شبه صومعة ، يدعى القائم لسكن أحد النساك المعتزلين . وهناك أيضاً أديرة النساء المتبتلات وتدعى راهبة أو ديرانية ، أو ديرية وتختلف أنظمة بعض الأديرة اختلافاً بسيطاً .

وكانت معظم الأديرة تحتوي على : اماكن لايواء الزوار ، والمجتازين بها واللاجئين اليها ولذا سمي ابن سيده الدير خان النصارى .

ومن المرجح أن معظم ماروي من نواد ماجنة على انها وقعت في الأديرة إنما حقيقة مسرحها دار الضيافة . وكان بعض الرهبان اصحاب القلايات يتخذون من قلاياتهم مشارب للخاصة والزوار حيث يقدمون لهم الخمر من كروم بساقيتهم .

وكانت للأديرة تجارة ومعاملة واتصال مع الناس تباعهم من غلات مزارعها وانتاجها لتغطية حاجات الدير وتأدية ما عليه للدولة من خراج ، وقد قيل شعر كثير في اطار خمور الديارات ، في العهود الاسلامية .

وكان لأديرة النساء حاناتها كذلك لبيع الخمر قصد الاستعانة بثمانها لتسديد حاجات الدير وخرجه .

فيرى قاصد الحانة راهبة تديرها ولا يعدم ان يرى جوارى حسان الوجوه والقذود والألفاظ .

وبعض الأديرة كان يضم رهباناً وراهبات ، لكل جنس ناحية مختص بها فلا

جرم ان كان الاقبال على حانات الأديرة التي اجتمعت فيها لذات البصر والشم والذوق عميقاً وعظيماً لذلك قصدها الكثيرون من مختلف الطبقات وخاصة في مواسم الأعياد والزيارات . ومن الأديرة ما كان ينزلها الخلفاء والملوك والأمراء كدير الرصافة ودير زكي ودير القائم الأقصى .

ووصف الشعراء العرب القدامى حانات الأديرة وخورها ورهبانها ووصف بعضهم لذاته فيها . واشهر هؤلاء ابونواس اكثر الناس طروقاً لهذه الأديرة . وكان غير المجان يزورون الأديرة كعابري السبيل واصحاب الطرد والصيد والراغبين في الاستفادة من مواظ الرهبان وحديثهم من النصارى والمسلمين . وكانت النذور والهبات تقدم للأديرة من الكثيرين من النصارى والمسلمين من عدة أماكن وكان لباس الرهبان والراهبات المسوح الأسود وهو شعارهم يشدون فوقها الزنار وكان لباس الرأس هي القلائس وقد وصف رهبان الأديرة بالتقشف والعلم والآداب وحسن الأخلاق فضلاً عن أعمالهم الدينية وكثرة خلواتهم . أما اللغات التي استعملتها النصرانية في هذه البلاد في القرون الأربعة الأولى فهي :

- ١ - الآرامية لغة بلاد ما بين النهرين وسواد العراق وبلاد الشام وبها كتب إنجيل متى وإليها نقلت التوراة عن العبرانية وأواخر المئة الأولى .
- ٢ - اليونانية وكانت أشهر اللغات القديمة وأكثرها انتشاراً في النصرانية بها كتبت معظم اسفار العهد العتيق واسفار العهد الجديد وبها بشر القديس بولس . وبها وضع اشهر علماء النصرانية القدامى مصنفاتهم .
- ٣ - اللغة اللاتينية والتي يقال لها أيضاً الرومية وكانت لغة الامبراطورية وتعلمها اهل بلاد ما بين النهرين وأهل الشام .
- ٤ - اللغة العبرانية لغة التوراة حذقها بعض أئمة النصرانية الأولين لضبط نصوص التوراة .
- ٥ - اللغة العربية لغة القبائل العربية التي كانت تقطن في بوادي بلاد ما بين

النهرين قبل التاريخ الميلادي بعدة قرون واستمر وجودها قوية متماسكة محتفظة بلغتها العربية إلى اليوم . وكان بعض افراد منها يحذق بعض اللغات المذكورة وكان الرهبان من اديرة مدن بلاد ما بين النهرين يحذق العربية ويبشرها بين القبائل العربية .

٦ - اللغة الفارسية كانت شائعة في بعض مدن بلاد ما بين النهرين بحكم خضوعها في فترات للحكم الفارسي ولوجود جاليات فارسية فيها وبحكم التجارة .

كان في بلاد ما بين النهرين منذ القرن الرابع حتى السادس اديرة كثيرة . وعند الفتح الاسلامي كان فيها مائة دير . وقد كثرت الأديرة بعد الفتح الاسلامي بسبب استتباب الأمن واحترام المسلمين للتبعية والأديرة ورهبانها . فكان في الرها وحولها فيما رواه الرحالة «زيادة على ثلاثمائة دير» (مسالك الممالك ص ٧٦) . وأبلغها ابن الفقيه إلى ثلاثمائة وستين ديراً (كتاب البلدان ص ١٣٤) ولا شك ان الروايتين مبالغ فيهما ولكنها تدلان على كثرة الأديرة التي كانت في الرها وجبلها .

وقد تعرضت مدن واديرة بلاد ما بين النهرين ومعالم حضارتها لكوارث الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بين الفرس والروم وما تعاقب بعد ذلك من حروب وفتن .

وهذه اسماء ما وصلني من اديار الفرات مع لمحات عن بعضها .

١ - دير حنظلة بن ابي عفراء الطائي من أهل الحيرة نسك في عهد ملكها المنذر بن ماء السماء . فارق بلاد قومه ونزل الجزيرة الفراتية مع النصاري حتى فقه في دينهم ، وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات بين الدالية والبهنسة أسفل من رحبة مالك بن طوق (الميادين) .

ترهب فيه وفيه مات سنة ٥٩٠ م . وقد عمر هذا الدير إلى ما بعد القرن الثالث الهجري .

قال أبو الفرج الاصفهاني : وموضعه حسن لما فيه من جنينات رهبانية
واشجارهم ، وما يلبسه الربيع من الرياض .
نزل به عبد الله بن محمد الأمين فاستطابه وقال فيه ابياتاً روتها كتب الأدب
منها :

ألا يا دير حنظلة المفدى لقد اورثتني سقماً وكدا
أزف من الفرات اليك دنا واجعل حوله الورد المبدى
وابداً بالصباح امام صحبي ومن ينشط لها فهو المفدى
وروى الخالدي فيه لغيره شعراً منه :

يادير حنظلة المهيج لي الهوى هل تستطيع صلاح قلب العاشق
٢ - دير الرصافة (رصافة هشام بن عبد الملك) ويسمى ايضاً دير حنيناً ،
كان يقوم وسط حصن الرصافة . وكان بناء رومياً قديماً من عجائب الدنيا حسناً
وعماراً .

وقد اجتاز به الشاعر ابونواس في طريقه من العراق إلى مصر وبات فيه
وقضى سحابة اليوم التالي قال فيه :

ليس كالدير بالرصافة دير فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بته ليلة فقضيت أوطاً راً ويوما ملأت طرته هوا
ولما خرج الخليفة العباسي جعفر المتوكل من الشام إلى العراق مر بطريقه
بالرصافة واتصل خبره برجل من ولد روح بن زنياع من اخوال هشام بن عبد الملك
فجاء ونزل دير الرصافة وكتب قصيدة في رقعة ألصقها في حائط من حيطان الدير
قرأها المتوكل تضمنت وصفاً لسكن هشام بن عبد الملك في الرصافة وسط اية
الملك فاستاء المتوكل منها وأمر برفعها نقلها ابن عساكر وياقوت الحموي ومطلعها :
أيا منزلاً بالدير اصبح خاويًا تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم ولم تبخر في فنائك حور
ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه يا دير وهو امير

إذ الملك غض والخلافة لدنة وانت خصيب والزمان طرير
وكان لدير الرصافة شهرة بعيدة حتى عرفت الرصافة كلها باسم دير
الرصافة.

٣ - دير زكى كان بظاهر مدينة الرقة شرقيها في زاوية التقاء نهر البليخ بنهر
الفرات وكان من أديار السريان الكبرى المشهور شيد في المئة الخامسة للميلاد.
وكان يضم مدرسة لاهوتية مشهورة يقصدها الرهبان للتعلم. وللشاعر الصنوبري
عدة مقطوعات شعرية فيه. وذكره شعراء آخرون قبل الصنوبري. وكان محجاً
لزيارات سكان قرى البليخ ومنطقتي حران والرقة قال الصنوبري فيه من مقطوعة :
كم غدا نحو دير زكى من قلب صحيح فعاد وهو حزين
لو على الدير عجت يوماً لأهتك فنون وأطربتك فنون
لائمي في صبابتي قدك مهلاً لا تلمني ان الملام جنون
بقي دير زكى حتى القرن العاشر للميلاد أخرى أساتذة في علم اللاهوت
واشتهر من رهبانه كثيرون.

٤ - دير القائم الأقصى. كان موقعه على شاطئ الفرات من الجانب
الغربي في طريق (بغداد - الرقة) كان بين أرض الروم وفارس.
وقيل له القائم لأن عنده مرقباً عالياً للمراقبة وهو إلى ذلك شبه صومعة
لسكن أحد النساك. وتوجد ناحية من نواحي الجمهورية العراقية تسمى ناحية
القائم قصبتها حصيبة شرقي بلدة أبو كمال السورية على الحدود العراقية
السورية.

وإلى مدة قريبة كانت ترى آثار مرقب الدير. نزل هارون الرشيد في أحد
أسفاره بين بغداد والرقة.

وذكره الشعراء ومنهم هاشم بن محمد الخزازي قال فيه :
بدير القائم الأقصى غزال شادن أحوى
برى حبي له جسمي ولا يدري بما ألقى

واكتتم حبه جهدي وا والله ما يخفي
وفي بعض المصادر ان الأبيات لاسحاق بن ابراهيم الموصلي: كان نزل
الدير مع الرشيد.

٥ - دير الباعوث. كان موقعه على شاطئ الفرات من جانبه الغربي بين
الرقعة ومنبج وكانت العمارة قليلة حوله، وله خفراء من الأعراب. وله مزارع،
ومباقل، وجنينات.

اجتاز به الشاعر الكندي المنبجي واستحسنه واستطابه، قال عنه: لولا
الوطن لاستوطنته بات فيه ليلة وعمل فيه قصيدة منشورة في معجم البلدان لياقوت
وفي كتب أخرى مطلعها:

يا طيب ليلة دير مر باعوث فسقاه رب العرش صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحاً أبداً على سدر هناك وتوث
٦ - دير قنسرين. كان على ضفة الفرات الشرقية في نواحي الجزيرة وديار
مضر مقابل مدينة جرابلس وبينه وبين منبج اربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة
فراسخ.

انشىء حوالي سنة ٥٣٠. استفاضت له شهرة كبيرة، وكان مزدهراً إلى
القرن التاسع للميلاد. وكان مدرسة لاهوتية كبيرة إلى أوائل القرن التاسع احرقه
الخوارج ولكنه رمم سنة ٨٢٢ والحق بأبرشية سميساط حول سنة ١٠٢٥ ظل عامراً
حتى صدر القرن الثالث عشر.

كان في مدرسته ايام عمارته ثلثمائة وسبعون راهباً. درس فيه علماء كبار
وتخرج منه رجال مشهورون. وكان بعض مشاهير الكنيسة في ذلك الوقت من
رهبانه. قال فيه بعض الشعراء:

أيا دير قنسري كفى بك نزهة لمن كان بالدنيا يلذ ويطرب
فلا زلت معموراً ولا زلت أهلاً ولا زلت مخضراً تزار وتعجب
٧ - دير الصالحين - كان موقعه في خرائب صالحية الفرات «دوار اوروس»

الواقعة على ضفة الفرات الغربية بين الميادين وابوكمال منسوب إلى ماردانيال الصالحى المولد في مدينة الصالحية المذكورة. ذاع صيته في النصف الأول من القرن السادس. وكان في أول أمره رئيس دير الصالحين واليه نسب على الأرجح. ثم رسم اسقفاً على تل موزل وهي اليوم بليدة (ويرانشهر) غربي شمالي رأس العين السورية. وله عدة مصنفات. واسلوبه مثال للفصاحة والانشاء البليغ في الآرامية وكان ضليعاً في اللاهوت ومن خيرة احبار زمانه علماً وفضلاً مات سنة ٥٤٢ م.

٨ - دير ماربرصوم: اسس السريان عدة اديرة باسم ماربرصوم الناسك المتوفي سنة ٤٥٨ وكان رئيساً للأديرة السريانية وكان ديرهُ الرئيسي في نواحي سميساط. ولكن اشهر الأديرة المعروفة باسمه كان دير ماربرصوم الذي قام ببنائه الفخم في أواخر القرن الثامن على جبل عال يطل على مدينة ملطية مشرفاً على سهول مترامية وراء ضفتي الفرات الشرقية والغربية. كان معهداً علمياً كبيراً وله تاريخ حافل منذ تأسيسه حتى اندثاره في اواسط القرن السابع عشر. وكان في القرن الثاني عشر كقلعة واسعة الأرجاء محاطاً بأسوار عالية عليها ابراج تقيه شر المهاجمين وكان فيه كنيسة جليلتان. ظهر بين جدرانها بطاركة، واساقفة وعلماء، ورهبان فضلاء صار كرسياً بطريركياً فأغناه البطاركة بالكنوز والأبنية.

وكان فيه مئات الرهبان. ومحاطاً بكروم وبساتين إلى مسافات بعيدة. وكانت له حقول واسعة تزرع فيها الحبوب وقطعان الغنم ورحى كثيرة يعمل في كل ذلك رهبانه وخدامه.

وفي سنة ١١٤٨ اغار جوسلين الصليبي صاحب الرها على بلاد الترك في نواحي ملطية وعرج على الدير بحجة الزيارة فنهب كل شيء فيه وطلب من الرهبان عشرة آلاف دينار ليغادر الدير. فجمعوا له خمسة آلاف من القرى المجاورة.

وجوسلين هذا وقع بعد ذلك اسيراً بيد نور الدين فسجنه مدة تسع سنوات في حلب ومات فيها سنة ١١٥٨ . وكانت تقدم له النذور من جميع انحاء الفرات والجزيرة الفراتية من النصارى والمسلمين .

٩ - دير العامود : في مدينة الرقة تبرعت بعمارتها القيصرية تادور ٥٤٨ وسعه الراهبان عام ٦٣٥ م . قدم للكنيسة بطريكاً وعشرة أساقفة حتى سنة ٩٦٥ .

١٠ - دير مار ابراهيم ، أودير السلام على ضفة الفرات الغربية مسيرة نصف ساعة بين قرية عوريش بقرب كركر انشيء بعد القرن الخامس وذكره التاريخ صدر القرن التاسع ظل عامراً حتى صدر القرن الثامن عشر .

١١ - دير الجب في بركة الفرات بين حلب ومنبج بني في صدر القرن السادس وانقطع خبره أواسط القرن التاسع .

١٢ - دير فسقين ويقال له دير الحفاة على نهر الفرات بقرب دير مار ابراهيم في كركر . كان موجوداً حول سنة ١١٦٠ وكان عامراً سنة ١٥٦٥ ثم انقطعت أخباره .

١٣ - دير الرمان . وهو اصل مدينة دير الزور .

١٤ - دير العذارى من اعمال الرقة .

١٥ - دير لبنى على الفرات وكان لتغلب .

١٦ - دير مار سرجيس على الفرات كان من اعمال الرصافة .

١٧ - دير الحتليف كان على ضفة الفرات الغربية بالقرب من دير الرمان .

١٨ - دير مار سرجيس : قال الشابشتي هو بعيانه وهي بلدة على الفرات وهو حسن نزه كثير الراهبان والناس يقصدونه من هيت وغيرها للترعة .

وكانت ضفاف الخابور ولاية واسعة من أرض الجزيرة الفراتية دعت خابوراء كانت ابرشية وكان إلى جانب مدن الخابور وقراه اديرة منها :

١ - دير قرقفتا ومعناها الجمجمة او قمة الجبل . كان موقعه في بلدة مجدل

على ضفة الخابور الغربية بين رأس العين والحسكة . اشتهر امره في غرة القرن

الثامن الميلادي وكان مركزاً هاماً لعلم الكتاب المقدس واللغة السريانية ، وإلى رهبانه تنسب القرقفية أخرج عدة فقهاء وعلماء .

٢ - دير أسفلولس من اشهر اديار رأس العين واقدما انشئ في القرن الخامس خرب سنة ١٢٠٣ .

٢ - دير تيراوتيز بقرب رأس العين اضطهد رهبانه سنة ٥١٩ في جملة من اضطهد من رهبان المشرق .

٤ - دير المبيض دير كبير مشهور بمنطقة رأس العين .

٥ - دير قدار من اقدم اديار رأس العين ذكر في القرن السادس .

٦ - دير مار زعورا بقرب قرية طابان على الخابور يرقى عهده إلى اواخر القرن الرابع اوغرة الخامس وكان عامراً في القرن الثالث عشر .

٧ - دير منصور كان يطل على نهر الخابور .

٨ - دير بصير كان في موقع البصرة (قرقيسيا) .

وكانت ضفاف البليخ منذ عصور قديمة عامرة أهلة بالسكان . وكان عليه عدة أديرة اشهرها دير زكي ومن أديرته دير بيت ريشير وريشير كان رئيساً لدير البيض في رأس العين سنة ٦٣٥ . وجاء رهبان دير البيض إلى الجهة الغربية من البليخ وشيدوا لهم ديراً دعوه بيت ريشير باسم رئيسهم في اواخر النصف الأول للقرن السابع .

كان لأديار الفرات وأديار روافده فوائدها في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعمرانية . فكانت إلى جانب كونها اماكن للعبادة والنسك معاهد للعلم والتهديب . وكان رهبانها يعملون في الزراعة والبستنة ورعي الماشية وفي الصناعات وغرس الأزهار والرياحين لبيعها وكانت الأديار الكبيرة قرى اشتراكية .

وكان النصارى والمسلمون من المدن والقرى والبادية يخرجون إلى الأديار في المواسم كل فريق يجد فيها ما ينشد ، فمنهم من جاء لسماع وعظ الرهبان

واحاديثهم . ومنهم من جاء للتجارة وآخرون للفرجة والنزهة والعبث والتمتع والتلذذ بخمور حاناتها .

وكانت أعياد الأديار تغذي مشاعر زوارها وتبهج نفوسهم . وكانت زخارف هياكلها وصورها الفنية تساعد على تذوق الفن الجميل وكان أثر الأديار كبيراً في العمران ، لما كانت تنشأ من الأبنية الملحقة .



الفهرس

٥	تصدير
٧	تقديم
٩	كلمة
١١	مدخل
١٩	البوكمال
١٩	التاريخ القديم للمنطقة
٢٧	آثار الباغوز
٢٨	دورا أوروبوس
٣٢	نشوء قصبة البوكمال ومدراء منطقتها
٣٧	عناصر سكان بلدة البوكمال
٣٩	التشكيلات الادارية للمنطقة
٤١	الجوامع في بلد البوكمال
٤٢	الدواوين والمقاهي
٤٢	نواب منطقة البوكمال
٤٤	قضاء منطقة البوكمال
٤٦	المفتون

٤٨	ماري (تل الحرير)
٦١	دورا أوروبوس
٧١	المياذين
٧٣	تطور بلدة المياذين
٧٤	الجوامع في بلدة المياذين
٧٥	نواب منطقة المياذين
٧٥	رؤساء بلدية المياذين
٧٦	المفتون
٧٦	القضاة
٧٦	المقاهي في بلدة المياذين
٧٧	الدواوين وأصحابها في بلدة المياذين
٧٩	الرحبة
٧٩	الموقع وأهميته ومواصفاته وتابعيته
٨٨	تاريخ موقع الرحبة قبل العصور الكلاسيكية
٩١	تاريخ الرحبة في العصر العباسي
١٠٣	الرحبة في يد القرامطة
١٠٥	القرامطة في الرحبة مرة ثانية
١٠٦	اختكين القائد التركي العباسي في الرحبة
١٠٩	الرحبة قاعدة فاطمية
١١٥	الرحبة بيد العقلين
١١٦	الرحبة بيد سلاجقة سورية
١١٩	الرحبة بيد الزنكيين
١٢٠	الرحبة بيد الأيوبيين
١٢٢	الرحبة في عهد دولة المماليك
١٢٥	مراكز البريد ومطارات الحمام الرستائي والمناور

١٢٨	علماء نزلوا الرحبة
١٣٠	رجالون أجانب مروا بالرحبة
١٣٥	دير حنظلة بناحية رحبة مالك بن طوق
١٣٦	بثر جمر
١٣٦	خزف الرحبة
١٣٦	الرحبة في عهد المملكة الثانية
١٤١	المزارات القديمة في المياذين
١٤٣	دير الزور
١٤٣	حاضرة وادي الفرات وقلبه النابض
١٤٨	لمحات عن تاريخ المدينة
١٤٨	العهد العباسي
١٤٨	العهد العثماني الأول
١٥٠	العهد العثماني الثاني
١٥٢	فترة الفلت - أو الفوضى الأولى
١٥٣	الفترة البريطانية
١٥٤	عهد الانتداب الفرنسي
١٥٨	عهد الاستقلال
١٦١	عهد الوحدة
١٦٢	العهد الاشتراكي
١٦٤	دور دير الزور الحضاري والوطني
١٦٧	الصناعات التقليدية والفنون الشعبية
١٦٨	التشكيلات الادارية المالية للمحافظة
١٦٩	تقاليد الفروسية في دير الزور
١٦٩	دير الزور المدينة
١٧٣	حلبة وزلية

١٨٣		قرقيسيا (البصيرة)
١٨٣		نهر الخابور عبر التاريخ
١٩١		موقع قرقيسيا (البصيرة)
١٩٢		اسم المدينة
١٩٥		فتح العرب لقرقيسيا
١٩٨		قرقيسيا في العهد الأموي
٢٠٦		قرقيسيا في العهد العباسي وما تلاه
٢١٢		قرقيسيا في العهد السوري
٢١٥		نصيبين
٢٢٧		حران
٢٣٤		الرقعة
٢٣٨		الرقعة في العهد الاغريقي
٢٣٩		الرقعة في العهد الروماني
٢٥٢		الخليفة الرابع علي بن ابي طالب في الرقة
٢٥٤		الرقعة في العهد الأموي
٢٥٨		الشاعر أبوزيد الطائي
٢٦٠		الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات
٢٦١		حصن مسلمة بن عبد الملك
٢٦٣		آثار الخليفة هشام بن عبد الملك في الرقة
٢٦٥		الزهري محدث الشام والجزيرة الفراتية
٢٦٥		بعض من نزل الرقة من الصحابة والتابعين
٢٦٦		بعض من نشأ في الرقة من الكتاب
٢٦٧		الرقعة في العهد العباسي
٢٦٩		الرقعة في عهد المنصور
٢٧٢		الرقعة في عهد المهدي بن المنصور

٢٧٣	الرقعة في عهد هارون الرشيد
٢٧٧	الرقعة في عهد الأمين
٢٧٩	الرقعة في عهد المأمون
٢٨٣	اتصال محنة خلق القرآن بالرقعة
٢٨٤	ولادة الرقعة وشعراؤها
٢٨٦	الرقعة في عهد المعتصم بالله
٢٨٦	الرقعة في عهد المتوكل
٢٨٧	أبو تمام الشاعر في الرقعة
٢٨٨	الرقعة في عهد الطولونيين
٢٨٩	الرقعة في عهد المكتفي بالله
٢٩٠	الرقعة في عهد المقتدر
٢٩١	الرقعة في عهد المتقي
٢٩٣	ثقافة أهل الرقعة في العهد العباسي
٢٩٤	الرقعة في عهد الحمدانيين
٢٩٦	غلمان الحمدانيين بكجور يحكمون الرقعة
٢٩٧	الرقعة في عهد المراداسيين
٢٩٨	الرقعة في عهد الدولة العقيلية
٢٩٩	الرقعة في عهد الاتابكية
٣٠١	الرقعة في عهد الايوبيين
٣٠٢	الصناعات القديمة في الرقعة
٣٠٦	فارس الرقعة الخرافي
٣٠٧	مشاركة الرقعة بالحركة العلمية العباسية
٣١٧	أطباء رقيون
٣١٩	بعض قرى الرقعة القديمة
٣٢٠	الرقعة في عهد الاتراك العثمانيين

٣٢٦	الرصافة
٣٣٦	رأس العين
٣٤٣	قلعة جعبر
٣٥٤	الرهاد (أورفة)
٣٦١	بالس (مسكنة)
٣٧٢	منيج
٣٨٨	قلعة النجم
٣٩٤	قرقميش (جرا بلس)
٤٠٣	الأديرة في وادي الفرات

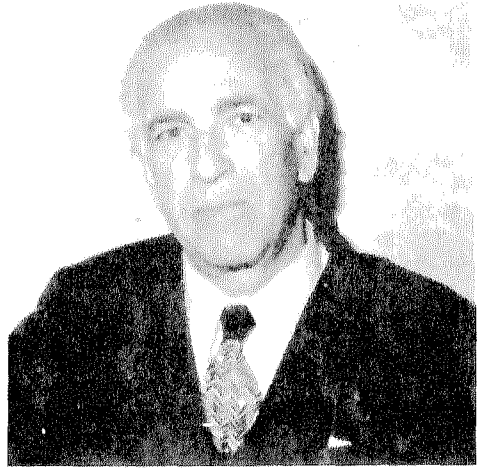
صدر عن الأهالي

- * النباتات الطبية واستعمالاتها
- د. محمد العودات و د. جورج لحام
- * المعتزلة والفكر الحر
- د. عادل العوا
- * ساعة الشؤم (رواية)
- غابرييل غارسييا ماركيز، ترجمة صالح علماني
- * من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان
- د. عبد الله حنا
- * واللبل الذي يسكنني (شعر)
- مدح عدوان
- * الفضاء هذا العالم الجديد
- مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
- * السينما والقضية الفلسطينية
- حسين العودات
- * أناياز (قصيدة طويلة)
- سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
- * الفرسان الثلاثة (للأطفال)
- سليمان العيسى وصلاح مقداد
- * الداء السكري
- د. ميه الرحي
- * المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة
- علي القيم
- * أزهار الكرز (أشعار يابانية)
- ترجمة عدنان بفجاتي
- * وضاح وليلى (للأطفال)
- سليمان العيسى
- * القيامة والزبال (مسرحيتان)
- مدح عدوان
- * الذاكرة والغضب (رواية)
- فائز الزبيدي
- * حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)
- وليد معماري
- * حكي لي الأخرس (سخریات صغرية)
- خطيب بدلة
- * قدّاس من أجل فلاح اسباني (رواية)
- رامون خ. سيندر، ترجمة عاصم الباشا
- * البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف
- د. أحمد جاسم الحميدي
- * الذهب (قصة للأطفال)
- يحيى الشيخ
- * التلوث وحماية البيئة
- د. محمد العودات
- * مسرح الريادة (دراسة)
- عبد الفتاح قلعه جي
- * طبرصف والزبيبة
- عدنان عمارة
- * الكتابات السوريات ١٨٩٣ - ١٩٨٧
- مروان المصري
- * حطين
- يوسف سامي اليوسف
- * الانتفاضة بالكاريكاتير
- الأهالي
- * زوبك (رواية)
- عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبدالي
- * الطفل والاحلام (دراسة)
- د. عبد الرزاق جعفر
- * من قاموس التراث
- هادي العلوي
- * الحب والظلال (رواية)
- ابراهيم الليندي، ترجمة: صالح علماني
- * دراسات في أدب عبد السلام المعجلي
- مجموعة من الكتاب، تحرير:
- ابراهيم الجراي
- * قيامة عبد الفهار عبد السمح
- حسن . م. يوسف
- * الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر
- فريد جمحا

- * أرق الليلة الفاصلة
متيف حوراني
* التفق (رواية)
أرنستو ساباتو، ترجمة: عبد السلام عجيل
* كيف نُكتب الرواية؟
غابرييل غارسيا ماركيز - ترجمة: صالح علماني
* الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق
محمد الجبر
* تسعة أشهر حتى الولادة
ترجمة غازي أبو عقل
* مرايا صغيرة (شعر)
شيركو بيكه س
* السواد (رواية)
حسن حميد
* الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية
ترجمة: أحمد عبد الكريم
* السؤال الآخر
فاضل الربيعي
- ايفالونا (رواية)
إيزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني
- * بم التعلل (شعر)
حميد العقابي
* الانحرافات الجنسية
د. ناجي الجيوش
* ليلة ناعمة (مجموعة قصصية)
دينو بوزاتي، ترجمة: د. منذر عياشي
* بين حدود النفي (شعر)
كريم ناصر
* ارتقاء المجتمعات الشرقية - ج ١، ٢، ٣
مجموعة من الباحثين السوفيين، ترجمة: د. حسان اسحق
* سورية الجنوبية
مجموعة من المترجمين
* تفاح الشيطان (رواية)
أحمد يوسف داود
* مقوط الثاني (شعر)
أحمد جان عثمان
* سوسولوجيا النص الروائي
عبد الرزاق عيّد
- نحو نظرة جديدة الى فقه اللغة العربية
د. جعفر دك الباب
- * التجارة الداخلية . . السوق والتنمية
منير الحمض
* النقد الأدبي الحديث
سمروحي الفيصل
* معراج الموت «قصص»
ممدوح عزام
* موت مدرس التاريخ المعجوز «قصص»
حاتم علي
* تاريخ فلسطين
يوسف سامي اليوسف
* المسألة اليهودية
كارل ماركس، ترجمة حمزة برقادي
* شارلي شابلن
ترجمة: حسن سامي اليوسف
* عبد الرحمن الشهبندر
د. عبدالله حنا
* معتقل انصار
ماهر اليوسفي
- علي بن ابي طالب
ميثم الجنتاني
- الحضارة الفراتية
عبد القادر عياش

يصدر قريباً

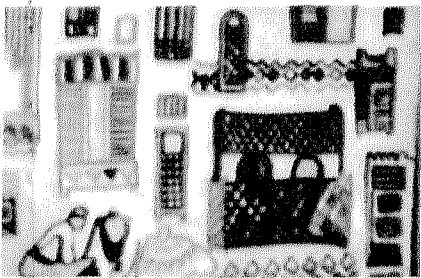
- اعلانات عن مدينة كانت تعيش قبل الحرب
محمد ملص
الساخرون (نماذج من القصة الساخرة في سوريا)
أعداد: خطيب بدلة
- تطور الحركة الشيوعية ونضالها في آسيا وأفريقيا
مجموعة من الكتاب الالمان، ترجمة: سليم خليل
- اتفرج على الكوكب (قصص)
محمود عبد الواحد
- اينشتين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين
مجموعة من الكتاب ترجمة: ثامر الصفار



حضارة وادي الفرات ، ضوء ساطع سلطه
الاستاذ المرحوم عبد القادر عياش على الحواضر
الفراتية وجزيرتها منذ وجودها حتى عام ١٩٧٢ . . .
وقد تناول في رحلة البحث هذه أربع حواضر في
الفرات الأعلى ، وخمس حواضر في الفرات
الأوسط ، وثلاث حواضر في الجزيرة الفراتية ، وسبع
حواضر في الفرات الأسفل ولم يسلط الضوء على اثار
تلك الحواضر وتاريخها فحسب بل بحث في تطورها
العمرائي والاجتماعي ، وعرض لاهلها ، وحداثتها ،
وعشائرها ، وأيامها ، ورجالاتها ، واقتصادها ،
وسياستها ، وكل ما يتعلق بدينامياتها الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية . إنه جهد عظيم قام به وحده ،
ذلك الجندي المجهول الذي عمل بصمت فحفظ
لهذه المنطقة ماضيها بكل دقائقها .

إنه سفير تاريخي هام ، وتراجم للاعلام
والرجال ، ومتحف عظيم مكتوب ، ودليل سياحي
مفصل ، وبحث متواصل بدقة في علم الاجتماع ،
وتقويم حضاري متواتر وموثق بعقريه فذة ، وحجر
مين يربط الماضي الموهل في القدم ؛ بالحاضر
الباحث أبدا عن الحقيقة بكتابة التاريخ بأمانة .

الناشر



السعر: ١٧٥ ل.س